



رواية

المُحْتَرَمُ وَالبَرِّيُّ

منال محمد سالم

رواية

المُحْتَرَمُ الْبَرِّبَرِيُّ

منال محمد سالم

٢٠١٨

جميع حقوق النشر محفوظة

لموقع

<https://www.facebook.com/LoveStories.by./ManalSalem>

قصص وروايات بقلم منال سالم



نوع العمل : رواية

اسم العمل : المحترم البربري

اسم المؤلف : منال محمد سالم

الطبعة الأولى (إلكترونية) ٢٠١٨

الناشر : موقع قصص وروايات بقلمي منال سالم

التدقيق اللغوي : منال محمد سالم

تصميم الغلاف : منال محمد سالم

التصميم الداخلي : منال محمد سالم

جميع حقوق النشر الإلكترونية محفوظة لموقع قصص وروايات بقلمي منال سالم

<https://www.facebook.com/LoveStories.by.ManalSale>

[/m](#)

-المقدمة-

عادت لتنتقم من الأقرب إليها كالغريب،
فوجدته يقف أمامها كالحائط المنيع،
لم يجمعها سوى الكره العنيد،
لكنها سرت في عروقه،
مثلما تجري الدماء في حبل الوريد ..

الإهداء

"إلى عائلتي بأكملها، إلى القراء الأفاضل، والمتابعين الشغوفين لما يسطره قلبي في كل مكان .."

منال سالم

الفصل الأول

على غير المتوقع والمعتاد في مثل تلك النوعية من الحفلات عالية التنظيم، رفضت الخروج للسير على الممر الرخامي ضمن باقي العارضات المستعدات لأداء عرضهن المميز قبل أن تتلقى باقي أجرها وكاملاً، مدت "آسيا" يدها نحو الراعي الرسمي لذلك الحفل وهي ترفع رأسها للأعلى في إباء وكبرياء واضح، تأملها الأخير بنظرات مطولة دراسة لكل تفصييلة في وجهها المتوهج بمساحيق التجميل التي ضاعفت من جمالها ومن إشراقها المغربي، أخفض أعينه ليتابع تأمل جسدها المثير الذي بدا منحوتاً كالتماثيل الإغريقية من أسفل ثوبها الأسود، ناولها الشيك النقدي قائلاً:

-وماله، تستاهلي!

ردت عليه بقسوة وهي تنظر له باستعلاء من عينيها الفيروزيين:

حقي!

اختطفت منه الشيك بإصبعها ثم رفعتة نصب عينيها لتقرأ ما دونه فيه من أرقام خيالية، التوى ثغرها بابتسامة صغيرة ساحرة شاعرة بالانتشاء لحصولها على مبتغاه، أبعدته عن أنظارها لتحقق في وجه الراعي مكلمة حديثها معه ببرود:

-عمل حسابك دي آخر مرة هاشتغل فيها هنا

رد محتجاً باندهاش صادم:

مش معقول، ده احنا عندنا ديفيليات ثانية و....

قاطعته مشيرة بإصبعها:

خلاص، كفاية عليا كده، أنا راجعة مصر!

رفعت يدها لتلمس شعرها المعقود كحكة للتأكد من تناسقه، ثم التفتت نحو المرأة متأملة مظهرها الفاتن بدلال يليق بها، تسمر الراعي في مكانه للحظاتٍ محاولاً استيعاب قرارها الصادم بترك كل شيء والسفر هكذا دون سابق إنذار، هتف متسائلاً وكأنه يفكر بصوتٍ مسموع:

-وتسيبي دبي، بلد الموضة والجمال؟

حدقت "آسيا" عبر النافذة الزجاجية - والتي كانت تحتل مكان الجدار بأكمله - في شكل المباني الشاهقة متأملة تصميمهم الإبداعي اللافت للأنظار، تهتت بعمق لترد باقتضاب حاسم:

-أيوه

وقف خلفها يسألها بجدية عله ينجح في إقناعها بالعدول عن رأيها:
حطب ليه؟ كل طلباتك مجابة، وكل أوامرك بتنفذ أول بأول، يعني...
التفتت برأسها للجانب قليلاً لتلمحه من طرف عينها لتقاطعها بعبوس:
زهقت!

تحرك خطوة أخرى نحوها ليصبح في نفس مستواها، نظر لها بتوسل مقروء في عينيه وهو يستعطفها:

حليب إيه رأيك لو نزلتي في سيزون الصيف، احنا لسه عندنا شغل كثير اليومين دول، وبصراحة مقدرش أستغنى عن واحدة زيك معروفة، اطلبي اللي إيتي عاوزاه، وأنا تحت أمرك

تجمدت أعينها المحدقة بشروءٍ على نقطة في الفراغ لترد بجمود جليدي:

-ده آخر ما عندي

هز رأسه بأسف، فشل في مسعاه معها، ضغط على شفثيه وهو يسير مبتعدًا عنها
محدثًا نفسه

خسارة بجد الجمال ده مايكملش هنا!

التقطت أذنيها ما قاله فأغمضت عينيها نافضة عن عقلها ما تكبدته من مشاق ومصاعب
لتصل إلى تلك المكانة المميزة، وتغدو من أشهر عارضات الأزياء في الوطن العربي،
اعتدلت في وقفها لتبدو أكثر شموخًا وإغراءً، استدارت للخلف لتبدأ في السير
بخطواتها الواثقة، فقد حان الوقت لتقديم آخر عروضها هنا قبل أن يحين موعد إقلاع
طائرتها العائدة إلى أرض الوطن.

.....

شدّ كم قميصه - ذو اللون الأبيض - من أسفل سترته الكحلية للخارج قليلاً ليغلق
الزر الذهبي، انتصب ذاك الشاب الذي قارب على بلوغ العقد الرابع من عمره في وقفته
ليزداد عُرض منكيهه ويبرز طول الفاره أكثر، مسح البائع على كتفيه برفق ليتأكد من
ضبط السترة عليه، ابتسم له بتباؤ يعكس إعجابه بتفرده المعروف في بيع تلك النوعية
من الثياب الفاخرة، حدق "معتصم" في المرأة مطولاً متفحصاً تفاصيل البدلة عليه،
كانت مناسبة له وكأنها صممت خصيصاً من أجل ذوقه الرفيع فأظهرت تناسق جسده
الرياضي ببراعة، وأبرزت عضلاته المشدودة، مط فمه مستطردًا حديثه بصوته الخشن:
-تمام، هاخذها!

اتسعت ابتسامة البائع على الأخير، فبيع قطعة كتلك ستزيد من ربحه خاصة إن كان
المشتري الرجل الأكثر ثراءً في عالم البناء والمقاولات، رد بلا تفكير:
تحت أمرك يا "معتصم" بيه!

لم يكن بحاجة لتبديل ثيابه من جديد، حسم أمره بارتداء الحلة الجديدة بعد نزع المصق الذي يحوي ماركتها التجارية الشهيرة وسعرها الباهظ، انحنى قليلاً بجذعه ليلتقط حافظة نقوده، أخر منها الكارت البنكي ليسدد ثمنها فوراً، ثم دس في جيبه مفاتيحه وهاتفه المحمول، اقترب منه أحد العاملين بالمحل التجاري يحمل في يده حقيبة وضعت بها بدلته القديمة، أشار له ليتبعه إلى سيارته، وما إن رأى سائقه الخاص حتى أسرع بفتح باب المقعد الخلفي له ليستقر بداخلها، تناول من العامل الحقيبة ووضعها بصندوق السيارة ثم أسرع في خطاه ليجلس خلف المقود، تساءل السائق بنبرة رسمية:

على المكتب يا "معتصم" بيه؟

رد باقتضاب وهو يضع نظارته الداكنة على عينيه:

لا، اطلع على البيت، ده ميعاد الغدا!

حاضر يا فندم

قالها وهو يدير السيارة بتريث نحو الطريق الرئيسي لينحرف منه إلى طريق أخر جانبي حيث يؤدي في نهايته إلى المجمع السكني الذي يقطن به رب عمله، أمسك "معتصم" بهاتفه المحمول ليتابع أخر المستجدات عبر الصفحات الإخبارية، لمح مصادفة خبراً صغيراً عن أجر خيالي لإحدى العارضات العربيات والذي فاق نظيراتها الأجنبية، لم يتوقف عنده كثيراً فقد بدا مشمئزاً من تلك المهنة التي تخفي الكثير خلفها من العيب واللغو الماجن، ناهيك عن الفضائح المتعلقة ببعضهن، رن الهاتف فأضاءت شاشته العريضة بصورة "أية" ابنة عمه الصغرى، تقوس فمه بابتسامة صغيرة وهو يجيبها متحمساً:

برينسيس العيلة

ردت عليه بتوسلٍ مغرٍ:

- "معتصم"، بليز عاوزة منك خدمة

تلاشت بسمته وهو يتابع بجدية:

على طول كده، من غير سلامات وتحيات، ها، قولي!

أكملت موضحة:

أنا وصحابي مش عارفين نحجز في كافيه (.....)، تقدر تكلم صاحبه يضبطلنا الحكاية دي

وضع إصبعه تحت ذقنه يفركه بجرمة بسيطة قائلاً:

-مممم، عشانه صاحبي!

زادت من استعطافها المصطنع قائلة:

-بليز.. بليز، ده إنت حبيبي!

التوى ثغره للجانب ليقول مستسلماً لرقتها التي تجبره على الخضوع لها وتنفيذ رغباتها دون نقاش:

أوامرك يا جميلة

هللت بحماس استطاع تخمينه:

-ميرسي خالص، مش هنسالك ده أبداً، أشوفك بعدين، وسلم على أنكل وأنطي

أوكي، باي

.....

انتهت من تنسيق الزهور في المزهريّة الرفيعة قبل أن تضعها في مكانها بجوار النافذة المفتوحة لتتسرب إليها أشعة الشمس الذهبية، ابتسمت لجمالها الطبيعي الذي يشعرها

بالارتياح، التفتت "نادية" بجسدها للخلف لتسير بخطوات متهادية ورزينة نحو المقعد
الوثير الموضوع بجوار مكتبة الحائط الضخمة، أتت إليها الخادمة تسألها بروتينية معتادة:

-أجهز الغدا يا هانم؟

أجابتها بابتسامة صغيرة:

شوفي "معتصم" الأول، لو كان هايجي خلاص حضريه، لو عنده شغل مافيش داعي

تابعت الخادمة متسائلة:

-والباشا "وحيد"؟

أجابتها بنفس الهدوء الناعم:

-الدكتور قال النهاردة يقدر يأكل مشوي، وأنا بنفسي هاشرف على أكله بس لما يرجع

من عنده

-تؤمري بحاجة ثانية يا هانم

-لا، شكراً، تقديري تتفضلي

عن إذنك

قالتها الخادمة وهي تومئ برأسها قبل أن تنصرف من غرفة المكتبة لتترك سيدة المنزل
بمفردها، سحبت "نادية" ذلك الكتاب من على الطاولة الصغيرة المستديرة، ثم جلست
على المقعد لتشرع في استكمال قراءته، فقد عزفت عن متابعته لأيام بسبب انشغالها
بمراعاة زوجها الذي عانى من وعكة صحية لكنه تماثل للشفاء، للحظة شردت في ذكرى
بعيدة وهي تقلب صفحات الكتاب، تلك الذكرى التي دوماً تنغص عليها هدونها
وتشعرها بالذنب والأسف، ارتعشت أناملها وتوترت أنفاسها وهي تقاوم لاستبعادها

عن عقلها، هي عمدت إلى دفن كل ما يخصها كي لا تتألم، لم يكن الأمر بيدها، كانت مضطرة للتخلي عن أي شيء يربطها به، حتى هي ... ابنتها.

.....

علق حقيته الرياضية على كتفه وهو يتجه نحو المصعد بعد أن أوصله رفيقه المقارب له في عمره إلى المجمع السكني، فأصبحت عادة ممارسة الرياضة مع الرفقاء القدامى من اهتماماته مؤخرًا خاصة بعد اعتقاده أنها ستعيد إليه شبابه المفقود، ضغط "وحيد" على زر استدعاء المصعد متربعًا نزوله، اعتلى وجهه ابتسامة هادئة حينما رأى إحدى الشابات الصغيرات تقف إلى جواره، بادلتها الشابة الابتسامة قائمة بنعومة:

هاي أنكل "وحيد"

امتعض وجهه من تذكيرها للفارق العمري بينهما بدعوته إياه بذلك اللقب المقيت، فقد كان يجب مناداته باسمه مجردًا إن لم يكن مصحوبًا بكلمة السيد "وحيد"، اضطر أن يرد عليها بعبوس:

أهلاً

عضت على شفتها السفلى المملخة بتلك الحمرة الصريحة متسائلة بخجل لطيف:

أخبار "معتصم" إيه وأنطي "نادية"؟

بالطبع فهم سبب توددها الغريب إليه رغم كونه جاهلاً بهويتها، فابنه يقف خلف ذلك الاهتمام الزائد، فهو الشاب الأكثر شهرة في هذا المجمع السكني الراقى بين الفتيات والشابات بسبب تعامله المثالي معهن، يُشعر كل واحدة منهن بأنها خلقت ملكة متوجة، لا مثيل لها، متفردة، تستحق أن تلقب بملكة جمال العالم، فلماذا التعجب إذا من اهتمامن به شخصيًا؟ رسم "وحيد المصري" على فمه ابتسامة سخيفة وهو يرد باختصار:

-كويسين

مالت الفتاة ناحيته فلامست ذراعه بكتفها وهي تهمس له بمكر:

طيب سلملي عليهم، وخصوصًا "معتصم"، باي يا أونكل!

أوماً برأسه دون تعليق، وما زاد من غرابة الموقف أنها انصرفت ولم تركب معه المصعد،
ولج إلى الداخل محدثًا نفسه بازدراء:

هو أنا عارف إتني مين! محظوظ يا "معتصم"، مين أدك، كل البنات بتحبك، كل
البنات حلوين!

انغلق المصعد عليه وهو يدندن بما يتذكره من تلك الأغنية الشبابية آنذاك وقت أن
كان يماثله في العمر.

.....

بعد مرور يومين، توقفت سيارة الأجرة أمام إحدى البنايات ذات الطراز المعماري
القديم والتي تقع في وسط المدينة، ورغم كون المنطقة راقية إلا أنها تحوي تحف معمارية
مميزة ظلت شاهدة على تاريخ أصيل، تهتد "آسيا" يارهاق وهي تترجل من السيارة
بعد أن دفعت الأجرة لسائقها، كانت رحلة عودتها متعبة، لكنها وصلت في الأخير إلى
حيث ستبدأ، أحضر لها السائق حقيبتها قائلاً بترحاب زائد كجمالة مصطنعة منه
للحصول منها على مبلغ إضافي:

حمدلله على السلامة يا هانم، القاهرة نورت

اكتفت بالنظر إليه من خلف نظارتها العريضة، دست يدها في حقيبتها لتخرج ورقة
نقدية منها، مدت إصبعيها بهما إليه فسأل لعابه وهو مركز بصره عليه، خطفها منها
وكانه كزه الثمين الذي حاز به دون عناءٍ يذكر، تناولت حقيبة سفرها منه لتخطو
برشاقة وهي تصرع الأرضية الصلبة بخطواتها الواثقة في اتجاه المدخل، فهناك منزلها

الذي استأجرته لتمكث فيه خلال الفترة القادمة، هب حارس البناية واقفًا يتأمل صاحبة الوجه الحسن والمظهر اللافت للأنظار وهو يسألها:

خير يا هانم؟

ردت بقوة ظهرت في نبرتها:

أنا الساكنة الجديدة هنا، "آسيا شرف الدين"!

رسم ابتسامة مرحة على محياه وهو يردد اسمها الذي كان مختلفًا عن بقية ساكني البناية:

الست "آسيا"

أيوه، السمسار بلغني آ.....

قاطعها بتهليل متحمس:

عرفتك يا هانم، احنا اتشرفنا بيكي، والعمارة كمان نورت ب.....

ردت مقاطعة ببرود:

-كفاية كلام، أنا مصدعة

تجهمت تعابيره قائلاً بجرح:

-اللي تؤمري بيه جنابك

خذ الشنطة وطلعها ل فوق!

قالتها بصيغة أمرة وهي تنزع النظارة عن عينيها باحثة عن المصعد لتستقله، تبعها الحارس بهدوء وهو يتأمل هيئتها المغرية، بالطبع وجود أنثى بتلك المواصفات الجمالية غير الطبيعية في بناية تعج بالسكان - وخاصة الذكور - سيحدث الكثير من المشاكل، هكذا دار في عقله وهو يتوقع الأسوأ من بقائها.

.....

تمل على الفراش بتعب مضاعف وهو يقاتل لإبقاء جفنيه مفتوحين بعد تلك الليلة الصاخبة التي قضاها بصحبة أقربائه للاحتفال بنجاح ابنة عمه الصغرى، امتد الحفل للساعات الأولى من الصباح، وبالطبع تعذر عليه النهوض مبكراً للذهاب إلى عمله في مكتب المقاولات والإنشاءات الهندسية المملوك له، أنزل "معتصم" ساقيه عن الفراش أولاً، ثم بدأ في فرك رأسه عدة مرات كمحاولة بئسة منه لتنشيط عقله، ثناء بصوت مسموع وهو يمسح بيده على صدره العاري، هو يجذب النوم بسروره فقط تاركاً الغطاء يتكفل بتغطية جسده إن شعر بالبرودة، زحف - بالمعنى المجازي - نحو الحمام ليغتسل ويبدل ثيابه، سمع دقائق خافتة على باب غرفته تبعها صوت الخادمة القائل:

- "معتصم" ييه، أحضر لحضرتك الفطار

دعك عينيه بقبضتيه المتكورتين لينحني بعدها نحو هاتفه المحمول ليتفقد الوقت، تأخر كثيراً عن موعد الإفطار، فقد قارب الظهر، رد عليه بصوت متحشرح وهو يسعل:

-لأ، اعلمي فنجان قهوة بس!

ردت بامثال:

حاضر يا فندم

سألها "معتصم" مستفسراً وهو ينظر إلى ذقنه النابتة قليلاً في المرأة:

ماما صحت؟

أجابته بجديّة:

-ايوه، ونزلت من بدري مع الباشا "وحيد"

زفر بملل وهو يقول:

حبيب، جهزي القهوة وأنا جاي

حاضر

ولج بعدها إلى داخل الحمام ليبدأ في مراحل الاستعداد للذهاب إلى عمله، في نفس التوقيت كانت تقف عند عتبة باب ذلك المنزل ترمق اللافتة المدون عليها "وحيد المصري" بنظرات نارية تحمل الغضب والكراهة، توصلت "آسيا" إلى عنوان تلك العائلة من أحد معارفها القدامى والذي ظن أنه يقدم لها خدمة عظيمة بإبلاغها به، لكنه لم يعرف أنه سيفتح باباً من الجحيم على أفرادها، باباً لم يظنوا أنه سيظهر ليفسد عليهم هدوئهم واستقرارهم الطبيعي !!

.....

الفصل الثاني

بغورٍ وتعالٍ اكتسبته من والدها الفظ ذو الطباع الحادة والأفعال الصارمة، عقدت العزم على أخذ حقها بنفسها، حتى وإن كان ممن ظنت يوماً أنهم الأقرب إليها، فهي الملامة الأولى والأخيرة فيما وصلت إليه أمور عائلتها من تشتت وغربة وأمور أخرى لا تحب تذكير نفسها بها، تنفست "آسيا" بعمق وهي ترفع ذراعها لتقرع الجرس، تأهبت

جيدًا لمواجهتها الشديدة معها، ضبطت من وضعية نظارتها القائمة أعلى رأسها، ارتدت قناع القسوة والشراسة وهي تحديق في وجه الخادمة التي فتحت لها الباب، سألتها الأخيرة بهدوء جاد:

أيوه يا فندم

نظرت لها "آسيا" باستعلاء أشعرها بالاحتقار وهي تسألها بنبرة جافة:

مدام "نادية" موجودة؟

انزعجت الخادمة من أسلوبها الفظ في إشعارها بالدونية والوضاعة من مجرد نظرة مطولة، وخاصة أنها تعامل بودٍ من قبل عائلة المصري، ابتلعت مرارة الإهانة لتجيبها بابتسامة صغيرة:

لا يا هانم، هي.....

لم تصغ إلى باقي جملتها حيث دفعتها من كتفها بقوة لتمرق إلى الداخل متجاوزة الأعراف والتقاليد المتبعة في استقبال الضيوف بذلك المنزل، احتجت عليها الخادمة قائلة بضيق:

يا هانم ما يصحش اللي بتعمله ده، قولتلك "نادية" هانم مش موجودة، و....

التفتت ناحيتها "آسيا" لترمقها بنظرات أكثر شراسة أجفلت بدن الأخيرة وجعلتها ترمش بعينها بتوتر ملحوظ، قاطعتها بصيغة أمرة مشيرة لها بسبابتها:

تتصلي بيها تيجي هنا فورًا

اغتاظت الخادمة من طريقتها التحكمية بها وكأنها ربة عملها وليست السيدة "نادية" ذات الأخلاق الدمثة والصفات المحببة للجميع، تعاملت معها على قدر المستطاع بمهنية وبودٍ كي لا تضع نفسها في موقف حرج، وربما تكون على صلة وثيقة بسيدتها، ردت بحذرٍ عليها:

حضرتك أنا....

قاطعتها من جديد بلهجة أكثر قوة لا تقبل بالنقاش:

اللي قولته يتنفذ، وإلا هاعمل حاجات تخلي اللي مشغلاكي تندم إنها مقابلتينيش!
خافت الخادمة من أسلوبها المهدد، واضطرت مرغمة أن تمتثل لأوامرها، راقبتها "آسيا"
وهي تتبعد عنها لتبدأ في تأمل المكان الذي ولجت إليه بنظرات شمولية دارسة لكل
جزئية فيه، كان المنزل فخيمًا يحتل طابقين متتاليين من البناية يتصلان ببعضهما عن
طريق سلم داخلي، احتوى على أثاثٍ مصممٍ على أحدث طراز، تناسقت ألوانه مع
طلاء الجدران، أكملت خطاها بثباتٍ نحو الداخل متأملة بقيته بتأنٍ، وجدت ردهة
متسعة بها صالونًا كلاسيكيًا من اللون الذهبي معدًا لاستقبال الضيوف، تقوس فيها
بابتسامة تهكمية وهي تحرك عينيها بعيدًا عنه.

مرت كذلك سريعًا بعدة أرائك مريحة من الطراز الحديث أو ما يعرف بالـ "مودرن"
يتم استخدامهم في مشاهدة التلفاز والتجمع الودي بين أفراد العائلة لتقترب من شيء
لفت انتباهها، تجمدت تعبيرات وجهها واحتقنت أعينها بجمرةٍ ملتهبة حينما وقع بصرها
على تلك الصورة الفوتوغرافية الكبيرة التي زينت أحد الجدران، قست ملاحظها مع
رؤيتها لوجه السيدة البشوش التي تقف خلف رجل وقور جالس على مقعد خشبي
عريض المسندين يشبه ما يوضع خلف المكاتب الفخمة، لم تهتم بباقي تفاصيل الصورة،
فحدقتها ظلت مركزة على وجهها فقط، عكس ذلك البريق المنبعث منها غلاً واضحًا
ممتزجًا بغضبٍ مستعر، كزت على أسنانها هامسةً بوعيد:

ده اللي بعيننا عشانه!

كانت حواسها بالكامل منصبة على إبراز حقدتها نحو تلك المرأة، فلم تشعر "آسيا"
بالحركة الدائرة من خلفها حيث انتهى "معتصم" من ارتداء ثيابه وخرج من غرفته

متجهاً نحو الصلاة، زم أنفه ذلك العطر الأثوي القوي غير المألوف عليه، تلفت برأسه باحثاً عن مصدره، تباطأت خطواته مع رؤيته لانعكاس ظل أحدهم من على بعد، ضبط ياقته وهو يدنو نحوه، اعتلت الدهشة تعبيراته وارتفع حاجبه للأعلى مبدياً تعجبه من تلك التي توليه ظهرها، تحركت حدقاته ببطء متأمل رشاقة جسدها المنحوت الذي برز ياغراء أريكه للحظة من أسفل ثوبها الأسود القصير، بالطبع أثار اهتمامه شعرها الأسود المعقود كذيل حصان يتدلى فوقه بطريقة منمقة للغاية، انخفضت نظراته تتأمل ساقيا الطويلتين اللاتين تضاعفا جاهلها مع كعبها العالي، اعتصر عقله محاولاً تذكر من هي، فرما التقاها مسبقاً لكن لم تسعفه ذاكرته، ازدرد ريقه وهو يتنحج بخشونة ليلفت انتباهها لوجوده، لكنها ظلت متمسرة على وضعيتها تلك، انزعج من تجاهلها له، فخطا نحوها وهو يسعل بصوت مسموع ليتأكد تلك المرة من سماعها إياه، ووبرود معتاد منها حينما تتعامل مع أمثال الرجال الذين يكررون نفس الحركة لفت انتباهها إليهم أدارت وجهها بتهمل نحوه.

رأت "آسيا" شاباً فتي العضلات تظهر وسامته الممتزجة بأناقته الواضحة يطالعها بنظرات فضولية تستفسر عن هويتها دون حاجته للنطق بذلك، استطرد "معتصم" حديثه متسائلاً بابتسامة صغيرة:

مين حضرتك؟

تأمل حدقتها اللاتين كانتا غريبتين بسبب تلك العدسات اللاصقة التي تضعها عليهما فبدت كمن توشك على سحر من يتطلع إليها بتعويذة منها، خرج صوته متردداً وهو يتابع:

أنا أول مرة أشوفك هنا، أنا أعرفك؟

بدت كمن تفضلت عليه بالرد وهي ترمقه بنظرة جليدية من برجمها العاجي قائلة:

لأ-

استفزته نظراتها المتعالية نحوه وكأنه شخص حقير تجراً عليها، بل إنها أشعرته بنظرة واحدة فقط أنه لا يرقى أبداً للحديث إلى مثيلاتها من مرتدي قناع الغرور والغطرسة، سحب نفساً مطولاً نفثه من أنفه متسائلاً بانزعاج:

-ممكن أعرف الهام مين وعاوزه إيه بالظبط؟

عاودت التحديق في الصورة الفوتوغرافية وهي تكثف ساعديها لترد بسؤال صريح بنبرة تضمن في طياتها إهانة خفية:

فين "نادية"؟

استثارت أعصابه على الفور من تجريد أحب الأشخاص إلى قلبه من أبسط الألقاب التي تضيء عليها وقاراً واحتراماً، صاح بلا وعي وهو ينهرها بعنف ومهدداً بسبابته:

-تكلمي عن أي عدل، إتي سامعة!

تجاهلت عصبيته البائنة في نبرته واستمرت في التحديق ببرود للصورة، رأى "معتصم" تلك الابتسامة الساخرة التي تشكلت بقوة على ثغرها مما حقن دمائه سريعاً بغضبٍ مبرر، ضرب بيده فجأة بعنف على الحائط لتنتفض في وقتها، تعقدت ملامحها وهي تستدير نحوه ترمقه بنظرات أكثر حدية، كز على أسنانه يسألها بغیظ:

-ردي عليا، إتي مين؟

استعادت سريعاً ثباتها أمامه، لم تهتز من انفعاله الرجولي الذي يحاول إظهاره لها، وضعت "آسيا" يدها على منتصف خصرها، ثم أوامت بحاجبها قائلة بثقة بثت في نفسه القلق وقد عادت ابتسامتها المريبة للطفو على صفحة وجهها:

-أنا اللي جاية أخرب عليها حياتها!

انقبض قلبه بقوة من كلماتها التي بدت كالطلقات النارية المباحثة في صدره والتي أصابته في مقتل، شخصت أبصاره مفزوعًا من تهديدها الصريح، لم يمض عليه أكثر من ثوانٍ ليستوعب الأمر خاصة مع ابتسامتها التي زادت من استفزازه، غلت الدماء في عروقه واندفعت بقوة إلى جميع خلايا جسده تحفزه على الانقباض عليها دون إبداء ذرة ندم واحدة، قبض على ذراعها متعمدًا غرز أظافره في لحم عضدها ليؤلمها وهو يصرخ بها:

-إتي اتجننتي؟

هزها بعنف مواصلاً صراخه المهتاج:

مين إتي علشان تعلمي كده فيها؟ فكرك أنا هاسمح لحد زيك يقرب منها ولا يمسه!
كررت ضاحكة رغم ذلك الألم الذي يسببه لها ليستشيط غضبًا أكثر منها، توقفت عن الضحك لترد ببرود أتقنته:

-ولا تقدر تعمل حاجة!

أمسك بها من ذراعها الأخر مشددًا قبضتيه عليها، استمر في هز جسدها بعنف مشعرًا إياها بقدرته على إنهاء مثيلاتها ممن يتجرأن على المساس بفرء من عائلته الغالية، هدر بها بقسوة:

-إتي متعرفيش أنا مين

شحذت قواها لتتخلص من يديه القابضتين عليها مقاومة إياه قدر المستطاع قائلة بتحدٍ سافر غير مبالية بتبعات ما تنفوه به مع شخص على شفا حفرة من الانفجار:

-ولا تفرق معايا، أنا حسابي مع "نادية" وبس

لم يتحمل المزيد من ازدراءها لها، هي نجحت في إيصاله لذروة غضبه، أرخى يده للياغتها بصفعة قوية على وجنتها طبعت فيها أصابعه على بشرتها البيضاء بوضوح، بدت كالصنم

وهي تتلقاها فلم تهتز ولم تضعف، فقط احتقنت نظراتها واشتعلت بشريرٍ مستطيرٍ،
استأنف تهديده العدائي لها قائلاً:

قبل ما تفكري تلمسي شعرة منها هاتكوني ميتة

رفع يده ليجذبها من شعرها الأسود فشعرت به يكاد يقتلعه من جذوره، ضغطت على
شفتيها بقوة مانعة نفسها من التأوه وإظهار ألمها أمامه، هي لم تتوقع أن يواجهها شخصاً
مثله، كانت آمالها معقودة على المواجهة العنيفة مع من تبغضها، وليس مع ذلك الغريب،
ورغم ذلك عمدت إلى عدم الظهور بمظهر الضعف والخذلان في مقابل قوته الذكورية
والجسمانية التي ظهرت بوضوح معها، لن تمنحه حتى الفرصة لاستضعافها رغم عدم
كونها في موقف قوة، جرجرها خلفه منكسّاً رأسها بطريقة ذليلة نحو باب المنزل صارخاً
بها:

-برا!

زادت حدة الألم فانفجرت شفتها لتخرج أئيناً موجوعاً بحق، أدار المقبض لينفتح الباب
ثم دفعها بكامل قوته للخارج لتفقد اتزانها وتطرح أرضاً، ارتطم جسدها بشراسة عنيفة
بالأرضية الصلبة فتألمت عظامها خاصة رسغها اللذين تحاملت عليهما كثيراً، تحجرت
الدمعات في عينيها الملتهبتين غضباً وهي ترفع رأسها نحوه، ردت بعزة نفس محدجة إياه
بنظراتها المميتة:

-وماله، بس خليك فاكر "آسيا شرف الدين" هاتحرقكم قبل ما تموتوها

صفق الباب في وجهها بقوة متجاهلاً تهديدها العلني وهو يلعنها بكلمات نابية سمعت
أغلبها من خلف الباب الموصود، تحاملت على نفسها لتنهض من رقدتها المتألّمة كاتمة ما
يعترها من آلام شديدة، سارت بخطوات شبه عرجاء نحو المصعد وهي تمنع نفسها من
ذرف العبرات، هي فقط لم تتخذ حذرهما معه لذلك لا داعي للبكاء أو النحيب، سترد

له الصاع صاعين إن أتت لها الفرصة، عليها فقط أن تركز الآن في هدفها الهام، إفساد حياة أمها.

.....

لم تستطع الدماء أن تحط في عروقه بعد ما سمعه منها من تهديدات تكاد تطال من أفنت عمرها في تربيته، من منحته الحنان والعاطفة الأمومية المضاعفة، ذرع "معتصم" غرفته ذهابًا وإيابًا محاولاً السيطرة على انفعالاته المهتاجة، كان الأمر عويصًا عليه، تتم من بين شفثيه بغضبٍ شديد:

- بنت ال.....، أكيد حد مسلطها علينا، مش هاسمحها تأذي أمي!

دقت الخادمة باب غرفته تسأله بقلق وقد رأت حالته المهتاجة وما دار من شجار عنيف مع تلك الغريبة:

- "معتصم" بيه أجيب ل....

قاطعها بجدّة وهو يأمرها مشيرًا بسبابته:

- مش عاوز حد يكلمني السعادي

هزت رأسها بالإيجاب متفهمة سبب عصبيته وهي تقول بخنوع:

حاضر

صاح بها بصيغة أمرة استوقفتها:

استني

تابع مضيئًا بصوتٍ شبه لاهث:

-لما ترجع ماما من برا عرفيني

حاضر يا فندم

قالتها وهي توصلد الباب خلفها ليوصل "معتصم" التنفيس عن غضبه بالتحرك بعصبية في غرفته، شعر بالاختناق وبعدم قدرته على التصرف بعقلانية، حشته خلاياه على التصرف ببدائية بربرية مع تلك الحقيرة، القتل يعد بالنسبة لها ميزة لا تستحقها، انتزع رابطة عنقه وألقاها على الفراش، كذلك خلع سترته وشمر عن ساعديه ليبدأ بعدها في ممارسة رياضة الضغط كوسيلة للتفريغ عن الشحنة الغاضبة المتأججة بداخله، توقف عما يفعل حينما سمع صوت ضحكة "نادية" يصدح بمرح بالخارج، نهض سريعاً من مكانه واندفع كالثور الهائج متسائلاً بعصبية غير مفهومة بالنسبة لها:

ماما

نظرت له بغرابة متأملة ذلك العرق الغزيز الذي يغرقه وتلك الحمرة الظاهرة على وجهه، سألته بتلهف وهي تقترب منه لتضع يدها على صدغه:

مالك يا حبيبي، إنت تعبان؟ فيك حاجة؟

سألها بصوته المتشنج وهو يجاهد لكبت انفعاله:

إنتي كويسة؟

أه يا "معتصم"، بس مال شكلك؟ في حاجة حصلت في الشغل؟

تنفس الصعداء لكون تلك المقيمة لم تتعرض لها بأذى، بدأت ثورته في الهدوء تدريجياً، لكنه أثارت فضول "نادية" لسؤاله بتوجيس:

- "معتصم" رد عليها، حد جراه حاجة؟ ماتخلينش أفضل قلقانة كده

رد بهدوءٍ حذر وهو يتصنع الابتسام:

مافيش حاجة خالص، اطمني

بس إنت....

أمسك بكفي يدها ليرفعها إلى فمه، طبع قبلة صغيرة على كلاهما قائلاً بوداعة تناقض همجيته قبل برهة:

يا ماما أنا تمام، ماتقلقيش عليا

رمقته "نادية" بنظراتها الحانية وهي تسحب يديها من كفيه لتربت باليمنى على صدغه برفق، أتت الخادمة تقول بعفوية لم يضعها "معتصم" في الحسبان:

- "نادية" هانم، في واحدة جت سألت على حضرتك

شحب لون وجهه على الأخير وهو يلتفت بنظرة نحو الخادمة يرمقها بغضب لتهورها الأهوج، تساءلت "نادية" بفضول:

مين دي؟

هزت كتفها بالنفي قائلة:

معرفش يا هانم، بس "معتصم" بيه كان....

قاطعها هاتفاً بقسوة:

خلاص روجي إتي شوفي شغلك!

جمدت "نادية" أنظارها على وجهه الذي بدا مريباً، استشعرت وجود خطب ما يخفيه عنها، سألته بقلق ظاهر في نبرتها:

مين دي يا "معتصم"؟

نكس رأسه بتردد، لم يرغب في البوح لها بما صار في غيابها، استمرت في ملاحظته بأسئلتها قائلة:

إنت عارفها يا ابني؟

أجابها بامتعاض وهو ينظر إليها بحذر:

-لأ، دي أول مرة أشوفها، بس قالت إن اسمها

بتر عبارته متمنياً في نفسه ألا يسبب الإفصاح عن هويتها بما لا يُحمد عقباه، أصغت "نادية" لكل كلمة يقولها باهتمام واضح على تعبيرات وجهها ونظراتها إليه، اتسعت حدقتها برعبٍ مصدوم، وشعرت بأنفاسها تنقطع عن رئتها حينما تابع قائلاً:

- "آسيا شرف الدين" !!

.....

الفصل الثالث

لاح الماضي بما فيه من مآسٍ حفرت في الذاكرة لم تمخ يوماً مع مجرد ذكر اسمها الذي لم تنساه أبداً، شعرت "نادية" أنها محاصرة داخل كابوس مرير تضمن معاناة لم تنتهي بعد، اهتز بدننا كلياً وارتجفت أطرافها فلم تستطع ساقاها حملها، ترنحت في وقفها المرتبكة، فوق قلب "معتصم" في قدميه لرؤيتها على تلك الحالة المقلقة، أسندها متسائلاً بخوف كبير:

-ماما، حصلك إيه؟

تهدجت أنفاسها وارتفع صدرها علواً وهبوطاً من فرط التوتر المرتعد، تبدل كل شيء في لحظة وتحول سكون حياتها المؤقت إلى عاصفة هوجاء ستطيح بالأخضر واليابس إن حدث ما تخشاه، تساءل "معتصم" بنفس النبرة المرتاعة:

-في إيه؟ ردي عليا أرجوكي!

أشارت له بيدها نحو الأريكة القريبة، فأوماً برأسه متفهماً مقصدها على الفور، أخفض ذراعه ليتمكن من إحاطتها من خصرها، ساعدها على السير حتى بلغها ثم أجلسها بجذيرٍ عليه، تضاعفت حبات عرقها وزاد لاهتها، توجس "معتصم" خيفة من إصابتها بنوبة مرضية، لكن صوتها الهامس الذي التقطته أذناه جعله يركز حواسه بالكامل على وجهها الشاحب، كررت همسها قائلة:

-"آسيا"

حملت نبرتها الغريبة شعوراً لم يرتح له، قست تعابيره معلنة عن شراسة وشيكة وهو يسألها بضيق لم يخفيه:

-إنتي تعرفيها؟

ردت عليه متسائلة بنبرة متلهفة:

هي فين؟

انخفضت نظراته إلى قبضتها المرتجفتين اللاتين قبضتا على كفيه وكأنها تستجديه في ضعف لم يحبه مطلقاً، عاود التحديق فيها متسائلاً بنبرة مرتابة:

-ماما، ريجيني، إنتي تعرفيها؟

هزت رأسها بإيماءات متتالية وهي تجيبه:

-أيوه..

صمت لثوانٍ تعد على أصابع اليد قبل أن تتابع بأومية غريزية نابغة منها:

-دي.. هي...

بدا الارتباك واضحًا عليها، ابتلعت ريقها مكملة بترديد:

-دي بنتي!

وكأنه قد تلقى فوق رأسه دلوًا مليئًا بمكعبات الثلج في شتاء بارد ليتصلب جسده بالكامل ويتجمد تفكيره مع تلك الكلمات المقتضبة، فغر شفثيه مدهوشًا ومذهولاً منها، شرد عقلها في مشاهد متداخلة من ماضيها؛ طاولة خضراء مستديرة يجلس حولها بعض الأشخاص، وكؤوس متراسة بجوارهم يتجرعون ما فيها في شرفة واحدة، أوراق تُلقى ياهمال من أجل كسب النقود، نقلها عقلها إلى مشهد شجار محتدم وصغيرة تبكي بخوف خلف الستائر ليزداد الأمر تعقدًا بصفقة عقدت مع رجل وقور، عادت "نادية" من شرودها الخانق لصدرها وهي تبكي، لم يستطع عقلها تحمل تلك الومضات الخاطفة، ترققت العبرات في عينيها تأثرًا بالكثير مما مرت به، سلطت أنظارها على "معتصم" الذي كان واجمًا بدرجة كبيرة، استعطف قلبه هاتفه بصوتها الملتاع:

-وديني عند "آسيا"

للحظة عجز عن الرد عليها، فشاعرها المتدفقة كأم تشتاق لابنتها تتناقض مع الشخصية العنيفة التي قابلها وتعهدت له بإذاقتها أقسى ألوان العذاب، انهمرت عبارتها دون إنذارٍ على وجنتها لتزيد من حالة الذهول المسيطرة عليه، أضافت متسائلة بشوق يؤثر في النفوس، ويدي الفؤاد المحترق شوقًا للقاء الأعبة:

- "معتصم"، قولي بنتي كانت هنا فعلاً؟

امتزجت عبارتها مع صوتها المتلهف وهي تكمل بصعوبة:

جـت سألـت عليا؟ طب شكلها عامـل ازاي؟

تعقد لسانه وهربت الكلمات من عقله، نكس رأسه حرجًا منها، فكيف ببساطة يجيبها على أسئلتها ويفسر لها ما تنتوي تلك الشرسة فعله معها؟ خاف من إخبارها بالحقيقة لتتهار كليًا ويفسد عليها أمنياتها ويدمر أحلامها المتوسمة خيرًا في ابنة مشتاقة لحضن أمها وليس وحشًا كاسرًا يريد إحراق العالم من حوله، ارتخت يدي "نادية" المرتعشتين عن قبضتيه لتضع اليمنى على صدرها متحسسة نبضات قلبها المتسارعة، تهتدت قائلة بجرقةٍ ظهرت في نبرتها:

-بنتي بعدت غضب عني زمان، اتحزمت منها، هو خدها وهرب!

لم يفهم "معتصم" حديثها الغامض، كان متحفزًا للغاية ضد تلك المتوحشة المسماة ابنتها، لكن أزعبه كثيرًا حالة الوهن المتمكنة من "نادية"، جثا على ركبته أممها قائلاً بهدوء رغم ما يعتريه من غضب مبرر:

ماما، اهدي علشان صحتك، وكل اللي إتني عاوزاه هايجصل

لم يكن مقتنعًا في قرارة نفسه بالوعد الأخير الذي قطعه لها، لكنه منحها متنفسًا لثيق به فلا تضغط على نفسها المرهقة لأجل من لا تستحق.

.....

لفت جسدها المبتل بالمنشفة بعد أن نهضت عن المغطس الذي مكثت فيه لبرهة من الزمن، أرادت أن تنسى تلك الصفحة التي ضاعفت من حقدتها لأمها، وقفت "آسيا" أمام المرأة المشبعة ببخار الماء تزيح آثاره بأناملها، حدقت في تلك العلامات البارزة على جانب صدغها بأعين مشتعلة، كزت على أسنانها متممةً بجنقٍ وهي تتلمس بشرتها:

-الضربة اللي ما بتموتش بتقوي، ده درس ليكي يا "آسيا"

بدأت متفاخرة بما فعله ذلك القاسي معها لتتأكد أنها بدأت في أولى خطوات تنغيص حياة تلك العائلة المرفهة، لكن سريعاً أظلمت نظراتها وهي تتابع:

-إنتو لسه مش عارفين مين أنا

بدأت "آسيا" في تحفيز نفسها معنوياً كي لا تقف عند تلك الصفة كثيراً، ستتخذها حافزاً لمضاعفة كرهها نحو كل فرد في تلك العائلة، انتصبت في وقتها لتزداد شموخاً وكبرياءً كتعبير عن قوتها الطاغية التي لا يمكن أن يردعها أحد، استدارت بجسدها متجهة نحو غرفة نومها ثم جلست على طرف الفراش لتعالج تلك الخدوش التي أصابت ركبتيها جراء سقطتها العنيفة، تسلل في مخيلتها وجه من ادعى أنه ابنها، زوت ما بين حاجبيها بعبوس حينما تحركت أعينها على خدوشه المحفورة في جانب ذراعها، قست تعبيراتها على الأخير، للحظة تشكل المشهد من جديد في عقلها؛ منزل فخم يحوي أثاثاً ثميناً، عائلة مستقرة وسعيدة محاطة بكل سبل الراحة والنعيم، وابتأ بل وربما عدة أبناء يتمتعون بكل تلك الخيرات والرفاهية اللا محدودة، إذا والدتها قد منحت غيرها الحب والحنان والمال والعاطفة وكل شيء افتقدته هي تاركة إياها قابعة في حياة فرضت عليها بسبب اختيارها القديم، تحسست تلك الأثار بجذير، ثم توعدت الجميع بشراسة:

هتندموا كلكم!

انتبهت لصوت رنين هاتفها المحمول فأدارت رأسها في اتجاه الكومود الموضوع عليه، بتثاقل واضح عليها نهضت عن الفراش لتمسك به، نظرت إلى اسم المتصل فتحول وجهها للامتعاض، سحبت نفساً عميقاً لفظته دفعة واحدة لتضغط بعدها على زر الإيجاب قائمة ببرود:

-يوه يا بابا

أثاها صوتاً دافئاً عبر الطرف الآخر يسألها بهدوء:

- "آسيا"، إتي وصلتي؟

ألقت بجسدها على طرف الفراش وهي تجيبه:

-بقالي يومين هنا

تنحنح قائلاً بمرح:

-سوري، كنت مشغول عنك شوية

بدا وجهها خالياً من التعبيرات وهي تمسك بالهاتف بيدها الأخرى، لوت ثغرها قائلة
بفتور:

ده العادي بتاعك

انفعلت نبرته صائحاً بحدة:

مش ذنبي إن أمك عملت فينا كده، هي اللي وصلتني لده، لو كانت

انتصبت في جلستها المسترخية على الفراش مكورة قبضة يدها المحررة بقوة، تحول
وجهها للاحمرار المنفعل في ثوانٍ معدودة وهي تقاطعه بصرامة وقد احتقنت نظراته
بصورة مفاجئة:

مش لازم تفكرني كل شوية!

رد بجدري:

حبيب خلاص يا "آسيا"، هي أصلاً سيرتها تفور الدم!

صمت لثانية قبل أن يكمل بحنو مريب:

-أنا كنت محتاج منك خدمة

سألته بتجهم وهي تهب واقفة عن الفراش بعد أن خمنت طبيعة طلبه:

-إيه هي؟

أجابها بارتباك استطاعت تبينه من نبرته:

-في ناس أنا مديون ليهم بشوية فلوس و....

قاطعته متسائلة دون انتظار لباقي جملته:

-أد إيه؟

أجابها بخزيٍ لطيف مستعطفًا قلبها:

مش مبلغ كبير المرادي، بس أوعدك هاتكون آخر مرة يا حبيبتي

زفرت قائلة باستياءٍ وهي تحرق بشرود في الفراغ أمامها:

-مالوش لازمة، إنت كل مرة بتقول كده يا "شرف" بيه

للحظة تجسد أمام أنظارها طيقًا لطاولة القمار التي اعتاد والدها الجلوس عليها منذ

نعومة أظافرها منفقًا بسخاءٍ على تلك العادة السيئة حتى يخسر كل ما مجوزته فيضطر

حينها أسفًا أن ينسحب من اللعب متوعدًا لنفسه بالتعويض في المرة القادمة، لكن

دون جدوى هو دومًا يخسر، لا ربح على الإطلاق، وتدرجياً بات الأمر إدمانًا بالنسبة

له، وبالطبع هي مُلزمة بسداد مديونيته أولاً بأول كي لا تتراكم عليه الديون فيصبح

عاجزًا عن دفعها، وبالتالي سيزج به في السجن، أفاقت من شرودها على جملته القائلة:

-عمومًا هما خدوا مني العنوان وهيجولك

انزعجت كثيرًا من فعلته المتهورة تلك، نهرته قائلة بضيق بدا جليًا في نبرتها:

-إنت عرفتهم بيتي؟ كنت خد منهم رقم الحساب وأنا أحول الفلوس عليه زي كل مرة

رد والدها بأسفٍ:

-مرضاش صاحب الفلوس

أطلقت سبة خافتة من بين شفيتها قبل أن ترد عليه بجديّة:

حبيب أنا هاتصرف

تابع "شرف" قائلاً بلطف:

شكراً

ثم ادعى السعال قبل أن يضيف:

خلي بالك من نفسك يا "آسيا"، وأنا هاجيلك قريب

هزت رأسها بإحباط وهي ترد:

-اوكي، باي!

أنهت معه المكالمة دون إضافة المزيد، فتصرفه الأخير أزعجها للغاية وأصابها بالتوتر، فربما دون قصد سيسبب لها مشكلات هي في غنى عنها حالياً، خاصة أن تلك النوعية من الديانة ليست بالمحببة على الإطلاق، ألقت هاتفها على الفراش واتجهت صوب المرأة محدثة نفسها:

مش هاخلص من الداء بتاعك ده يا بابا!

حدقت في العلامات الواضحة على جانب وجتها متذكرة من جديد الصفحة التي تلقفتها عليه، استنشأت نظراتها وتحول غضبها كلياً نحو شخص بعينه، كرت على أسنانها قائلة وهي تتلمس تلك الآثار بيدها:

-إنتي السبب يا "نادية"، إنتي السبب، أي حاجة بتحصلي إنتي السبب فيها، وأنا مش هاسيبك ترتاحي أبداً!

.....

- "آسيا"

تلفظ "وحيد" باسمها وهو ينظر إلى ابنه بغرابةٍ مستشعرًا جدية الموقف بعد أن سرد له الأخير باختصار ما حدث مؤخرًا معه من جدالٍ ممددٍ بوضع متأزم، وأثر معرفة والدته بقدمها وتدهور صحتها مما اضطره لاستدعاء الطبيب لتغفو بتعبٍ في الفراش آملة أن تراها ذات يومٍ، جلس والده يارهاق على الأريكة في غرفة المكتبة وهو يفكر مليًا في كيفية التصرف في ذلك الشأن، فقد مضى وقتًا طويلًا منذ نسيان تلك الأحداث المشحونة، لاحظ "معتصم" شرود والده وتعبيراته الغامضة والتي أثارت ريبته بدرجة مقلقة، سأله مهتمًا:

إيه حكايتها بالضبط؟

ابتلع "وحيد" ريقه مديرا رأسه في اتجاهه، ثم أجابه بحذر:

الموضوع يطول شرحه، وحصل فيه لخبطة كثير وقلق و.....

قاطعته غير مكترث رغم حدية نبرته:

أنا مش فارق ده كله معايا

أصغى أباه إليه جيدًا وهو يكمل مشيرًا بسبابته وموضحًا خطورتها:

بس البت دي عاوزة تأذي العيلة وتضيع سمعتنا كلنا، واحنا مش قليلين في البلد!

سأله "وحيد" بياس رغم عدم اقتناعه باقتراحه ذلك:

طيب ماينفعش نتفاهم معاها ونشوف عاوزة إيه؟ جايز طمعانة في قرشين!

هز رأسه نافيًا:

معتقدش، دي ناوية على خراب!

ثم شبك "معتصم" قبضتي يده معًا ليتابع:

-اللي مخوفني أكثر هو حالة ماما، من ساعة ما عرفت إنها رجعت وهي زي ما إنت شايف يا بابا

هز والده رأسه موافقًا إياه وهو يرد:

-ايوه، صحتها على أدها ومش هاتستحمل أكثر من كده

-وأنا خايف أصدمها فيها

حذره "وحيد" بجدية:

-حاول يا ابني تحل الموضوع ده ودي أو بالفلوس، شوف هاتعمل ازاي، وما تخليش "نادية" تعرف بده، مش عاوزينها تزعل وصحتها تتعب

ضم شفثيه معًا مانعًا نفسه من التفوه بالمزيد، لكن عكست نظراته نية جادة وحاسمة للتصدي لأي محاولات منها لإفساد صفو العائلة، تحركت حدقاته نحو والده عندما سأله:

أخبار الشغل إيه؟

تشكل على ثغره ابتسامة باهتة وهو يجيبه:

-كله تمام

عمد "وحيد" لإظهار الحماسة في نبرته كنوع من التشجيع لابنه قائلاً:

-سمعت إنك عاوز تفتح فرع تاني، الكلام ده حقيقي؟

أوماً "معتصم" برأسه إيجابًا وهو يرد:

مضبوط، مكتب المقاولات سمعته كويسة، وأنا عاوز أستغل ده في أكثر من مكان

-ربنا يوفقتك يا ابني، أنا عارف إن الضغط عليك أكثر من أي حد

ما أنا معايا باقي العيلة، بيعملوا إيه

فعلاً، أغلبكم مهندسين ومحاسبين، ربنا يخليكم لبعض

يا رب

قالها "معتصم" وهو يجلس باسترخاء على مقعده لكن لم يهدأ تفكيره مطلقاً، فقد كُلف بمهمة أخرى تختلف عما اعتاد إنجازها لينأى بعائلته عن شرر مستطر ممثل في تلك الأنتى المسماة "آسيا" !!

الفصل الرابع

صفقت باب الثلاجة بقوة بعد أن ألقت نظرة خاطفة على محتوياتها، كانت خاوية من الأطعمة، فقط بعض الزجاجات الفارغة كانت تستحوذ على معظم الفراغ بها، عبثت "آسيا" بخصلات شعرها وهي تنفضه للخلف، فكرت في شراء الطعام الجاهز ريثما تتجول في المحال القريبة وتشتري ما تحتاج إليه، بدت الفكرة ملائمة حالياً خاصة أنها كانت تشعر بخواء معدتها، خرجت من المطبخ وهي ممسكة بهاتفها المحمول، ثم جلست على الأريكة المريحة الموضوعوعة بصالة منزلها، استندت برأسها على مرفقها وهي تتفقد أسماء المطاعم القريبة منها، ولجت إلى أحد مواقع الإنترنت لتحصل على مبتغاها لكن اضطرت لتؤجل تصفحها بسبب قرع الجرس.

زفرت بضيق ثم ألقت بهاتفها على الأريكة لتتهض بعدها من عليها، سارت ببطء نحو الباب لتفتحه فوجدت حارس البناية أمامها، تأملت تعبيراته المصدومة وهو يحدق فيها باندهاش ذاهل، حيث انفرجت شفثاه معبرة عن صدمة واضحة حينما طالعت أعينه هيئتها الجريئة، لم تكترث "آسيا" بما ترتديه وهي تستقبل ضيوفها، فقد اعتادت على ارتداء المثير من الثياب والأكثر إغراءً لتظهر أنوثتها الخاطفة للعقول، تأمل الحارس

سروالها الأبيض القصير الذي يعلو ركبتيها بمسافة كبيرة وهو مذهول من رشاقته التي حركت فيه مشاعرًا عجيبة، سال لعابه وهو يرفع عينيه نحو كنزتها -ذات اللون الأخضر الباهت- والتي تظهر كتفها الأيسر بطريقة مثيرة، تدارك نفسه حينما سألته بجدّة:

عاوز إيه؟

ابتلع ريقه قائلاً بارتباك جلي:

-ال... الأسانسير يا.. يا هانم

فهمت "آسيا" طبيعة نظراته نحوها، لم تكن بحاجة لتفسيرها فقد اعتادت على مثلها كثيرًا، انتصبت في وقتها ثم نظرت له شزرًا مبدية سخطها من حضوره غير المرحب به، بدت كلماته غير مرتبة وغامضة إلى حد ما، استندت بيدها على حافة الباب لتسأله بجدية:

ماله؟

تنحج قائلاً بتوتر وهو يجفف عرقه البارد بظهر كفه:

-كنت .. أقصد سكان العمارة ييلموا فلوس الكهرباء تاعته

مطت "آسيا" فمها قائلة بعدم مبالاة:

-شوف عاوز كام وعدي عليا بكرة أكون جهزت الفلوس، مش معايا كاش دلوقتي

شعر بجفاف يجتاح جوفه وهي تتدلل في وقتها وكأنها تتعمد استفزاز مشاعره الرجولية، هتف بتلعثم:

بس....

لم تمهله الفرصة للاعتراض حيث صفقت الباب بقوة في وجهه لتقطع عليه أحلامه الجامحة وتخيلاتها المتهوره، لوت ثغرها بتأفف وهي تعاود الجلوس على الأريكة، مدت يدها

لتمسك بهاتفها المحمول، تحولت تعابير وجهها للانزعاج حينما لفت أنظارها ذلك الخبر
الصادم عنها، فغرت شفيتها وهي تقرأه قائلة:

فضيحة أخلاقية لعارضة أزياء شهيرة!

فارت دماؤها وهي تكمل قراءة التفاصيل التي تضمنت صورة لها من أحد العروض
القديمة التي أدتها في أحد عواصم الموضة مصحوبة ببعض الأكاذيب عن كون الحفل
انتهى بسلوكيات منحرفة وتجاوزات مسيئة من قبل العارضة، شعرت "آسيا" بالحنق
لمجرد إطلاق مثل تلك الشائعات عنها، فهي ليست من تلك النوعية الرخيصة التي
تسعى لجذب الأنظار بفعل ما هو مشين أو ادعاء تلك الأقاويل عنها، لكنها تعلم جيدًا
أنها حربًا غير معلنة مع العارضات الأخريات والوكالات الإعلامية التي تدعمهن لجذب
الانتباه والشهرة وتسليط الضوء عليهن، أطلقت سبة نابية لتقول بعدها بضيق:

مش معقول كده، كل شوية كلام كذب عني، حاجة تقرف!

بالطبع لم يكن الأمر مجرد الظهور إعلاميًا فقط وبقاء اسمها على الساحة الفنية، ولكن
للمسألة أبعاد أخرى من حيث الدعاية المجانية للمؤسسة الصحفية التي تتداول الخبر
وزيادة أرباحها التجارية، كذلك رفع التمويل المادي للعارضات الشهيرات ومضاعفة
الإقبال عليهن، فأخبار كتلك تلقى صدى واسعًا في عالم الموضة وتكسب العارضة شهرة
منقطعة النظير، كما تسعى خلفها عدسات الكاميرات والبرامج الترفيهية الشهيرة لتتصي
أخبارها، و"آسيا" تعد من القلة الذين ذاع صيتهن وحققن شهرة واسعة في ذلك
المجال، فقدت شهيتها بعد قراءتها لنك الخبر المزعج وواصلت متابعة المزيد من الأخبار
عن عالم الموضة.

.....

لم تكن الوحيدة التي طالعت ذلك الخبر المنتشر على الصفحات الإخبارية، فعلى الجانب الآخر وهو يجري كعادته تصفح الأخبار وقف عنده مصدومًا مذهولاً، تصلب جسده مع قراءته لفحواه المزيج، عادة لم يكن ليهتم بالأمر لولا رؤيته لصورتها الصارخة فجذبت أنظاره إليها، عرف هويتها على الفور، فشخصية مثلها لا يمكن أن تنسى أبدًا، تحولت تعابير وجه "معتصم" للحدية ونظراته للإظلام معتقدًا أنها بالفعل قد قامت بتلك الأمور المشينة، قست نظراته وهو يتوعدها قائلاً:

مش هاسمحك تلوثي سمعة العيلة، دي فيها موتك!

أغلق جهاز (التابلت) الخاص به وأسندته بإهمال على سطح مكتبه، شبك كفيه معًا وهو يفكر مليًا في طريقة تمكنه من ردعها قبل أن يعرف أحد ما صلة عائلة "وحيد المصري" بها، انتبه للدقات الخافتة على الباب قبل أن تطل السكرتيرة برأسها قائلة بنبرة رسمية رغم رقتها:

أستاذ "نبيل" منتظر حضرتك يا فندم

رد بتلهف وقد حل يديه ليشير لها:

دخله بسرعة

أومات برأسها قائلة بابتسامة لطيفة:

حاضر يا بشمهندس!

ولج شاب ما إلى داخل مكتبه على ملامحه تعابير متحمسة وهو يقول:

- "معتصم" باشا

لوح له بيده مرددًا بنبرة شبه حادة:

تعالى يا "نبيل"

تفرس الأخير في وجهه متأملاً تلك التغييرات المزعوجة البادية عليه، جلس على المقعد المقابل له متسائلاً باهتمام:

-شكلك مضائق، في حاجة؟

تجاهل سؤاله الشخصي ليسأله هو بجدية:

ها قولي عملت إيه في اللي قولتلك عليه؟

عاتبه "نبيل" باستعلاء مصطنع وهو يضع ساقه فوق الأخرى قائلاً:

-يعني مش هتضاييف ابن عمك الأول وتعمل معاه الواجب ولا خلاص علشان أنا....

قاطعته "معتصم" بانفعال لم يستطع إخفائه:

مش وقته، ابقى خد اللي إنت عاوزه على حسابي، المهم طمني، جبت العنوان؟

رفع "نبيل" حاجبه للأعلى مستغرباً من تصرفاته غير المريحة وانفعالاته غير المفهومة بالنسبة له، رد عليه بتفاخر وهو يدس يده في جيب بنطاله:

أيوه يا سيدي، حبابي كثير ويحبوا يخدموا

فينه؟

أخرج ابن عمه ورقة مطوية من جيبه ليرفعها نصب عينيه قائلاً:

-تفضل

انتزعها "معتصم" من بين أصابعه ليقراً ما دون فيها بنظرات غامضة للغاية أصابت الريية في نفس "نبيل" وما ضاعف من شكوكه حينما رأى ينهض عن مقعده متجهاً نحو الباب، التفت برأسه نحوه يسأله باندهاش وقد ركز بصره عليه:

إيه ده؟ إنت ماشي؟ مش لسه.....

قاطعه "معتصم" قائلاً بتلهف دون أن ينظر نحوه:

-راجع ثاني، بس ورايا مشوار مستعجل

عاود "نبيل" الجلوس باسترخاء على المقعد ممتطياً بذراعيه وهو يضيف:

-تمام، أنا ها طلب غدا لأحسن مصارين بطني بتهوهو، تمام يا ابن عمي؟

انطلق الأخير نحو باب الغرفة مردداً كالبغضاء دون أن يبدي أدنى اهتمام بما سيفعله ابن عمه:

-ماشي .. ماشي

كان عقله مشغولاً بأمر واحد فقط، وهو الوصول إلى منزل "آسيا" بعد أن حصل على عنوانها، فالمواجهة بينها باتت حتمية.

.....

غفلت أثناء متابعتها بفتور لما تعرضه شاشة التلفاز منتظرة مجيء عامل توصيل الطلبات بعد أن قرص الجوع معدتها، توقعت "آسيا" أن تكون الخدمة كشيئتها بالخارج مثلما اعتادت، لكن الأجواء اختلفت هنا، فالطعام لكي يصل إلى باب منزلها يحتاج ما يقرب من الساعة على أقل تقدير، تأهبت حواسها مع سماعها لقرع الجرس، تشاءبت بتعبٍ وهي تتمطى بذراعيها ناهضة بثقل عن الأريكة، انحنت لتمسك بالأموال التي أعدتها مسبقاً ثمناً للطعام الذي طلبته، ثم سارت بتهمل نحو باب منزلها، فتحتة غير متوقعة ضيفها هذا، فقد كانت مشغولة بعد ما معها من نقود، انتهت لصوته القائل بتهمك متعمداً إهانتها:

-شكله العادي بتاعك وإنتي بتقابلي ضيوفك بالمنظر المقرف ده

رفعت "آسيا" وجهها لتطالع بأعين استشاطت غضبًا ذاك الذي أهانها بوقاحة فجأة،
تفاجأت بوجود "معتصم" أمامها، لم تعرف اسمه بعد، لكن ملامح وجهه العدوانية لم
تنسها مطلقًا، رمقته بنظرات قاسية وهي ترد بشراسة:

-المنظر ده بيخلي أمثالك يركعوا تحت رجلي!

ورغم قسوة كلماتها إلا أنه حافظ على جموده وهو يرمقها بنفس النظرات الاحتقارية،
نظر لها بتعالٍ قاصدًا ازدراءها، فبادلته نفس النظرات المهينة، لأول مرة يلاحظ لون
عينها الحقيقي، لم تكن واضحة للعدسات اللاصقة كالمرآة الأولى، عاد من شروده
اللحظي في لون حدقتها الفيروزي عندما تحركت خطوة للأمام لتسد عليه الطريق
بجسدها مانعة إياه من الولوج لداخل منزلها إن أراد ذلك، ومعلنة بصراحة أنه ضيف
غير مرحب به، شبكت ساعديها أمام صدرها متعمدة الظهر أمامه كأثى متباهية بما
تمتلكه من مقومات تثير الشهوات في نفس أي رجل يفكر في النظر إليها، ورغم كون
الأمر مريبًا إلا أنه نظر لها بنفور كبير، وتابع قائلاً بنبرة جليدية تحمل العزة:

-بس مش معايا، اللي زيك أقرف أبصلهم

ربما لم تكن معتادة سوى على كلمات المدح والثناء من قبل المعجبين بها، لذا كانت تلك
هي المرة الأولى التي تواجه فيها تلك النوعية من الرجال الغلاظ، ومع ذلك بدت
مستمتعة وهي تلاعبه بتسلية، فأحراق تلك العائلة وإفساد صفوها يحتاج لحرفية
مضاعفة وتمرس رهيب، وأي خطوة تقوم بها لتثير سكونهم تسعدها بالتأكيد، والدليل
على ذلك هو مجيء ذلك المتبجح اليوم أمامها يستفزها في عقر دارها، شعرت بانتشاء
عجيب وهي تخمن سبب قدومه، التوى ثغرها بابتسامة ساخطة وهي ترد بتهكم:

-ولما أنا كده، جاي عندي ليه؟

تدللت في وقتها أمامه لتلعب على مشاعره وهي تكمل ساخرة:

-أُكيد مش علشان تملي عينك من جمالي اللي يقرف!

استفزه طريقته المستهينة بردوده المسيئة لها، فواحدة غيرها لكانت احترقت في مكانها وانفلتت أعصابها لترد بعصبية محاولة التطاول عليه باللفظ أو حتى باليد أو بكليهما، لكن كانت على النقيض، لم تهتم بكلمة واحدة على الإطلاق، بذل مجهودًا مضاعفًا ل يبدو أمامها بكل ذلك الثبات الاتفعالي وهو يقول:

علشان خاطر أمي!

عبست تعبيراتها مرددة باستهانة ظهرت في نبرتها:

- "نادية"!

تحكم في أعصابه بقوة زائدة، فطريقة نطقها لاسمها كانت مزيجًا من التهمك والسخرية، تابعت "آسيا" مضيعة بإساءة أخرى صريحة:

مش محتاجة أسأل، هي بعثاك عندي لأنها أجبن من إنها تواجھني!

صاح بها محذراً وهو يوجه سبابته نحوها:

-تكلمي عنها كويس!

كركرت ضاحكة لتثير أعصابه أكثر، رمقها بنظرات مغلولة متضمنة التحذير، لكنها لم تكثرث به، ما لم يتحمله منها هو ارتفاع نبرة ضحكاتها الساخرة، اندفع "معتصم" بلا تفكير نحوها قابضاً على ذراعها بقسوة ثم جذبها معه إلى داخل منزلها رغماً عنها، دفعها بقوة نحو الداخل وهو يغلق الباب خلفه لتخرج "آسيا" تلك المرة عن جمودها الزائف صارخة فيه وهي تقا تل لتخليص ذراعها من قبضته التي تعصره:

-إنت اتجننت، اطلع برا!

رد بخشونة قوية وقد اتسعت أعينه غضباً:

-مش قبل ما نتكلم أنا وإنتي

صاحت به منفعلة مهددة إياه بيدها المتحررة:

-مافيش بينا كلام، في خراب وفضايح!

أمسك بيدها الأخرى ليدير الاثنين معًا خلف ظهرها، شل حركتها وهو يطالعها بنظراته المغلولة منها، قاومت قيده الإجباري قدر استطاعتها محاولة التحرر منه، هزها بعنف متراجعاً بها نحو الخلف وهو يصرخ فيها:

-أنا عارف اللي زيك كويس، جاينين من مستنقع قذارة، بس مش هاسمحك تبوظي سمعة عيلتنا وتهدي تعب السنين ده كله

ردت بتحدٍ رغم كونه يفوقها قوة غير مبالية بتبعات استفزاز الرجال الغاضبين:

-مش هاتقدر تمنعني!

احتدت نظراته على الأخير مردداً بتهورٍ أعمى وهو يركز على أسنانه:

-يبقى هاموتك

تحدته بعدم خوفٍ رامقة إياه بنظرات نارية:

-وريني؟

حرر "معتصم" رسخها ليقبض على عنقها قاصداً خنقها، فقد تفكيره العقلاني في لحظة طائشة ليتصرف ببربرية معها، لم يشعر بقوة أنامله وهي تضغط على عروقها مانعة إياها من التنفس، ومع ذلك ظلت نظراتها القوية تتحداه بشراسة رغم اختناقها، لم تكن لتستسلم له أو لغيره بتلك السهولة حتى لو كانت على أعتاب الموت

!!

.....

الفصل الخامس

إن كانت واحدة غيرها موجودة في مثل ذلك الموقف المهلك للجات للصراخ والاستغاثة بمن ينجدها من براثن الموت، لكن على عكس الطبيعي والمتوقع لم تقاومه على الإطلاق، ظلت "آسيا" ترمقه بنظراتها النارية التي تحمل كرهاً يوشك أن يحرق الأرض، ومن عليها، ورغم شعور الاختناق الذي بدأ يستحوذ عليها إلا أنها رفضت التراجع، تقطعت أنفاسها وبدأت تدرك حاجتها للتنفس، لكن عنادها كاد يودي بحياتها، فهي لن تستسلم أبدًا حتى لو كانت على شفا خطوة من الموت، لن تريه أو تري غيره لحظة ضعفها، على الجانب الآخر، بادلها "معتصم" نظرات حقودة كارهة لما تبثه بداخله من مشاعر حنق وغل، لما توجده فيه من تصرفات بربرية لا يجذبها مطلقًا، تجمدت نظراته على حدقتها الفيروزييتين، كانتا طبيعيتين، وتكرر في ذهنه سؤالاً ملحًا، لماذا ترتدي العدسات اللاصقة إن كانت تمتلك أعين ساحرة بحق، انتبه لتلك الزرقة التي تتسرب إلى بشرتها، شعر بالخوف لإقدامه على شيء أحمق وما ضاعف من تأنيب ضميره هو عدم مقاومتها له، أبعد أصابعه الغليظة عن عنقها متراجعًا بهلع للخلف وهو يجاهد لتلك أعصابه التي انفلتت منه في لحظة طيش هوجاء، نظر لها مصدومًا وهو يستوعب ما

أوشك على ارتكابه، شهقت "آسيا" بقوة لتستعيد أنفاسها من جديد، وضعت يدها على عنقها تتحسسه، ظلت تسعل لعدة مرات حتى عادت إلى طبيعتها، ومع ذلك لم ينتقص بغضها له ذرة واحدة، رمقته قائلة بتعالٍ رغم حشجة صوتها:

-مكملتش ليه؟ خوفت؟

حاول أن يضبط انفعالاته الشائرة بداخله ليحدثها بجمود انعكس على تعبيراته:

-اللي زيك ماتستهلش إني أضيع نفسي علشانها، إتي واحدة رخيصة!

كركرت ضاحكة رغم الوهن الذي تسلل إلى خلايا جسدها مزدريّة إهاناته، استخفت بهوره قائلة ببرود واثق:

-واللي زي دي هـ

بترت عبارتها عمدًا لتشير فضوله قبل أن تتابع بغرور وهي تستند بيدها على حافة الأريكة:

هاتخليك ترع عند رجليها تطلب العفو والسماح

استشاط من نجاحها الدائم في استفزازه، في إيصاله لقمة الانفعال حتى لو كان متسلحًا بأقوى دفاعاته، وقف قبالتها يشير لها بسبابته محذرًا:

-أحسنك ماتلعيش بالنار، لأنك مش هاتستحملي حاجة واحدة من اللي هاعملها فيكي، وفي الآخر هتتحرق لوحيدك

صفقت بيديها قائلة بتحدٍ:

-وماله، أنا جاهزة!

لم تصغ "آسيا" لباقي ثرثرته المتعصبة بسبب ذلك الصداع الهائل الذي عصف برأسها في لحظة، تبعه دوارًا مصاحبًا له، هي تعرف ذلك الإحساس جيدًا، إنه إشارة إنذار

لانخفاض مستويات السكر بالدم نتيجة عدم تناولها للطعام لفترة طويلة واستنزاف طاقتها دون وجود ما يعوض ما فقدته، كانت تصيبها تلك الحالة من آن لآخر حينما تعكف على اتباع حمية غذائية قاسية لتفقد الوزن، لم ترغب على الإطلاق في إظهار ضعفها أو تأثرها بشيء، بذلت مجهودًا هائلًا لتحافظ على ثباتها أمامه، كي لا تشعره بأنها ليست على ما يرام، نظر لها باشمئزاز متأقف، ثم أولاها ظهره قائلاً بقسوة وهو ينظر له بنفورٍ من طرف عينه:

هرجعك من مطرح ما جيتي، بس بعد ما أندمك!

لم يكن بها من الطاقة ما يجعلها ترد عليه، تمت فقط أن يرحل قبل أن تتهاوى قدميها، تحاملت على نفسها لتبدو بكل ذلك الثبات، انتهت من وسط ضلالاتها التي بدأت تغلف عقلها لقرع الجرس وقبل أن تركز حواسها على خطواتها التالية كان "معتصم" قد سبقها في ردة فعله، حيث اقترب من الباب ليفتحه، اعتقدت لوهلة أن عامل توصيل الطلبات للمنزل قد أحضر ما طلبته، فاتجهت بخطوات متهادية مقاومة لإحساسها بالدوار نحو الداخل متناسية أنها أحضرت مسبقًا المال من حقيبتها، وما إن اقتربت من عتبة غرفتها حتى فقدت قدرتها على المواصلة، مدت يدها لتستند على حافة الباب، لكن خارت قواها كليًا، غلف الظلام خلايا عقلها، فغابت عن الوعي ليسقط جسدها بقوة على الأرضية مسببًا ارتطامًا عنيفًا لرأسها.

طالع "معتصم" بأعينه المشتعلة غضبًا الثلاثة رجال المرابطين أمامه، جاب بنظرات متفحصة هيئتهم المريية، شعر بعدم الارتياح نحوهم، فهو يعرف مثل تلك النوعية من الأشقياء والمشاعبين، سألهم بحدية وهو يسد بجسده الباب:

إنتو مين؟

أجابه ذلك الذي يقف في المنتصف:

مش ده بيت جماعة "شرف الدين"؟

كان مدرّكًا بحدسه الذكوري أن رؤيتهم لـ "آسيا" بملابسها تلك ستثير فيهم شيئًا ما، لذا كان عليه التصرف بحنكة دون أن يلفت أنظارها إليهم، استدار "معتصم" برأسه نصف استدارة ليجدها ابتعدت عن الصلاة رغم استغرابه من تصرفها، تنفس الصعداء، ثم ضيق نظراته متابعًا تساؤلاته وهو يتحرك بجذر نحو الخارج مجبرًا إياهم على التراجع أيضًا:

عاوزين إيه؟

أجابه أحدهم بامتعاض وهو يعبث بتلك المدية الصغيرة المتدلية من إصبعه:

لينا فلوس وجايين ناخدها منه

ركز "معتصم" أنظاره عليها متوهّمًا في عقله لو أن ذلك اللفظ وقعت أنظاره الشهوانية عليها لربما عبث شيطان رأسه به ودفعه لفعل ما لا يُحمد عقباه معها، شعر أنه مكلف بحمايتها وإن كانت غريمته، ارتدى قناع القسوة متسائلًا بغلظة:

كام يعني؟

رد الواقف في المنتصف بوقاحة مستهزئًا به:

ليه؟ هاتدفعهم إنت؟

سلط أنظاره الحانقة عليه وهو يرد بقوة:

آه، عندك مانع

رفع الرجل يده في الهواء قائلاً بابتسامة متسعة:

طالما هناخد الأوبيج يبقى مالناش فيه

أضاف الواقف على يساره قائلاً وهو يغمز له:

-الباشا عليه ١٥٠ ألف ليلوح، ها يا بيه هتدفع ولا ...

فغر "معتصم" فاهه مصدومًا من كبر الدين وهو يقول:

-نعم، ١٥٠ ألف جنية؟!!

أوماً الرجل برأسه مؤكداً:

-أيوه، هتدفع ولا نخش نكلم الجماعة جوا وهما يتصرفوا

كانت كلماته الأخيرة كوقود النيران بالنسبة له، لا يعرف ما الذي حثه ليتدخل في شئونها، ربما لأن طيف وجه "نادية" الباكي تجسد في عقله فألزمه بصورة أو بأخرى بأن يفعل الصواب، لذا قرر في لحظة - اعتبرها غباء منه - أن يسدد الدين، فهو حتماً لن يمنحه الفرصة لرؤيتها، نظر له "معتصم" شزراً وهو يرد بخشونة:

-هادفع!

ثم دس يده في جيب سترته ليخرج منها دفترًا للشيكات، حرر ورقة بالمبلغ المطلوب دفعه قبل أن يناولها للسمج الذي يتسم بسخافة، ضاقت نظراته على الأخير وهو يحذره بنبرة أمرة:

-واياك حد فيكو يقرب من هنا!

فرك الرجل كفي يده معاً قائلاً بانتشاء بعد أن زاغت أبصاره وهو يرى المبلغ النقدي يدون به:

-دايمًا الجيب عمران يا باشا

ثم اختطفه من بين أصابعه ليتأكد مما قرأته أعينه، وأضاف بابتسامة صفراء:

-كده حقنا وصل، سلام يا باشا

رمقهم "معتصم" بنظرات دونية مستنكرا تورطها بطريقة ما مع تلك الأشكال الضالة، تابعهم بأعينهم حتى انصرفوا، وقبل أن يستدير عائداً إليها ليوبخها استوقفه أحد الأشخاص متسائلاً:

ده منزل مدام "آسيا"

استفزه ذلك اللقب الذي منحه هذا الغريب لشخصها، فالكل على ما يبدو يعرفونها إلا هو، التفت "معتصم" بجسده نحوه ليطالعه بنظرات حادة، اختفت الدهشة الغاضبة من تعابيره المشدودة حينما تأمل ثيابه والتي أشارت إلى كونه عاملاً لتوصيل الأطعمة، ردد العامل سؤاله من جديد وهو يتأمل الورق التي مجوزته والمدون بها العنوان المذكور:

-البواب قالي إن المدام ساكنة هنا و....

قاطعه "معتصم" متسائلاً بعصبية ملحوظة:

حساب الأكل كام؟

مكتوب في الإيصال يا فندم

قالها العامل وهو يناوله الطعام بالإضافة إلى قيمة الفاتورة الخاصة به، أخرج "معتصم" من جيبه بعض النقود ثم أعطاها له، شكره العامل على البقشيش الزائد الذي منحه له ثم استدار عائداً من حيث أتى، تتم "معتصم" مع نفسه بضجر:

-ناقص مين تاني مش عارفك يا "آسيا" هانم!؟

دفع باب منزلها بيده وهو يلج للداخل، انتابه إحساساً مقلقاً ملاً صدره بالريبة لسكون المكان، فشخصيتها الهجومية لن تتقبل تدخله في شئونها، لكنها لم تظهر على الساحة في الدقائق الماضية، نفذ تلك الفكرة عن عقله، فلن يشغل باله بأمرها لأنها حتماً ستوصله للجنون، اقترب من المطبخ الحديث المفتوح على صالة المنزل ليضع الطعام

على الطاولة الرخامية الواصلة بينهما، حثه فضوله من جديد على البحث عنها، وقبل أن يتحرك خطوة تراجع عن ذلك معنفاً نفسه:

إنت مالك بيها؟

تحرك بصره عفويًا نحو الجانب ليلمح ساقها ممدتين على الأرضية، قفز قلبه في قدميه بهلع، وبدون تفكير اندفع نحوها ليجدها تفرشها بجسدها وفي حالة إعياء شديد، انحنى عليها جاثيًا على ركبته أمامها منادياً لها:

- "آسيا!"

هزها بقوة عليها تستجيب له، اعتقد في البداية أنها حيلة منها لإجباره على الركوع أمامها كما أخبرته قبل قليل، هب واقفاً ليصيح فيها بشراسة وقد احتقنت أعينه بشرر مستطر:

إنتي فعلاً مجنونة!

ألقي عليها وابلأ من الكلمات اللاذعة مهيئاً إياها ومتوقعاً أن تنهض بين لحظة وأخرى لترد عليه بعدائية بعد أن انطلت عليه خدعتها، ولكن بدا وكأنه يحدث نفسه، لم يجد منها استجابة حيوية، تجمد في مكانه ليتأكد أنها لا تمزح معه، ضاعف سكون جسدها ذلك الخوف بداخله، جثا مجدداً على ركبتيه، وتلك المرة حركها برفق، أزاح خصلات شعرها الأسود ليظهر له جانب وجهها المختبئ خلفه، استشعر تلك البرودة الكاسحة على بشرتها، ارتجف قلبه رعباً، لقد اختبر ذلك الموقف من قبل حينما توفيت والدته نصب عينيه وهو طفل صغير فلم يستطع أن يفعل شيئاً لإنقاذها، كانت ممددة على مثلها على بطنها فوق الأرضية لا تصدر عنها أي حركة، فقد سكون مخيف يلبد الأبدان وبرودة قارصة تختطف الأنفاس جعلته آنذاك عاجزاً حتى عن الصراخ لطلب المساعدة ليكتشف بعدها أنها توفيت جراء غيبوبة سكر انخرطت فيها لتسحبها نحو شفير

الموت، عرف لاحقًا أنه كان من الممكن إسعافها لو لم يكن صغيرًا وقتها ليدرك حاجتها لما قد يمنحها الأمل الأخير في النجاة، أفاق من صدمته المرتعدة محاولاً لملمة شتات نفسه للتعامل مع أزمته المخيفة، فهو الآن أكثر نضجًا، أكبر سنًا، والأقدر على التصرف حيال أمرها، مرر ذراعيه أسفل جسدها ليحملها، اعتدل في وقفته لينظر إلى ذلك الجرح النازف في جانب رأسها، اعتراه التوتر القلق، تساءل مصدومًا:

-حصلك إيه؟

ولج لها إلى داخل غرفة نومها، ثم أسندها برفق على الفراش واضعًا الغطاء على جسدها، أسرع عائدًا إلى المطبخ يعد لها كوبًا من الماء ممزوجًا به قطع السكر، حطم الكثير وهو يبحث عن غايته، عاد إلى غرفتها جالسًا على طرف الفراش، مرر يده خلف ظهرها ليرفعها إليه، أسند رأسها على صدره وبدأ بإجبارها على ارتشاف القليل منه وهو يقول:

- "آسيا"، اشربي ده! سمعاني!

لم تعطه مؤشرًا على تجاوبها معه، أسند الكوب على الكومود ثم مددها على الفراش، اعتدل في وقفته وهو يدس يده في جيبه ليخرج هاتفه المحمول منه، عبث بأزراره حتى وصل للرقم المنشود، ضغط عليه مترقبًا رد الطرف الآخر بتلهف قبل أن يقول بجدية انعكست حتى على تعبيراته القلقة:

-دكتور "مصطفى"، عاوزك تيجي حالاً

صمت للحظات قبل أن يتابع:

-لأ مش في البيت، في مكان ثاني هابعتك عنوانه، بس أرجوك متتاخرش، الحالة مستعجلة!

أنهى معه المكالمة ليعاود التحديق في "آسيا" ذات الطابع القاسية، حتى في سكونها هي تقسو عليه وتعذبه بلا رحمة، جلس على طرف الفراش إلى جوارها متأملاً إياها، كتم الدماء النازفة منها مستخدماً المنشفة القطنية، نظر لها مطولاً ومتسائلاً بخفوت بنبرة تحمل اللوم:

-بتعملي فينا كده ليه؟

أراد ألا يشحن تفكيره ضدها حالياً، ابتعد عنها محاولاً إلهاء عقله مؤقتاً عن عدائيتها، لكنه لم يستطع، جلس من جديد إلى جوارها، أحنى رأسه على فخما مستشعراً أنفاسها، وضع إصبعيه على جانب عنقها يتفقد نبضها، تنفس الصعداء لكونها مازالت على قيد الحياة، انتظر قرابة النصف ساعة بغرفتها يجوبها جيئة وذهاباً على أعصاب احترقت عشرات المرات حتى أتى رفيقه الطبيب ليفحصها، تركه "معتصم" بصحبته وجلس بالخارج ينتظر ما سيخبره به متمنياً أن يكون قد فعل الصواب، خرج إليه "مصطفى" يأمره بعد دقائق:

محتاجة محاليل تتعلق لها ضروري، لازم نقلها المستشفى

صمت "معتصم" لثوانٍ يفكر ملياً فيما سيفعله، ربما يريد مساعدتها لكنه لا يدرك ردة فعلها إن اصطدم كلاهما في العن خاصة بعد أن تستعيد وعيها، ستحدث فضيحة لا محالة، توترت تعبيراته وهو يرد متسائلاً:

هي حالتها خطيرة؟

-لأ بس

قاطعها بلا تفكير:

-شوف إنت هتحتاج إيه وأنا هاجيبه، بس بلاش مستشفى

نظر له "مصطفى" بغرابة متعجباً من قراره المريب قبل أن يرد بجذري:

-ماشي، أنا هاتصرف!

.....

مضى الوقت ببطء والاثنان يراقبان تسرب المحلول الطبي إلى جسدها عبر الأنبوب الموصول بجملدها، أشار "مصطفى" بيده لـ "معتصم" كي يتبعه إلى خارج الغرفة، لحق به الأخير دون تعليق، كان يفكر في ردود منطقية مقنعة ليجيب بها على صديقه المقرب إن سأله مستفسراً عن طبيعة العلاقة بينهما، لم يكن الكذب من الخيارات المتاحة لديه، نظر "مصطفى" له مطولاً قبل أن يقطع حاجز الصمت متسائلاً:

-مممكن أعرف مين دي؟

تجمدت تعابير وجهه عليه، بدا شاردًا في نظراته وهو يرد بحرج:

-أنا بصراحة مش عارف أقولك إيه، بس الموضوع أكبر مني وليه علاقة بـ.....

قاطعته رافعاً يده أمام وجهه:

مش لازم تحكي لو مش حابب ده، هأكون متفهم، بس أنا عاوز أطمئن عليك، خايف تكون واقع في مشكلة ولا حاجة

تهد الأخير قائلاً بحيرة بائنة في نبرته:

لحد دلوقتي لسه، بس الله أعلم بعدين إيه اللي ممكن يحصل

ريت "مصطفى" على كتفه قائلاً بهدوء:

-عمومًا هي البنت شوية وهتفوق، هو واضح إنها مكالتش بقالها فترة وده أثر على نشاط جسمها، يعني زي ما بنقول كده حصلها هبوط، يا ريت تهتم بصحتها شوية

ابتسم "معتصم" قائلاً بسخرية:

هابقى أقولها الكلمتين دول لما تفوق

ثم حدث نفسه متابعًا بتهكم:

-علشان تعرف تعافر معايا كويس!

سأله "مصطفى" باهتمام:

-وأخبار طنط "نادية" إيه وعمو "وحيد"؟

رد باقتضاب:

-تمام الحمدلله

كان يود سؤاله عن ابنة عمه "أية" لكنه تخرج منه، فرمى سييدو ذلك أمامه باهتمام زائد منه نحو شخصها تحديداً، وحينها لن يستطيع إنكار أنه بالفعل يشعر نحوها بمشاعر عميقة يكتمها بداخله منذ زمن بعيد، أثر السلامة - مؤقتاً - حتى يحين الوقت الملائم للإقدام على تلك الخطوة الحساسة، لذا تساءل بنفس الابتسامة التي يجيد رسمها على شفثيه:

-وباقي العيلة كويسين؟

-كلهم بخير

أضاف بتنهيذة أظهرت إحباطه من رده العام:

-تمام، خليني أسمع عنكم كل خير، وسلملي عليهم كلهم، هستأذنك ألحق شغلي في العيادة لأنني اتأخرت و..

قاطعته "معتصم" متفهماً:

-ربنا معاك، ومعلش يا درش تعبتك معايا

ابتسم "مصطفى" قائلاً:

-ولا يهملك، احنا أصحاب
رد عليه بود وهو يرت على كتفه:

طبعا

اصطحبه إلى الخارج وهو يمدحه بكلمات ممتنة، فرغم اختلاف تخصصيهما إلا أنهما بقيا
أوفياء لعهد صداقة الطفولة، زفر "معتصم" بعمق لعدة مرات وهو يستدير عائداً إلى
غرفة نوم "آسيا"، كان عليه الاستعداد والتحفز لصدام آخر وشيك سينشب بينهما
لتفسير ما حدث لها !!

.....

الفصل السادس

تنفس بعمق وهو يلج إلى غرفتها بجدٍ متوقعًا أن تكون قد استعادت وعيها، ألقى "معتصم" نظرة خاطفة عليها فوجدها مازالت غافية، ضمد الطبيب "مصطفى" جرح رأسها بعد أن عاجه، لم تكن بالإصابة الخطيرة، وستتعافى منها مع الوقت، خطا نحو الداخل ملقيًا تلك المرة نظرات متأملة لغرفتها، كان الأثاث حديثًا وبالطبع اللمسة الأنثوية جلية فيه، اقترب من المرأة مرورًا أنظاره على ما عليها من مساحيق تجميل وعلطور مميزة، أمسك بقنينة عطر مستنشقاَ عبيرها، بدا تأثير الرائحة قويًا على أنفه الذي زَمَّ بها، أعاد وضعها ثم التفت بجسده نحو "آسيا" متسائلًا بفضول واضح عليه:

يا ترى حكايتك إيه؟

سحب ذلك المقعد الموضوع أمام التسريحة ليضعه بجوار الفراش مراقبًا إياها في صمت إجباري، استند بصدغه على إصبعيه مركزًا بصره على وجهها الهادئ والذي يخفي خلفه الكثير من الغموض المهلك، هي حقًا بارعة في استفزاز الآخرين، وكان هو أحد ضحاياها، بل وأجبرته على إخراج الشخص البربري الموجود بداخله ليتصدى لشراستها، رفع أعينه للأعلى حيث المحلول الموصول بكفها، زفر ببطءٍ وهو يدس يده في جيبه ليخرج هاتفه المحمول، تفقد سريعًا البريد الإلكتروني الخاص به متابعًا أعماله العالقة ثم نقل هاتفه على وضعية الصامت ليبقى مستعدًا للحظة إفاقتها، شعر بالملل من انتظاره الذي طال، أرخى رابطة عنقه ونزع عنه سترته ليبقى حر الحركة، رسم

في رأسه عشرات السيناريوهات للحظة المواجهة الحتمية معها، بالطبع كانت النهايات غير مبشرة على الإطلاق، انتهت حواسه مع تلك التأويهة المتألّمة التي خرجت من بين شفّتها، اعتدل "معتصم" في جلسته، وانتظر بتوترٍ استعادة وعيها، لم تمض سوى بضعة ثوانٍ قبل أن تفتح جفنيها وهي تصدر أنين خافت، وضعت "آسيا" يدها على جبينها تتحسس محرك رأسها للجانبين، شعرت بتلك الوخزة في جلدتها فهمست بنبرة موجوعة:

آه، دماغى!

تحفزت حواسها مع سماعها لذلك الصوت الذي يقول بهدوء:
حمدلله على السلامة

حركت عينيها في اتجاه مصدره لتجد غريمها جالسًا على المقعد يطالعها بنظرات جامدة، انتفضت معتدلة في نومتها وهي تحاول إيجاد تفسير منطقي لوجوده معها في غرفتها، سألته بجدية وقد ارتسم الغضب على وجهها المليء بعلامات الإعياء:
-إنت بتعمل إيه هنا؟

رد ببرود متعمدًا تلك المرة أن يستفزها:

-ده بدل ما تقولي شكرًا يا "معتصم" بيه على مساعدتك ليا، عيب عليكى!
عبس وجهها كليًا وهي تسأله مصدومة:
-مساعدة!؟

التوى ثغره بابتسامة متهمكة موضحًا بغرور:

-مش معقول مش فاكرة اللي حصلك، عمومًا أنا عملت اللي عليا واطمنت عليكى

تذكرت سريعًا ما مرت به من لحظات وهن نتيجة عدم اهتمامها بصحتها الغذائية فأفقدتها وعيها، وبالطبع الباقي ليس بحاجة إلى تخمين، استشاطت نظراتها وبدت تعبيراتها مشدودة للغاية، قامت "آسيا" بنزع الإبرة الطبية عن كفها غير مكترثة بالألم القوي الذي أصابها جراء تلك الشدة العنيفة، تفاجأ "معتصم" بما تفعله فهب واقفًا من مكانه متجهًا نحوها وهو يسألها مدهوشًا من تصرفاتها اللا عقلانية والطائشة:

-بتعملي إيه يا مجنونة؟

نزعت الضمادة أيضًا عن رأسها صارخة فيه بجنون وهي تلقيها نحوه:

-اطلع برا بيتي

اندفع نحوها قابضًا على رسيغها بأصابعه، أبعدهما خلف رأسها قائلاً بخشونة:

-اهدي

تلوت بشراسة محاولة الإفلات منه، لكن فارق القوى الذكورية كان لصالحه، ثبتها جيدًا، ثم تابع بصرامة وهو ينظر مباشرة في عينيها:

-أنا أصلًا ماشي

ردت بوقاحة متجاهلة عن عمدٍ معروفه معها وغير مكترثة بتبعات ما ستتفوه به:

-يالاً في داهية!

احتقنت دمائه في شرايينه على الفور من إهاتها المستفزة، شدد من ضغطه على معصمها مهددًا بانفعال ملحوظ:

-لمي لسانك بدل ما تندي!

ردت بتحدٍ دون أن يرف لها جفن:

-عاوزه أشوف الندم ده

غمز لها قائلاً ببرود ليخمد ثورتها المتلهفة لإندلاعها:

مش النهاردة

ثم أحنى رأسه على وجهها مقلصاً المسافات ليضيف بغموض:

بس هايجي يوم إتي بنفسك هاتشكريني على الخدمة اللي عملتهاك!

ارتابت من جملة التي تحمل الثقة والغرور في نفس الآن، لكنها حافظت على تجلدها
وصلابتها أمامه لترد بقوة:

ده في أحلامك وبس

ثم اقتربت بوجهها منه قاصدة إرباكة بسلاحها الأثوي الذي تجيد استخدامه بحرفية،
استخدام شفيتها، ونظراتها الآسرة، شعر "معتصم" بأنفاسها تحرق وجهه الملتهب
مسبقاً، لكن في تلك اللحظة امتزج الغضب مع نظرات مغرية وتهديدات أخرى خفية
وموحية لا يستطيع أي رجل مقاومتها أو الصمود امامها كثيراً، أدرك أنه سيقع تحت
تأثير سحرها الفتاك إن تخلى عن دفاعه، أراد أن يوصل لها رسالة صريحة أن ذلك
الموقف لن ييم سوى عن كره شديد متبادل بين قطبين لن يتراجعا عن إذاعة بعضهما
البعض ألواناً من القسوة والعناد، نظر لها بحقد ملوياً ثغره بازدياء وهو يقول:

-وأنا موافق!

أراد إشعارها من نظرتة أنها لن ترقى إلى تطلعاته، بينما استلذت "آسيا" بالتأكد من
كراهيته لها، أرخى "معتصم" قبضتيه عنها مبتعداً للخلف ليعتدل في وقفته، زحفت
بجسدها على الفراش للخلف لتبدو أكثر استعداداً وتحفزاً للاقتتال معه إن تطلب
الأمر ذلك، رمقها بنظرة أخيرة غير مريحة وهو يرد بألفة تناقض حدية الأجواء:

سلام يا "آسيا"

التفتت برأسها باحثة عما يمكن أن تقذفه به فلم تجد سوى الكوب الزجاجي، ألقته دون تفكير فارتطم بظهره محدثاً ألماً قوياً به، استدار نحوها يحدجها بنظراته النارية، شعر بذلك الألم يضربه، فرك بيده ما استطاع أن يصل إليه متحكماً بصعوبة في أعصابه التي تتوق للفتك بها قائلاً بابتسامة جليدية:

-مقبولة منك-

ردت مبتسمة بقسوة وهي تشير بحاجبها:

لسه الوجع جاي

فتح ذراعيه في الهواء قائلاً بغرور:

-وأنا مستنيه!

ثم أسرع في خطاه قبل أن تنال منه مجدداً بضربات غير متوقعة، انتظرت للحظات حتى سمعت صفق الباب بالخارج لتقول معنفة نفسها:

دي غلطي من الأول، كان لازم أخذ احتياطاتي وماسبش نفسي أوصل للحالة دي قصاده!

كزت على أسنانه قائلة بغلي:

مش هاتحصل تاني، وده يعلمني إني ماديش فرصة لحد يمسك عليا غلطة، وخصوصاً عيلة "المصري"

أخفضت نظراتها لتحقق في أثر الإبرة في كفها قائلة بوعيدٍ شرس:

-اللي عملته معايا ماتجيش نقطة من اللي شوفته يا "معتصم"!

.....

بدا غير مهندم وهو يخرج من مدخل البناية متجهًا نحو سيارته ليستقلها بعد معركة قصيرة مع تلك الشرسة المسماة "آسيا"، أغلق "معتصم" الباب خلفه متأملًا ما أحدثته فيه من إرهاق ذهني ومجهود بدني كبير، ناهيك عن إتلاف أعصابه المعتاد معها، ضبط طرفي ياقة قميصه وهو يتأمل وجهه في المرآة، لم تكن تعابيره طبيعية، ضرب بقبضته المقود محدثًا نفسه:

-بني آدمة صعب، مش ممكن!

أسند على المقعد المجاور له سترته التي نزعها بعد أن ابتلت بالمياه، ثم وضع يده على فقرات ظهره يدلکها برفق متابعًا حديث نفسه بضيق:

لو كنت فضلت ٥ دقائق كمان كان واحد فينا خالص على الثاني!

ورغم ذلك لم يمنعه كرهه لما تفعله من التفكير بفضول في طبيعة الأشخاص الذين تتعامل معهم، وفي طبيعة مهنتها كعارضة أزياء تهواها صحف الفضائح وتلاحقها لتنشر المزيد عما يخصها من تجاوزات مثيرة، شعر بالانزعاج المزوج بالغضب لمجرد تخيلها تمارس دلالتها بتلك الطريقة التي تشير إليها الأخبار -متعمدة استفزاز القراء والتلميح بفساد أخلاقي- لتوقع الرجال عند أقدامها، بل وربما يتخطى الأمر حدود ذلك بكثير، مما لا يجوز نشره علنًا، شعر بحالة من الفوران تعترى جسده، برغبة ملحة تدفعه للترجل من السيارة والصعود إليها من جديد، وربما التهور وقتلها قبل أن تقرأ والنتها عنها وتصدم فيها مثل صدم هو الآخر، أطلق سبته خافتة من بين أسنانه مديرًا محرك السيارة لينصرف من المكان مقاومًا بمجهود مضاعف ما يملأ رأسه من أفكار جامحة، حاول إفراغ شحنته المتعصبة في الضغط على المقود وهو ممسك به أثناء قيادته لها، لكنه فشل، ظل طيفها يتراقص في مخيلته ليزيد من استفزازه ويجعله يقود بتهور، أوقف السيارة فجأة ضاغطًا على المكابح ليصيح غاضبًا:

-كفاية بقي!

ثم عاود قيادتها من جديد ليصفها بعيدًا عن الطريق الرئيسي بعد أن صدحت أصوات الأبواق من حوله، أغمض "معتصم" جفنيه للحظات ليحبر نفسه الهاجعة على الهدوء قسرًا، فحالتة العصبية كادت تسبب له حوادث سير جمّة إن لم يكن حذرًا في قيادته، أرجع ظهره للخلف متسائلًا بتنهيده عميقة وهو يسند مرفقه على النافذة:

-بتعذبيني معاكي ليه يا "آسيا"

وكان حديث نفسه بوابة للتنفيس عما يجيش في صدره من هموم اضطر أن يكتمها فيه، لاح في عقله صورة "نادية"، تلك السيدة التي أفنت عمرها في تربيته بعد أن تزوجت من والده ليصبح هو محور اهتمامها بالكامل، فنال حبها وعطفها وحنانها وعوضته عن غياب أمه الراحلة، وشعر معها بالأمان الأسري، وجد "معتصم" هاتفه الصامت يهتز في جيبه، أخرجه منه مدققًا النظر في اسمها الذي ملأ الشاشة، كان يشعر بما يعتري صدرها من رغبة عامرة في الالتقاء بابنتها بعد أن عرفت الطريق إليها، لكنها ليست مثلما تخيلت، هي النقيض في كل شيء، عبست تعابيره وتجهمت نظراته وهو يردد لنفسه باستياء:

-إنتي ماتستهليش واحدة زها يا أمي!

تجاهل اتصالها مضطربًا كي لا تفضحه نبرته ويعجز عن إخفاء ما يشعر به، ألقى الهاتف بجواره ثم أعاد تشغيل المحرك ليقود السيارة إلى مقر عمله !!

الفصل السابع

استعادت عافيتها خلال الأيام التالية مما منحها الفرصة لشراء ما ينقصها، وكذلك لجمع المزيد من المعلومات عن ذلك الخصم الشرس الذي احتل مقدمة قائمتها السوداء، حدقت "آسيا" في الطريق من شرفتها مرددة اسمه بين شفيتها:
- "معتصم"!

تضمنت نبرتها كراهية مضاعفة له، رغبة شيطانية في إهلاكه بعد إذاقته المعاناة، بالنسبة لها هو من استحوذ على كل شيء في الوقت الذي حُرمت هي فيه من أقل الحقوق، انتصبت في وقتها وهي تدس يديها في جيبي سروالها القصير متابعة حديث نفسها:

مش هاخليك ترتاح ليوم

أخرجت ورقة مطوية من جيبيها لتقرأ فيه عنوان مكتبه، قست نظراتها أكثر وهي تكمل بعدائية غامضة:

هاتشوف اللي عمرك ما شوفته معايا

أخرجها من تفكيرها الانتقامي رنين هاتفها، استدارت بجسدها ببطء لتحدق فيه، ثم سارت بخطوات متأنية نحو الطاولة لتلتقطه بيدها، زادت ملاحظها عبوسًا مع قراءتها لاسم أيها مضيئًا على شاشته، سحببت نفسًا عميقًا لفظته دفعة واحدة قبل أن تجيب على اتصاله قائلة ببرود:

أبوه يا بابا

رد بحماس كبير:

حبيبة قلبي، وحشاني يا "آسيا" جدًا

بدت غير مقتنعة بأشتياقه الزائف لها، تطلعت إلى طلاء أظافرها وهي ترد بفتور:

وانت كمان

تابع قائلاً بنفس النبرة المليئة بالحيوية:

ميرسي يا حبيبتني على اللي عملتية معايا، إتني بنت أبوكي بصحيح، أنا مش عارف من غيرك كنت اتصرفت في الفلوس ازاي لوحدي وفي الوقت القليل ده كمان!

لم تفهم المقصد من جملته التي كانت إلى حد ما غامضة، لذا سألته مستفهمة:

-عملت إيه؟

أجابها قائلاً:

مش إتني دفعتي الديون عني للرجال إياه، هو بعث المندوبين بتوعه ليكي

أصغت إليه بتركيز محاولة ربط أطراف الخيوط ببعضها البعض، سألتها بجديّة:

-نسيتي ولا إيه يا "آسيا"؟

تنهت حواسها بالكامل لما أفصح عنه، على ما تذكر لم يقم أحد بزيارتها مؤخرًا إلا غريمها

"معتمص"، لكنها لم تلتقي بمعارف والدها، سألته من جديد لتتحقق من شكوكها التي

بدأت تساورها:

-الكلام ده حصل إمتي؟

رد مازحًا:

-بقيتي بتنسي كثير، اللي واخذ عقلك

لم تكن في حالة مزاجية تسمح بتقبل مزاحه فصاحت بنفاذ صبر:

من فضلك يا بابا، قولي جوم امتي رجالته؟

أجابها بهدوء:

من كام يوم، وهو بنفسه اتصل يشكرني على صدق وعدي معاه، إتني طولتي رقبتني،

بس اللي مستغربه إنه يقول كان في راجل موجود معاكي وهو اللي

قاطعته قائلة باندھاش وقد تأكد حدسها:

-راجل

رد عليها:

-ايوه، مش إتني بعتي الفلوس مع حد؟

حد

-أه، راجل تبعك وهو اللي خلص كل حاجة

اتضححت الصورة واكتملت في رأسها بعد أن ربطت الأحداث معًا، ف "معتصم" كان

متواجدًا في منزلها في نفس الفترة التي تم تسديد الدين بها، إذًا فهو حتمًا على صلة

بالأمر، حاولت أن تبدو نبرتها ثابتة وهي تجيبه:

-أها.. افتكرت .. ده واحد بيخلصلي شوية مصالح قولته يتعامل معاهم

ثم زادت نبرتها جدية وهي تحذره:

بس بليز يا بابا الأشكال دي ماتخليهاش تيجي عندي تاني!

صمتت "آسيا" للحظة قبل أن تضيف باستياء:

-ويا ريت يا "شرف" بيه تبطل الداء ده

أناها صوته ممتعضًا من لهجتها الرسمية معه وهو يقول:

هاحاول، إتني عارفة إنه مش بإيدي، أمك هي السبب في اللي أنا وصلته، لو كانت
وقفت جمبي زمان مكانش ده بقي حالي ولا كنت حطيتك في موقف زي ده، بس
هي اللي باعتك وخاتني علشان الأغني مني!

نفس الأحاديث والجمال المتحاملة والتي تزيدها غضبًا عندما يلقيها على مسامعها ليتأكد
من اشتعال جذوة حنقها نحو والدتها، ملت من كثرة تكراره للأمر فصاحت بجدة:

-كفاية مش عاوزة أسمع

رد بخشونة:

قبل ما تحطي اللوم كله عليا، حاسبها هي الأول، أنا عملت اللي أقدر عليه معاكي
كورت "آسيا" قبضة يدها ضاغطة على أصابعها بقوة كوسيلة لكظم غضبها قبل أن
يثور، ردت بعصبية وقد احتدت نظراتها:

-حافضة ده كويس، وعارفة أنا هاعمل إيه بالضبط

طيب بأقولك

كان والدها على وشك إضافة المزيد حينما قاطعته:

-بابا معلش أنا تعبانة شوية، ممكن نتكلم بعدين

رد بهدوء:

-أوكي يا روعي، هاطلبك وقت ثاني

باي

قالتها وهي تهي المكالمة سريعاً لتلج بعدها إلى الشرفة، وقفت مستندة بكفيها على حافتها محدثة نفسها:

أُكيد هو الي ورا الموضوع ده

تذكرت كلماته بكونه قد فعل معها معروفًا ما، فبات ديتًا واجب السداد، احتقنت بشرتها بحمرة مغتاظة رافضة أن تكون مدينة له أو لغيره بأي شيء.

.....

لم يعرف بماذا يُجيب على إلحاح والدته بشأن رؤية ابنتها، تلك التي إن رأتها حتمًا ستلعن الأمومة بسببها، تعذر "معتصم" بالكثير من الحجج والأعذار آملًا أن تتراجع عن طلبها وتخبو رغبتها في الالتقاء بها، لكن كل يوم كانت تزداد إصرارًا على رؤيتها، فبات في أزمة حقيقية أمام طلبها الذي وضعه في موقف لا يُحسد عليه، لاحظ "نبيل" شروده المستمر ففترس في وجهه متسائلًا باهتمام:

إنت مش معايا خالص

انتبه له "معتصم" قائلاً بجرح:

سوري

ادعى انشغاله بمطالعة الأوراق الموضوعية أمامه لكن لم يقتنع الأخير بذلك، سأله من جديد بفضول أكبر وقد بدا أكثر جدية عن ذي قبل:

ماتقولي على الشاغل بالك جايز أقدر أساعدك

تهد "معتصم" قائلاً بإحباط:

المشكلة دي صعب

ليه؟ هي حاجة تخص الشغل؟

أجابه بامتعاض يعكس جزءًا مما يخفيه:

يا ريت، كنت على الأقل هاقدر ألقياها حل أو صِرفة، لكن المصيبة دي أعوذو بالله،
معربة ومتعقدة

رفع "نبيل" حاجبه للأعلى مرددًا باستغراب:

للدرجادي؟!!

أعاد "معتصم" ظهره للخلف قائلاً بتعب:

ادعيلي بس أعرف أشوفلها حل

رد عليه "نبيل" مبتسمًا ومحفزًا إياه:

ربنا معاك، إنت بتعرف تتصرف في الأمور دي

سأله "معتصم" محاولاً تغيير طبيعة الحوار:

ها جهزت للاجتماع بتاع المقابلة الجديدة؟

طبعا، كله حصل، ساعة ويكون المندوبين عندنا

تمام

تنحى بخشونة ليكمل عمله نافضًا ما يخص "آسيا" عن عقله مؤقتًا ليتمكن من التفكير
بذهن صافٍ فيما هو مطروح أمامه، على عكس "نبيل" الذي كان الفضول يحثه لسبر
أغوار عقل ابن عمه لمعرفة ما الذي يفكر فيه ويعوقه عن التصرف بصورة طبيعية.

.....

في نفس الأثناء كانت "آسيا" في طريقها إلى مكتب المقاولات والإنشاءات الذي يديره
خصمها، توقفت بسيارتها التي اشتريتها مؤخرًا عند العنوان المنشود، اصطفت في

موقف الانتظار المقابل للمبنى الحديث متأملة بأعينها اللافتة التي تعتلي أحد أدواره الأولى لتتأكد من بلوغها وجهتها، التوى على ثغرها ابتسامة مراوغة، فاليوم ستضع لمستها الساحرة لتفسد الأجواء هناك وتتهي دينها العالق، التفتت برأسها حينما سمعت صوت أحدهم يصيح عاليًا:

يا أستاذة ممنوع الوقوف هنا

عبست تعبيراتها وهي تسأله باقتضاب:

ليه؟

أجابها موضحةً وهو يدنو من نافذة سيارتها:

ده انتظار خاص بالموظفين؟

نظرت له "آسيا" بتعالٍ مدققة النظر في ثيابه الرسمية التي يرتديها ونازعة بإصبعها نظارتها عن أعينها لتقول بعدها:

أنا جاية في شغل، أكيد مش هالعاب هنا

رغم انزعاجه من نظراتها الدونية نحوه إلا أنه رد بهدوء معتاد مع تلك النوعية من الأشخاص المتكبرين:

يا هانم أنا مسئول عن انتظار السيارات هنا!

تعمد الضغط على كلماته التالية ليؤكد على جدية الأمر وطبيعة الصلاحيات الممنوحة له حينما أضاف:

و"معتصم" بيه منبه إن محدش يقف في المكان ده علشان تبع مكتبه

مجرد ذكر اسمه كقيل بتغير مزاجها الهائى، صاحت مستنكرة وقد احتقنت نظراتها:

هو اشترى المكان؟

هز رأسه نافيًا وهو يرد:

-لأ يا فندم، بس مأجره

ابتسمت قائلة بتهكم:

-أها، يعني العربيات اللي تبعه تقف بس هنا؟

أوما برأسه قائلاً:

موظفين المكان بس، أما أي حد تاني فيبركنوا هناك، في الانتظار ده

حركت رأسها بإيماءة واضحة وهي تقول باقتضاب:

-أوكي

أدارت محرك السيارة وانطلقت بها حيث أشار لها، ثم ترجلت منها لتظهر أنوثة طاغية تخطف العقول، لم يتوقع الموظف أن يقابل في حياته مثلها رغم رؤيته لعشرات النساء ممن يترددن على المبنى، لكن واحدة مثلها تحديداً فلم يحدث، فللهولة الأولى ستظن أنها ربما أتت لمقابلة عمل لكن بعد أن ترى هيئتها كاملة ستغير رأيك، بالطبع فما ارتدته من ثياب شبه فاضحة كان كفيلاً بإثارة الأفكار الجامحة في نفوس الرجال خاصة حينما يمتزج ذلك مع دلالتها وأرستقراطيتها المتعالية، تعمدت أن تسير بغنج لتتأكد من متابعة من يقع عينيه عليها، خاصة ساقها اللاتين كانتا تلمعان في ضوء الشمس، وعينها اللاتين تضيئان بوميض مريبك للنفوس، جذبت طرف تنورتها الخضراء القصيرة للأسفل وهي تصعد على الدرج قاصدة التباطؤ في سيرها، استطاعت "آسيا" أن تميز تلك الهمهمات الجانبية التي تدور حولها شاعرة بالانتشاء لكونها قد أحدثت البلبلة في نفوس المتواجدين بالمكان، وصلت إلى مدخل مكتب "المصري للمقاولات والإنشاءات الهندسية" فشدت من كتفها وسارت باستعلاء وهي تخطو نحو

الداخل، هبت السكرتيرة واقفة من مكانها حينما رأت تلك المقبلة عليها بكنزتها البيضاء وتنورتها الملفتة للأنظار لتسألها بتوتر:

أيوه يا فندم، حضرتك عاوزة مين؟

أشارت لها "آسيا" بإصبعها وهي ترد عليها بتساؤل:

مش ده مكتب اللي مشغلك؟

أجابتها الأخيرة تلقائياً:

- "معتصم" بيه

تجهمت تعبيرات وجهها وهي ترد:

أيوه، هو موجود؟ أنا عاوزاه!

انزعجت السكرتيرة من طريقتها الفظة في الحوار معها، وعلى قدر المستطاع حاولت أن تتعامل معها بمهنية احترافية، ابتسمت قائلة بلباقة:

حضرتك في ميعاد سابق علشان أقدر أبلغه بوجودك، ولو مكانش في بيتي

قاطعتها قائلة بجمود:

-الكلام ده يتقال لأي حد إلا أنا

ثم بدأت في التحرك نحو باب مكتبه الذي قرأت عليه لافتة "المدير"، اعترضت السكرتيرة طريقها متسائلة بتخوف:

يا أستاذة رايحة فين؟

نظرت لها شزراً وهي تدفعها من كتفها للجانب لتتمكن من المرور، استاءت السكرتيرة كثيراً من أسلوبها غير اللبق معها مرددة بضيق:

من فضلك

ردت عليها بقسوة:

حاسبي

وبالفعل أمسك بالمقبض فاتحة باب الغرفة ومقتحمة إياها دون استئذان ليتفاجأ بوجودها "معتصم"، اعترت الدهشة الصادمة ملامحه وهو يقول بعدم تصديق:

- "آسيا"

بتصرفها المتجاوز وضعت السكرتيرة في موقف حرج للغاية سيعرضها بالتأكيد للتوبيخ،
بدا على وجهها التوتر وهي تردد بارتباك:

-أنا أسفة يا فندم، معرفتش أمنعها خالص

تحركت أعين "معتصم" نحوها كأنما ضيقه ومتحكما في انفعالاته التي تهدد بالانفجار في
أي لحظة، فلا ذنب لتلك المسكينة لكي يعنفها، هو أدرى الأشخاص بطبائع "آسيا"،
عاود التحديق في وجهها القاسي حينما نظقت ساخرة:

هما كلمتين يا ... ابن المصري ومش هاعطلك

اعتدل "معتصم" في جلسته رامقا إياها بنظرات احتقارية ومحافظا في نفس الوقت
على جموده المقلق، تابعت قائلة بهدوء وهي تسير بدلال نحو مكتبه:

-أنا ما حبش أكون مديونة لحد!

انزوى ما بين حاجبيه متسائلا في صمت عما تقصده، بقي لثانيتين أسيرا لتلك
العدسات اللاصقة التي تخفي خلفها اللون الفيروزي لحدقتها، اشتعلت نظراته غضبا
واشتدت تعايره على الأخير عندما أكلت إهانة واضحة:

-وخصوصا لو كان واحد زيك!

فقد قدرته على ضبط أعصابه فنهض من مكانه دافعاً مقعده بعصبية للخلف محذراً إياها
بشراسة:

احترمي نفسك!

تناسى "معتصم" كلياً وجود ابن عمه معه في الغرفة، تنحنح الأخير بجرح وهو يتحرك
مبتعداً ليقول بهدوء:

أظن وجودي مالوش لازمة

رفع "معتصم" يده معترضاً على انصرافه ومركزاً عينيه المحتدتين على وجه "آسيا":
استنى يا "نبيل"!

ردت عليه باستخفاف متعمدة التدلل في وقفها:

مش محتاجة جو الأفلام القديمة ده امشي لأ استنى، هما كلمتين وبس!

أخرجت من حقيبة يدها الصغيرة ورقة مطوية ثم ألقت بها في وجه "معتصم" لتزداد
بعدها تعبيراته شراسة، ابتسم قائلة بغرور مستفز:

خد فلوسك، حسابي أنا أعرف أخلصه بنفسى، مش مستنية واحد زيك يعمل معايا
معروف

تخرج "نبيل" كثيراً من وجوده في ذلك الموقف المخجل والذي ينم عن معرفة ومشادات
سابقة بين الاثنين، أشار بعينه للسكرتيرة مفضلاً الانسحاب من الغرفة فوراً دون
انتظار رأيه:

هاروح أشوف الاجتماع، تعالي معايا

فقد "معتصم" قدرته على التحكم في نفسه أمام بركان استفزازها المحنك، اندفع نحوها قابضًا على ذراعيها قبضتيه وضاعظًا عليهما بكل قوة متعمدًا غرز أظافره في لحمها لتشعر بالألم، صاح بها باهتياج:

-إيتي اتجننتي، فآكرة نفسك مين علشان تكلميني بالشكل ده؟

ورغم ذلك الألم الذي ألهب بشرتها وأشعرها بوخزات قاتلة إلا أنها تماسكت أمامه، شحذت قواها لتبعده قبضتيه عنها وهي ترد:

-الظاهر إنك نسيت أنا هاعمل فيك إيه

لم تنجح في الإفلات منه، وشدده هو من اعتصار عضديها قائلاً بتحدٍ مخيف:

-مش هاسمحك

حدقت "آسيا" في أعينه الملتهبة بالأسنة الغضب ببرود يضاعف من ثورة أي شخص طبيعي، اتسعت ابتسامتها قائلة بثقة مغتررة:

-مش هاتقدر

لم يرغب "معتصم" في منحها المزيد من الفرص لتستلذ بإيصاله لحافة الجنون معها، دفعها للخلف بعد أن أرخى قبضتيه عنها، نظر لها باشمئزاز وهو يقول بتأفف:

-وايه المنظر القدر اللي جاية بيه هنا؟ احنا مكان محترم مش كباريه يا مدام

أطلقت ضحكة مائعة وهي تنظر له بإعجاب لنجاحها في الوصول إلى مسعاها بوضعه في موقف حرج يجعله مادة للأقاويل في مقر عمله، وضعت يدها على منتصف خصرها قائلة بتفاخر:

-ليك الشرف إني أجيبك بنفسك لحد هنا

-أشار لها بسبابته صارخًا في وجهها:

-برا بدل ما أرميكي بنفسي زي المرة اللي فاتت

رفعت كفها أمام وجهه قائلة ببرود وكأن إهانتها لها تعد مدحًا:

-أنا طالعة لوحدي، ومن غير مشاكل ولا حتى فضايح، وده بس علشان الخدمة اللي مفكر إنك عملتها لي!

أولته ظهرها لتستفزه أكثر بتنورتها الضيقة التي لا تليق أبدًا إلا بالعاهرات الساعيات لاقتياد أشباه الرجال وجرهم إلى ليالي ماجنة، أبعاد أعينه مضطرًا ولاعنا نفسه على تطلعه نحوها وتفكيره فيها بتلك الطريقة المخجلة، شعر بدمائه تفور في عروقه من جديد حينما أضافت متمعدة ازدرائه:

-وبالمناسبة أنا حطلتك بقشيش أجرة تعبك معايا!

لم يعرف ما الذي يجب أن يفعله مع واحدة مثلها تحاول بشتى الطرق اختبار عصبته وإخراجه عن طور الوقار والاحترام، أطلق سبة نائية قاصدًا إهانتها:
إتي !

ورغم قسوة كلمته المقتضبة التي تضمنت معانٍ تسيء إليها وتشعرها بأنها سلعة رخيصة إلا أنها ردت مبتسمة بهدوء:

-ميرسي، وبكرة تشوف ال دي هاتعمل ايه فيك!

صرخ بها بقوة:

-برا!

اكتفت بالابتسام قبل أن تخرج من الغرفة لتتركه في حالة هياج واضحة للجميع، استطاعت أن تسمع صوت قذف محتويات مكتبه وتحطم بعض الأشياء مصحوبة بكلمات غضب مسيئة، زادت ابتسامتها اتساعًا مستمتعة بتأجيج العداوة بينهما، خطت

برشاقة وتباهٍ وهي تعاود وضع نظارتها على عينها مكملة سيرها نحو الخارج ومتأكدة من
تركها لفضيحة ستؤرق مضطجعه لأيام

.....

الفصل الثامن

لم تكن بنزع فتيل القنبلة في مكتب المقاولات والإنشاءات التابع لخصمها اللدود مسيبة انفجاراً مدوياً في الأوساط المحيطة به بل أرادت إحراق أعصابه أضعافاً مضاعفة، سارت "آسيا" بخيلاء وسط العيون التي تلتهمها بشراهة، تعمدت رسم تلك الابتسامة المغترة على شفيتها لتؤكد للجميع مقولة "احذر غضب النساء ومكائدهن"، خرجت من المبنى متلقتة حولها، ظل عقلها يفكر بطريقة شيطانية واضعاً لها الكثير من الأفكار الجهنمية للانتقام من "معتصم"، طراً بخلدتها فكرة إتلاف سيارته، نعم كذلك الأمر حتماً سيصيبه بالجنون، لم يكلفها الأمر سوى بضعة ابتسامات رقيقة وكلمات معسولة ألقها على موظف الأمن لتتمكن من الإيقاع به في شباكها لتعرف بالضبط مكان سيارته المصفوفة ونوعيتها، اتجهت بعد ذلك إلى سيارتها لتستقلها وانتظرت بداخلها لبعض الوقت مترقبة اللحظة المناسبة لتنفيذ خطتها، وحينما هدأت الأجواء قليلاً وأصبحت الحركة قليلة نسبية شرعت في القيام بها، وبحسبة عقلية بسيطة استطاعت أن تقدر المسافات بين السيارتين لتتمكن من الاصطدام بها وإحداث بعض الخسائر في صندوقها الخلفي، انتفض جسدها بعنف وهي ترتطم بها، لكن ضاعف ذلك من حماسها، كررت عالياً قائلة لنفسها بتفاخر:

تستاهل

ركض أحد موظفي الأمن ناحيتها متسائلاً بفرح وقد رأي ما فعلته:

يا مدام، إيه اللي بتعمليه ده

تجاهلته مرددة لنفسها:

كانت نفسي أشوف شكلك وإنت شايفها متبهدة كده!

لم تتوقف عن الضحك الساخر وهي تستدير برأسها للخلف لتبتعد بالسيارة عن الموقف، حاول موظف الأمن اللحاق بها لكنه فشل مما اضطره لاستخدام اللاسلكي الخاص به للإبلاغ عنها لمسئوليته الأعلى رتبة منه، تذكرت "آسيا" أنها لم تضع له شيئاً يستفزه ويعلمه بهويتها، أوقفت السيارة فجأة، ثم بحثت بداخل حقيبتها عن ورقة فارغة، لم تجد إلا إيصال شراء بعض المواد الاستهلاكية من السوبر ماركت فقررت الكتابة في الخلفية الفارغة مستخدمة أحمر الشفاه، عضت على شفيتها السفلى باستمتاع مغتر وهي تكتب (أنا قاصدة، آسيا)، أدارت السيارة في اتجاهه متعمدة صدمها من جديد، ارتد جسدها بقوة لكنها لم تكترث للرضوض التي أصابها مثلما فعلت في المرة الأولى وسط ذهول الموظف الأمني، ألقت بالإيصال من النافذة ليسقط بجوار الإطار ثم تابعت بعدها قيادة السيارة وهي تدندن بسعادة واضحة عليها.

.....

هروول خارج مكتبه بعد أن تلقى ذلك الخبر الصادم عن محاولة إحداهن صدم سيارته عمدًا ولوذها بالفرار، حاول موظف الأمن أن يفسر له الأمر على حسب ما رآه، لكن كان "معتصم" شاردًا عنه وغير منتبه لما يقول، وقف خلف سيارته متأملًا ما أحدثته من خسائر جمة في مؤخرتها، وضع كلتا يديه على رأسه محاولاً استيعاب ما فعلته بجرأة لم يعهدها في النساء من قبل، لحق به ابن عمه مدققًا هو الآخر النظر في التلفيات الموجودة بها، تساءل باندهاش:

مين عملت كده؟

أخفض ذراعيه ملتفتًا نحوه ومتخذًا الصمت ردًا عليه مما دفعه لسؤاله من جديد:

طب وليه أصلاً؟ هو إنت تعرفها؟

ركز "معتصم" أنظاره عليه كإظلمة ما يشعر به حاليًا من براكين ثائرة بداخله، بينما عكس وجهه الاحتقان المسيطر عليه، أدار "نبيل" وجهه للجانب فلمح بطرف عينه الورقة المطوية بجوار الإطار، انحنى ليلتقطها متسائلًا باستغراب:

دي إيه دي؟

فتحها ليقراً ما دون فيها قائلاً بنبرة عالية:

أنا قاصدة، "آسيا"!

تحفزت حواس "معتصم" كلياً مع ذكر اسمها وتحولت تعايره للشراسة، تتم من بين أسنانه المضغوطة:

- "آسيا"، شكلك عاوزاني أموتك!

كور يده ضارباً صندوق السيارة بعنف، بدا مغلولاً للغاية مما تفعله به من استثارة دائمة لأعصابه، من إشعالها دومًا لفتيل غضبه حتى يفقد السيطرة على نفسه ويتصرف بجموح معها، انتبه لصوت ابن عمه المتسائل باهتمام:

إنت كويس؟

أوما برأسه مضطرباً كي يخفي ما يشعر به، عاود "نبيل" سؤاله بفضول:

هي نفس البنت اللي جت النهاردة، صح؟

ورغم احتفاظه بالجواب داخله إلا أن ملامحه كانت كفيلاً بالإجابة عنه، تساءل موظف الأمن بتوتر:

- "معتصم" بيه تحب نبليج البوليس؟

قست تعايره وهو يرد بنفي قاطع ومشيراً بيده:

لا، الموضوع عندي

اعترض الموظف بجرح:

بس يا فندم

قاطعہ بصيغة أمره:

-تفضل شوف شغلك، أنا هاتصرف

امثّل لأمره قائلاً بارتباك:

-تمام

سأله "نبيل" بقلق:

هاتعمل إيه؟

سحب "معتصم" نفساً عميقاً لفظه دفعة واحدة وهو يرد باقتضاب مريب:

-الرد هايكون بعدين، مش دلوقتي!

توجس ابن عمه خيفة من خروج الأمور عن السيطرة وربما تورطه في أفعال طائشة

قد تأتي نتائجها عكسياً، حاول أن يمنعه قائلاً:

-أنا رأيي تبلغ عنها، مافيش داعي للمشاكل مع واحدة زي دي، شكلها مش سهل ولا

....

قاطعہ بإصرار ألبكه:

-أنا هاعرف أتعامل معاها ازاي، متقلتش!

.....

عاد إلى منزله مستقلاً سيارة ابن عمه بعد أن أرسل خاصته إلى التوكيل لإصلاح

الأضرار الموجودة بها، كان مضطراً لإلغاء كافة ارتباطاته بعد أن أفسدت عليه يومه،

رسم "معتصم" على وجهه المتشنج تعبيراً هادئة آملاً أن ينطلي ذلك على عائلته،
درب نفسه جيداً على التعامل بهدوء حذر مع أسرته كي لا يشعر من حوله بجم
الكوارث التي تُلقى على كتفيه منذ أن وطأته "آسيا"، وخصوصاً من أفنت عمرها في
تربيته وبعدها والدته؛ "نادية" تلك المرأة الحنون التي تملك بين يديها مفاتيح الأمان
والحنان والأمومة الفائضة، عكف على الرد على أسئلتها المشتاقة عن ابنتها بجمادية
وبدبلوماسية مانحاً إياها الأمل الزائف في العثور عليها، كان منزعاً من كذبه المستمر
وادعائه لجهله بمكان تواجدها، استنكر استخدام ذلك الأسلوب المضلل معها، لكنه
كان يخشى من تبعات لقاء محكوم عليه بمواجهة شرسة ستخلف ضحايا، خشي أن
ينفضح أمره تلك المرة، فقد اكتفى من أفعالها وبلغ الذروة من تعامله معه، سار بخطوات
متعبة نحو صورة العائلة ليتوقف أمامها، شرد متأملاً تفاصيلها مستعيداً أسعد لحظات
العائلة، انتفض في وقفته الشاردة حينما وضع والده يده على كتفه، ابتسم له قائلاً:

بابا

قطب "وحيد" جبينه متسائلاً باستغراب:

مالك يا "معتصم"، أحوالك مش زي تلمي!

أخرج زفيراً ثقيلاً مهموماً من صدره وهو يجيبه:

شوية مشاكل معقدة

أخفض والده نبرته متسائلاً بفضول جاد:

ليها علاقة بـ "آسيا"، مضبوط؟

انقبض قلبه بقوة مع كلماته الأخيرة، شعر أنه كالكتاب المقروء أمامه، أخفى ارتباكاه

البائن عليه متسائلاً بتلعم:

وايه اللي يخليك تقول كده بس؟

رد "وحيد" مؤكداً وهو يومئ له بعينه:

علشان أنا عارف ابني كويس! كمان عرفت من مصادري مين هي "آسيا شرف الدين"!

زفر "معتصم" مجدداً وهو يشكوه:

بجد أنا مختار معاها، مش عارف أعمل ايه في موضوعها

ربت والده على ظهره ثم تحرك معه إلى الأريكة الواسعة ليجلس بجواره عليها، استطرد
"معتصم" حديثه قائلاً باستياء:

ماما ماتعرفش حاجة عن حقيقتها، مفكرة إنها جاية تسأل عنها وترجع لحضنها زي ما
تكون لسه العيلة بتاعة زمان

اكتست تعابيره بالحزن وهو يكمل بضيق:

-وهي جاية علشان تدمرنا وتضيع كل حاجة عملناها السنين اللي فاتت وتعبنا فيها

وضع "وحيد" يده على كتف ابنه ضاغظاً عليه ومضيفاً بنبرة ذات مغزى:

ظهورها في التوقيت ده أكيد وراه حاجة، خد بالك أبوها مش سهل

سأله "معتصم" دون تفكير وقد دب الذعر في نفسه:

-إنت تعرفه؟

أجابه بنبرة ضاعفت من شكوكه:

-كنت أسمع عنه زمان

انقبضت عضلاته بسبب التوتر الزائد من طريقته في الحديث عنه، سأله بتلهف:

-معلش يا بابا، ممكن تفهمني بالضبط اللي حصل؟

أشار له والده بسبابته محذراً:

-الكلام ده بيني وبينك، يا ريت مامتك ماتعرفش يا بني حكيتلك حاجة
هز رأسه بالإيجاب مؤكداً:

-اطمن، أنا بس عاوز أفهم أنا بتعامل مع مين
ماشى

اعتدل "وحيد" في جلسته مطالعاً ابنه بنظرات جامدة ليكمل بعدها بهدوء:
قبل ما أتقدم لـ "نادية" كانت مامتك طالبة مني أتجوز عليها يعني كانت حاسة إنها
في آخر أيامها، ولو تفتكر يا "معتصم" كانت تعبانة وصحتها على أدها
ركز ابنه كافة حواسه معه وتأثر لحظياً باستعادة ذكرى رحيل والدته التي شهدها
بنفسه، منع عباراته من الانحباس في حدقيه وأبعدهم بأنامله متابعاً باهتمام كبير باقي
حديثه، أضاف "وحيد" بأسف:

-لما ماتت كنت محتار أعمل إيه معاك، إنت وقتها كنت لسه صغير وأنا بأسافر كثير
ومعنديش حد أئتمنه عليك، ساعتها ظهرت "نادية" في حياتي، كانت عندها مشكلة
كبيرة مع جوزها، أو نقول طليقتها

كز "معتصم" على أسنانه مفضلاً اللجوء إلى الصمت ريثما ينتهي والده من الحديث،
ارتشف "وحيد" القليل من كوب الماء المسنود على الطاولة ليبلل جوفه المرير، ثم
تابع:

-كان مدمن لعب القمار، ضييع كل حاجة بسبب هوسه ده، وكانت آخر ضحاياها
"نادية"، اتخدعت فيه للأسف وافتكرتة بني آدم محترم

ارتسمت علامات الاندهاش على محيا ابنه فأوضح "وحيد" مبتسماً باستخفاف:

-ماتستغريش، "شرف الدين" كان صاحب شركات استيراد وتصدير، رجل أعمال
زي أي حد، بس مدمن قمار!

أخرج من صدره زفيرًا ثقيلًا أكمل بعده:

طلع راسم عليها علشان يبتذها وياخد فلوسها، رسم نفسه صح على أبوها، واتجوزتها
وهي حملت منه وخلفت بنتها الوحيدة، "نادية" استحملت منه كثير علشان خاطر
تفضل جمها، كان يهددها بيها، وهي كانت بتخاف منه، وبتدفع أي حاجة يطلبها،
بمعنى ادق بتسحب من رصيدها في البنوك لحد ما خلص عليه

تضاعف حنقه بداخله من كم الحقائق الصادمة التي عرفها، ردد بجدة وقد غلت الدماء
في عروقه:

-ليه النبي آدم ده؟

رد عليه والده بتأفف:

-إنت مش متخيل القذارة اللي كان فيها، عاوز أقولك ده وصلها لحالة معدتش قادرة
تستحمل فيها، فلجأت للطلاق، وساومها على ده، لكن اللي حصل إنه كان بيضحك
عليها، بيضيع وقت لحد ما يجهز حاجة تانية بعيدة عن تفكيرها

سأله دون تأخير:

-عمل إيه؟

أجابه على مضض:

فهمها إنها هتاخذ بنتها لو دفعت تمنها

شخصت أبصاره صائحًا بعدم تصديق:

نعم؟

أشار له والده لكي يهدأ، فهو لا يريد لفت الأنظار إلى حديثها الخاص، تمالك "معتصم" أعصابه معتذراً، فاستأنف "وحيد" حديثه:

لو عاوزة الطلاق وبنتها تدفع تنهم، بالنسبale كل حاجة تجارة، حتى بنته!
ضغط "معتصم" على أسنانه هامساً بغيظ من ذلك الرجل الذي انعدمت رجولته:
ده إنسان!!!!

ورغم حدة الكلمات النابية التي ألقاها بلا حرج إلا أن والده لم يكن معترضاً على ذلك، بل على العكس أيده قائلاً:

-وأكثر من كده كمان، "نادية" كانت مستعدة تعمل أي حاجة علشان بس تخلص منه، وتبعد بنتها عنه، وهو استغل ده كويس، نصب عليها وخذ الفلوس والبنت وهرب برا مصر

انفرجت شفتاه هاتفاً بصدمة:

مش معقول

أضاف والده قائلاً بامتعاض:

- "نادية" انهارت ومعرفتش تعمل ايه، فضلت فترة تتعالج نفسيًا، وأنا كنت أعرف والدها، يعني بحكم الشغل وكده، وصاني عليها، وبصراحة أنا لما شوفتها اتشدت ليها، كنت مش بس شايف فيها الزوجة، كمان الأم اللي هاتعوضك عن كل حاجة وهتجبك طيب ليه محولتوش توصلوا للبنني آدم ده؟

-عملت كل اتصالاتي علشان أعرف هو فين، بس أخباره انقطعت عننا، ومقدرتش أوصله، و"نادية" تعايشت مع أمل إن بنتها لما تكبر هتظهر في يوم وهتعرف منها الحقيقة

لوى "معتصم" ثغره للجانب قائلاً بتهكم:

ماهو واضح

ابتلع "وحيد" ريقه قائلاً بتحذير:

خذ بالك يا "معتصم"، البنت دي تربية أقدر واحد ممكن تقابله في حياتك، أوعى
تخليها تدمر مستقبلك

هز رأسه بإيماءات متتالية وهو يقول:

اطمن

ثم سأله بجدية:

طب وماما؟

رد بتنهيدة حزينة تحمل في طياتها قلة الحيلة:

-أهو أنا زيك مش عارف أعمل ايه معاها، هي من حقها تشوف بنتها، بس خايف
ماتستحملش الصدمة!

وضع "معتصم" يده على كف والده المجدد قائلاً بتأكيد:

-ماتشلش هم، أنا هاعمل كل اللي أقدر عليه علشان أمنعها تأذي ماما

رد عليه مبتسماً بجنو أبوي رابتًا بيده الأخرى على يده:

-أنا مطمئن بوجودك يا "معتصم"

بادله ابتسامة باهتة وهو ينظر له بغموض، كان في قرارة نفسه على يقين تام بأن
المعركة معها ليست بتلك البساطة، بل ستتضمن أشرس المواجهات وأعنفها على
الإطلاق، وها قد ذاق منها القليل فقط !!

.....

الفصل التاسع

أتت صاحبة الوجه البشوش لتجد كليهما يتهاوسان في مسألة ربما من وجهة نظرها ذات صلة بالعمل، لم تكثرث لذلك فالمهم عندها حاليًا هو معرفة أين تقطن ابنتها، فقد طال الوقت ولم تستطع الوصول إليها أو حتى التواصل معها، ولن يشعر أحد بما يعتري صدرها من مشاعر أمومية تخصها وحدها، تهتت "نادية" بتعب وهي تسير في اتجاه زوجها و"معتصم"، وما إن رآها الأخير تدنو منه حتى هب واقفًا من مكانه ليقول بوجد:

-ماما، تعالي اقعدي معانا شوية

ابتسمت له متسائلة بعتاب رقيق:

لسه برضوه مافيش أخبار عن "آسيا"؟

ورغم بساطة السؤال إلا أن الرد عليه كان يحتاج لكثير من المجهود الذهني والعضلي وحتى التعبيري ل يبدو مقنعًا أمام نظراتها الحنون التي تخترقه، ابتلع ريقه مقتربًا منها بعد أن تبادل نظرات حائرة مع أبيه، مد يديه ليلتقط كفيها بين راحتيه، أحنى رأسه عليهما مقبلًا كلاهما في مودة، ثم اعتدل في وقفته قائلاً لها:

لسه شوية يا ماما، إنتي عارفة الحكاية مش بالساهل

اغرورقت حدقتها بالعبرات تأمرا للهفتها المشتاقة لضم ابنتها لصدرها فخرج صوتها مختنقًا وهي تقول:

صعبان عليا إن بنتي تجيلي لحد هنا وأنا ماشوفهاش، نفسي بس ...

نهض "وحيد" من جلسته مقاطعًا إياها بهدوء بعد أن رأى تأثير ما تردده على حالتها الصحية:

- "نادية"، مافيش داعي للانفعال، الدكتور محذرننا!

وقف إلى جوارها ثم ربت على كتفيها برفق حانٍ محاولاً احتواء حزنها، طالعتة بأعينها
الباكية قائلة بنحيب خافت:

غضب عني يا "وحيد"، دي برضوه بنتي
ابتسم لها وهو يومئ برأسه:

لإن شاء الله قريب تشوفيا وترجعك
ردت وأعينها تملأها نظرات الأمل:
يا رب

ثم التفتت برأسها نحو "معتصم" تستعطفه:

- "معتصم"، أنا عمري ما طلبت حاجة لنفسي، وجودك إنت وبابك مالي عليا حياتي،
بس "آسيا" ليها حق عندي، أنا أمها و...

ربما هي محقة في إحساسها نحو وحيدتها، لكن للأسف الواقع المرير أقسى من ذلك
الإحساس الحاني الطاغي عليها، ومع ذلك حافظ على جدية تصرفاته ليبدو مهمماً أمامها،
لذا قاطعها قائلاً بهدوء:

مش محتاجة تبرري يا ماما، أنا هاعمل كل اللي إتني عاوزاه

وضعت "نادية" يدها على صدغه تمسح عليه برفق ومرددة بامتنان:

ربنا يباركلي فيك يا ابني!

بادلها ابتسامة ودودة تخفي خلفها الكثير من الانزعاج والضيق، فقد ألزم نفسه من
جديد بما يعجز عن فعله برحابة صدر.

.....

على الجانب الآخر، قررت "آسيا" أن تحتفل بما أسمته انتصارًا زائفًا على خصمها اللود وذهبت لقضاء عطلة قصيرة في أحد المنتجعات السياحية الشهيرة بناءً على دعوة أحد أصدقائها، وكذلك لتضيق الفرصة على "معتصم" ليرد انتقامه بعد أن أحدثت أضرارًا في سيارته حديثة الطراز، كانت في قرارة نفسها تعلم أنها بحاجة لبعض الأموال لتعوض ما أنفقته مؤخرًا على شراء السيارة وتسديد ديون والدها، فأتت تلك الدعوة في وقتها، فسوف يقام بالمنتجع عرض للأزياء يموله أحد بيوت التصاميم المعروفة، والأجر للعارضة المشاركة به كان مقاربًا بدرجة معقولة لما تتقاضاه بالخارج، فوافقت على الدعوة دون أن تفكر مرتين.

توقفت "آسيا" بعد ساعات من القيادة المتواصلة عند البوابة الخارجية للمنتجع، انتزعت نظارتها لتضعها فوق خصلات شعرها المتمردة لتقول بعدها بتعالٍ:

- في حجز باسمي هنا

سألها الحارس الأمني -ذو الجسد الضخم- بجدية:

-نتشرف بالاسم يا فندم

أمالت رأسها للخلف قليلًا ثم أجابته:

- "آسيا شرف الدين"

أدخل الحارس بياناتها في الجهاز الإلكتروني الذي بحوزته ثم ابتسم مرحبًا:

-تمام يا فندم، اتفضلي حضرتك، منتظرينك في الاستقبال وهياخدوا منك البيانات وتستلمي مفتاح الغرفة بالفندق

أومأت برأسها دون أن تعلق ثم حركت السيارة في اتجاه المدخل بعد أن فُتحت بوابته الإلكترونية، بالطبع إن كانت فردًا عاديًا لدعت الضرورة لوجود تزكية سابقة لتتمكن من الولوج لتلك النوعية من المنتجعات ذات الطبيعة الخاصة وإلا لما تم السماح لها بدخولها

من الأساس، فتمتاز هذه المنتجعات بأن أغلب المشاهير والمنتمين للطبقة المحملية في المجتمع يفضلون قضاء عطلاتهم وأوقاتهم الخاصة بها لكونها تضم أقم الفنادق المزودة بالخدمات الرائعة وكذلك الفيلات المستقلة بمختلف المساحات لمحي الخصوصية الشديدة، أبدت "آسيا" إعجابها وهي تصف سيارتها عند بوابة الاستقبال الرئيسية للفندق، وما إن رآها أحد العاملين به حتى أسرع نحوها ليتولى عنها ركنها في الجراج المحلق بالفندق، ترجلت منها وسارت بخيلاء نحو موظفي الاستقبال، بعد لحظات كانت في طريقها للمصعد لتتجه إلى غرفتها، لفت أنظارها مدى الثراء والفحش الواضح على معظم المتواجدين بالمكان، ورغم ذلك شعرت بالقلق والريبة، فحدسها يُنبئها أن خلف ذلك ستارًا لأمر منجدة وربما تجاوزات غير أخلاقية، أبعدت عن تفكيرها أي شيء مزعج واكتفت بأن تمنح نفسها فترة للراحة والاستجمام.

.....

-عملت إيه؟

تساءل "مصطفى" بتلك الجملة المقتضبة وهو منحني على طاولة البلياردو مركزًا بصره على كرة بعينها، سدد الضربة نحوها فأصاب هدفه وأسقطها في الفتحة الجانبية، اعتدل في وقفته مطالعًا "معتصم" بنظرات ذات مغزى عنت له بدء اللعب وكذلك الإجابة عن سؤاله، بدا الأخير في حالة مزاجية شبه سيئة وهو يجيبه:

-ولا حاجة، فص ملح وداب

قطب "مصطفى" جبينه متسائلًا:

-مش فاهمك؟ اتبخرت يعني؟!

أجابه بامتعاض وهو يخطئ في إصابة كرتة:

-روح البيت بتاعها البواب قالي سافرت، يعني كانت قاصدة تحرق دي وتبوظ
العربية وتختفي

عاود "مصطفى" اللعب متابعًا أسئلته الحقيقية:

طب ماعملتش محضر ليه؟ وعندك شهودك ده غير الكاميرات اللي في المكان و....

قاطععه "نبيل" متعمدًا التدخل في الحوار:

-أنا قولتله الكلام ده، بس هو دماغه ناشفة

التفت "معتصم" نحوه ليجده يرتشف مشروبه المثلج، فأخرج زفيرًا مهمومًا من صدره
وهو يرد بضيق:

يا جماعة إنتو مش قادرين تفهموا إن "آسيا" دي كارثة بشرية متنقلة، جاية تخرب
البيوت ويس، وماما مش هاتستحمل لو عرفت حقيقتها، وكل اللي أنا بأعمله ده
علشان بس أمنع أي بلوى منها

استطرد "نبيل" حديثه مازحًا وهو يشير بعينه إلى "مصطفى":

-عارف أنا لو مكونتش معاه كان زمانت جريمة قتل حصلت

رد عليه الأخير متعجبًا:

-سبحان الله، مع إن اللي يشوفها يقول غير كده

أثارت جملته تلك فضوله فسأله باهتمام وقد تركز بصره عليه:

-هو إنت شوفتها يا "مصطفى"؟

أجابه عفويًا:

-أيوه، ساعة لما

انزعج "معتصم" من حديث كلاهما عنها باستفاضة، وخاصة فيما يتعلق بجزئية لجوئه لفريقه لمساعدته على إسعافها، صاح بنفاذ صبر وقد ظهرت العصبية عليه:

خلاص بقي

تخرج "نبيل" من انفعاله الواضح أمامه فضغط على شفثيه قائلاً:

-واضح كده إنك مش عاوزني أعرف!

أدرك "معتصم" خطئه فاعتذر بلباقة:

مش القصد والله

ثم اقترب منه واضعاً يده على كتفه متابعاً تبرير موقفه العدائي نحوها:

بس فعلاً أنا مخنوق وعلى أخري منها ومن عمالها

حاوط "مصطفى" الاثنين من كتفهما قائلاً بهرح:

-بأقولكم إيه تعالوا نروح صالة البولنج وخلونا نغير المود شوية، كفاية ضغط الشغل

وكلام عن ست "آسيا"، عاوزين نروق حبة

رسم "معتصم" بسمة سخيفة على ثغره قائلاً باستسلام:

ماشى يا دكتور

تهد "مصطفى" بارتياح لاستجابة الأخير لمطلبه، فقد كان حجة زائفة منه للذهاب إلى

هناك حيث تتواجد "آية"، فهو يكن لها مشاعراً عميقة في نفسه، وتمنى أن تكون

كعادتها جالسة مع رفيقاتها هناك ليحظى بفرصة لتبادل الحديث معها، وربما للتقارب

منها.

.....

المتعة الحقيقية بدأت في المنتج مع اشتعال الأجواء بذلك العرض المغربي لأحدث صيحات زي السباحة، شعرت "آسيا" أنها تعجلت بقبول الاشتراك فيه دون التأكد من طبيعة ما ستفعله وما سترتيديه، لم يكن الأمر كما تصورت عرضًا يحضره المتخصصين وخبراء الموضة لتقييم إنتاج المصمم، لكن كان عرضًا من نوع مغاير لما اعتادت عليه، ففي البداية أقيم الممر الخاص بالسير للعارضات بجوار المسبح ويمر عبره وصولاً للجانب الآخر له ليتيح الفرصة للمتواجدين بالمسبح بالمتابعة عن كثب، ورؤية تفاصيل خطيرة لجسد العارضة دون أن تشعر، تخرجت من ذلك كثيرًا رغم كونها قد ارتدت ما يشابه الحالي، إلا أن الغموض والشبهات حول نوعية الجالسين بالمسبح أصابها بالريبة، وما زاد من قلقها وضاعف من مخاوفها انتشار المشروبات الكحولية والمسكرة في أيدي المتابعين للعرض، حتمًا ستلعب الخمر برؤوسهم مع احتدام الأجواء وسخوتها.

حاولت "آسيا" أن تقنع نفسها أنها ستتمكن من التعامل معهم بحرفية وأن الأمور ستمر على خير، لكن تلاشى كل ذلك مع أول محاولة تحرش جلية بتلك العارضة الأجنبية، جاهدت الأخيرة لتواصل السير لكن أعاقها أحدهم عن ذلك، جفل بدنها بقوة وارتعدت مع إمساك ذلك المغيب بخصرها ثم رفعها للأعلى ليلقيها على كتفه ودار بها مبدئيًا استمتاعًا كبيرًا، صرخت العارضة مستغيثة بمن يساعدها، ركلت بساقها في الهواء وتلوت بجسدها لتتخلص منه، لكن لم يتدخل أي فرد وأبت محاولاتها بالفشل، بدت تصرفاته متجاوزة وحيوانية معها ولم يتجرأ أحد على منعه، بل على العكس تعالت الصيحات المشجعة والضحكات الهيستيرية التي أيدت ما فعل معها فمضى قدمًا في فعل المزيد، رفضت "آسيا" متابعة الموقف كغيرها أو حتى الصعود للمشاركة أحكمت لفت ذلك الوشاح المشجر حول خصرها لتحجب جسدها عن نظرات المتطفلين، ثم ابتعدت عن منصة العرض مسرعة بخطوات غاضبة نحو منظم الحفل لتحاسبه على دعوتها لتلك الحفلات الماجنة، وجدت ضالتها منزويًا يضحك هو الآخر بهيستيرية وكأن

ما يحدث قد لاقى استحسانه، تضاعف حنقها بداخلها فهي لن تقبل بتلك المهزلة
مطلقًا، لم تستطع تمالك نفسها وصاحت فيه بانفعال وقد قست نظراتها:

-إيه ده؟

استشعر وجود خطب ما بها فسحبها من رسغها بعيدًا عن الواقفين ليسألها بعبوس:
-في إيه يا "آسيا"؟

انترعت يدها من قبضته ثم أشارت له بها قائلة بتشنج:

-ازاي تجبني في عرض زي ده؟

رد ببرود وقد اتسعت ابتسامته الصفراء:

-ماكل حاجة تمام أهي، إنتي ناقصك حاجة؟

انفجرت فيه صارخة مستخدمة كلتا يديها في الإشارة:

-هو إنت مش عارف أنا مين ولا بأعمل إيه؟ حد قالك عني whore (عاهرة) علشان

تجبني في حفلات قدرة زي دي

تصنع العبوس مبررًا:

ليه بس؟ ده الناس هنا كلاسي على الآخر ومزاجهم تمام التام

التفتت بأنظارها للخلف لترمق هؤلاء العابثين بنظرات احتقارية قبل أن تنظر نحوه من

جديد قائلة بسخط:

-ماهو واضح، شوية حيوانات جاية تستعرض فلوسها!

زفر قائلاً بجدية:

-بصي إنتي اتطلبتني بالاسم

ارتابت من جملة الغامضة تلك، وقبل أن تحرك شفيتها لتنهال عليه بأسئلة ربما تكون مصحوبة بالسباب تابع رافعاً سبابته أمام وجهها:

-وأظن العربون كان كافي أوي إنه يجيبك لحد هنا ده غير الوقت اللطيف اللي هتفضيه في المكان و...

قاطع حديثه أحدهم هاتقاً من الخلف:

-الجميلة "آسيا"

كان وجهها مزيجاً من حمرة غاضبة ونظرات مشتعلة وانفعالات على وشك الانفجار، التفتت بوجهها نحو صاحب الصدر العاري الذي يتباهى بعضلاته المنفوخة وبكأس الخمر الذي في يده وبالسيجار الذي ينفث دخانه من جوفه، ضاقت نظراتها نحوه وهي تسأله بتأفف:

-إنت مين؟

تأملها الشاب بنظرات جريئة وحة مدققاً النظر في كل تفصيلة من جسدها مما أشعرها بخطورة الموقف، وخاصة أنها تفهم طبيعة تلك النظرات الذكورية المصحوبة برغبات غرائزية، ألقى ببقايا السيجار الفاخر من فمه، ثم دنا منها ليتمكن من تطويقها بغتة من خصرها هامساً بعث:

-أنا معجب!

انزعجت من تجربته عليها ومن لمساته غير المقبولة على جسدها، ابتعدت عنه دافعة إياه من صدره بقوة لتراجع بعدها خطوتين للخلف، نظرت له شزراً وهي تعنفه بشراسة:

-إنت اتجننت!

ثم التفتت ناحية المنظم توبخه مهددة بعدائية انطلقت حتى من نظراتها نحوه:

هتتحاسب عن ده!

تحركت مبتعدة عن الاثنين لكن لم يكن الشاب ليتركها لشأنها، فقد دفع مبلغًا طائلاً ليلهو معها وينال متعة خاصة به، فقد اشتهاها مسبقًا حينما رآها في أحد الحفلات الشهيرة بالخارج، وتمنى لو استطاع أن يحظى بفرصة معها، خاصة أن ما أثير حولها من فيديوهات وفضائح قد حمسه كثيرًا، وحينما سنحت الظروف استغل نفوذه المالي ونجح في الإيقاع بها بحجة ذلك العرض الزائف، وها هي اليوم في المنتجع قد أتت إليه ليفعل ما طمع فيه ذات يوم، ألقى الشاب بكأسه وكله إصرار على تنفيذ رغباته، ركض خلف "آسيا" ليجذبها من معصمها، شهقت مصدومة من تكراره لنفس الفعلة المتطاولة معها، التوى ثغره قائلاً بنبرة غامضة أروعيتها:

مش بالسرعة دي!

شدد من قبضته على رسغها متابعا:

أحنا لسه مبدأناش الليلة!

هوى قلبها في قدميها من فرط الخوف، وقبل أن تفيق من صدمتها لتصرف معه كان هو محنيًا للأسفل ليتمكن من حملها ورفعها على كتفه، صرخت مفزوعة وهي تسبه بأقذع الكلمات النابية، بينما زاد انتشائه بالعبث معها، لم يعبأ بصراخها ولا بضرباتها المتتالية وكأنها تدغدغه، فقط سار متباهيًا بها نحو المسبح، شعرت "آسيا" في تلك اللحظة أنها بالفعل بمفردها، لن تجد من يحميها أو يدافع عنها أمام هؤلاء، حقًا استحال حياتها إلى جحيم في الدقائق التالية، بالطبع لن ينفعها صراخها غير المجدي ولن تجد الفارس المغوار الذي سيظهر من العدم ليهب لنجدها، كان عليها التصرف بحنكة لتنجو بنفسها، لذلك عمدت إلى مجارة الشاب في لهوه، ضحكت عاليًا بميوعة وتدللت عليه قائلة:

-يعني لازم تعمل فيها طرزان، بالراحة عليا!

تحمس الشاب قائلاً بانتشاء:

-أيوه بقي، ده احنا ليلتنا عنب!

حطب نزلني يالا

رد بغموض أصاب بشرتها بالقشعريرة:

مش هنا!

خمنت أنه سيفعل كغيره، وسيلهو في المسبح، وبالفعل حدث ما توقعته وقفز بها في المياه مكملاً عبثه الأهوج لتتعالى الصيحات المهللة بسقوط عارضة جديدة فيه، استغلت "آسيا" فرصة انشغاله بتشجيع رفاقه المغيبين لتنسل من بينهم وتسبح مبتعدة عنهم جميعاً، تعمدت الغطس لمسافة لا بأس بها بالأسفل حتى لا يتم الإمساك بها، كانت ممتنة في تلك اللحظات الحرجة لأبيها لأنه حثها على تعلم السباحة رغم ما به من عيوب تكرهها، بلغت الطرف الآخر من المسبح بخفة وسلاسة ثم دفعت جسدها بكل قوة - رغم ارتعاشها من برودة المياه - نحو الخارج، وما إن وقفت على قدميها حتى ركضت سريعاً دون الالتفات للخلف، بادرت بالهروب من المكان برمته قبل أن يدرك ذلك العابث اختفائها، ومع ذلك لم تنتبه لعدسات الهواتف النقالة التي التقطت ما حدث بالتفصيل في اللحظات الأخيرة ليضاف إلى أخبارها الحصرية واحداً مشوقاً، صادماً، وبالأحرى فاضحاً سينال من جديد من سمعتها المتأرجحة في عالم الموضة والمشاهير، ربما ستحتل المرتبة الأولى في المتابعة لبعض الأيام، لكن ما لم تضعه "آسيا" في الحسبان هو ردة فعل واحداً بعينه إن وصل الأمر إلى مسامعه وشاهد ما حدث وفسره من وجهة نظره الذكورية فقط .. بالتأكيد لن تكون العواقب جيدة

!!

الفصل العاشر

دبت الحيوية في قلبه وتعالق دقاته الراقصة مع رؤيته لفتاة أحلامه تضحك بركة وسط صديقاتها، لم يكن يرى سوى "آية"، كانت كالهالة المضيئة في المكان تجذب أنظاره نحوها فقط دون غيرها من الشابات الجميلات، انتبه "مصطفى" لشروده بها مبتلعًا ريقه بتوتر، فقد خشي من افتضاح أمره مع رفيقيه وأبناء عمومته، تصنع الجمود وسار

ببطء حذر قاصداً التلكؤ في خطواته كي لا يظهر في الصورة، لوح "آية" بذراعها صائحة بسعادة فور أن وقعت أعينها على ثلاثتهم:

- "معتصم"، "نبيل"، د. "مصطفى" أنا هنا، تعالوا اقعدا معنا شوية

لمجرد نطقها باسمه بين شفيتها شعر وكأنه ملك الدنيا وما فيها، ابتسم لها "مصطفى" بصفاءٍ مقاومًا ما يختلج صدره من مشاعر متأججة تود البوح بما يخفيه لها، رد "نبيل" مبتسمًا وهو يمرر نظراته على جميع الفتيات الجالسات بصحبتها:

منورين يا بنات، إئتو هنا من بدري؟

أجابته "آية" بتنهيدة شبه مطولة:

-يعني .. شوية وهنمشي!

انقبض قلب "مصطفى" لمجرد ذكر كلمة الرحيل، هتف عفويًا وبلا تفكير:

خليكوا قاعدين معنا، ولا إذا حضرت الشياطين؟

التفتت "آية" بأنظارها نحوه قائلة بنعومة:

مش هاكسفك يا دكتور، علشان خاطرک بس

قاوم بصعوبة جلية تأثير نظراتها الدافئة عليه مستشعرًا سخونة حسية تضرب صدغيه وكامل جسده متحرّجًا من طريقتها اللطيفة، لم يتوقع أن ينجذب نحوها بتلك الصورة، وأن مجرد الحديث معها بكلمات محدودة يمنحه شعورًا لا يضاهيه أي شعور، أضاف "مصطفى" قائلاً باقتضاب ومتجنبًا التحديق فيها كي لا تكشفه أعينه:

شكرًا ده من ذوقك يا آنسة "آية"

ابتلع ريقه وحاول تركيز حواسه على شيء آخر لكن أسلوبها الودود استمر في تعذيبه نفسيًا وتشويق مشاعره نحوها، في حين لم ينتبه "معتصم" لتلك الأحاديث الجانبية،

واكتفى بالمتابعة في صمت والرد باقتضاب على معظم الثثرة الدائرة، كان في بعض الأحيان يوزع نظراته بين ممارسي لعبة (البولينج) وبين مطالعة الجالسين معه، زفر لأكثر من مرة بفتور وملل، فعقله المنهك من كثرة التفكير كان يبحث عن حل للكارثة الملاقاة على كتفيه والمسماة بـ "آسيا".

.....

أزاح تلك المياه العالقة بخصلات شعره الطويلة بكفيه وهو يمسه للخلف متلفتًا حوله وباحثًا عن تلك المثيرة التي دفع أموالاً طائلة من أجل التمتع معها بليلة لا تنسى، تجاهل "سامر" هتافات رفاقه التشجيعية مدققًا النظر في أوجه الفتيات القابعات في المسبح، عبست تعابيره وتجهم وجهه كثيرًا، دفع المحيطين به متجهًا نحو طرف المسبح وهو يغمغم بضيق:

-راحت فين دي؟

صعد "سامر" على الدرج المعدني ليخرج بجسده الرياضي ذو العضلات المشدودة من المياه، شدد من تباعد كتفيه ليبدو كالمصارعين ضخام الجثة وهو يسير في اتجاه البار القريب، لمح بطرف عينه منظم الحفل، فرقع له بإصبعيه فأتى الأخير صاعترًا إليه وهو يقول بابتسامته الصفراء المستفزة:

-باشا، أوامر معاليك!

سأله "سامر" بنبرة مزعوجة وقد احتدت نظراته:

فين "آسيا"؟

رد الأخير بتلعثم ناظرًا له ببلاهة وهو يشير بيده نحو المسبح:

مش هي .. كانت مع سيادتك في المياه و....

انقض عليه ممسكاً إياه من تلايبيه صائحاً بانفعال:

أنا مش دافع الألوف دي كلها علشان ثانيتين، روح هاتلي "آسيا" أحسنك!

ابتلع المنظم ريقه بخوف، ثم أوماً برأسه قائلاً بانصياع تام:

ح.. حاضر!

دفعه "سامر" بعصبية للخلف فتمالك الأخير نفسه كي لا يسقط ثم أسرع في خطاه باحثاً عن ضالته وإلا تعرض لتوبيخ لا يُحمد عقباه من قبل ابن صاحب المجموعات الاستثمارية الشهيرة "عمران".

.....

ارتشف "معتصم" أغلب مشروبه البارد لكنه لم يشارك إلا بكلمات مقتضبة إن استدعى الأمر ذلك، تلفت حوله بفتور متأملاً بنظرات خاطفة المشاركين في لعبة البولينج، لم يكن متحمساً للمشاركة، كان يود الابتعاد عن كل ما يضغط على أعصابه ليحظى ببعض السكينة والهدوء، تنبه عقله فجأة لما يدور من حوله من حديث مقلق حينما تطرقت إحدى رفيقات ابنة عمه إلى خبر ما جعله متحفزاً، ركز أنظاره مع "أية" التي تساءلت بفضول:

معقول؟ وريني كده

ثم مالت على رفيقتها لتشاهد ما في هاتفها المحمول، أضافت رفيقتها بابتسامة نخلة:

بصي، ده على كل الصفحات!

طب ابعتي اللينك

أوكي

تابعت الفتيات الفيديو باهتمام ويعلو وجوههن نظرات منوعة ما بين الخجل والعبث،
ورغم الأصوات المبهمة الصادرة من الفيديو إلا أن صوت ضحكها اخترق أذنيه بقوة،
تمنى "معتصم" في نفسه لو كان وهما، تساءل "نبيل" بفضول وقد لمعت عيناه:

-بتكلموا عن مين يا بنات؟

أجابته "أية" باستحياء قليل:

ملكش دعوة

عاتبها بعبوس زائف:

-ينفع كده تخرجيني قصاد أصحابك

ورغم كون حديثه عفويًا إلا أن طريقته استفزت "مصطفى" الجالس إلى جواره، وعلى
قدر المستطاع حاول أن يبدو طبيعيًا وكم في نفسه ضيقه من حوارهما، سألها "نبيل"
ياالحاح:

ياالا بقى، مين اللي بتحكوا عنها!

عن موديل مشهورة نازل فيديو عنها صعب شوية و...

هنا قاطعها "معتصم" بوجوم مخيف:

-اسمها ايه؟

نظرت له بغرابة، فقد كانت تعابيره متشنجة إلى حد كبير، هزت كتفها وهي تجيبه:

-"آسيا"

انتفضت في جلسته مع ترديد اسمها، أشار بيده إلى ابنة عمه يأمرها:

وريني كده

ناولته هاتفها المحمول وهي تطالعه بنظرات حائرة فقد بدت تصرفاته حادة ومريبة،
حدق "معتصم" في الفيديو المعروض أمامه بنظرات تحولت للاشتعال في أقل من
ثوانٍ، كز على أسنانه هامسًا بحنق كبير:

يا بنت ال.....

راقب الجميع ردة فعله، لكن كانت "أية" الأسبق في التساؤل:

هو إنت تعرفها؟

فهم "نبيل" دون أن يخمن سبب تقلب مزاج ابن عمه واحتدام أعصابه، غمز إلى
"مصطفى" قائلاً بنبرة ذات مغزى:

-شكلها هي

أعاد "معتصم" الهاتف إلى "أية" بعد أن قام بإرسال الفيديو إلى نفسه ثم ترك الجميع
دون أي مقدمات أو تفسيرات، هب "مصطفى" واقفًا من مكانه صائحًا بجذبة وقد
توتر هو الآخر:

-روح معاه يا "نبيل"، ماتسبوش لوحده

استغربت "أية" ورفيقاتها من تبدل حال "معتصم" الهادئ إلى حالة هوجاء تنذر
بوجود خطب شديد، تساءلت بقلق موجهة حديثها إلى "مصطفى":

-في إيه يا دكتور؟

تردد في إخبارها بالسبب الأساسي لانفعال ابن عمها، رسم على ثغره بسمة صغيرة
قائلاً بلطف:

-تلاقي بس حاجة ضايقته

تفهمت رغبته في عدم البوح بما أزجه فاكثفت بالابتسام له، استدارت برأسها نحو رفيقاتها قائلة بتنهيدة أسفة وهي تجمع متعلقاتها:

-واضح كده إن السهرة اتفركشت، بينا يا بنات

فكر "مصطفى" في استغلال الفرصة وعرض خدماته عليها لربما يحظى بوقت إضافي معها، تنحنح مقترحًا بارتباك طفيف:

-احم .. تحبي أوصلك، قصدي أوصلكم

ردت مجاملة:

-معانا عربية، ميرسي يا دكتور

لاحظ يدها وهي تعبت بحافظة نقودها فهتف بلا تفكير:

-ثواني يا آنسة "أية" أنا اللي هحاسب

تخرجت منه قائلة برقة وقد تورد وجهها:

-مافيش داعي، كلك ذوق

رد مبتسمًا وهو يطالعها بنظرات أكثر إشراقًا:

-دي حاجة بسيطة!

.....

ركض "نبيل" خلف ابن عمه محاولاً اللحاق به قبل أن يُقدم على شيء أحمق، فبعد أن رأى هو الآخر محتوى الفيديو المنتشر فهم سبب انفعاله الزائد، توجس خيفة من تهوره الطائش في لحظة غضبته العمياء تلك، اعترض طريقه لأكثر من مرة محاولاً تهدئته فصاح الأخير بنفاذ صبر وبصوتٍ متحشرج:

عاوزني أهدي ازاي؟

رد "نبيل" بجنرٍ مستخدمًا ذراعيه في سد الطريق عليه:

-نتكلم بس الأول و...

لوح بيده متابعًا بغضبٍ أشد:

-والوساخة اللي أنا شوفتها دي تسميها إيه؟ فكرك أي لو شافت ده مش هيجرالها حاجة؟

كان محققًا في ذلك، فوالدته لن تتحمل صدمة أن ترى ابنتها الوحيدة كواحدة من تلك العابثات اللاتي يتم دفع الأجر الباهظة لهن من أجل متعة مؤقتة مع الشباب الأثرياء، لم يكن بيده أي حيلة أو مبرر ليفسر تصرفها، أكمل "معتصم" حديثه بصوته المتشنج:
قولتلك دي شيطان، مش فارق معاها حد!

رد عليه بتريث:

-إنت معاك حق، بس فكر بالعقل، أكيد مافيش واحدة هتقبل كده على نفسها، وخصوصًا لو كانت مشهورة

تقوس فمه بابتسامة متهمكة وهو يصحح له جملته:

-دي مش بتعمل إلا كده وبس، دور على فضايحها القديمة، هتلاقي بلاوي سودة

حك "نبيل" مقدمة رأسه قائلاً بمرح وقد بدت الحيرة عليه:

-مش عارف أقولك إيه

اقترب "معتصم" خطوة منه ثم ربت على كتفه بقوة ليضيف بعدها بلهجة تحمل الشراسة:

-ماتقولش حاجة، اللي زي دي ماينفعهاش إلا القتل وبس!
ثم أولاه ظهره ليتحرك في اتجاه السيارة، هرول "نبيل" خلفه ليوقفه متسائلاً بخوف
كبير:

-إنت هتخسر نفسك علشانها؟ بلاش جنان الله يكرمك!
التفت ناحيته يرمقه بنظرات مظلمة ثم أردف قائلاً بغموض مهلك:
-معدتش ينفع التفكير خلاص!

بس ...

قاطعاه قائلاً بصيغة أمرة:

هات المفاتيح!

شحب لون وجهه متسائلاً بقلب مرتعد وقد تجمدت أنظاره عليه:

-رايح فين؟

رد بعصبية ضاعفت من قلقه:

-بأقولك هات مفاتيح العربية!

حرك رأسه بإيماءات متتالية وهو يرد ممتثلاً:

-ماشي هاخليك تسوق، بس أنا جاي معاك!

.....

لم تكن قد أفرغت حقيبتها بالكامل بعد، جمعت "آسيا" ما تركته على الفراش وعلى
الكمود دون ترتيب ودسته فيها، ثم أكملت ارتداء ثيابها على زي السباحة ولم تكترث
بتجفيف جسدها أو حتى شعرها المبتل، فقط جمعته على هيئة ذيل حصان لينساب

خلف ظهرها بتموجات سوداء امتزجت مع بشرة ظهرها البيضاء، اتجهت إلى المصعد محدثة نفسها بجنق:

مش هاستنى هنا لحظة

ضغطت على زر استدعائه لأكثر من مرة وهي تكمل حديث نفسها المزعوج:

ناقص تاني إيه يتعمل علشان حد يربي الكلاب دول

ولجت إلى الداخل مندفعة بعصبية فلكرت إحدى المسنات بكتفها، بدت غير عابئة بنظرات الأخيرة المزعوجة منها والتي كانت بصحبة زوجها، همست السيدة بسبة خافتة لزوجها فالتفت "آسيا" نحوها تنظر لها شزراً كتعبير عن سخطها منها، تعمدت أن ترد عليها بطريقتها المعهودة في التباهي بأنوثتها لتثير حنقها وتجبر زوجها على النظر إليها، استشاطت المرأة غيظاً مع دلالتها الزائد بجسدها، ابتسمت لها "آسيا" مرددة نفس الكلمة اللاذعة لها وهي تخرج من المصعد متجهة إلى الاستقبال، أوقفت حقيبتها ووضعت يدها على الطاولة الرخامية المرتفعة فتساءل الموظف بلباقة:

-ايوه يا فندم

أجابته باستعلاء وهي عابسة الوجه

عاوزة أعمل check out

ولكونه على علم سابق بهويتها فحشي الموظف أن تكون ضيفة الفندق قد انزعجت من سوء الخدمات أو من تقصير أحدهم معها، فتساءل باهتمام:

في حاجة حصلت ضايقتك يا فندم؟

ردت نافية وهي تزفر باستياء:

-لا، عندي ظروف ومضطرية أرجع، من فضلك شوف الإجراءات علشان أمشي

هز رأسه بالإيجاب متفهماً طلبها وهو يرد:

حاضر

ظلت "آسيا" تطرق بأصابعها على السطح الرخامي ريثما ينتهي الموظف من الأمور الروتينية، تركت حقيبتها مع عامل بالفندق ليوصلها إلى سيارتها ليبدو كل شيء جاهزاً حينما توقع على الأوراق، ما جعلها تستنار في ثانية ذلك الصوت المقيت الذي صاح باسمها:

- "آسيا"

أدارت رأسها في اتجاه صاحبه فوجدت المنظم الذي خدعها، رفعت سبابتها أمام وجهه تحدته بصرامة:

- ولا كلمة

أمسك بسبابتها يقبلها بطريقة مقرزة فسحبت يدها للخلف مبدية نفورها منه، قطب جبينه متسائلاً بضيق مصطنع:

- في إيه بس يا جميلة الجميلات؟

أولته ظهرها قاصدة تجاهه لكنه اقترب منها مقلصاً المسافات بينهما، سألها بهمس وهو يميل نحوها:

- ينفع تختفي فجأة كده وترعلي الضيوف منا

اشمئزت من راحة أنفاسه الكريهة التي كادت تصيبها بالغيثان، أبعدت وجهها عنه لترمقه بنظرات احتقارية وهي ترد بتأفف:

حضيفك إنت مش أنا

هز رأسه بحركات متفهمة ثم تابع قائلاً بجمود:

-تمام

راقبها حتى انتهت من توقيع الأوراق وحينما أوشكت على التحرك اعترض طريقها متابعا
بنبرة ذات مغزى:

-بس "سامر" بيه مضايق، يعني هو سايب مشاغله واللي وراه علشان يقضي وقت
لطيف هنا واحنا كده نبوظله ال vacation (الأجازة) بتاعته

وكانه نزع صمام الأمان عن سلاح ناري معد مسبقا للفتك بالأعداء، صاحت فيه
صارخة بنبرة حادة لفتت الأنظار نحوها:

-ماتجشس سيرة الحيوان ده تاني قصادي

تلفت حوله بقلق وحاول الابتسام ليخفي ذلك الحرج الكبير الذي بات فيه، هداها
قائلا:

-ماشي.. بلاش شوشرة بس

رمقته بنظرات دونية قبل أن تكمل بازدياء:

-وبعدين أنا بأتكلم معاك ليه أصلا، دي غلطتي من الأول إني أوافق على حاجة تبعك
وانت سمعتك معروفة عند الكل!

حدجته من جديد بنظرة مهينة لتكمل بعدها سيرها مبتعدة عنه، لحق بها متسائلا
بقلي:

-رايحة فين؟

حذرتة بلهجة عدائية:

-إبعد عني بدل ما أندهلك الأمن

رفع المنظم يديه مشيرًا إلى عدم رغبته في اللجوء إلى العنف للتعامل معها، ولكن كان ذلك تمهيدًا زائفًا ليمنح الفرصة لذلك الثري ليقترّب منها، شعرت "آسيا" بتلك اليد التي تلمس ظهرها فانتفضت في وقفها وهي تلتفت للجانب لتجده ملتصقًا بها، ابتسم لها قائلاً:

- "آسيا"

أزاحت يده عنها وهي تنظر له باحتقارٍ، تراجعت خطوة للخلف محذرة إياه بشراسة:
إياك تلمسني تاني!

لوى ثغره للجانب معبرًا عن إعجابه بوحشيتها التي تستفز رجولته وتحرك فيه النزعة الذكورية المسيطرة، كانت بثيابها شبه المبتلة أكثر إغراءً، بل وضاعفت من رغبته في التودد أكثر إليها وربما افتراسها إن منحته الفرصة لذلك، استطرد حديثه قائلاً بتفاخرٍ ومتعمدًا الإشارة إلى سلطته القوية وهيمنته:

-إتي هنا في مكاني، مملكتي بمعنى أدق

أدارت رأسها في أرجاء البهو بنظرات غير مبالية، ثم جمدت أنظارها عليها لتقول بعدم أكثرات وكأن ما يملكه غير كافٍ لاسترضائها:

-اشبع بيه!

اغتاظ من أسلوبها المتهمك على نفوذه وشخصه، اندفع بهوجائية نحوها قابضًا على رسغها بيده، ومطوقًا خصرها باليد الأخرى، صاحت فيه بغضب مهددة إياه وهي تدفعه من صدره بقبضتها المتحررة:

-بعد عني أحسنك، إنت مش عارف بتتعامل مع مين

غمز لها هامسًا وهو يجبرها على التحرك مع خطواتها بعيدًا عن رواد الفندق:

-لأ عارف كويس

شدد من ضمه لها مكملاً بمكرٍ:

-ودافع حسابك مقدماً يا حلوة

-أها، العرض الفشنك إياه

مال عليها متعمداً تقريب أنفاسها من بشرتها:

مضبوط

لم تستسلم كالمرّة السابقة لقوته الخشنة عليه بل لجأت لشحذ قواها الغاضبة وتوجيهها للدفاع عن نفسها، ركته بشراسة أسفل معدته مسببة له ألماً شديداً في موضع حرج مما أجبره على تحريرها والانحناء بجذعه للأمام كأنما ما يشعر به من أوجاع، تراجعت مبتعدة عنه وهي تصيح بانفعال:

ده تاخذ حسابيه من اللي ضحكك عليك وفهمك إن "آسيا شرف الدين" سهلة ولليبيع! حدق الجميع فيهما فبات "سامر" في موقف حرج للغاية، فكل الأعين الآن مسلطة عليه، خاصة الغرباء ممن لا يعرفهم، اعتدل في وقفته رغم الألم الشديد، فرمقته بنظرة أخيرة أشعرته بازديادها له، استفادت "آسيا" من الموقف وأكملت سيرها المتعجل هاربة منه، لكن بقيت أنظاره مسلطة عليها، كان أفراد الأمن متحفزين للإمساك بها لكن تلك الإشارة الضمنية من يده ومن عينيه جعلتهم يتراجعون للخلف، دس "سامر" يديه في جيبه سرواله القصير قائلاً باستمتاع وقد وجد في الأمر تحدياً من نوع يجبذه كثيراً:

مش مع "سامر عمران" يا "آسيا"!

.....

ظل مرابطًا لساعات أمام مدخل البناية التي تقطن بها رغم تأكيد حارسها أنها ليست متواجدة بها، أصر "معتصم" على البقاء متجاهلاً توسلات ابن عمه بالذهاب، فشل الأخير في إقناعه بالعدول عن رأيه، ولم يرغب بالطبع في تركه بمفرده، تحرك ليقف قبالة قائلاً بامتعاض:

-هاتستفيد إيه من الوقفة دي؟

نظر في نقطة ما بالفراغ مكتفًا ساعديه أمام صدره ومتخذًا الصمت وسيلته، استند "نبيل" بظهره على جانب السيارة مكملاً بانزعاج:

حط تعالى تقعد في كافيه قريب من هنا يا "معتصم"

لم يعلق عليه، واكتفى بالتحديق أمامه متوعدًا إياها، بالطبع كان ابن عمه ملزمًا بطمأنينة العائلة عليه ليتجنب حالة القلق السائدة هناك، راقبه في صمت ملول منتظرًا أن يتخلى عن عناده ويأتي معه، بينما كان "معتصم" في عالم آخر خاص به، وضع في رأسه عشرات السيناريوهات المختلفة لمحاسبتها على ما اقترفت من أخطاء متخيلاً استجدائها للعفو والسماح بعد أن لوثت سمعتها وسمعة المحيطين بها، لكن كل أوهامه كانت تنتهي بالفشل الذريع وابتسامتها الشيطانية انتصرت في الأخير، تحفزت خلاياه من جديد ضدها، أراد إفراغ شحنته المتأججة بداخله فيها، لن يعود إلى منزله وهو بتلك الحالة، بل ربما سيهدأ إن عنفها بقسوة، تاهب بالفعل حينما رأى إحدى السيارات تقترب قبيل الفجر من المنطقة، استطاع أن يميز وجهها المختلف من خلف الزجاج، استعد للهجوم عليها ريثما تقترب منه كي لا يثير فزعها فتهرب قبل أن يمسك بها، لاحظ "نبيل" التوتر الذي ساد على تعابيره مع مجيء تلك السيارة، توسله راجيًا:

-بلاش تهور من فضلك

رمقه بنظرة جامدة مليئة بالغموض والشر مما ضاعف من إحساس الخوف بداخله، وبمجرد أن صفت سيارتها كان هو في طريقه إليها، بدت "آسيا" في حالة إنهاك من القيادة المتواصلة لساعات فلم تنتبه لقدم "معتصم"، تراجلت من السيارة فتفاجأت بمن يقبض على رسغها، ظنت أنه سارقًا تریص بها فأوشكت على الصراخ لكن يده الأخرى كانت الأسبق على فمها، حدقت بأعين متسعة في رعب لوجهه في البداية، لكن سريعًا ما تحولت نظرات الخوف إلى غضب شديد، ضغط "معتصم" على شفثيه محذرًا:

-هاتيحي معايا من سكات

حاولت التملص منه والحديث لكنه حاصرها جيدًا وألصقها بسيارتها متابعًا بنفس الخشونة والشرر يتطاير من عينيه:

-وقت الحساب جه!

احتقنت نظرات "آسيا" مع تهديده المتطاول عليها، ولو لم تكن منهكة من قبل لتصدت له بكل قوتها، تطلبها الأمر مجهودًا زائدًا لتتخلص من قبضتيه، بدت كمن يحرك جبلًا صامدًا، ساعدها قليلاً تدخل ذلك الغريب الذي بدا مذعورًا وهو يقول:

-إيه اللي بتعمله ده، الناس هتتفرج علينا وهتحصل مشكلة

استخدم قوته الجسمانية في إبعاد ابن عمه عنها، وكانت تلك فرصة ذهبية لنيل حريتها، صرخت توبخه بتهديد قوي:

-هتندم على ده!

رد بعدائية أشد شراسة رافعًا إصبعه أمام وجهها مهددًا:

-ماتكلميش!

فغرت ثغرها مدهوشة من جرأته المهددة لها دون أن تفهم السبب، استجمعت جأشها لترد بانفعال:

-الظاهر إنك عاوز تتهزأ من تاني

ثم أطلقت ضحكة رقيقة مضيئة بعدها بتهكم وهي تنظر له ساخرة:

-واضح مزاجك بييجي على ده!

كانت إهانة واضحة لرجولته التي لن يقبل بالمساس بها، انتفض بكل ما أوتي من قوة ممتلئًا بشحنة مضاعفة من غضب ممزوج بانفعالات زائدة دافعًا "نبيل" للجانب ليغدو أمامها، أطبق على عنقها يخنقها بقبضته ضاغظًا على عروقها النابضة وهو يقول من بين أسنانه بشراسة:

مزاجي مش هاييجي إلا على موتك النهاردة !!

.....

الفصل الحادي عشر

تجسد نصب عينيه كل المشاهد البذيئة والتجاوزات التي تخصها وما عرفه عنها وما قرأه في المواقع المختلفة ليحكم عليها بكونها شابة عابثة تجري وراء الشهرة من خلال الفضائح غير الأخلاقية متخذة ما أسماه بـ (العُهر) أسلوبًا للحياة وتربح المال، زاد ذلك

من حنق "معتصم" نحوها فاستمر في ضغطه العنيف على عروق عنقها غير مدرك تمامًا لتوابع ما يفعله، كان مغيبًا بالفعل، يتصرف بهوجائية، قاومته "آسيا" بما تبقى لها من طاقة لكن لم يمكنها ذلك من إبعاد أصابعه عنها، كانت تقاتل تلك المرة من أجل حياتها رغم اختبارها لذلك معه من قبل، خرجت الأمور حقًا عن السيطرة في ثوانٍ معدودة، وبات "نبيل" في موقف حرج للغاية يجب أن يتصرف فيه بدون تأخير لإتخاذ ما يمكن إتخاذ خاصة بعد تصرف "معتصم" الأرعن وهجومه العدائي على "آسيا"، اندفع هو الآخر في اتجاهه محاولاً انتزاع قبضته عنها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة بين يديه، توسله بخوفٍ وقد قرأ رغبة حقيقية في قتلها:

-سيبها يا "معتصم"، احنا في الشارع!

استمر الأخير في الضغط على حنجرتها بقوة أكبر غير مكترث لتلك الحشجة البائنة في صوتها وهي تقاتل بشراسة لالتقاط أنفاسها، رد عليه بعدائية جامحة:
-هتوت في إيدي!

اضطر "نبيل" أن يلكره بعنف في جانبه مسببًا له ألمًا قويًا أجبره على تحريرها، ثم التف خلفه ليطوقه من ذراعيه مقيدًا إياه قبل أن يفيق من تلك الضربة المفاجئة، فمنحها بذلك الفرصة للنجاة من موت محتوم، اهتمج "معتصم" صارخًا:

-سبني يا "نبيل" أموتها!

خارت قوى "آسيا" من أثر الاختناق وافترشت الأرضية أمام سيارتها، ورغم الوهن البادي عليها إلا أنها ردت عليه بصوتها المبحوح وهي ترمقه بنظرات تنثوي الانتقام منه:

-أنا هوريك، هدفعك تمن ده!

حاول الاقتراب منها رغم ثقل جسد ابن عمه والذي يعوقه عن التقدم نحوها هادرا:

-مش قبل ما نتحاسب

حاولت "آسيا" الابتسام قاصدة الاستخفاف بتهديده وبأن ما يتفوه به لا يعنياها مطلقًا، استنشاط غضبًا من استفزازها له، رفع سبابته مشيرًا نحوها ومكملًا بانفعال:

-إنتي لعنة على أي حد يعرفك!

ردت عليه بجرأة متحدية شراسته:

-إنت لسه ماشوفتش مني حاجة!

عاودت النهوض على قدميها مقاومة حالة الإعياء ومستعيدة لنشاطها تدريجيًا، وقفت قبالة تتحداه نافضة تلك الأتربة عن يديها، تأكد "نبيل" من احتمالية الصدام بينهما فهتف يرجوها:

-امشي لو سمحتي

نظرت إليه بجنق لكن صوت "معتصم" الغاضب أجبرها على النظر نحوه وهو يقول:

-مش هاتمشي من هنا

توسلها "نبيل" يالحاح بعد أن تعذر عليه إحكام السيطرة على ابن عمه:

من فضلك يا هانم

قوست ثغرها ببسمة مغرية لتقول بإعجاب وهي تغمز له:

-اوكي، علشان خاطرک بس

اغتاظ الأخير من تصرفاتها المثيرة للأعصاب، قبض على رسغها صارخًا باحتجاج:

-بأقولك مش هاتمشي

وضعت "آسيا" يدها على أصابعه تنتزعها نزعًا وهي تحدشه بأظافرها لتحرر رسغها منه، تمكنت بنجاح من الإفلات منه، ثم لوحث له بيدها وهي تتعد عنه مستفزة إياه أكثر، أطلق سبة نائية لاعتنا إياها، فلم تكثرث به، رد عليه "نبيل" بعصية مبررة:

-كفاية فضايح بقي في الشارع، بينا من هنا

أجبره على السير معه نحو السيارة وهو يتوسله أن يكف عن ملاحظتها والتسبب في المزيد من المشكلات، لكن كان الخطر الحقيقي هو ذلك القادم بسيارته من بعيد، قطعت "آسيا" الطريق متجهة بخطى واثقة نحو مدخل بنايتها، لو نظرت لها قبل دقائق ما كنت تتخيل أن تلك التي كانت على شفا حفرة من الموت تسير بخيلاء وكأنها ربحت للتو جائزة مادية كبيرة، انتبهت لصوت المكابح الذي كان قريبًا منها فأدارت رأسها للجانب لتجد سيارة دفع رباعي تصطف بجوارها، زوت ما بين حاجبها مُلقية نظرة سريعة على من بها، ازداد انعقاد حاجبها مع تأملها لتلك الملامح المألوفة، اعترتها دهشة عجيبة وهي ترى وجه "سامر" - بحليته النابتة وشعره الذي عقده كالكمكة - مترجلًا منها بثقة مفرطة، شعرت بجفاف يجتاح حلقها وهي تراه مقبلًا عليها بقميصه الأصفر وسرواله الصيفي الأخضر، بدت تعبيراته حادة عندما استطرد قائلاً بتفاخر لاويًا ثغره بابتسامة مغترّة:

-كنتي فكرة مش هاعرف مكانك

لوهلة أحست برعشة خفيفة تصيبها، لا تعرف إن كان مصدرها خوفًا طبيعيًا منه أم مجرد نسمة باردة لامست بشرتها، خرج صوتها مصدومًا وهي تنظر له باندهاش:

-إنت!

دنا منها أكثر ومتابعًا بجدية وتهديد في نفس الآن:

-لسه الكلام بينا مخلص!

قرأت في عينيه رغبة جامحة لن يروضها أو يمنعها في الظفر بها، تراجعت بحذر للخلف وهي تفكر في الخيارات المتاحة أمامها، سألته بتوتر طفيف:

-ولا أنا مش عاوزة؟

اتسعت ابتسامته العابثة قائلاً بنبرة ذات مغزى:

هتخليني اعمل حاجات تانية جايز ماتحبيهاش

استشعرت الخطر من طريقة حديثه المريبة، واصلت تراجعها للخلف ودقات قلبها تتلاحق بداخل صدرها، تضاعفت رهبتها مع اختفاء حارس البناية الذي من المفترض أن يكون جالساً هنا، حاولت أن تبدو هادئة التعبيرات وثابتة في ردة فعلها معه، وقعت أنظارها على أصيص الزرع الصغير الموضوع بجوار المدخل، انحنت لتلتقطه بخفة ثم رفعت أمام وجهه تهدده:

-امشي أحسنك

نظر لها باستخفاف وهو يرد مشيراً لها بكفه:

-ارمي البتاع ده من إيدك!

استعدت "آسيا" لمواجهة والدفاع عن نفسها إن تقدم خطوة أخرى نحوها، خاصة بعد أن باتت بمفردها وبداخل بنايتها.

.....

في نفس التوقيت، كان "معتصم" قد استقل السيارة إلى جوار ابن عمه الذي تولى القيادة عنه، وجد صعوبة في السيطرة على انفعالاته فأخذ يضرب الباب لأكثر من مرة كوسيلة للتنفيس عن غضبه، بغض النظر عن بعض الكلمات اللاذعة التي نطق بها في حالته تلك، لم يقاطع "نبيل" ما يفعله، فالأسلم أن يحدث ضرراً للسيارة وليس لتلك

الشابة المستفزة، ركز "معتصم" عينيه نحو المدخل ليجد ما أصابه بشلل مؤقت في تفكيره، لو لم يكن قد رأى بنفسه وضعية "آسيا" المتحفة لتيقن أنها تواعد ذلك الشخص الضخم وعلى علاقة به، لكن هيئتها وتعابيرها المشدودة أكدت له أنها في مأزق ما، حثه شيء ما بداخله على التحرك فوراً من أجلها رغم الكره الذي يكنه نحوها، صاح هادراً بصورة فجائية ضارباً التابلوه بعصبية بحركات متتالية بكفه:

-وقف العربية بسرعة!

انتفض "نبيل" في جلسته خلف الموقد، والتفت نحوه متسائلاً بصدمة:

ليه؟

صرخ بها بتشنج:

-إنت لسه هتسألني وقف العربية وإلا هنط منها

اعتقد أنه يحاول افتعال المشكلات من جديد مع "آسيا" فرفض إيقاف السيارة قائلاً:

-لأ، إنت مش

لم يكمل جملة له للنهاية فقد بادر "معتصم" بفتح باب السيارة ثم ألقى بجسده خارجها غير مكترث بالإصابات الخطيرة التي يمكن أن تحدث له جراء ذلك، ضغط "نبيل" على المكابح فجأة وهو يجاهد ليستوعب تهوره الأعمى صارخاً فيه بذهول مدعور:

-إنت مجنون!

تأوه "معتصم" من الألم الشديد الناتج عن ارتطامه العنيف بالأرضية الإسفلتية، لكن لا وقت للألم، استند بكفيه محاولاً النهوض، وما إن وقف على قدميه حتى عرج بخطواته في اتجاه مدخل البناية حيث تتواجد "آسيا" مع ذلك الغريب، تلقى "سامر" ضربة قوية في ظهره أجبرته على الاستدارة للخلف ليرى من ذلك الأحق الذي تجرأ

على فعل هذا، بينما شهقت "آسيا" مصدومة لرؤيته متواجدًا لمساعدتها، لم ترغب في الحصول على ذلك منه، أن يكون له الفضل في شيء عليها حتى لو كانت بالفعل تحتاج إليه، لم يفق "سامر" من الصدمة الأولى حتى تلقى لكمة أشد قوة في وجهه جعلت جسده الضخم يترنح، اقترب "معتصم" منها يسألها بعصبية:

-مين ده؟

ردت بارتباك:

-وانت مالك، امشي من هنا

فرك "سامر" ذقنه راميًا "معتصم" بنظرات نارية، لم يمنحه الفرصة للحصول على جواب مرضي منها، بل أمسك به من تلايبه يضربه بعنف أسفل معدته، أخرج الأخير أنينًا مكتومًا كتعبير عن الوجع الشديد، ومع ذلك صمد أمام ضرباته المتلاحقة وصد معظمها، اعتدل في وقفته ثم انحنى مندفعًا نحوه بقوة ليطرحة أرضًا، وقع "سامر" على ظهره صارخًا بألم، فضاعف ذلك من غضبته نحو، لملم نفسه معاودًا تسديد الضربات لغريمه الغريب، وفي أقل من ثوانٍ احتدم التشاجر بينهما وتحول إلى قتال شرس بالأيدي والأرجل، صرخت "آسيا":

-يا جماعة حد يلحقنا، هيموتوا بعض

تدخل "نبيل" للفض بينهما لكنه فشل وتلقى هو الآخر عدد لا بأس به من الضربات، ما أنجا الجميع من نهاية غير مبشرة هو مرور دورية شرطة في الطريق رأت ما يدور فاستوقفتهم، ثم قام الضابط المسئول باصطحاب الجميع إلى المخفر لتحرير محضر بالواقعة.

.....

أخرجت تهيدة ثقيلة من صدرها وهي تتطلع من الشرفة للخضرة المظلمة أمامها، حدقت "نادية" في صورة الرضيفة التي ظلت بجوزتها رغم مرور السنون بشرود

حزين، شعرت بلمسة حنونة على ظهرها فالتفتت برأسها نصف التفاتة نحو زوجها،
ابتسمت له ابتسامة باهتة وهي تقول:

يا ترى هي فكراني ونفسها تشوفني؟

رد بامتعاض لم يستطع إخفائه:

- "نادية"، لازم تفهمي حاجة

لمعت عيناها بعبراتها الحبيسة، ورغم صعوبة ما سيقوله لها إلا أنه كان ملزمًا أن يكون
صادقًا معها كي لا تنصدم لاحقًا، تابع قائلاً بجديّة:

- "آسيا" مش البنت اللي في خيالك، ماتفتكريش إنها عاشت حياة وردية وإنها البنت
المحترمة المترية اللي الكل يشهد بأخلاقها، دي تربية "شرف الدين"، يعني تأثيره
هايكون واضح عليها

للحظات عادت بالذاكرة للوراء حيث المجون وطاولة القمار والتجاوزات اللا أخلاقية
من زوجها السابق، ارتجف بدنها من مجرد تخيل ما يمكن أن يعلمه لطفلة رضيعة لا
حول لها ولا قوة، ما يُمكن أن تكتسبه من صفات سيئة ستشب عليها وكأنها مفاهيم
الحياة القويمة، وما أكد حديثه هو عرضه لبعض الأخبار والصور التي تخصها، كانت
صدمة بحق لها، وانهمرت عبراتها المعبرة عن خذلانها لها، انتحبت قائلة بنبرة منكسرة:

دي غلطي إني تخليت عنها ومادورتش عليها كويس، كان لازم آ.....

قاطعها وهو يمد يده ليمسك بها من كفيها المرتعشين:

-اهدي يا "نادية"، ده مش ذنبك، الذنب كله على أبوها، وكل دورنا دلوقتي إننا

نحاول نصلح منها إن كانت هي عاوزه ده

سألته بحيرة واضحة في نظراتها نحوه:

إزاي؟

أجابها مبتسمًا بثقة:

- "معتصم" موجود واحنا معاه نساعده

شعرت بالارتياح لوجوده في حياتها مهونًا عليها الكثير من العقبات، احتضنها "وحيد" من كتفها مضيئًا بجديّة:

- وعلى فكرة هو وصلها

هوى قلبها في قدميها وهي ترد مصدومة:

إيه؟ يعني "معتصم" عرف مكانها ونجى عليها؟

أجابها بحذر:

أنا اللي طلبت منه ده علشان ماتتصدميش فيها

ردت متسائلة بقلق كبير وقد تملكها الخوف:

طب ليه؟

نكس رأسه قائلاً بمرح:

-لأنها مش عاوزة .. تشوفك

وكانه طعنها في صدرها بخنجر صدئ، لم يتحمل عقلها الصدمة ولا جسدها الأمر ففقدت وعيها، فزع "وحيد" لتسببه دون قصد في تدهور صحتها، صاح مذعورًا:

- "نادية"!

.....

مرت نصف ساعة فقط على تواجد أطراف المشاجرة بالمخفر وتحول المكان إلى ساحة من المحامين العتاة، بالطبع لأن أحد أطرافها واحدًا من أبناء رجال الأعمال المشهورين، وكانت النصيحة الهامة من هؤلاء المحنكين في القانون هي إنهاء الأمر بالتصالح قبل أن يتم تحويله للنيابة، اعتدل الضابط في جلسته غير المريحة على مقعده ممرًا أنظاره على أوجه الشباب والفتاة ثم أردف قائلاً بنبرة رسمية:

-وأنا رأيي زي الأساتذة تعملوا محضر تتصالحوا فيه

ثم وجه حديثه لـ "آسيا" متابعًا بنبرة تحمل الاتهام:

-واتي يا هانم مافيش داعي للدوشة دي، عاوزة تشوفي أمورك بيتقى بدون قلق وفضايح

احتقن وجهها بحمرة شديدة مستنكرة ذلك الاتهام الباطل في حقها وكأنها من افتعلت الأمر، احتدت نظراتها صائحة باعتراض:

-مش فاهمة كلامك؟

كان "معتصم" واقفًا إلى جوارها يغلي على بركان ملتهب بحممه الحامية لمجرد التلميح بأنها كالعاهرات، لماذا لا يكون الضابط محققًا في ظنه السيء وكل ما تفعله يؤكد ذلك؟ التفتت "آسيا" برأسها نحو "سامر" لتكمل بغضب وهي تشير إليه:

قصدك إن أنا جرجرت واحد زي ده لحد بيتي يتهجم عليا الفجر؟

اغتاظ الأخير من تهكمها المهين لشخصه وكأنه تابع بلا شخصية تحركه فقط شهوته، تحفز للرد عليها لكن إشارة واحدة من محاميه المخضرم أجبرته على الصمت ليكتم غضبه في نفسه مؤقتًا، رفع الضابط حاجبه للأعلى قائلاً بعبوس:

-مش جايز عملي كده؟

انفجرت شفتها هاتفة باحتجاج رافض:

-أفندم؟

أوماً بعينه نحوها موضحاً:

من اللي أنا شايفة، لبسك وطريقتك بتقول كده!

اندفعت نحو مكتبه تضرب على سطحه بعصبية بيديها صارخة فيه:

-أنا مسمحكش

رمقها الضابط بنظرة محذرة لكنها لم تتعبأ به، بل واصلت صياحها تهددة:

-وأنا هاقدم فيك شكوى، إنت مش عارف أنا مين ولا أقدر اعمل إيه فيك

رد بانزعاج رافض لاستغلال معارفها في الإفلات من العقوبات:

-هو كل واحد يعمل مصيبة يقول الكلام ده!

قبض "معتصم" على ذراع "آسيا" ثم جذبها نحوه للخلف وبعيداً عن الضابط، كز

على أسنانه هامساً لها بجنق ليحذرها من التماهي معه:

-ولا كلمة زيادة

ضاقت أعينها الغاضبة وهي تنظر له بتوعد، استمر في ضغطه الشرس على عضدها

ليشتت انتباهها قليلاً، تنحنح المحامي قائلاً بهدوء رزين:

-احنا غير مسئولين يا فندم عن أي كلام تقوله الأستاذة

استدار الضابط نحوه متحدثاً من زاوية فمه:

-مش محتاج تقول

تساءل المحامي من جديد:

-في حاجة ثانية مطلوبة مننا قبل ما موكلي يمشي؟

رفع كفه مشيرًا له:

-لا، اتفضلوا

همهمات غير مفهومة صدرت من "سامر" لطاغم المحاميين الذي أتوا معه وهو ينسلون واحدًا خلف الآخر، لكن تلك النظرة الغاضبة منه نحو "آسيا" عنت لها الكثير ووترتها نسيًا، رآه "معتصم" وهو يطالعها بنظرات لا يفهمها إلا الرجال، اضطر مرغماً أن يسيطر على ما يعتريه من انفعالات غير مفهومة، كانت "آسيا" على وشك التحرك لكنها لم تخطو قيد أنملة بسبب إمساك "معتصم" بها من ذراعها، رمقته بنظرة حادة وهي تهمس له:

سيب دراعي

رد بجمود مريب يكم خلفه الكثير من الانفجارات العصبية الوشيكة:

-مش دلوقتي!

حدجته بنظرة مهددة قبل أن تكمل بصوت خفيض:

-أحسنك

قاطعها هامسًا بتحذير:

-كلامنا برا، مش هنا!

كان ينتظر فقط انصراف "سامر" ليتحرك بعدها وهي معه، لم يرغب أن يحتك به مرة أخرى، وما إن خرج من مكتب الضابط حتى نفضت ذراعها من قبضته، التفتت ناحيته توبخه:

-بتساعدني ليه؟ أنا طلبت ده منك!؟

نظر لها شزراً للحظات قبل أن يجيئها بغموض:

-ومين قالك كده؟

تأكد "معتصم" من انصراف "سامر" من المخفر فتابع سيره إلى الخارج، داعبت "آسيا" طرف ذقنها قائلة باستخفاف وهي تتبعه في خطواتها:

جائز دي فرصة علشان أخليك تعلى في نظري

توقف عن السير مستديراً نحوها، قست نظراته متمماً بغيظ:

-كفاية استفزاز ليا

ارتسم على ثغرها ابتسامة مراوغة، أراد تحطيم غرورها، كسر تلك القوة الخفية التي تمنحها السعادة لإذلال الآخرين وإفساد سعادتهم، همست قائلة بثقة لتخرجه من تحديقه فيها:

-إنت لسه معرفتش أنا أقدر أعمل ايه

رد متحدياً بخشونة طفيفة:

-مش هاتقدري طول ما أنا عايش

ضحكت قائلة باستهانة:

-إنت كده مش هاتبطل تفكير فيا

ورغم عبثية ما قالته إلا أنه رفض تلميحتها بكل صورته فتهتف معترضاً:

-إنتي آخر حد أفكر أبصله ولا حتى أفكر فيه، لولا ماما "نادية" كنت

قاطعته بمرارة لا يعرفها:

-ماما، سخيفة أوي الكلمة دي لما تتقال لواحدة متعرفش يعني إيه أمومة!

التوى ثغره مشكلاً ابتسامه متهمه قبل أن ينطق ببطء متعمداً الضغط على كل كلمة يتلفظ بها:

-وخسارة لما تبقى بنتها واحدة زيك

توقف عن الحديث عمداً لثانية ليكمل بعدها ببرود وإهانة أشد شراسة مراقباً تبدل لون بشرتها للحمرة الغاضبة:

-رخيصة بتروح للي يدفع فيها أكثر حتى لو كنت أنا واحد من الناس دول باغتنه بصفعة قوية لم يتوقعها أبداً منها خاصة أنها دومًا تتعامل معه ببرود مهلك للأعصاب الجامدة، زادت من حنقه حينما ردت بكرامة قليلة:

-مش "آسيا شرف الدين" يا تربية "نادية" !!!

.....

الفصل الثاني عشر

مزيجٌ من النظرات الغاضبة والمتوعدة انعكست في أعينه عقب صفعتها التي أتت من حيث لم يتوقع، توقعت "آسيا" أن يثور في وجهها ويرد لها الصفعة، لكن على عكس ما توقعت منه اكتفى "معتصم" فقط بالتحديق فيها بصمت مريب ألبكها ووترها في نفس الوقت، سمحت نفساً عميقاً لفظته دفعة واحدة لتواصل حديثها قائلة بكبرياء:

-مش للدرجادي هاقبل بيك

احتدت نظراته نحوها قائلاً بهدوء مخيف وكأنها لم تضع بصمتها على صدغه:

-تربية "نادية" فلحت معايا

ثم صمت للحظة ليكمل بعدها بنبرة شبه مهددة:

-وهتريكي من أول وجديد

لم تتحمل طريقته التي تعبر عن ثقته الزائدة ولا حتى جموده الذي يعصف بهدونها، أرادت أن تشعره بأنها في مركز قوة، فرفعت يدها مجددًا لتصفعه لكنه أمسك بها من رسفها مانعًا إياها من تكرار الأمر، تأوهت بصوت خافت مستشعرة ضغطة أصابعه على معصمها وكأنه يعتصره، جذبها منه نحوه ليقترب وجهها من وجهه، شعرت بأنفاسه الغاضبة تلمح بشرتها حينما استطرد محذرًا:

حسابك كان مرة واحدة

قطبت جبينها وهي تحديق في عينيه الملتهبين، وبالرغم من غموض جملته في البداية إلا أنها فهمت مقصدها بعد تفكير سريع فيها، تذكرت الصفحة التي تلقتها منه حينما طردها من منزل والدتها في أول لقاء جمعها سوياً، رفع "معتصم" حاجبه للأعلى ليتأكد من إيصال رسالته لها ثم تابع مهددًا بخشونة:

أكثر من كده هاكسر إيدك

خرج عنها شهقة خافتة التقطتها أذنه، كان بالفعل جادًا في تهديده، حتى نظراته كان موحية بأنه سيقدم على ذلك بالفعل، كما تعمد لإيلاها ليؤكد لها ذلك إن شكت للحظة أنها تستخف به، وقبل أن تحرك شفثها لتتطرق كان "نبيل" منضمًا إليهما يهتف برجاء:

من فضلكم، كفاية مشاكل وخرافات

وجه حديثه إلى "آسيا" تحديداً متوسلاً إياها بامتعاض:

لو سمحتي يا هانم

زمت ثغرها قائلة بعبوس وهي تومئ بعينها نحو رسفها:

لما صاحبك يسبب إيدي!

استدار "نبيل" نحو ابن عمه يرجوه قدر استطاعته بتريث ولباقة:

- "معتصم"، أرجوك!

حرر الأخير يدها دافعًا لإياها بعصبية دون أن يبعد نظراته الحاققة عن وجهها المتشنج،
رن هاتف "نبيل" فجأة، فدس يده في جيب بنطاله ليخرجه، وزع أنظاره بين الوجهين
المتحفرين وهو يجيب على اتصال عمه المريب في ذلك الوقت المتأخر:

أيوه يا عمي

تحركت عيناه نحو "معتصم" قائلاً بغموض:

هو موجود معايا، في حاجة حصلت؟

استشعر "معتصم" وجود خطب ما من طريقة حديث "نبيل"، صرف تركيزه عن
"آسيا" لينتبه كليًا إليه، وخاصة حينما واصل بقلق:

-تمام، احنا جاين على طول

أنهى معه المكالمة فسأله "معتصم" بتلهف قلق وهو يضع يده على كتفه:

في إيه؟

ابتلع "نبيل" ريقه ليجيبه بتوتر:

طنط "نادية" تعبت جامد واتنقلت المستشفى

اتسعت مقتلته فزعًا وهو يسأله مصدومًا:

-بتقول إيه؟!!!

انقبض قلب "آسيا" لمجرد سماعها لذلك الخبر الصادم، تبلدت حواسها لوهلة وكأنها
أصببت بشلل مؤقت في تفكيرها، هتفت بلا وعي معتقدة أن الموت قد بات وشيكا
منها:

مش لازم تموت قبل ما تتحاسب!

استدار "معتصم" نحوها والغضب يعتريه من جملتها التي قضت على آخر ذرة هدوء فيه، أمسك بها من ذراعيها يهزها بعنف وهو يصرخ بها:
إنتي إيه، مش بني آدمة؟

لم تشعر بصراخه ولا حتى بتعامله العنيف معها، كانت نوعًا ما مغيبة عنه تفكر في احتمالية رحيل والدتها عن العالم الفاني قبل أن تحقق انتقامها منها، خشي "نبيل" من تدهور الوضع الذي لا يهدأ أبدًا بينهما فهتف فيه راجيًا:

سيبها يا "معتصم"

استخدم "نبيل" قوته الجسمانية في تخليصها منه وإبعاد "معتصم" عنها، ومع ذلك لم يتوقف الأخير عن إطلاق اللعنات والسباب في حقها رغم جره نحو السيارة، طالعتة "آسيا" بنظرات شاردة تفكر فقط في تلك المصيبة التي سمعت عنها، لم تفق من حالة اللا وعي إلا بعد برهة وبعد انصراف الجميع عنها، تلفتت حولها بتوتر فوجدت نفسها بمفردها في الطريق، شحوب واجم حل على تعابيرها، لا تعرف لماذا تشعر بتلك الغصة في حلقها، وبذلك الألم في صدرها، قاومت رغبة تداعب حدقتها بالبكاء بلا سبب، تنفست بعمق لتسيطر على الحالة الغريبة التي بدأت تعتمها، أشارت بيدها المرتجفة إلى إحدى سيارات الأجرة لتستقلها، ولكن ليس إلى منزلها بل إلى أحد الفنادق القريبة، فالتواجد حاليًا فيه ربما سيزيد من سوء حالتها النفسية.

.....

مر الوقت بطيئًا كالدهر عليه وهو يقف وسط أفراد عائلته بالرواق مترقبًا خروج الطبيب ليطمئنه على حالها، تعاسة جليلة سيطرت على ملامح وجه "معتصم" وهو يقف مستندًا بظهره على الحائط، أدار رأسه في اتجاه والده الذي كان حزينًا للغاية، لم

يره بمثل تلك الحالة منذ وفاة والدته، أحقًا مازال يكن لها حبة صادقًا ونابغًا من أعماق قلبه رغم مرور السنوات على زواجهما ليخشي من فقدانها فجأة؟ اقترب منه ثم جلس إلى جواره ماسحًا على ظهره برفق، خرج صوته متحشرجًا نوعًا ما وهو يسأله بخفوت:

للدرجادي بتحبيها؟

أجابه "وحيد" بانكسار:

أنا السبب في اللي حصلها

حدق فيه باستغراب، فأكمل استرساله الحزين معاتبًا نفسه:

-كنت غلطان لما فكرت في ده، ازاي أنا بأحذرك تحكي عن بنتها وأنا اللي عملت ده بنفسي

ضغط "معتصم" على كتف والده برفق قائلاً:

-اهدى يا بابا، ماتعملش في نفسك كده، كان هايجي عليها وقت وتعرف الحقيقة!

رفع رأسه في وجهه مضيئًا بندم:

بس مش مني وبالشكل ده!

أهوو اللي حصل

راقبتها "أية" في صمت، لكن أثر فيها عتاب عمها لنفسه وتحميل كامل اللوم عليه، مسحت بيدها تلك العبرات التي تجمعت عند طرفيها، رغبت في التهوين عليه فاقتربت منه ثم جثت على ركبتيها أمامه، وضعت يدها على كفه لتمسح عليه برفق، دعمته في مصابها قائلة بركة:

-أنكل "وحيد"، بليز اهدى علشان ضغطك، صدقتي أنطي "نادية" هتخف وتبقي

تمام

حاولت أن تضيف المرح في حديثها فتابعت مازحة:
أُكيد بتدلع عليك علشان تشوف غلاوتها عندك، مش كده يا معتصم؟
قالتها وهي تسلط أنظارها على الأخير فابتسم مؤكداً:
طبعا يا "أية"

انتفض "معتصم" في جلسته حينما وجد باب الغرفة يُفتح، نهض من مقعده متجهاً نحو
"مصطفى" الذي كان يتابع حالتها الصحية مع الطبيب المختص بوضعها، سأله بتلهف
وقد برقت أعينه:

أخبارها إيه؟

أجابه مبتسماً ليمتص كافة توتراته الواضحة:

-متقلش، هي فاقت وبقّت أحسن الحمد لله

تنفس "معتصم" الصعداء لكونها بخير، استدار نحو والده يبشره وعلى ثغره ابتسامة
عريضة:

ماما بخير يا بابا

بكي أباه تأثراً بذلك وامتزجت عبراته مع ضحكته المتفائلة، تجمع حوله أفراد العائلة يهنئوه
بتلك الأخبار السارة، تساءل "معتصم" بحماس بعد أن دبت الحيوية في جسده الخامل
من جديد:

-ينفع نشوفها؟

رد "مصطفى" بجدية:

أيوه، بس بلاش تتعبوها في الكلام وكده

قاطعه مؤكداً وهو يحتضنه:

حاضر، هانفذ كل أوامرك

تعجب "مصطفى" من ردة فعله المبالغ فيها ورغم هذا ابتسم له، توهجت نظراته مع رؤيته لوجه "أية" الملائكي، أحس بدقات قلبه تتسابق بداخله لمجرد وجودها في محيطه، تضاعف توتره مع اقترابها منه، ورمش بعينه وهو يجاهد بصعوبة لإخفاء ارتبائه الحرج الذي يصيبه كلما رآها، فماذا عن حديثها معه؟ شعر بسخونة تصيبه كالحمى وهي تشكره:

دائماً تعبينك يا د. "مصطفى" معانا

ابتلع ريقه قائلاً بتردد ممزوج بالوجل المرتبك:

ده .. واجبي!

ربما هي لحظات عابرة بالنسبة لها لكنها عنت السعادة الحقيقية له، اختلس "مصطفى" النظرات نحوها وهي تلج مع باقي العائلة إلى غرفة "نادية"، حدث نفسه بنبرة متمنية:

يا ريت أقدر في يوم أعبرك عن مشاعري!

.....

غمرت رأسها في مياه المغطس الدافئة لثوانٍ قبل أن ترفعها وتسندها على حافته، أزاحت "آسيا" بيدها بقايا رغوة الصابون عن عينيها مكلمة تمددها المسترخي فيه، آملت أن تتولى المياه تليين تيبس عضلاتها، لكن ماذا عن قلبها الموجوع؟ لن تجد ما يُسكن آلامه، أغمضت جفניה متذكراً الحديث الأخير عن مرض والدتها، وكيف رأت في أعين معتصم ومن معه تلهفهما على الذهاب فوراً لرؤيتها، بدأت دماؤها تفور من جديد مع تلك الذكرى التي داعبت رأسها، لم تستطع مقاومة نسيانها فانخرطت في

ذلك المشهد الموجد، كانت صغيرة ووحيدة في الفراش، بحاجة للرعاية وإلى الدواء،
ارتفعت حرارتها ولازمت المنزل من أجل العلاج، انتهت لصوت والدها القائل:
- "آسيا" حبيبتى، أنا نازل دلوقتي عندي شوية مصالح هخلصها وراجع
مدت يدها لتمسك بكفه تتوسله بوهن:

خليك جمبي يا بابا

ريت على كفها بيده الأخرى، ثم رد بأسف:

صعب يا حبيبتى، مضطر أنزل

أدمعت عينها تسترق قلبه من أجل البقاء معها:

أنا تعبانة وعاوزاك معايا

انحنى على رأسها مقبلاً جبينها الدافئ بود ثم مسح حبات عرقها قائلاً:

يا ريت كان ينفع، بس أمك هي السبب

طالعته بتلك النظرات الحزينة متوقعة أن يرأف بحالها، لكنه لم يرمقها بنظرة تعاطف
واحدة بل حرق أمامه مكملاً حديثه المليء بالحقد:

-لازم أعوض الخسارة وأدفع ديوني وإلا هاتجس وانتي تتشردى، ماهو أمك اتجوزت
واحد غني وعايشة حياتها ومسألتش فيكى، وأنا غرقان في الديون

انهمرت عبراتها التي امتزجت مع عرقها تستعطفه بإصرار:

-النهاردة بس، أنا مش قادرة

كانت في حالة إعياء واضحة وبجاجة ماسة لمن يجالسها، أرادت أن تشعر بالاهتمام، لكنها وجدت جفاءً عاطفيًا من ناحيته، ابتسم لها "شرف الدين" ابتسامة متكلفة ثم رد بهدوء:

معلش يا "آسيا"، بس أوعدك مش هتأخر

قبل كفها بلطف قبل أن يسنده بجوار جسدها المريض، ألقى نظرة جادة على أدويتها ثم أضاف قائلاً:

ناقص المضاد الحيوي، هو موجود برا، هاجيبهولك يبقى جبك لو عوزتي تاخديه أومات برأسها وهي تخفي إحساس الانكسار الذي ملأ قلبها من ناحيته، تركها "شرف الدين" بمفردها تقضي ليلتها الطويلة تعاني من ويلات الألم، كانت بجاجة لتناول المسكنات لكنها لم تستطع الوصول إلى علبة الدواء، فقد غفل والدها عن إحضاره لها مثلما وعدها، حاولت النهوض من على الفراش، لكن لم يسعفها جسدها، زحفت ببطء عليه حتى بلغت حافته، أنزلت ساقها وتوقعت أن تحملها، لكنها خانتها فوقعت أرضاً، عجزت عن النهوض من جديد، ظلت تفترش الأرضية الباردة بجسدها وهي تنن بأنين موجوع طوال ساعات الليل، بكت بمرارة مستشعرة عجزها وقهرها حتى جفت دمعاتها، هي لم تجد من يمد لها العون في أشد حالاتها ضعفاً ووهناً، بل لم تجد من ذويها من يداوئها ويسهر بجوارها، تذوقت معنى اليتيم وأبويها على قيد الحياة، عرفت قساوة الوحدة وكرهت هذا الشعور.

أفاقت "آسيا" من شرودها وقد احتقن وجهها بدمائها الثائرة، لم ترغب في استعادة تلك الذكرى المقيتة، انهمرت عبراتها من جديد ولا تعرف لماذا حدث ذلك، لكنها انفجرت صارخة:

يا ريتني مت يومها

غطست برأسها من جديد في المياه حابسة أنفاسها لفترة أطول، أرادت في لحظة طيش هوجاء أن تتخلص من حياتها، لكن عاد شيطانها يعبث بعقلها ويحثها على الانتقام ممن تسببت لها في ذلك الشعور، من حظيت بالاهتمام وتركها وحيدة تنازع الموت، هي تستحق أن تقاسي مثلها، بل تمر بتجارب أشد قسوة، انتفضت "آسيا" رافعة رأسها عن المياه في اللحظة الحاسمة، شهقت بسعال حرج لعدة مرات تستعيد انتظام أنفاسها المختنقة، استندت يديها على حافة المغطس لتضبط اتزانها، قست نظراتها وهي تقول لنفسها:

هاخليكي تحسي بكل لحظة ألم مررت بيها، مش هاتعذب تاني لوحدي يا "نادية"!

.....

التفتت مبتسمة نحو زوجها عمها بعد أن أسندت باقة الورد على الطاولة المستديرة الملاصقة لفراشها بغرفتها بالمشفى، منحتها "أية" نظرة حب صادقة قبل أن تحني رأسها عليها لتقبلها بودٍ، تحركت بعدها للخلف مفسحة المجال لعمها للاقتراب من زوجته والجلوس إلى جوارها، أمسك بكفها بين راحتيه مخرجًا زفيرًا مهمومًا من صدره، تحرك "معتصم" في اتجاه ابن عمه هامسًا له:

مالوش لازمة تفضلوا هنا، خد العيلة وروحوا يا "نبيل"

اعترض عليه قائلاً:

-ازاي بس، احنا

قاطعه بإلحاح:

معلش، إتنو معانا من بدري، امشوا ولو في حاجة جدت هاكلمك

وجد "نبيل" أن الجدل معه لن يجدي لذلك استسلم أمام إصراره وسحب أفراد العائلة واحدًا تلو الآخر خلفه تاركًا فقط عمه وابنه بصحبة زوجة عمه، راقب "معتصم" والده

وهو يطالع "نادية" بنظراته الشغوفة، شرد يفكر في التحول الذي انتابه منذ أول لحظة لقاء له بـ "آسيا"، لم يفهم لماذا يتصرف معها بهذا العنف المقيت، فهو معروف عنه بلباقتة، باحترامه وتقديره للآخرين، بل بحسن معاملته لجنس النساء، لكن مع تلك القاسية يتحول كليًا إلى شخص آخر، همجي، متعصب، وربما عنيف، لم يكن هكذا يومًا، ولم يجب ما تؤول إليه الأمور معها، انتبه لصوت والده حينما رفع رأسه نحوه يسأله:

- "مصطفى" قالك إنها هاتبقى كويسة، صح؟

أجابه "معتصم" بهدوء محاولاً إخفاء قلقه:

-ايوه، متقلقش يا بابا

التفت محددًا بجزن في وجه زوجته الساكن، اعتلى ثغره ابتسامة مفاجأة سعيدة حينما رآها تحرك رأسها للجانبين، هتف بتلهف:

- "نادية"، سمعاني!

ردت بنبرة يشوبها الوهن:

-حصل إيه يا "وحيد"؟

أجابه وهو يقترب بجسده أكثر نحوها:

-إنتي تعبتى شوية وجبنكي المستشفى، بس الدكتور طمنا وإنتي هاتبقي أحسن

ارتجفت شفتاها هامسة:

- "آسيا"

عبست ملامح "معتصم" مع ترديدها لاسمها، اكتفى بالمطالعة الصامتة مجبراً دمائه
الثائرة على تجاهل مع له صلة بها مؤقتاً كي لا يخرج عن هدوئه الزائف، أشارت "نادية"
بكفها المرتعش متابعة حديثها:

عاوذة أشوفها

خشي "معتصم" أن تسوء حالتها إن قابلتها بالفعل وعرفت نواياها الشريرة نحوها،
فالأخيرة لن تكف أبداً عن إذاقتها ألوان العذاب، لذا اعترض على طلبها قائلاً بجديّة:
ماينفعش يا ماما، مش هاتستحملي طريقته ولا معاملتها الجافة ليكي، صدقيني مش
هي البنت اللي في خيالك

هي تعلم أنها لن تكون مثلما تمتت، لكن لماذا يثنيها الجميع عن رؤيتها؟ ألتك الدرجة هي
سيئة؟ حتى لو كانت كذلك لن تتخلى عنها مثل الماضي، هي تستحق أن تعرف
الحقيقية وتعلم إلى أي مدى خدعها والدها، بدت متعصبة رغم الإعياء الظاهر عليها
وهي ترد:

خلوني أقابلها الأول، جايز أفهم منها هي بتعمل كده ليه

احتج "وحيد" قائلاً بضيق:

قولتلك يا "نادية" إنها تربية "شرف الدين"، يعني أحط بني آدم ممكن الواحد يعرفه
في حياته!

بررت رغبتها في الالتقاء بها قائلة:

هي متعرفش ده، بالنسبالها باباها اللي رباها، خلوني أتكلم مرة معاها وساعتها هتفهم
هو عمل فيا ليه و....

توقفت عن الحديث بسبب نوبة السعال التي انتابتها فجأة، كانت تشعر بأن روحها تنتزع منها، قبل "معتصم" رأسها يتوسلها:

ماشى يا ماما، هنعمل كل اللي إتني عاوزاه، بس ارتاحي دلوقتي

هزت رأسها رافضة حتى تصديقه، ركزت بصرها عليه قائلة:

-أوعدني يا "معتصم"؟

حاول أن يبتسم ليشعرها بتنفيذه لوعدها دون أن ينطق لكن لم تطاوعه شفته، عاودت تكرار طلبها فلم يجد بداً من الرفض، كان أكثر وجومًا وهو يقول:

حاضر

.....

مارس بعنف ملحوظ تمارين تقوية العضلات في الصالة الرياضية التي يرتادها مصيبيًا من حوله بالفضول والاندھاش، فلم يكن "سامر" على تلك الحالة العصبية من قبل، اقترب منه المدرب المسئول عنه يحذره بجدية من خطورة التمادي في إرهاق عضلاته، لكنه رد بإصرار وهو يتصبب عرقًا:

عندي طاقة بأطلعها يا كوتش!

لوح له بذراعه مكملًا تحذيره:

ماشى، بس مش بالشكل ده، ممكن يجيلك شد عضلي أو ...

قاطع "سامر" بوجهه المزعوج:

-أنا تمام، متقلقش يا كوتش

يئس المدرب من إقناعه بالتوقف فتركه متوجهًا لأحد آخر يتفقدده، حدق "سامر" في الفراغ أمامه متأملًا طيف "آسيا" الذي تجسد نصب عينيه، اغتاظ من نبذها له وكأنه

لا يستحق الظفر بوقت خاص له معها رغم ما دفعه من أموال وما عرضه عليها من إغراءات كافية لإقناع واحدة غيرها بالقبول بعرضه، توهم أنها سهلة المنال، لكنها كانت العكس، عاملته وكأنه شخص دوني لا يرتقي أبدًا لتطلعاتها، مجرد التفكير في تلك المسألة من هذا المنظور جعل الدماء الساخنة تدفق في عروقه بقوة، ربما هو ليس بالشاب المجتهد والجاد في عمله، لكنه يملك من الأموال ما يفتح له الأبواب الموصدة، كذلك لم ينس نظرات ذلك الشاب الذي هاجمه مدافعًا عنها دون سابق معرفة به، شخص غيره أبدى هو الآخر اهتمامًا بها، تحول الأمر مع كم الضغوطات التي تخصها إلى ما يشبه التحدي، ولكن من نوع مختلف ومثير.

توقف "سامر" عن ممارسة الرياضة مجفًا عرقه بمنشفته القطنية، ألقاها بإهمال على الأرضية ثم بحث في حقيبته الصغيرة عن هاتفه المحمول، عبث بأزراره قبل أن يضعه على أذنه منتظرًا رد الطرف الآخر، وما إن سمع صوته حتى أمره قائلاً:

عاوزك تجيبلي معلومات عن واحد اسمه "معتصم المصري"

صمت لبرهة قبل أن يكمل بغموض:

-اعرفلي بالظبط هو مين، بيشتغل إيه، مين أهله، كل حاجة تخصه، فاهمني، ويا ريت المعلومات دي تكون عندي في أقرب وقت!

أنهى معه المكالمة معاودًا ممارسة رياضته العنيفة وهو أكثر تحفظًا عن ذي قبل، مرت من أمامه إحدى الشابات الجميلات ذات الجسد المشوق، وممن يرتدن الصالات الرياضية للتودد إلى المشاهير من أبناء رجال الأعمال، اقتربت منه متسائلة بميوعة وهي تتعمد الوقوف أمامه بطريقة مغرية:

-متعرفش الكافيه فين؟

نظر لها مليًا وهو يبتسم لها بعث، فتلك الألاعيب الرخيصة يعرفها جيدًا، نهض واقفًا من على الآلة الرياضية ليقرب منها، بدت أمام كتلة العضلات التي تتطلع إليها ضئيلة إلى حد ما، عضت على شفها السفلى متسائلة:

هو أنا شوفت حضرتك قبل كده؟

أجابها مبتسمًا وبكلمات مراوغة:

أؤكد، بس أنا لأ!

قطبت جبينها مبدية دهشتها من رده، تدللت في وقفها فتابع ببرود وبنبرة موحية وهو يشير بعينه:

-الكافيه آخر الصالة، شمال!

ثم تركها وانصرف دون أن ينبس بالمزيد، لو كان في وقت آخر لتودد إليها، لكنه حاليًا مشغول البال بوحدة فقط؛ اسمها "آسيا"، شعرت الشابة بالحرج الشديد من تجاهله لها، لكنها لم تستسلم فستبحث عن صيد آخر تفرض نفسها عليه.

.....

انقضى أسبوع منذ عودتها إلى منزلها والكل مواظب على زيارتها يوميًا - من المعارف والأقرباء وكذلك الأصدقاء - من أجل الاطمئنان على صحتها، لكن ظل بالقلب غصة عالقة به، عمدت "نادية" إلى التصرف بتلقائية ودودة مع الجميع لتشعرهم بتجاوزها لتلك الأزمة، ومع ذلك عكست نظراتها الحزينة ما يعتري صدرها من هموم، هي تعلم أنها تضغط على عائلتها لقبول ابنتها بكل عيوبها وسطحهم، لكن في المقابل تجهل ردة فعل "آسيا" على مسعاها، تابعت في صمت أخبارها، وتحرت خلسة عن كل ما يخصها من فضائح ومعلومات مغلوبة، أنبأها حدسها أن ابنتها عكس ما يدعيه الأغلب عنها، بكت قهراً مع كل خبر تقرأه يطعن في شرفها ويزيد من الإساءة لسمعتها، شعرت بالذنب

نحوها، بأنها كانت ضلعًا بصورة أو بأخرى في وصولها إلى تلك الحالة، كان أغلب حديثها مقتضبًا، كتمت في صدرها أحزانها، لكن بدا وجهها مقروءًا لزوجها و لـ "معتصم"، أراد الترويج عنها فقرر تنظيم حفلة بالنادي احتفالاً بخروجها من المشفى، ورغم كونها مناسبة لا تستحق ذلك الاهتمام إلا أنها كانت بحاجة لتغيير حالتها المزاجية، لذا رحبت بالفكرة.

ما لم يضعه الجميع في الحسبان هو إقامة ذلك العرض التابع للمصمم الشهير في نفس التوقيت بعد أن تم الاتفاق مع أبرع العارضات وأشهرها للمشاركة فيه، بالطبع كانت "آسيا" أول المرشحات للتواجد فيه، ولم ترفض العرض المادي المجزي بعد أن تأكدت من طبيعة العرض ومكانه، ارتدت أحد تصميماته الخاصة بوقت السهرة تاركة شعرها الأسود ينساب على ظهر الثوب العاري، فامتزج لونه مع ذلك اللمعان الفضي الخاص به، لم تبتذل تلك المرة في وضع مساحيق التجميل، ولم تضع العدسات اللاصقة، أظهرت جمالها الطبيعي فباتت كلوحة فنية أبدع رسامها في تجسيدها، تسابقت عدسات الكاميرا في التقاط العديد من الصور المميزة لها، سارت "آسيا" بخيلاء على ممر العرض تجوب بنظرات خاطفة أوجه المحدثين بها، تجمدت أعينها لثانية على صاحب الوجه الذي رفع كأس مشروبه عاليًا كنوع من الترحيب بها وللإشارة إلى وجوده، نظرت له بوجهٍ متجمد التعبيرات وكأنها لم تتأثر بحضوره، لكن من داخلها أيقنت أنه لن يمر الليلة على خير.

أنهت "آسيا" فقرتها مع باقي العارضات واتجهت للخلفية لتبدل ثيابها بثوبٍ آخر، تفاجأت بوجود "سامر" ضمن طاقم العمل فتوترت لحظيًا من حضوره، تجاهلته عمدًا مستعدة ثابتها ثم اتجهت نحو المرأة الخاصة بها مشيرة لمساعدتها بتعديل تسريحتها، وقف "سامر" خلفها متأملًا انعكاس وجهها للحظات، مال نحوها هامسًا بنبرة ذات مغزى وهو يضع يديه على كتفيها:

ماينفعش أفوت أول حفلة ليكي بعد حفلي، ولا إتي رأيك إيه؟

نظرت لانعكاس وجهه المائل عليها وكفيه اللذين يضغطان على بشرتها بامتعاظ، ثم ردت قائلة بصيغة أمرة:

-ابعد إيدك عني!

اقترب أكثر من أذنها فشعرت بسخونة أنفاسه عليها، شدد من ضغط أصابعه على كتفها فكتمت تأوهات المتألّمة داخلها، تنهد قائلاً بهميس أقرب لفحيح الأفعى:

صعب أبعد ... يا "آسيا" !!

.....

الفصل الثالث عشر

نظرت له بتحدٍ دون أن يرف جفنيها، فبقيت أعين "سامر" معلقة بحدقتها الفيروزيين مستمتعاً بذلك الإغراء الخفي فيهما، اقشعرت من مسحه الناعم على بشرتها بأصابعه، حاولت أن تبدو هادئة أمامه، لكن رادوها إحساس غريب بأن تلك الليلة لن تمضي على خير، وبدلال ناعم حاولت "آسيا" إبعاد عنقها عن لمسات يده المستباحة على بشرتها، ردت بقوة تمزج بين الرقة والأنوثة الخطيرة وهي تتحاشى النظر إليه في المرأة:

-ومستحيل أقرب!

ثم أشارت لمساعدتها بالتوقف عن العمل ونهضت من مقعدها دون أن تكمل الأخيرة مهمتها، استعدت للسير رافعة طرفي ثوبها عن الأرضية، ولكن استوقفها "سامر" معترضًا طريقها ومتسائلًا بجديّة شديدة:

على فين؟

نظرت له شزرًا قبل أن تجيبه بتعالٍ:

-ورايا شغل، أمثالك مايفهموش فيه!

رد مبتسمًا وهو يرفع حاجبه للأعلى:

-أكثر حاجة عجبا فيكي لسانك المبرد ده

دنا خطوة منها مضيّقًا عليها الحصار ثم أضاف بإعجاب:

-بس مش مهم قصاد جمالك ده!

تجاهلت "آسيا" ما أسمته بجملة إطنائية لمدحها واستدراجها للحديث رغم يقينها بكونه يريد لها لأغراض دينيّة، استخدمت سبابتها في الإشارة إلى هيئته قائلة بتهكم:

-وانت كلك على بعضك بعضلاتك المنفوخة دي ماتملاش عيني

انزعج من سخريتها الواضحة منه واستهتارها بقوته الذكورية التي لم تختبر خشونتها بعد، قست تعابيره محذرًا بخشونة طفيفة:

-حاسبي على كلامك

ردت بتحدٍ وقد توهمت حدقتهاها:

-والا..!؟

.....

على الجانب الآخر، انتهت "نادية" من تناول قطعة صغيرة من قالب الحلوى الذي أحضره لها "معتصم"، كان الأخير سعيدًا بالفرحة البادية عليها وعلى والده بعد أن خاضت عائلته في الفترة الأخيرة ضغوطات كثيرة، تبادل مع ابن عمه حديثًا وديًا ثم انتقل للحديث مع باقي الضيوف، انتبه لرنين هاتفه في جيب سترته، فابتعد قليلاً ليتمكن من سماع المتصل به مشيرًا إلى "نادية" بيده، لوح لها بيدها متفهمة سبب انصرافه المفاجئ لكونه ذو علاقة بالعمل، وضع "معتصم" يده على أذنه قائلاً بصعوبة: خليك معايا ثواني، هاروح مكان هادي شوية علشان أعرف اسمك!

واصل خطواته المتعجلة باحثًا عن مكان غير صاحب ليتمكن من إكمال المكالمة، لكن لفت أنظاره تلك اللافتة المعلق عليها إعلان عن عرض للأزياء، قرأ فحواها بأعينه فاقداً تركيزه مع الطرف الآخر، انقبض قلبه مستشعرًا وجود من يخشاها بالمكان، وضع الهاتف من جديد على أذنه قائلاً بارتباك ملحوظ:

معلش هاطلبك تاني

ودون أن يقدم أن تبريرات أنهى المكالمة معه متجهًا نحو الصالة المخصصة لإقامة العرض، مرر أنظاره على أوجه العارضات المشاركات فلم يجدن بينهن ضالته، اعتقد أنها بالكواليس فتحرك بجذر نحو المنطقة المخصصة للعارضات، أوقفه أحدهم متسائلًا بجديّة: على فين يا فندم؟

نظر له "معتصم" قائلاً بابتسامة سخيفة ومصطنعة:

أنا جاي لـ "آسيا" هانم، العارضة المشهورة

رد عليه الحارس الأمني مدققًا النظر في هيئته:

-عارفها، بس هي بتجهز، فماينفعش حد يدخل و....

تحفرت خلايا عقله كلياً بعد أن تأكد من وجودها ضمن المشاركات في العرض، وهذا ما لم يضعه في الاعتبار، خشي أن تلتقي بوالدتها ويحدث الصدام الحاد بينهما، هو متأكد من نواياها السيئة نحوها، فلن تمر المقابلة على خير بأي حال، ناهيك عن كم الفضائح الذي سيشهده المتواجدون وربما يتطور الوضع للأسوأ، لعن ذلك الحظ العثر الذي جعله يختار هذا اليوم ليقيم فيه حفلة العائلية، كان عليه التصرف سريعاً فاختلق كذبة ما قائلًا بثبات:

-أنا جاييلها حاجة، وهي اللي طلباني، ولو اتأخرت هتحصل مشكلة
نظر لها الحارس مطولاً، لم يكن مقتنعاً بما قاله، فتابع "معتصم" مضيقاً بجديّة:
-ممكن تناديها علشان تتأكد، بس أنا مش مسئول عن أي غلط يحصل و....
قاطعها الحارس مردداً باستسلام ومشيراً بيده:

-اتفضل

تنحى بعدها للجانب مفسحاً له المجال ليمر، ابتسم له "معتصم" بامتنان قبل أن يكمل سيره نحو الداخل، على قدر الإمكان حاول أن يلقي نظرة سريعة وشاملة على وجوه المتواجدات من العارضات باحثاً عنها بينهن، تعذر عليه إيجادها، فاستمر في بحثه، اتسعت حدقاته بصدمة حينما رآها تتحدث عند الزاوية مع "سامر"، وجوم مُنذر بأشياء غير جيدة كسا ملامحه، سحب نفساً عميقاً حبسه لثانية بداخل صدره ثم أطلقه دفعة واحدة وهو يتحرك صوبها، التقطت أذنيه صوتها المتكبر وهي توجه حديثها للواقف قبالتها:

-ولا يفرق معايا

رد عليها "سامر" متسائلاً بتجهم كبير:

-أومال مين اللي يملئ عينك؟

حركت شفيتها لترد لكن صوت "معتصم" جمد الكلمات على طرف لسانها، استدارت بجسدها نحوه لتتأكد من نبرته المألوفة فوجدته يرمقها بنظرات نارية صائحًا:

- "آسيا"

تناست لحظيًا وجود "سامر" معها وركزت حواسها مع غريمها اللود، انعكست المفاجأة على وجهها ونظراتها نحوه، ردت باستغراب كبير:

-إنت؟!!

أمسك بها من رسخها ليسحبها بعيدًا عن "سامر"، جذبت معصمها بكل قوتها فتحررت منه، نظرت له بغيظ، وقبل أن تستجوبه على طريقته الهمجية في التعامل معها كان هو الأسبق في سؤالها باستفهام وقد بدا عليه الغضب:

-جاية هنا ليه؟

ثم قبض على ذراعها من جديد مكملاً حديثه بانفعال ملحوظ لفت انتباه المحيطين بهما:
عازرة تبوظي كل حاجة أنا بأعملها

تأوهت من قسوة قبضته عليها، حاولت التملص منه لكنه استمر في ضغطه المؤلم، زوت ما بين حاجبيها متسائلة:

-إنت بتكلم عن إيه؟

أرخی أصابعه عنها متعمدًا دفعها بقوة نسيية إلى الخلف أمرًا إياها:

-ارجعي مطرح ما جيتي وانسيها، اعتبرها ماتت جايز تهدي

تابع "سامر" حديثها من على بعد متوقعًا في البداية أن تكون هناك نوعًا من غيرة وربما المشاعر المتبادلة بينهما نظرًا لتعامله معها بتلك الحدة والغلاظة، عمه تفكيره السطحي

عن تفسير الأمور بمفهومها الصحيح، اعتبر المسألة نوعًا من الاستهانة برجولته، لذلك اقترب منها متسائلًا بتهكم وهو يشير نحو "معتصم":

هو ده بقى؟

رفع الأخير رأسه نحوه يرمقه بنفس النظرات الكارهة، ثم رد بسخط:

أهلاً، غني عن التعريف يا .. "سامر" ييه!

انتصب "سامر" في وقفته متمعدًا إظهار عرض كتفيه، وقوة عضلاته المشدودة، بدا بدرجة كبيرة متباهيًا بنفسه ومعتدًا بجسده الرياضي، أراد إيصال غرضه له، ونجح ببساطة، فنظرات "معتصم" نحوه كانت مليئة بالحنق والضيق، تحدث "سامر" من زاوية فمه قائلاً:

- "معتصم" باشا، من حظي إني أشوف جنابك هنا

رد عليه الأخير مبتسمًا بتهكم:

هاتقولي

التفت "سامر" ناحية "آسيا" يسألها بطريقة تحمل نوعًا من السخرية وتلميحًا بوجود علاقة ما سرية بينهما:

ده بقى اللي مانعك عني؟ قولي ماتكسفيش!

احتقن أعينها بشدة من كلماته الموحية فردت بعصبية:

احترم نفسك

خمن "معتصم" أن الحديث عنه لذلك سأل بهدوء مفتعل وهو يبذل جهدًا مضاعفًا لضبط انفعالاته المستثابطة بداخله:

معلش هقاطعكم، إنت بتكلم عن مين بالضبط؟ قصدك أنا؟!!

صرخت فيها "آسيا" متسائلة بجدّة وهي تتراجع خطوتين مبتعدة عنها:

إنتو الاتنين جاين هنا ليه؟

أجابها "سامر" بابتسامة مراوغة وهو يغمز لها:

أنا جايلك مخصوص

رفعت حاجبها للأعلى متسائلة بنفس النبرة الغاضبة:

ليه؟

لم تحصل على إجابة لسؤالها الأخير بسبب مقاطعة إحدى المسئولات عن تنظيم العرض لحوارها معه مرددة بجدية:

- "آسيا"، الشو هيبداً، بليز محتاجينك معانا

وزعت أنظارها بين وجهي "سامر" و "معتصم"، قرأت في نظراتها نحوها اتهامات صريحة بكل ما يشينها، فالأول يطمع في ليلة عابثة معها، والثاني يريد الخلاص منها قبل أن تحقق انتقامها من والدتها، لم تكن بحاجة لتفسير تصرفاتها الحادة معهما، بل لم تكن بحاجة من الأساس لخوض جدال عقيم مع كليهما لن تخرج منه سوى مدمرة نفسيًا ومرهقة جسديًا، ومفلسة ماديًا إن تطرق الأمر لمهنتها، لذلك انسحبت من أمامها وهي تحدث نفسها بذهول:

بجد مش مصدقة نفسي!

جمد "معتصم" أعينه عليها رغم انصرافها شاعرًا بغضب يجتاحه، بحنق مضاعف يزيد من حقه عليها، لم تحط دمائه الفائزة في عروقه مع رحيلها بل زادت ثورتها حينما استطرد "سامر" حديثه من جديد قائلاً:

أول مرة أشوفك هنا في النادي

رد عليه "معتصم" بعبوس:

أنا عضو من زمان، بس احنا ماتقبلناش قبل كده

فرك "سامر" طرف ذقنه بجركة دائرية، ثم رمقه بنظرة شمولية قائلاً ببرود:

مش فارق

ثم كنف ساعديه مضيئاً بنبرة ذات مغزى متعمداً إثارة ريبتته:

بس هاقولك على حاجة، أنا عارف كل حاجة عنك

دس "معتصم" يديه في جيبي بنطاله قائلاً بعدم أكثرات:

طبيعي الناس هنا تبقى عارفة بعض

رفع "سامر" إبهامه هاتفاً:

مضطبوط، إنت صح

ثم أرخى ذراعيه متابعاً بغموض:

بس المهم اللي جاي بعد كده

قطب "معتصم" جبينه محاولاً سبر أغوار عقله ليفهم المقصد من حديثه غير الواضح،

ثم أردف متسائلاً في حيرة:

-يعني إيه؟

أجابه بتهملٍ وقد ارتسم على وجهه تعابير جادة للغاية:

من الآخر كده ملكش دعوة بـ "آسيا"، فاهمني!

تفاجأ "معتصم" من أمره الصارم وكأنه المتحكم في شئونها، ردد مصدوماً:

أفندم

اقترب منه "سامر" ليضع يده على كتفه، ضغط عليه بأصابعه موضحًا:

-دلوقتي هي تخصني، وأنا عاوزاها، ومش هاسيديا

لم يكن "معتصم" ليكثرث بما يفعله ذلك السمج الممتلئ بالعضلات أو حتى يهتم بعلاقاته النسائية لولا وجود ما يربطه به؛ بالطبع كان يقصد "آسيا"، استشاطت نظراته، واضطربت نبضاته، لم يتحمل المزيد منه خاصة مع نظراته التي تشير إلى الكثير، لكزه في ذراعه مبعداً إياه عنه وهو يرد:

-انت اتجننت

قهقه ضاحكاً ليبيدي استخفافه بعصبيته تلك، ثم رد عليه بتباؤ:

-أنا لسه بعقلي، لأني لو مجنون هاطلع أجيبها من على منصة العرض وامشي بيها وسط الناس ومحدث هيمعني!

نفت "معتصم" - مجازًا - دخانًا من أذنيه بسبب طريقتة الكلامية المستفزة له والتي عبثت بصورة مباشرة مع رجولته في تحدٍ سافر لقوته، انفجر فيه صائحًا بخشونة ومهددًا إياه:

حطب إياك تقربلها

غمز له "سامر" بثقة:

هي اللي هاتقرب مني، ومزاجها!

برزت مقلته بغضبٍ مستطير، فابتسم له "سامر" وهو يرفع إصبعيه عند جبهته ليحيه قائلاً:

-وبكرة تشوف بنفسك يا "معتصم"، أصل أنا خير أوي في النوع ده، سلام!

ثم فهقه ضاحكًا ليظهر له عدم اهتمامه به ومستخفًا بتهديده الذي ظنه مجرد حديث عبثي، تسمرت قدي "معتصم" وظل كالصنم في مكانه متابعًا "سامر" الذي ابتعد عنه، انتابته هواجس مخيفة حول المقصد من حديثه، كان مؤمنًا بقوة أنها فتاة عابثة تُجيد اصطياد الرجال، وها هو شخص آخر يؤكد له ذلك، شحن غضبه كله ووجهه نحوها هي فقط، نعم نجح "سامر" ببراعة في زرع كراهية أشد عدائية نحو "آسيا"، فهي باتت بالنسبة له - فعليًا - امرأة سيئة السمعة، احتقنت عروقه، وشعر بالاختناق لمجرد وجوده في مكان يحوي أنفاسها، تلفت بصورة عصبية فاقدًا التركيز، وضع يده على رابطة عنقه يحل وثاقها، انتزعها من حول ياقته وهو يندفع بأنفاس متلاحقة إلى خارج المكان، لم يعد إلى عائلته، بل انطلق نحو الجراج ليستقل سيارته هاربًا من النادي قبل أن ينفجر في أحدهم بلا أي داعي.

.....

تعكر مزاجها رغم تلك البسمة المصطنعة التي رسمتها على وجهها وهي تسير بثقة مغتررة على الأرضية اللامعة مكملة مع باقي العارضات دورها في الحفل، كانت أعصابها متقدة نتيجة ما تتعرض له من مواجهات عنيفة مع الرجال تحول دون تنفيذ انتقامها الذي تسعى إليه، اختلست "آسيا" النظرات نحو الجالسين متوقعة وجود أحدهما بينهما، لكنها لم تر أيًا منهما، حافظت على جمود تعابيرها منتظرة بفارغ الصبر انتهاء الفقرة لتعاود أدراجها إلى الكواليس، خلى المكان من وجودها فشعرت بالارتياح، ابتسمت بتصنع وهي تتلقى التهنئات ممن حولها، اقترب منها منظم الحفل يمدحها فردت عليه بلباقة، ثم قدم لها باقي الأجر المتفق عليه، بدلت ثيابها بإرهاق وقامت بجمع متعلقاتها الخاصة مستعدة للرحيل، أحست بجفاف شديد في حلقها، برغبة ملحة لتناول مشروب بارد تنعش به نفسها، فاتجهت للكافيتريا القريبة من صالة العرض لتشتري ما تريد.

في نفس التوقيت، انتاب "نادية" القلق لغياب "معتصم" دون مبرر عن الحفل، حاولت أن تختلق له الأعذار معللة انشغاله بالعمل، ثم انسحبت بهدوء عن الصخب الدائر حولها لتتمكن من مهاافته، تضاعف خوفها مع تجاهله لاتصالاتها المتكررة، رددت لنفسها بتوتر:

-أُكيد في مشكلة، رد وطني يا "معتصم"!

حركت رأسها في كافة الاتجاهات آملة أن تجده في مكان ما بالقرب منها، اتجهت إلى الكافيتريا متوقعة أن يكون هناك، جالت بأعينها المكان سريعاً لكنها لم تجده بين الحضور القليل، تحول في لحظة الخوف المسيطر عليها إلى صدمة كبيرة حينما لمحت وجهًا بدا لها مألوفًا تقف بالقرب من البار الرخامي، شعرت بخفقان قوي في قلبها، بصعوبة بالغة في التنفس بطريقة طبيعية، لم تكن لتعرفها لولا تلك الصور التي رأتها لها من قبل، فهي احتفظت بالكثير منها في ذاكرة هاتفها المحمول لتأملها مليًا كل يوم فتعوض غيابها الإجمالي عنها، لذا حفظت عن ظهر قلب تقاسيم وجهها وملامحها، تحرك لسانها تلقائيًا ينادي باسمها:

- "آسيا" !!!

.....

الفصل الرابع عشر

تحسست قلبها النابض فشعرت به يقفز بين ضلوعها، لم تكن وهما أو حلمًا عابرًا من نسج خيالها، إنها حقيقة تراها بأعينها، أسرع "نادية" في خطاها نحوها وغريزة الأمومة تحركها بكل حماس، نسيت ما بها من أوجاع، وما قيل من قبل من فضائح تخصها وركزت فقط على كونها قد وصلت إلى ابنتها أخيرًا، وما إن اقتربت مسافة لا بأس بها منها حتى صاحت عاليًا لتلفت انتباهها:

- "آسيا"، بنتي!

تصلب جسد الأخيرة من تلك الكلمات المقتضبة، لوهلة ظنت أنها تتوهم ذلك الأمر، لكن تكرر النداء بنفس النبرة المليئة بالحنان والحزن، التفتت برأسها نحو صاحبتة لتتأكد فعليًا من وجودها، بدت مذهولة وهي تتأمل تلك التي تطالعها بنظرات تعكس تلهفًا واشتياقًا كبيرًا، كانت المرأة الواقفة على مقربة منها تطابق الصورة التي رأتها مسبقًا

في منزل والدتها، إنها بالفعل هي، وفي أقل من ثانية هاجت الدماء في شرايينها وتدفقت بغزارة في كافة خلايا جسدها محفزة غضبها نحوها، رسمت "نادية" ابتسامة ناعمة على وجهها الحزين وهي تدنو منها لتقول بعدها بعاطفة نابغة منها:

- "آسيا"، أنا مامتك!

تلك الكلمة التي بغضبتها لكونها تذكرها بما مرت به من آلام وشعور بالوحدة، أخفت "آسيا" حنقها ببراعة لتحقق فيها بنظرات مطولة، تخشبّت أصابع يدها على الكأس المسككة به، ظلت تضغط عليه بلا وعي مفرغة فيه ما يعترها حاليًا من شحنات غضب متأججة فلم تشعر به يتهشم بين أناملها، انتفضت "نادية" فرعًا في مكانها هاتفة بتخوف:

خدي بالك يا بنتي!

لم تكترث "آسيا" للجرح النازف في راحة يدها، بل يمكن القول بأنها لم تشعر بالألم مطلقًا، أخفضت رأسها لتنظر له بغضبٍ مبرر، أخرجت من حقيبتها منشفة ورقية لتوقف نرف الدماء، اقتربت منها والدتها واضعة يدها على ذراعها فنظرت لها "آسيا" كالمسوعة، أبعدت يدها عنها وهي تحدجها بنظرات نارية، ازدردت "نادية" ريقها مستشعرة نفورها الواضح منها، كتمت ضيقها من تصرفها الجاف معها، وبررت لنفسها بأنها لدهيل كل الحق لتحزن منها، حاولت أن تطف الأجراء بينهما فاستطردت قائلة بوز:

أنا بأدور عليك من زمان

ظنت "آسيا" أنها ستثور فيها فور أن تراها، ستقبض على عنقها وربما تخنقها بأيدي عارية دون إبداء ذرة ندم واحدة أو حتى ذرف عبرة واحدة حسرة عليها، ستفعل ما تعهدت لنفسها به منذ نعومة أظافرها، لكنها عجزت عن مواجهتها، هربت الكلمات من على لسانها، فقدت النطق مجازًا، تفاجأت بذلك الإحساس العاجز الذي تملكها، بدت

مشلولة التفكير مسلوقة الإرادة أمام تيار الحنان المتدفق منها، تجمدت أعينها عليها مراقبة ردة فعلها الطبيعية نحوها، تخيلتها مثلها قاسية، جاحدة، متكبرة، متعالية، ساخطة، بل وأسوأ بكثير، لكنها وجدت فيها ملامح الأم الطيبة الحنون التي تملأ روحك بالسلام والطمأنينة لمجرد التطلع إلى وجهها والظفر بابتسامة رضا من على شفيتها، استنكرت خذلان نفسها بعد ما تدرت مرارًا وتكرارًا على تلك المواجهة المصيرية، أحست بالفشل الذريع، بذهاب كل شيء سدى، بأنها اقترفت خطأ حينما ظنت أنها قادرة على الانتقام، منحتها نظرة أخيرة تحمل كرهاً مكتومًا قبل أن تعلق حقيبتها على كتفها وتنسحب هاربة من المكان لتخفي ضعفها المخزي، صدمت "نادية" من ردة فعلها بعد أن توقعت عتابًا شديد القسوة، لحقت بها لتستوقفها وهي ترجوها:

-بهربي مني ليه يا بنتي؟ أنا مصدقت لاقيتك

صرخت فيها الأخيرة بلا وعي:

-دلوقتي بس ظهرتي في حياتي؟ دلوقتي جاية تقوليلي بنتي؟!!

-أنا

قاطعتها بانفعال غاضب وقد تسللت العبرات إلى مقلتيها:

-ولا كلمة، مش عاوزة أسمع حاجة، ابعدني عني!

تلقت "نادية" حولها بتوتر مراقبة ردة فعل المتواجدين، خشيت أن يظن أحدهم وجود خطب ما أو شجار ما بينهما، فيفسد محاولتها للتودد إليها، لذا وضعت يدها على كتفها قائلة بصوتٍ شبه مختنق:

-تعالى نتكلم بعيد عن هنا وأنا هافهمك كل حاجة يا "آسيا"

نفضت يدها بعيدًا عنها صائحة بنبرة محتاجة:

تفهميني إيه بالضبط ؟

ردت بصوتٍ شبه لاهث:

-الحقيقة!

صاحت فيها "آسيا" متسائلة بسخطٍ:

-أنهو حقيقة بالضبط؟!!

أجابتها بصوتها المهتز:

-اللي باباكي خباها عليكي وفهمك إني السبب و....

قاطعتها صارخة وهي تشير لها بيدها محذرة إياها من الاقتراب منها أو تلمس جسدها:

-أنا مش محتاجة أعرف حاجة منك عشان أفهم، أنا مریت بأسوأ ما تتخيلي، وبصي

شوفي بقيت إيه، واتي عايشة هنا في سعادة وسط ابنك وجوزك!

-يا "آسيا" إتي غلطانة، باباكي خطفك مني و....

-بلاش أعمار فارغة، إتي لو كنتي عاوزة توصيلي كنتي عرفتي، بس إتي نستيني

ببساطة وكملي حياتك عادي

قالت جملتها الأخيرة وهي تسرع في خطواتها لتبتعد عنها، هرولت "نادية" خلفها محاولة

اللحاق بها وهي تقول:

-ماتظلمينيش، إديني فرصة أدافع عن نفسي

توقفت عن السير لتستدير كليًا نحوها ثم صرخت بها تسألها:

-وأنا مين كان إداني فرصة أختار حياتي؟

تحركت "نادية" لتقف قبالتها متابعة رجائها:

-اهدي طيب وخليني أشرحك الظروف وإتي احكي عليا!
رمقتها بنظرة ناقمة على كل شيء وهي ترد بإحباط:
-هايفرق في إيه لما تحكي؟ هترجي الزمن تاني لورا وتعوضيني عن اللي فات؟
ردت عليها والبتها بيأس:
-لو أقدر هاعمل كده
نظرت لها "آسيا" بكره كبير وهي تقول ساخرة:
-ارجعي لحياتك السعيدة يا "نادية" هانم وانسيني زي زمان، كانت غلطة لما فكرت
أرجع من الأول هنا
اعترضت والبتها طريقها قائلة باستنكار وراسمة على فمها ابتسامة صغيرة:
-دي أحسن حاجة عملتها إنك رجعتي يا بنتي، إنتي مش متخيلة فرحتي بيكي وأنا
شيفكي قصادي عاملة ازاي
توهجت نظراتها بحنق حاقده وهي تنهرا قائلة:
-بطلي نفاق وكذب
انزعجت "نادية" من عدم تصديقها لها، ومع ذلك حافظت على هدوء نبرتها وهي
تستعطفها:
-لأ يا بنتي، دي الحقيقة، ولازم تصدقيا
منحتها "آسيا" نظرة غاضبة قبل أن توليها ظهرها لتكمل سيرها المتعجل نحو الجراج،
تبعها "نادية" تسترق قلبها:

-استني يا "آسيا"، أنا مش هاسييك النهاردة، أنا مامتك ومن حقي عليك تعرفني اللي حصل

توقفت الأخيرة أمام سيارتها لتصرخ بها بعصبية:

-بعدي عني، أنا ماليش أم

صدمت "نادية" من إنكارها لذلك الرابط الغريزي بينهما، قرأت في عينيها رفضًا صريحًا لمنحها أي فرصة للغفران والسماح، راقبتها وهي تستقل سيارتها، كانت أمام خيارين لا ثالث لهما، أن تتركها ترحل وتفقد الصلة معها للأبد، أو أن تفرض نفسها عليها وتذهب معها جبرًا حتى لو كانت ذاهبة إلى الجحيم، حسمت أمرها وقررت أن تفعل ما أملاه عليها قلبها الموجوع، فتحت باب السيارة وركبت إلى جوارها قائلة بإصرار:

-أنا جاية معاك!

التفتت "آسيا" نحوها ترمقها بنظرة حادة من طرف عيناها، قبضت على المقود بكلتا يديها متجاهلة دماؤها التي امتزجت بجلد المقود، ثم ضغطت على دواسة البنزين لتنتقل بالسيارة وهي تفكر في كيفية التخلي عن ضعفها لتنتقم بشراسة من أنجبتها وأتت بها لتلك الحياة القاسية.

.....

بحث كالمجنون عنها في كل المناطق التي من الممكن أن تتواجد بها بداخل النادي بعد أن طال غيابها، ومع ذلك لم يجدها، حاول الاتصال بها، لكن للأسف لا استجابة على الإطلاق، انتاب "وحيد" حالة من القلق على زوجته، خشي أن تكون قد أصيبت بمكروه ما أو تعرضت للأذى وهو يجهل بذلك، انقبض قلبه لمجرد التفكير في هذا الأمر بتلك الصورة المأساوية، عاود الاتصال بها، ولا جديد يُذكر، قرر أن يهاتف ابنه

"معتصم" الذي اختفى هو الآخر في ظروف غريبة، وجد صعوبة في الوصول إليه، حدث نفسه بانفعال طفيف:

رد يا "معتصم"، ده مش وقت تختفي فيه خالص!

بدا "وحيد" حائرًا وهو يقف بمفرده وسط أقربائه محاولاً إخفاء توتره وفي نفس الوقت الوصول إلى ابنه على الأقل ليعاونه في البحث عن "نادية" دون إثارة قلق وريبة الضيوف المتواجدين.

.....

على الجانب الآخر، كان "معتصم" يقف مستندًا بظهره على مقدمة سيارته، شرد أمامه يفكر فيما قاله "سامر" عن "آسيا"، ود لو قطع كل صلة بها كي لا تحترق أعصابه من تصرفاتها المسيئة، اشتدت تعابير وجهه واحتقنت حدقاته، كان يقاوم رغبات ملحة بداخله تدفعه للتصرف بهمجية، بالثورة والغضب، بالانفعال والثأر، كان الأسلم له وسط ذاك الكم الهائل من الضغوطات العصبية والمستفزة أن يتعد، نأى بنفسه عن الجميع وأثر أن يقف منفردًا في تلك البقعة الخاوية من أي روح، ترك للنسات القليلة الباردة تهدئة نفسه المشحونة بكل مقومات الغضب، وما إن هداً نسبيًا حتى عاود التطلع إلى هاتفه المحمول، وجد عدد لا بأس به من المكالمات الفائتة من والده، قطب جبينه متعجبًا، تنفس بعمق قبل أن يهاتفه، تساءل بفتور ملحوظ ما إن سمع صوته:

أيوه يا بابا

سأله "وحيد" بتلهف:

إنت فين؟

رد عليه متسائلًا بجمود قليل:

هو في حاجة؟

أجابه أباه بهلع استشعره بقوة:

مامتك مش لاقياها يا "معتصم"!

انتصب الأخير في وقفته مردداً بذهول صادم وعقله ييندل قصارى جهده لاستيعاب الأمر وتفسيره:

نعم

تابع والده موضحاً:

دورت عليها في كل مكان في النادي ومالهاش أي أثر!

شحب لون وجهه متسائلاً بتوتر مضاعف:

-يعني إيه الكلام ده؟

رد عليه "وحيد" بما كان يخشى سماعه:

-يعني مامتك اختفت واحنا مش عارفين

اتجه "معتصم" سريعاً نحو سيارته، استقلها قائلاً بجدية شديدة وقد توترت كافة تعابيره:

أنا جاي عند حضرتك حالاً

.....

راقبتها خلسة رغم تلك السعادة الغامرة التي سيطرت عليها لكونها معها أخيراً، ابتسمت "نادية" بوداعة إلى ابنتها وهي تطالعها بنظراتها المشتاقة، أرادت أن يحتفظ عقلها بصورة حية لها، تمت لو سمحت لها باحتضانها، وضمها إلى صدرها، بإعطائها الفرصة لتلمس بشرتها وتحسس تعابير وجهها بعد أن حُرمت من أبسط حقوقها في رؤية ابنتها تكبر في كنفها، على عكسها كانت "آسيا" جالسة بتحفزٍ في مقعدها وقابضة بقوة على المقود، كانت تعاتب نفسها بقسوة لضعفها أمامها، لتراخيها في حسابها، أخفضت "نادية"

أعينها لتحقق في آثار الدماء الواضحة، اعتصر قلبها ألمًا لرؤيتها مجروحة هكذا، حاولت أن تلتفت نظرها إليه فاستطردت قائلة بجذير كبير:

أيديك بتوجعك يا بنتي؟

كان بداخل "آسيا" متحفراً ضد أمها، فمجرد أن نطقت، انفجرت فيها صارخة بتشنج:

ماتقوليش الكلمة دي، أنا مش بنتك

ثم ضغطت على دواسة البنزين لتزيد من سرعة السيارة، ابتلعت "نادية" ريقها وتشبثت أكثر بمقعدها متوجسة خيفة في نفسها أن تتسبب ابنتها في حادث سير، أضافت مرددة بتلثم وهي ترمش بعينيها:

حاضر، اهدي بس!

التفتت "آسيا" نحوها ترمقها بنظراتها الحادة وهي تواصل صراخها بها:

-وملكيش دعوة إن كنت بأنزف ولا لأ

ردت عليها "نادية" بندم بدا ظاهرًا في نظراتها أيضًا:

أنا خايفة عليكي

التوى ثغر ابنتها للجانب لترد بتهكم ساخط:

-كفاية الخوف ده توربه لابنك ولجوزك، مش هي دي عيلتك اللي بجد؟

أكثر ما أصابها بغصة مريرة في حلقها وبالحنن في نفسها هو اعتقاد وحيدتها أنها تخلت عنها وتركها هكذا، ألمتها تلم الفكرة كثيرًا، توصلت لها "نادية" قائلة بصوتٍ مختنق:

يا "آسيا" ماتظلمنيش

لم يكن بها أي طاقة للجدال معها، حتى أنها سئمت وجودها بجوارها بعد أن تمت
ذلك كثيرًا، ضغطت فجأة على مكابح السيارة لتوقفها صائحة فيها بصيغة أمره وهي تنظر
أمامها:

-انزلي!

تفاجأت "نادية" بما تفعله، ارتد جسدها للأمام من جراء إيقاف السيارة هكذا دون
أي مقدمات، استندت يديها على التابلوه مانعة نفسها من الاصطدام، التفتت برأسها
نحوها ترمقها بنظراتها المدهوشة، ومع ذلك رفضت قائلة بعناد:
لأ-

استدارت "آسيا" نحوها تصيح فيها:

-باقولك انزلي من عربيتي!

ردت محتجة على أمرها:

مش هاسيك واتي في الحالة دي

نظرت لها شزرًا وهي تقول بسخطٍ لكنه عبر عن لوم وعتاب صادق لها:

-ما إنتي سيبتيني زمان!

كانت محقة في جملتها الأخيرة والتي نطقها بكل مرارة وأسى، استشعرت ذلك "نادية"
وتضاعف تأنيب ضميرها، اعتذرت منها قائلة:

حقك عليا

ضحكت "آسيا" بطريقة هستيرية ساخرة منها على أسفها غير مجدي، فهو لن يعيد
الماضي ولن يصلح ما فات، نظرت لها والبتها بغرابة، ورغم ذلك لم تقاطعها وتركها

تفعل ما يحلو لها، فهي في أمس الحاجة للبقاء إلى جوارها، حتى لو استهزأت منها، ستلزم الصمت فقط من أجلها.

.....

عجز عن الوصول إليها هو الآخر، انتابته هواجس مخيفة عن احتمالية لقاءها معها، بل بات شبه متأكد من حدوث ذلك، فعرض الأزياء وحفلته الصغيرة كانتا في نفس المكان، بدا "معتصم" كمن رأى شيئاً للتو وهو يتخيل الصدام بينهما، بل ربما وصل إلى أخطر من ذلك بكثير، هو يعلم مسبقاً نوايا "آسيا" نحوها، و"نادية" لن تتحمل إساءتها نحوها، فماذا عن تعهداتها بالمعانة القاسية، شعر بانقباضة قوية في صدره وهو يفكر في الأمر من ذلك المنطلق، لم يرغب في الإفصاح عن شكوكه لوالده، وقرر أن يتصرف بمفرده للتعامل مع تلك الأزمة الخطيرة، حاول أن يبدو عقلانياً وهو يطمئن والده قائلاً:

-ماتخافش يا بابا، أنا هاعرف مكانها وأبلغك

صاح به "وحيد" منفعلًا وهو يلوح بيده:

-ازاي بتقولي مخافش وهي حتى مش عاوزة ترد على الموبايل؟!!

جذبه "معتصم" بعيدًا عن الحضور كي لا يلفت انتباههم بعد أن ارتفعت نبرة صوته ثم رد معللاً:

-جائز مش سمعاه

نظر له والده بضيق وهو يرد مستنكرًا محدودية تفكيره في مسألة حرجة كذلك:

-إنت بتضحك على مين يا "معتصم"؟ ده أنا أبوك مش عيل صغير، مامتك أكيد حصلها حاجة و....

قاطعه قائلاً بجدية:

-ان شاء الله خير، أنا هاتصرف يا بابا، خليك بس مع الضيوف وقولهم أي حاجة وأنا

هاكون على اتصال معاك

رد "وحيد" بامتعاض:

ماشى، أما أشوف!

استأذن بعدها بالانصراف قاصداً الاتجاه إلى مكان بعينه؛ منزل "آسيا".

.....

-عمل اللي قولتك عليه ومش هاوصيك

قالها "سامر" بلهجة آمرة للمتحدث معه في الهاتف المحمول قبل أن ينهي معه تلك

المكالمة الغامضة، ثم أشار بيده للنادل الواقف خلف بار المسكرات بذلك الملهى الليلي

متابعاً:

هات واحد تاني

رد النادل مبتسماً:

-أوامر سيادتك!

استدار "سامر" برأسه ليطالع الراقصة التي تتوسط الصالة وهي تتمايل بجسدها بميوعة

وليونة ممتعاً عينيه بمفاتن جسدها البارزة خلف بدلتها الفاضحة، لعبت الخمر برأسه

وتخيلها "آسيا"، اعتدل في جلسته وركز بصره أكثر، لعبت الإضاءة الخافتة دوراً في

إكمال مشهده التخيلي، شعر بالإثارة والانتشاء متوهماً نفسه بمفرده معها، هي ترقص

له وتغازله بنظراتها الموحية مرسله له إشارات ذات مغزى ليقترب منها، تحسس صدره

راغبًا في تذوق طعم الحب معها، انتزعه من تخيلاته الجامعة صوت النادل القائل
بروتينية:

-تفضل يا باشا، أي أوامر ثانية

هز رأسه نافيًا ثم لكز جانب رأسه متسائلًا ببلاهة:

-شكلي سكرت ولا إيه؟!

ارتشف جرعة كبيرة من كأسه متابعًا حديث نفسه:

-هتجنني يا "آسيا"!

استدار نحو الراقصة يتابعها من جديد ثم أكد لنفسه بثقة:

-أنا عاوزك وبكرة هتجيلي لحد عندي برجليكي بعد اللي هايتنشر عنك وعني!

.....

لم تكثر بتبعات ما تفعله، فالمهم عندها أن تكون إلى جوار ابنتها ومعها حتى لو كلفها
الأمر الكثير، تجاهلت "نادية" جميع الاتصالات الهاتفية غير عابئة بحالة القلق التي بها
عائلتها، فكل شيء يهون في سبيل البقاء مع وحيدتها التي حرمت منها لأعوام، في
النهاية قررت إغلاق هاتفها لكي لا تشغل بالها بأي أمور جانبية، واكتفت باختلاس
النظرات نحو ابنتها، أوقفت "آسيا" سيارتها على مقربة من بنايتها ثم ترجلت منها دون
أن تنبس بكلمة، تبعتها والدتها في صمت حتى ولجت معها إلى مدخل البناية، استدارت
ابنتها نحوها ترمقها بنظرات حادة وهي تسألها بجمودٍ قاس:

-رايحة فين؟

أجابتها بترددٍ ملحوظ وهي تزدرى ريقها:

جاية معاكي

زوت ما بين حاجبها متسائلة بتجهم:

ليه؟

ردت "نادية" بجدية طفيفة:

-لازم تتكلم شوية يا "آسيا"

اعترضت الأخيرة بنبرة شبه متعصبة:

-وأنا مش عاوزة أسمعك ولا أعرف حاجة منك

ردت عليها أمها بإصرار عنيد:

-أوكي، بس على الأقل تعرفي الحقيقة وإتي حرة بعد كده في قرارك، لكن أنا مش

هامشي قبل ما تسمعي للأخر!

-أها .. الحقيقة!

قالتها "آسيا" وقد تقوس فمها بابتسامة سخيفة متهمكة معبرة عن عدم رضاها بما يحدث، ومع ذلك حثها فضولها على ترك الفرصة لها لتسمع منها أكاذيبها الجديدة، أشاحت بوجهها بعيداً عنها وأكملت طريقها في اتجاه المصعد، تنفست "نادية" الصعداء لكونها قد تخلت نسبياً عن عنادها لتمنحها فرصة للحديث عن أسرار الماضي.

.....

جلست واضعة ساقها فوق الأخرى وهي تطالع والدتها بنظرات جامدة تخفي خلفها الكثير من المشاعر المحتقنة، كتمت في نفسها ألم الجرح الموجود في راحتها، اكتفت بوضع ضمادة طبية دون أن تهتم بتطهير الجرح أو معالجته، لم يشغل حتى بالها وقف النزيف، ولكن لتتجنب فقط توسلات والدتها بالاهتمام به، أرادت "نادية" أن تسبر أغوار عقل ابنتها لتعرف فيما تفكر، فيما تعتقد، وفيما أملاه عليها والدها الدنيء وزرعه في نفسها

من مشاعر غل وحقد نحوها، أحزنها كثيرًا رؤيتها على تلك الحالة الناقمة، حتى في أبسط الأمور لا تكثرث بحالها، أي وضع قد آلت إليه بسببه؟ سيطر على ملاحظها تعبيرات حزينة آسفة وهي تطالعها مليًا، زفرت "آسيا" متسائلة بفتور دون أن يرف لها جفن:

عاوزه تقولي إيه؟

ردت "نادية" بنبرة منكسرة وقد لمعت أعينها بالعبرات:

سامحيني لأنني صدقت باباكي في لحظة وإنه راجل محترم هيلتزم بوعدده ليا ويرجعك لحضني، سامحيني لأنني قصرت في حقك ومدورتش في كل مكان عليكي واستسلمت لما معرفتش طريق ليكي، سامحيني لأنني تخليت عنك في أكثر وقت كنتي محتاجاني فيه تفاجأت "آسيا" باعتذاراتها المتلاحقة، بعبراتها التي انسابت من حدقتها لتمتج مع نبرتها المخدولة، ركزت أعينها عليها محاولة البحث عن ثغرة تجبرها على تصديق ما ادعاه والدها عليها، تحولت تعبيراتها لعلامات مصدومة مع اقتراب والدتها منها لتقبل رأسها مبدية ندمًا شديدًا عما أجبرت ابنتها على معاشته، لم تستطع تحمل ذلك منها فصاحت في غضب:

اللي بتعمله ده مش ها يصلح اللي فات

ردت بإحباط:

أنا عارفة، ولا هيرجع الزمن لورا

لم ترغب "نادية" في تشويه صورة طليقها، لكن على ابنتها أن تعرف الحقيقة أيًا كانت نتائجها، لذا استجمعت جأشها لتكمل بهدوء رغم صعوبة الأمر عليها:

بس غضب عني والله، باباكي كان مدمن قمار، اتجوزني بس علشان ياخذ فلوسي وميراثي من والدتي الله يرحمها، كان...

توقفت لتبتلع ريقها قبل أن تواصل بأنفاس متهدجة:

كان عامل البيت كازينو صغير لأصحابه، كل يوم سهر وقمار وخمرة وحاجات قدرة، أنا مقدرتش استحمل، وخصوصًا لما خلفتك!

ظلت تعابير "آسيا" جامدة للغاية، بدت أمامها غير متأثرة بما تسمعه رغم كونها دماغها تغلي بداخل عروقها، فهي إلى حد ما شبه محقة في إدمان والدها للقمار، هو لم يتوقف عن تلك العادة أبدًا، بل إنه مازال يمارسها إلى الآن، أنعش حديثها ذكرتها فعاتت بها إلى الوراء لتتذكر لجوئه في بعض الأحيان للمقامرة عليها هي شخصيًا، كان الأمر في البداية مزاحًا، ومع الوقت تحول إلى أمر جدي مما أجبرها على سداد مديونياته الطائلة لتتأذى بنفسها بعيدًا عن أطماع رفقاء السوء الذين لازموه لساعات وسلطوا أعينهم الطامعة عليها بسبب جمالها الطبيعي، كم وضعها في مواقف محرجة أجبرتها على الهروب من المنزل والبقاء في الفنادق كضييفة غريبة لا عائلة لها، اضطرت أن تعمل لساعات في وظائف لم تجدها منذ البداية لتدفع ثمن إدمانه المريض حتى عرفت الطريق إلى عالم الشهرة والموضة مصادفة، فظنت أن تلك المهنة هي الخلاص لها منه، لكنها كانت البداية فقط لاستنزافها نفسيًا وماديًا وأخلاقيًا، فحينما كانت ترفض الدفع كان يهددها، وعندما ييأس من محاولة إقناعها يلجأ لشماعة إلقاء اللوم على والدتها، وهي كالمغيبة صدقته وحملت أمها كل اللوم والذنب، لم تعبأ بما قيل عنها من شائعات كاذبة، تجاهلت الجميع واكتفت بالنظر للأمر من ناحية أخرى حيث أنه أكسبها المزيد من الشهرة، أخرجها من شرودها البعيد صوت "نادية" القائل:

مكوتش عاوزاكي تتربي في الجو ده، اتفقت أنا و"شرف الدين" على الطلاق بعد ما ساومني على مبلغ كبير علشان يتنازل عن حضانتك ليا، وإنتي كنتي كل اللي يهميني، فمفرقش معايا أي فلوس، ووافقت على كل طلباته، وإديته كل اللي طلبه وزيادة كمان

صدمت "آسيا" مما عرفته، لكنها احتفظت بذلك القناع الجامد المرسوم على تعابيرها، لن تمنحها الفرصة للإشفاق عليها، لن يشفع لها حديثها النادم، ستستمر في معاملتها بقسوة، مسحت "نادية" بقايا عبارتها بأطراف أناملها ثم استأنفت حديثها قائلة:

جدك الله يرحمه كان مستعد يدفع مال قارون عشان نخلص أنا وإتي منه، بس للأسف "شرف الدين" خدعنا كلنا، بعد ما خد الفلوس واتفق معانا على ميعاد نتقابل فيه كان هو سافر بيكي براء، قلبت الدنيا عليكي وحاول جدك بعلاقاته يوصل لأي خيط يدلنا عليكي بس السكك كلها اتقفلت في وشنا، وحتى لما اتجوزت عمك "وحيد"، ما بطلش يدور معايا عليكي لحد ما يأسنا من إننا نلاقيكي!

نهضت "آسيا" من على الأريكة لتقف قبالتها وهي تسألها بغموض مريب:
-خلصتي اللي عندك؟ في حاجة زيادة؟

استشعرت "نادية" احتمالية تكذيبها لما سردته عليها، فاسترقت قلبها قائلة بحنو وبنبرة تلين القلوب المتحجرة:

-يا بنتي صدقيني، ده اللي حصل والله، وأنا مستعدية أجيبلك "وحيد" ي.....
قاطعتها "آسيا" بشراسة وقد قست نظراتها نحوها:

-إتي مش عشتي حياتك واتجوزتي، جاية عاوزة مني إيه؟ إنسيني زي زمان وابعدي عني

اعتصر قلب والدتها ألماً من رفضها تصديق الحقيقة، وضعت يدها على كتفها لتضغط عليه برفق وهي تقول بنبرة منكسرة:

-أنا عمري ما نسينك أبداً، والله ما غبتي عن بالي للحظة!

في تلك اللحظة انتهت كلتاهما لصوت الدقات العنيفة على الباب، تساءلت "نادية"
بفزع:

ده مين ده؟

لم تكن الاثنتان بحاجة لتخمين هوية الطارق فصوته كان كفيلاً بالإشارة إلى شخصه
المتعصب خاصة حينما هدر مهدداً:

-أنا عارف إنك جوا معاها، افتحي يا "آسيا" وإلا هاكسر الباب، مش هاسيبك
النهاردة!

شحب لون وجه "نادية" كثيراً مع معرفتها بوجود "معتصم" بالخارج، وما زاد من هلعها
هو تهديده العدائي لابنتها، ربما أساء فهم الموقف ولهذا يتصرف بتلك الشراسة بدافع
حمايته لها، راقبت "آسيا" ردة فعل والدتها بسخط، ثم أشارت بيدها قائلة في سخرية:
-أهوو البيه ابنك شرف!

توقعت "نادية" حدوث صدام عنيف بينهما، وكان عليها التصرف فوراً للململة الأمور
قبل أن تتفاقم دون داع، لذلك هرولت دون تأخير ناحية الباب لتفتحه فتفاجأ "معتصم"
بوجودها أمامه، اتسعت حدقتاه على الأخير قائلاً بنبرة مصدومة:

ماما

ابتسمت له كمحاولة يائسة منها لطمأنته، اندفع نحوها محتضناً وجهها بين راحتيه وهو
يسألها بتلهف:

-إتي كويسة؟ حد اتعرضلك، في

قاطعته قائلة بلطف وهي تومئ برأسها مؤكدة:

-اطمن يا حبيبي، أنا بخير، مافيش أي حاجة

رفع "معتصم" رأسه ليحدق في وجه "آسيا" التي كانت تقف في الخلفية، ارتفع الأدرينالين المتحضر في دماؤه سريعًا، اقتحم المنزل متجهًا بعصبيته الجلية نحوها مهددًا إياها بسبابته:

قسماً بالله لو كنتي أذيتيها مكوتتش هارحمك
ردت عليه "نادية" بنبرتها الخائفة:

قسماً بالله ما حصل حاجة يا "معتصم"، احنا كنا بنتكلم وأنا اللي جيت معاها
بنفسي!

تطلع إلى أعينها ليتأكد من صدق ما قالته، لم تكن بحاجة للكذب فقد كانت نظراتها مقروءة له، ابتسم لكونها بخير وأوماً برأسه متفهماً ما فعلته من أجل رؤية ابنتها بغض النظر عن كونها لا تستحق ذلك الاهتمام والحنان الزائد منها، تابعتها "آسيا" بنظرات غاضبة مغلوطة، وقد تأكدت من داخلها أنها لم تنل سوى التعاسة والشقاء، كظمت غيظها في نفسها، ثم صاحت بصرامة وهي تشير بيدها:

خذ "نادية" هانم واطلعوا برا !!

.....

الفصل الخامس عشر

حلت الدهشة المصحوبة بالصدمة على تعابير وجهي كليهما، تبادلنا الاثنان نظرات مذهولة عقب جملة "آسيا" الأخيرة والتي لم تكن تعني سوى الطرد الصريح دون أي تجميل أو تلطيف، فغرت "نادية" شفيتها في استياء حزين، وسلطت أعينها المليئة بعبرات الحسرة على وجهها القاسي، بينما احتقن وجه "معتصم" بدمائه الغاضبة ونظر بغل إليها، فهي لم تكن إلا إنسانة جاحدة بلا مشاعر مطلقاً تجربك على كرهها أضعافاً مضاعفة، التفت برأسه نحو "نادية" مشفقاً على حالها البائس، شعر بالعجز لكونه يقف بينها وبين ابنتها، تمالك أعصابه قبل أن تنفلت دفاعاً عن كرامتها المهدورة على يديها، ثم استدار نحو ابنتها قائلاً بجمود ومعاتباً زوجة والده في نفس الوقت:

مش دي اللي تستاهل تكون بنتك، يالا يا ماما من هنا!

أشارت له بنظرات متوسلة من بين عبارتها الحبيسة بأن يتوقف عن قول ذلك الحديث الموجه فهو لن يزيد إلا الطين بلة، لكنه قاوم ضعفه أمامها، ولف ذراعه حول كتفها ليجبرها على التحرك مع خطواته، ظلت تقاومه رافضة الابتعاد، انتهت "آسيا" إلى رنين هاتفها فركزت بصرها على شاشته لتجد اسم والدها يعلوه، أظلمت أعينها غضباً منه، فهو الضلع الآخر المتسبب في خوضها لتلك المواجهات العدائية وزرع الكراهية

الشديدة بداخلها، انحنى لتلتقطه ثم صاحت قائلة بنفس النبرة الخالية من الحياة
متعمدة تجاهل حضورهما:

-أقفلوا الباب وراكوا

لم تنتظر لترى إن كانا سيبيين أم لا، بل أولتهما ظهرها قاصدة تجاهلها بوقاحة منقطعة
النظير، اتجهت نحو الداخل لتجيب على اتصال أبيها لتفرغ فيه هو الآخر شحنة غضبها
المتقدة بداخلها، كان "معتصم" على وشك الاندفاع نحوها والتشاجر معها من جديد،
لكن أمسكت به "نادية" من ذراعه تتوسله وهي شبه متعلقة فيه:

-سديها يا "معتصم"

رد عليها بغضب مكتوم من بين أسنانه المضغوطة بقوة:

-إنتي مش شايفة بتعاملك إزاي يا ماما؟ اللي زي دي

قاطعته برجاء أكبر وقد انسابت عبراتها المنكسرة:

عشان خاطري أنا، من فضلك يا ابني

أجبرته نظراتها المحطمة على كتم ما يشعر به بداخله والسيطرة عن نوبة الهياج الوشيككة،
زفر بإحباط جلي على قسماط وجهه المشدودة كاظماً في نفسه ما يعتريه من دوافع
تحفزه على الرد بشراسة على تلك القاسية الجاحدة.

.....

على الجانب الآخر، ولجت "آسيا" إلى داخل غرفتها واضعة الهاتف على أذنها لا تنتوي
أي خير، كانت في حالة انفعال واضحة، عكست تعبيرات وجهها المحتقنة ذلك، ردت
متسائلة بنبرة هجومية غير طبيعية وهي تدور حول نفسها بالغرفة:

-بتصل ليه دلوقتي؟

تعجب والدها من ردها الودع الذى لم يكن يتوقعه على الإطلاق متسائلاً باندهاش كبير:

- "آسيا"، واخدة بالك إنتى بتتكلمي مع مين؟

اعتقد لوهلة أنها ربما تخاطب أحد مصممي الأزياء ممن تتعاقد مع وكلائهم لأداء العروض الترويجية لتصميمهم الفريدة، فعبر عما يفكر فيه مفسراً بهدوء:

حبيبتي أنا مش حد من الـديزاينر، أنا باباكي

التوى ثغرها قائلة بتهمك وبنبرة أكثر تحفزاً:

أنا عارفة كويس إنت مين!

خرج صوته شبه حاد وهو يقول:

ليه الطريقة دي يا "آسيا"؟

صرخت فيه بهياج وهي تدس يدها في خصلات شعرها:

عاوز ليه مني تاني؟

أجابها بحذر:

-واضح إنك مش في المود، عموماً هابقي أكلمك وقت تاني تخلصيلي دين كده عليا كان ل.....

استاءت من تكرار تلك المسألة المقيتة على مسامعها في كل اتصال له بها، لم يكن ليهاتفها من أجل الاطمئنان على أحوالها، ولكن ليطلب منها سداد مديونياته اللا متناهية، خرجت عن آخر ذرة تعقل صارخة فيه بنبرة عالية:

ليه، إنت ما بتهقش من القمار والديون؟!!

نعم

استأنفت صياحها الهاجّ قائلة:

أنا قرفت من كل حاجة بتعملها، خلّطني أكره نفسي وأكره حياتي وأكره كل حاجة في دنيتي

رد عليها "شرف الدين" بجدّة:

-مش ذنبي إن أمك عملت فينا كده و....

ملت من استخدامه لتلك الحجة التي يلجأ لها دومًا لتحميلها الذنب متناسيًا أنه سيّبا رئيسيًا فيما مرت به من ظروف وحدة وقسوة وأمور أخرى لا تريد التفكير فيها أو حتى تذكرها، قاطعته بانفعال مبرر:

-بطل الشّاعة دي، أنا زهقت منها وبقيت بأكرهك إنت كمان

سألها باستغراب:

- "آسيا"، في إيه حصل غيرك كده عليا؟

أبعدت الهاتف عن أذنها لتحقق أمامها بنظرات شبه زائغة وهي تدرع غرفتها جيئة وذهابًا، بدا صوتها مريئًا عندما صاحت بلا وعي:

يا ريّنتي أموت وأرتاح من كل القرف ده

انتاب والدها القلق من تلك الطريقة المزعجة في تعاملها معه، هو اعتاد منها على الجفاء والبرود، لكن أن تكون بكل هذه العصبية فهو ما وتره كثيرًا، سألها بتلهف:

- "آسيا"، مالك؟

ألقت الهاتف على الأرضية بعدم مبالاة وهي تتجه صوب الحمام محدثة نفسها:

أنا تعبت من كل حاجة!

صاح والدها بنبرة كانت إلى حد ما شبه مسموعة:

-ألور، "آسيا" سمعاني!

كانت في حالة شبه مغيبة، تحركها ساقها لا إرادياً نحو الحمام، سيطر على تفكيرها أفكاراً سوداوية، شعرت بالنفور من كل ما يحيط بها، بشيء يحثها على الخلاص مما تعانيه، وقفت أمام الحوض تتأمل المرأة التي تعلوه بنظرات مخيفة، أزاحت طرفها بأصابع ترتعش قليلاً ليظهر من خلفها خزانة طبية مخفية، تجمدت نظراتها على محتوياتها لثوانٍ معدودة، ثم إذ فجأة سحبت أول ما وقعت عليه أعينها من علبة للأقراص، لم تعبأ بمعرفة ماهية الدواء، فقط قبضت عليه بقوة منتزعة غطاءه البلاستيكي، ثم أفرغت ما فيه بالكامل في راحة يدها لتبتلع في جوفها الكمية كلها دفعة واحدة، أغلقت بعد ذلك المرأة بانفعال مدقة النظر في تعابيرها المحتدة، رأت في انعكاس صورتها خيالاتٍ لأغلب الرجال الذين حاولوا التودد إليها بكافة الوسائل، وخاصة غير المشروع والمتجاوز منها، اشمزت من نفسها، ومن الأخبار المغلوطة التي حاوطتها ونهشت من سمعتها، من كل ما جعلها تبدو في أعين الذكور (ساقطة)، زاد إحساسها بالاحتقار والدونية، هي لا تستحق أن تمر بكل ذلك لكونها تجاهلت تلك الأخبار منذ البداية مانحة الفرصة لأصحاب الأطماع بالتلاعب بحياتها وتقرير أي اتجاه يمكن أن تسلكه نيابةً عنها، والأفطع من ذلك الحكم المطلق عليها بأنها عابثة رخيصة متاحة لمن يدفع ثمنها.

.....

كانت تحاول استغلال كل الفرص المتاحة لتبقيه قدر الإمكان في المنزل، لم تستطع مقاومة إحساس الأمومة الذي يحثها على عدم ترك ابنتها دون تفقد حالها ولو لمرة أخيرة، اعترضت "نادية" طريق "معتصم" رافضة الذهاب، كفكفت عبراتها قائلة بصوتها المنتحب:

خلينا هنا شوية

رد عليها محتجًا بضيق كبير:

يا ماما دي طردتنا، هنستنى إيه بعد كده؟ من فضلك خلينا نمشي بقى، بابا كمان قلقان عليكى.

ترقرقت العبرات من جديد في حدقتها، شعرت بغصة مريرة تضرب حلقها وهي تقف عاجزة عن فعل ما تتمنى، رأى "معتصم" تأثير ما قاله على تعبيراتها المقهورة، عاتب نفسه لقسوته مع طبيبتها وحنانها الكبير، تهد مضيقًا بصوت مسموع وآملًا أن يتمكن من إقناعها:

-أنا فاهم ومقدر مشاعرك ناحيتها

وضع يده على كتفها رابئًا عليه برفق وهو يكمل بهدوءٍ حذر:

بس صدقيني يا ماما كل اللي بتعمليه معاها مالوش أي فائدة، خلينا نمشي دلوقتي وبعد كده

قاطعته بعنادٍ وهي تهز رأسها معترضة:

-لأ يا "معتصم"، دي بنتي زي ما إنت ابني، صعب أسيتها وهي كده

ثم تحولت تعبيراتها للاندھاش المصدوم حينما رأت ابنتها بذلك الوجه الشاحب مقبلة عليها، تتمت عفويًا وقد شخصت أبصارها:

- "آسيا"

التفت "معتصم" برأسه نحوها يرمقها بنظراته الكارهة لها، أخرج زفيرًا حانقًا من جوفه وهو يكور قبضة يده محاولاً إجبار نفسه على طاعته، تساءلت "آسيا" بنبرة متهمكة وهي تبتمس بطريقة مريبة:

-إنتو لسه هنا؟

أجابها "معتصم" بشراسة تلوح في الأفق:

-ياللا بينا يا ماما

واصلت "آسيا" اقتربها منه متابعة حديثها بنفس النبرة الغريبة:

-مش فارقة قعدتوا ولا مشيتوا

انتصبت أكثر في وقفها المتباهية بينما ظلت أنظاره الحائرة مسلطة عليها للحظات قبل

أن يشيح بوجهه بعيداً عنها قائلاً بامتعاض:

-بيتهيألي كده اطمنا على ال... الهانم المحتر....

بتر كلمته الأخيرة قاصداً وهو يعاود التحديق في وجه "آسيا" ليراقب ردة فعلها مع

إهاتته الضمنية لشخصها، لكن على عكس ما كان يُمني نفسه بإظهار نفوره منها وجدها

تقول بفتور:

-خلاص كلكم هترتا حوا

انقبض قلب "نادية" بقوة عقب جملتها تلك، ابتلعت مرارة العلقم المنتشرة في جوفها

وهي تسألها مستفهمة:

-قصدك إيه؟

وضعت "آسيا" يدها على كتف "معتصم" الذي تفاجأ بمركبتها الجريئة تلك، دنت

برأسها منه، ثم همست له بنبرة ذات مغزى:

-وخصوصاً إنت

قطب جبينه وانقعد ما بين حاجبيه بقوة حينما رفعت "آسيا" يدها القابضة على علبة الدواء أمام وجهه، ارتفع حاجبه للأعلى كتعبير عن حيرته في فهم المغزى من وراء ذلك، جمدت "آسيا" أنظارها على عينيه المشتعلتين قائلة ببرود:

بباي باي!

ثم أرخت أصابعها عن العلبة وهي تضحك بطريقة هيسترية لتضاعف من حالة الترقب المنعكسة على وجهه، تراجعت خطوة للخلف لتبدو كعاقري الخمر في سيرها غير متزن، تساءلت "نادية" بفرع وهي تهرع نحوها:

-عملتي إيه يا "آسيا"؟

التفتت الأخيرة نحوها لتجيبها من بين ضحكاتها غير الواعية:

-اللي كلمك عاوزينه

انحنى "معتصم" ليلتقط علبة الدواء التي أسقطتها ليفحصها ويحاول تفسير كلماتها الغامضة، استندت "آسيا" بكفها على كفتي أمها متابعة باقي حديثها:

-ارجعي لحياتك يا "نادية" هانم

اعتصر قلبها خوفاً من طريقته التي أفزعها كثيراً، استشعرت وجود كارثة ما ورائها، ازدردت ريقها تسألها بتلهف:

- "آسيا"، إتي بتقولي إيه؟ أنا....

لم تكمل جملتها بسبب ثقاقل جسد ابنتها وتراخيه فأسرعت بضمها إليها قبل أن تسقط على الأرضية صارخة بهلع:

- "معتصم"، الحقني!

تحرك الأخير بخطوات متعجلة نحو "نادية" ليتمكن من إسناد ابنتها، كانت فاقدة كلياً للوعي، وبشرتها شاحبة بدرجة مقلقة، تأمل تعبيراتها بدقة متأكدًا من شكوكه، ثم انحنى قليلاً ليحملها بين ذراعيه، توجه بها إلى أقرب أريكة ثم وضعها عليها برفق بينما تبعته والدتها المكلومة وهي تتساءل بخوف:

-مالها؟ حصل لبنتي إيه يا "معتصم"؟

كان يعرف الرد مسبقًا، فقد بات كل شيء مفهومًا الآن، استدار برأسه نحوها نصف استدارة ليجيبها:

- "آسيا" انتحرت !!

.....

الفصل السادس عشر

خرجت تلك الكلمات الصادمة من جوف "معتصم" لتنزل كالصاعقة على رأس والدتها التي تسمرت للحظات في مكانها غير مصدقة ما تلفظ به، أيعقل أن فعلت ابنتها ذلك في لحظة طيش متهورة؟ أفاقت "نادية" من صدمتها لتنظر بهلع إلى فلذة كبدها، ثم هرولت جاثية على ركبتيها أمام جسدها المسجى على الأريكة صارخة بها:

-عملي كده ليه يا بنتي؟

مدت كفيها لتمسك بقبضتها تضمها بين راحتيها وهي تبكي بحرقة على ما اقترفت، رفعت رأسها الباكي إلى "معتصم" تستغيث به:

-الحقني يا ابني، اتصرف وإنقذها قبل ما تضيع مني

كان أمامه خيارين؛ الأول أن يهاتف الإسعاف وينتظر قدوم العربة والتي من المحتمل أن تأتي متأخرة، أو أن يحملها بنفسه ويقلها بسيارته إلى أقرب مشفى، بالطبع لم يكن بحاجة للتفكير مطولاً، حسم أمره واقترب من "نادية"، وبحركة رقيقة على كتفها أجبرها على الابتعاد عن طريقه ليتمكن من الانحناء وحمل "آسيا" بين ذراعيه، أسرع في خطاه بها متجهاً نحو الخارج تتبعه والدتها ليصل بعد دقائق معدودة إلى سيارته، أسندها بجذر على المقعد الخلفي، وجلست "نادية" إلى جوارها واضعة رأسها على صدرها وتضمها بذراعيها وكأنها تخشى فقدانها، هتفت فيه بصوتها المنتحب:

-بسرعة يا ابني، اطلع على أي مستشفى!
أوماً برأسه قائلاً بهدوءٍ مريب وهو يلقي بجسده على مقعد قائد السيارة:

حاضر

ثم أدار المحرك واستدار برأسه ليتحرك بالسيارة في الاتجاه العكسي متجهًا إلى المشفى، كان ممتنًا في نفسه هدوء حركة السير في تلك الأثناء مما سهل كثيرًا عليه وصوله إلى وجهته في وقت أقل ليسهم ذلك في زيادة فرص إنقاذها، لكن ما لم يتوقف عن التفكير فيه هو البحث عن إجابة وافية للسؤال الذي يلح عليه عقله به، لماذا لجأت إلى فعل ذلك؟

.....

لاحقًا، ناول "وحيد" زوجته كوبًا بلاستيكيًا مليئًا بالمياه الباردة لتبلل به حلقها الجاف، ففور أن علم بالكارثة التي حدثت حتى أتى هو الآخر إلى المشفى ليكون إلى جوارها في مثل تلك الظروف، نظرت له "نادية" بأعينها الدامعة تحدته بهمس منكسر:

- "آسيا" موتت نفسها يا "وحيد"

رد عليها بنبرة عقلانية محاولاً طمأنتها:

إن شاء الله الدكاترة يساعدها وهاتبقى كويسة

سألته بحسرة لم تخفها نظراتها إليه:

طب عملت كده ليه؟ نفسي أفهم

كفكفت عبراتها المنهمة على وجنتها مكلمة حديثها:

أنا مكونتش عاوزة منها حاجة غير إنها تسمعي وتبقى كويسة

رد عليها "وحيد" مبررًا تصرفها المتهور:

ساعات يبجي على الإنسان لحظات ضعف، مايبقاش في وعيه ولا عارف يفكر
إزاي، بيستسلم للأفكار السوداء اللي في دماغه وبتخليه يعمل حاجات تآذيه

سألته بحزنٍ أكبر:

طب ليه؟

لم يجد في جعبته الرد الشافي لها، عجز عن إراحتها فتنهد قائلاً:

-السؤال ده "آسيا" وحدها اللي تقدر تجاوبك عليه

مسحت بأناملها دماغها هامسة برجاء:

يا رب طمني عليها

لف "وحيد" ذراعه حول كتفي زوجته قائلاً:

إن شاء الله هاتبقى بخير، اهدي بس إتي يا حبيبي!

على الجانب الآخر، وقف "معنصم" منزويًا في أحد الأركان مستندًا بظهره على الحائط
ومراقبًا حركة المرضين والأطباء بنظرات شاردة، أخرج زفيرًا ثقيلًا من رثتيه وهو
يتذكر كيف وقع الاختيار على المشفى الذي يعمل به رفيقه ليلجأ إليه، فهو يعلم جيدًا
أن محاولات الانتحار ستتطلب تحقيقات رسمية وبعض الإجراءات القانونية، وإن وصل
الأمر إلى الصحافة أو تسرب الخبر إلى المواقع الإلكترونية لن يسلم هو وعائلته من
فضائح "آسيا"، وهي لن تكثر بتبعات ما تفعله، لذا وجودها هنا سيكون الحل
المؤقت ريثما يرتب أفكاره، ظل باله مشغولاً لبعض الوقت يفكر في طريقة يستدرجها
بها نحو مخطط يحجم به هجومها الشرس، بدأت ملامح الخطة تتشكل في عقله، وضع
البدايات التي سيتبعها لكن انتزعه من تفكيره المتعمق خروج صديقه "مصطفى" من
الداخل فاعتدل في وقفته، ثم اقترب منه مشيرًا له بعينه ليتحرك كلاهما نحو الجانب،
استطرد متسائلًا بجمود:

إيه الأخبار؟

أجابه الأخير مبتسمًا بروتينية:

الحمد لله لحقناها وعلما غسيل معدة ليها، وشوية وهاتفوق، هي خلاص انتقلت لأوضة عادية

هز رأسه بإيماءة متفهمة وهو يرد باقتضاب:

تمام

سأله "مصطفى" بفضول وهو مركز بصره عليه:

بس مش هي دي البنت إياها؟

تصلبت تعابير "معتصم" قائلاً بتحذير:

- "مصطفى"، ما فيش داعي تحكي عن أي حاجة حصلت قبل كده، وبعدين أنا جايها هنا علشان نم الدور مايكونش في سين ولا جيم

هز رقيقه رأسه متفهماً:

اطمن يا صاحبي

تابع تحذيراته قائلاً بجدية شديدة:

ومش هاوصيك، مش عاوز ماما تعرف بأي حاجة، صحتها زي ما إنت فاهم

ابتسم له "مصطفى" هاتقاً:

حاضر

ويا ريت تقولهم إنها هاتفوق على بكرة

عقد "مصطفى" ما بين حاجبيه متسائلاً باستغراب:

طب ليه؟

تحولت نظراته لشيء من الإظلام قبل أن يجيبه بغموض:

محتاج أتكلم معاها الأول قبل ماما ما تشوفها

حرك رأسه بالإيجاب متسائلاً:

ماشى، ها في أي أوامر تانية؟

وضع يده على كتفه مردداً بامتنان:

-لأ شكراً يا "مصطفى"، أنا مش عارف أقولك إيه

رد عليه مبتسماً:

-ولا حاجة يا سيدي، احنا إخوات، بس عد الجمائل

تصنع الابتسام وهو يقول:

ماشى

ثم اتجه كلاهما إلى حيث يجلس والده و "نادية"، وما إن رأته "مصطفى" مقبلاً عليها

حتى هبت واقفة من مكانها، شعرت بالأدرينالين يتدفق في عروقها، باضطراب دقات

قلبيها، سأله بتلهف وقد توترت نظراتها:

خير يا ابني؟ من فضلك طمني! بنتي كويسة؟

سأله "وحيد" هو الآخر بجدية:

أخبارها إيه يا دكتور؟

رد عليها "معتصم" بابتسامة سخيصة زائفة:

د. "مصطفى" طمني وقال هاتبقى كويسة، فتقلقوش

سلطت "نادية" أعينها اللامعة على وجه "مصطفى" لتسأله بعدم تصديق:

بجد؟ يعني هي فاقت؟ اتكلمت معاها؟ أرجوك طمني!

أجابها الأخير بصوته الهادئ:

لسه مفاقتش، بس إن شاء الله هاتبقى أحسن

تنفست الصعداء بعد جملته التي أثلجت صدرها، بينما تابع "مصطفى" حديثه الجاد محذراً:

ونصيحتي إنها تتعرض على دكتور نفسي يشوف هي عملت كده ليه

رد عليه "معتصم" بامتعاض ملحوظ:

هانشوف ده بعدين

التفت "مصطفى" نحوه قائلاً بجدية:

الموضوع مهم، لأن جايز تكرر ده تاني، ماتستبعدش ده!

انزعج "معتصم" من جملته الأخيرة فلم يكن الاتفاق معه يتضمن البوح بذلك الأمر الذي تفاجئ به، ضبط انفعالاته المتغيرة قائلاً بجدية:

حاضر

هتفت "نادية" بصوتٍ أقرب للبكاء وهي تضع يدها المرتجفة قليلاً على ذراع "مصطفى":

من فضلك يا دكتور خليني أدخل أشوفها

تبادل سريعاً نظرات شبه حائرة مع "معتصم" فقد بدا في موقف حرج، كانت نظرات

الأخير صارمة للغاية رغم صمته، ثم رد بهدوء محاولاً إخفاء ارتباكاه الطفيف:

مش هاينفع دلوقتي، على بكرة الصبح هاتكون فاقت وبقت أحسن

انقبض قلبها فصاحت بلا وعي:

ده معناه إنها تعبانة و...

قاطعها "مصطفى" محاولاً تهدئتها:

لأ مش كده، بس جسمها محتاج يرتاح، ده غير كمان إن حضرتك شكلك مرهق

ومحتاجة ترتاحي زبها، صح ولا غلطان

دعمه "وحيد" قائلاً:

الدكتور عنده حق يا "نادية"، تعالي نروح بيتنا دلوقتي، وبكرة من بدري هانكون

عندها

هزت رأسها رافضة:

مش هاقدر أسيبها

تنفس "معتصم" بعمق قبل أن يقول بترث محاولاً إقناعها:

يا ماما، الأعدة هنا مالهاش أي لازمة دلوقتي

بدت على وشك البكاء وهي تقول:

بس يا ابني ...

قاطعها بنفس الهدوء العقلاني ممتصاً حزنها:

من فضلك يا ماما، د. "مصطفى" هايفضل معاها وهيبعلغنا بأي جديد يحصل، علشان

خاطري أنا، خلىنا نمشي ووعد هاجيبك من بدري

أضاف "وحيد" بابتسامة باهتة:

- "معتصم" عنده حق، احنا بنضيع وقتنا على الفاضي، ده غير مواعيد الدواء بتاعتك،
إنتي مخدتيش حاجة من بدري

استسلمت أمام إلحاحها قائلة بإحباط انعكس على تعبيراتها الحزينة:
طبيب

اقترب "معتصم" من والده ثم مال عليه هامسًا:

-اسبقني يا بابا على البيت، أنا شوية وهاحصلكم

التفت "وحيد" ناحيته متسائلًا بصوت خفيض:

وراك حاجة؟

أجابه باقتضاب:

-يعني

ماشى يا "معتصم"، بينا يا "نادية"

وجهت الأخيرة حديثها للطبيب قائلة:

-مش هاوصيك يا د. "مصطفى" على "آسيا"

ابتسم قائلاً بلطف:

-اطمني، مش محتاجة وصاية

ودعته "نادية" وهي تملي عليه المزيد من وصايا الأمهات العشر وكأنها سترحل عنها

لأيام وليس لساعات محدودة، ظل "وحيد" يحاول إياها من كتفيها حتى انصرف معها

من المكان، بينما راقب "معتصم" ابتعادهما على أحر من الجمر ليشرع في الاتجاه نحو

غرف المرضى الموجودة بالطابق العلوي، كانت وجهته محددة؛ غرفة "آسيا".

.....
أصدرت أنيثًا خافتًا وهي تقلب رأسها على الوسادة، فتحت "آسيا" جفניה بثقل
محاولة معرفة أين هي، شعرت بصداع عنيف يجتاح رأسها، تأوهت بصوت خفيض
وهي تحرك يدها لتضعها على جبينها، شعرت كذلك بتلك الوخزة في ظهر كفها، ضيقت
نظراتها لترى ما الذي يؤلمها فوجدت إبرة طبية مغروزة فيه، تساءلت مع نفسها بحيرة:

أنا فين؟

ردت عليها المريضة وهي تعيد ضبط الوسادة من خلفها:

حمدلله على السلامة، حاسة يايه دلوقتي

ركزت "آسيا" نظرها المشوش عليها، تأملت ملامحها يارهاق، ثم سألتها بنبرة واهنة:

إنتي مين؟

رسمت المريضة ابتسامة ودودة على ثغرها وهي تجيبها:

أنا ممرضة شغالة هنا في المستشفى

ثم تفقدتها سريعًا قبل أن تكمل بنفس اللطافة:

لو عوزتي حاجة من فضلك دوسي على الزرار ده، وثواني وهاكون عندك، ومرة تانية

حمدلله على سلامتك

انصرفت المريضة تاركة "آسيا" بمفردها والتي بدأت في استيعاب الأمر، فقد باءت

مسألة انتحارها بالفشل، وما زاد الطين بلة هو نجاتها منها، لكن من الذي ساعدها

لتنجو؟ لم تكن بحاجة للتخمين، بالطبع "معتصم" كان متواجدًا بمنزلها، ناهيك عن

والدتها، إذًا فكلاهما كانا شاهدين على لحظة انهيارها، غمغمت بكلمات خافتة تحمل

اللعنات، تخشب جسدها كليًا على إثر الصوت المتسائل:

-مبسوطة دلوقتي؟

جمدت "آسيا" أنظارها على "معتصم" الذي سد بجسده الباب قبل أن يلج للداخل ويغلقه من خلفه، تسارعت دقات قلبها من التوتر، ثم صاحت مستنكرة اقتحامه للغرفة:

-إنت مين سمحك تدخل هنا؟

اعتدلت في نومتها بطريقة فجائية مما أرهق جسدها، لم تكترث لذلك، وواصلت هتافها الأمر:

-اتفضل برا

اتجه "معتصم" إلى أقرب مقعد ثم سحبه سائراً بخطوات هادئة نحو الفراش، لم يعبأ بصياحها ولا صرخاتها التي تطالب بخروجه، بل بكل وداعة جلس عليه، أوشك بركان غضب "آسيا" على الانفجار فيه، لكنه نطق ببرود جليدي أمراً إياه:

-اسكتي خالص، واسمعي للآخر، لأن الكلام الجاي هايكون في مصلحتك قبل مصلحتي

ردت بتهكم وهي تنظر له بازدراء:

-مصلحة معاك إنت؟!!

تحدث من زاوية فمه قائلاً بسخرية:

-ماتستقليش بيا!

تشنجت نبرتها وهي ترد:

-مش عاوزة اسمع حاجة

ثم أشارت له بيدها:

-تفضل من هنا، برا

رد ببرود واضعًا ساقه فوق الأخرى:

-أولاً ده مش بيتك علشان تطرديني منه، أنا اللي جبتك هنا، ولولايًا كان زمانك مع
الأموات

صاحت بغیظ وقد اشتعلت نظراتها:

-هايقوا أرحم منك، برا

أنزل ساقه ثم انحنى للأمام بجسده قائلاً بنبرة مليئة بالقسوة وقد تركزت أعينه عليها:
صدقيني يا "آسيا"، محدش في الدنيا دي يفرق معاه تعيشي ولا تموتي غير بس أمك
بادلته نظرات حاققة كارهة لوجوده وهي ترد بجدة:

-بناقص منها

أرجع ظهره للخلف متابعاً بفتور وكان احتراقها لا يعنيه:

لو كان عليا كنت أجبرتها تنسأكي، وتمحي أي صلة بيكي بس للأسف هي أمك،
هتتقهر عليكي، وصعب أعمل في الست اللي ربنتي كده
رمقته بنظرات احتقارية قبل أن تنطق بعبوس ساخط:

-كفاية عليا إنت تداوي جرحها

بدت كأنها تسخر منه بكلماتها، فابتسم متعمداً إغاضتها ثم رد بهدوء:

عندك حق، بس قلبها ضعيف ناحيتك، هانقول إيه بس!

حدجته بنظرات نارية تحمل الكره، بينما رفع "معتصم" يده ليمرره على خصلات شعره
وهو يتابع:

-شوفي يا ملكة الفضايح

اغتاظت من ذلك اللقب المهين واستعرت من داخلها، كزت على أسنانها صائحة
بانفعال:

-إنت ...

قاطعها مشيراً بإصبعه:

-ليه مش عاجبك الكلام؟ ده إنتي بتحبي الجو ده موت!

نفثت زفيراً مليئاً بالحنق من صدرها فاستأنف حديثه بنفس القسوة:

-وبصراحة أنا معنديش مانع خالص، بالعكس هازودلك جرعة الفضايح وأبسطك

فغرت شفيتها مشدوهة من ذلك الأسلوب المختلف الذي يتعامل به معها، وقبل أن
تترجم ما يرمي إليه أضاف مهدداً:

-بس الفرق مش هاخليكي تشتغلي بعد كده نهائي، هاقضي عليك وأمحيكي من على
وش الأرض

انتصبت في جلستها صارخة بتحدٍ:

-ولا تقدر

لم يرف له جفن وهو يقول:

-إنتي لحد دلوقتي مجربتنيش

ردت عليه بتهديد صريح:

-ولا إنت تعرفني، أنا معنديش اللي أخسره

ضحك ساخرًا من طريقتها ليزيد من استفزازه لها ثم ادعى صعوبة السيطرة على ضحكاته
قائلًا:

-بلاش جو التحديات ده، لأنك هتخسري معايا
اغتاظت من استخافه بها وصرخت فيه:

مش هايحصل

تنح "معتصم" بخشونة قبل أن يجلس باسترخاء أكبر على المقعد، شبك أصابعه معًا
ثم استطرد قائلًا بهدوء أشد رزانة:

طيب نتكلم بأسلوب تاني، أو باللغة اللي تفهميها، أنا هادفع تمك يا "آسيا" هانم
رفعت حاجبها للأعلى هاتفة باستنكار كبير:

نعم؟!!

بدت نظراته قاسية للغاية، خالية من أي وميض للحب أو العاطفة، استمر في تحديقه
بها متحدثًا من زاوية فمه:

ماتبصليش كده، يعني هأجرك، اتفاق هنعمله زي أي اتفاق بين طرفين
كثفت ساعديها معًا لتسألها بنبرة ساخرة:

-وده بمناسبة إيه؟ هاتعمل شو وناقصك موديل؟!!

هز رأسه نافيًا:

لأ، الحاجات دي ماتهنيش، اتفاقي يخص إنسانة واحدة بس

مطت فمها قائلة:

- "نادية" هانم، صح؟

رد عليها مادحًا:

مضطرب، يبعجني ذكائك السريع مع إن

بتر عبارته عمدًا ليضمن حوزته كليًا على انتباهها ثم أكمل قائلاً:

-اللي يشوفك بمنظرك ده يعتبرك (مومس) رخيصة

استشاطت غضبًا من نعته لها بتلك الكلمة المهينة فصرخت فيه بهياج:

إنت واحد قدر

رد ببرود محافظًا ببراعة على ثبات انفعالاته:

بس مش أقدر منك

نجح بأسلوبه الهادئ المستفز في إخراج "آسيا" عن شعورها، انتفضت من جلستها على الفراش نازعة عنها الإبرة الطبية وقاصدة الهجوم عليه، اندفعت نحوه بكل شراسة تريد نبش أظافرها في وجهه لتشوهه لكنه تفادها بمهارة بل وأحكم السيطرة عليها؛ حيث أمسك بها من رسخيها ولفها خلف ظهرها ملصقًا إياها به، ثم أجبرها على السير مع خطواته متجهًا بها نحو الحائط ليحاصرها في الزاوية، التصقت بالحائط وشعرت بالوهن يجتاحها، تلوت بجسدها الغاضب محاولة التحرر منه لكنه لم يدع لها الفرصة، سيطر عليها ببساطة وبقية أسيرته حتى إشعار آخر، جمد نظراته الحادة على وجهها المتعصب، نظر في عينيها الفيروزييتين مباشرة دون أن تتطرف حدقاته، آمال رأسه نحوها ليقول محذرًا بهمس خطير:

-ماتلعيش مع النار يا "آسيا" !!!

.....

الفصل السابع عشر

أشاحت بوجهها بعيداً عن أنفاسه التي لاطمت وجنتها قدر المستطاع، فحركته الدفاعية المباغتة قد وضعتها في مأزق، ومع ذلك استمرت "آسيا" في إظهار قوتها رغم إحساسها بالضعف، عمد "معتصم" إلى تقريب وجهه منها لتصبح كلماته ذات تأثير حسي وشعوري قوي، ثم تابع قائلاً بنفس الخفوت الخطير:

-لأنك هتخسري في النهاية!

استجمعت "آسيا" مقاومتها الهاربة أمام تفاخره بقواه الذكورية عليها لتتنظر له بأعين رافضة للهزيمة، تشنجت قسامتها صائحة فيه بتحدٍ لا يقل خطورة عن كلماته التي تستثير أعصابها:

مش أنا

ثم رفعت ركبتيها لتضربه أسفل بطنه بكل ما أوتيت من قوة، تأوه من الضربة المفاجأة وأرخی يديه قليلاً عن معصمها فنحها ذلك الفرصة للتخلص من قبضتيه عنها، دفعته "آسيا" من صدره لتفسح لنفسها المجال ووثبت على الفراش لكنه كان الأسرع في تدارك نفسه، ولاحقها قبل أن تفر من أمامه، أمسك بها "معتصم" من ساقها مما أعاقها عن الحركة وسقطت على الفراش، جثا فوقها مثبتاً ذراعها أعلى رأسها على الفراش قائلاً بنبرة شبه غاضبة:

-رايحة فين؟

لم يكن أمامها أي مهرب منه، لذا صرخت طالبة للنجدة آملة أن يتسبب ذلك في ردهه وربما فضيحة له:

-الحقوني، المجنون ده يتهجم عليا

أرخی يده اليمنى عن ذراعها ليكمم فمها قبل أن تفضح أمره، ولكن لحسن حظها كان الطبيب "مصطفى" في طريقه للاطمئنان على صحتها فتفاجأ بما يحدث، تخشب في مكانه مصدومًا من رؤيتها على تلك الحالة، تجمدت حواسه لوهلة وهو يطالعها بنظراته المذهولة، فغر ثغره معتقدًا أن "معتصم" يعتدي عليها، فورًا أغلق باب الغرفة كي لا يلفت الأنظار إليه، أو أن تنتبه الممرضات إلى ما يحدث مما يضعه أمام طائلة القانون، هرول ناحية الفراش ليبعده عنها وهو يوبخه بجدّة:

-إنت اتجننت يا "معتصم"، إيه اللي بتعمله ده!

استخدم ذراعيه في إبعاد ثقل جسمه عنها متابعا تعنيفه:

عاوز تودي نفسك في داهية

التقطت "آسيا" أنفاسها وتراجعت زاحفة على الفراش للخلف لتهدد خصمها اللدود بصوتها اللاهث:

-أنا هابلغ عنك البوليس!

تحشج صوتها لكنها استمرت في تهديدها قائلة:

خليك شاهد يا دكتور، الراجل ده حاول يعتدي عليا وأنا مش هاسكت عن حقي!

توجس "مصطفى" خيفة من حدوث فضيحة وشيكة قد تضر بالجميع وربما بمستقبله

المهني إن عرف أحدهم بذلك، توسلها راجيًا بتوتر:

-إهدي يا هانم بعد إذنك، مافيش داعي للشوشرة

ردت عليه بصراخ:

-إنتو لسه شوفتوا مني حاجة!

سد "مصطفى" بجسده الطريق على "معتصم" كي لا يقترب منها، ومع ذلك كان اندفاع الأخير منذراً بصدام أشد شراسة خاصة حينما نطق بصوته الجهوري ومشيراً بسبابته:

-وأنا مش خايف من الفضايح

شحب لون وجه "مصطفى" من فرط الخوف، فرفيقه لن يتراجع عن تهديداته، وتلك الشابة لن تتركه لشأنه، فبات هو رغمًا عنه في خط النيران بينهما، حاول أن يفض الاشتباك صائحًا بارتباك كبير:

-إنت مش في وعيك يا "معتصم"، تعالى معايا

ثم سحب بأقصى طاقته نحو باب الغرفة ليضمن ابتعاده كليًا عنها، ومع ذلك ظلت نبرته المهدة تصدح عاليًا:

-مش هاسيبك يا "آسيا"

صرخت فيه بعصبية:

-وأنا هاوريك مقامك!

دفعه "مصطفى" دفعًا نحو الخارج هاتفًا فيه:

-مش وقت حساب، امشي برا لو سمحت!

وبصعوبة بالغة تمكن من إخراجه من الغرفة بأقل الخسائر المحتملة، وبخه لتهوره قائلاً بضيق:

-إحنا في مستشفى يا "معتصم"، ينفع الجنان اللي عملته ده هنا؟ طب افرض ياخي أنا مكوتنش موجود، كان إيه الحل دلوقتي؟ إيه عاوز تضيع نفسك وتعمل فضيحة من الهواء؟

رد عليه "معتصم" بنفاذ صبر:

-سبني يا "مصطفى"!

رفض تركه وظل متشبثًا بذراعه قائلاً بعناد:

لأ-

زم الأخير فه مرددًا بامتعاض:

-مش هاعملها حاجة، سبني بقى!

لم يجد بداً من الاعتراض عليه خلال نوبة غضبه، فتركه مضطراً وهو يرجوه:

طبيب، تعالى نتكلم في مكنتي!

نفض "معتصم" ذراعه في الهواء سائراً بخطوات شبه متعصبة نحو مكتب صديقه، لكن ظلت انفعالاته هائجة داخل صدره، لا تجد ما يهدئها على الإطلاق.

.....

تنفست الصعداء لوجود الطبيب في الوقت المناسب وإلا كان الأمر قد اتخذ منحىً آخرًا، ملمت "آسيا" شتات نفسها واتجهت إلى خزانة الثياب المحفورة بالحائط لتبحث بين ضلفتها عن ثيابها، التقطتهم بأيدي مرتعشة ثم اتجهت نحو الحمام لتبديل ثيابها بالداخل، لم تبال بالوهن الناتج عن محاولة انتحارها، فتركيزها كان منصباً على أمر بعينه وهو الهروب من هنا قبل أن يأتي ذلك المخبول من جديد ليعتدي عليها، وهي لن تصمد أمامه.

اتجهت "آسيا" نحو الرواق الفاصل بين غرف المرضى باحثة عن المخرج، حاولت أن تبدو هادئة وهي تسير كي لا ينتبه أحد لأمرها، وبمساعدة بسيطة من بعض المرضى استطاعت أن تخرج من المشفى، اقتربت من الطريق الرئيسي ثم أشارت لإحدى سيارات الأجرة لتستقلها، بدأت في ترتيب أفكارها رغم التشوش الذي يشوب عقلها،

فطنت إلى أن المكوث في منزلها ربما سيعرضها لمواجهة أخرى معه وهي في غنى عن ذلك - ولو مؤقتًا - ريثما تستعيد عافيتها وتعد أسلحتها لمجاوبته، لذا الأسلم حاليًا أن تقيم في مكان آخر يؤمن لها الحماية، بالطبع لم تكن الخيارات متاحة، فهي لا تعرف إلا الفنادق كأماكن للإقامة، لذلك وقع اختيارها على فندق بعينه، أوقفت سيارة الأجرة أمام مدخل بنائها أمرة السائق:

-استناني ١٠ دقائق هنا

التفت السائق ناحيتها قائلاً بوجه متجهم:

بس الأجرة يا مدام هتزيد والبنزين غالي و...

قاطعته بصرامة ومشيرة بيدها في نفس الآن:

-ششششش، هاديك كل اللي انت عاوزه، خليك مستنني زي ما قولتلك

اعتلى ثغر السائق ابتسامة عريضة وهو يقول:

ماشني يا ست الكل، تحت أمرك طالما كله بحسابه

تفاجأ حارس البناية بعودة "آسيا" بعد برهة من ذهابها للمشفى، هلل صائحًا وقد هب

واقفًا من مكانه لاستقبالها:

حمدلله على السلامة يا ست هانم، احنا اتوغوشنا عليك و...

رمقته بنظرة متعالية قبل أن تقاطعه بصوتها الأمر:

-بطل رغي، وتعالى ورايا خد الشنط من فوق

سألها الحارس بفضول وهو يحك مؤخرة رأسه:

هو حضرتك مسافرة؟

توقفت عن السير لتحده بنظرة عدائية جعلته يتراجع خطوة للخلف وهي تنهه:

-إنت هتحقق معايا؟

ابتلع ريقه قائلاً بارتباك متلعثم:

هو العين تعلى على الحاجب؟ ماتخذنيش يا ست الكل!

واصلت سيرها المتعجل فحاول الأخير اللحاق بها قائلاً بحذر:

يا ست هانم، مفتاح الشقة معايا

استدارت ناحيته كلياً لترمقه بنظرات مخيفة فتابع موضحاً قبل أن تسيء تفسير الأمور:

-ماهو أصل حضرتك لما غميتي الباب كان مفتوح، وأنا خوفت على الشقة لا تسرق،

فقفلتها بمعرفتي

سحبت نفساً عميقاً فراقبها بتوتر شديد، لفظته دفعة واحدة لتقول بعدها:

-أوكي، هات المفتاح

دس يده في جيب جلابه ليخرجه منه مردداً:

-تفضلي يا ست هانم

تناولته منه وأكملت خطاها في اتجاه باب منزلها لتفتحه، ظن الحارس أنها ربما ستكافئه

لأمانته معها، لكن خابت توقعاته ولم يحصل على شيء، امتعض وجهه وعبست ملامحه،

تردد في مفاحتها في مسألة (النفحة) المادية، لكن حسم أمره بطلبها بسماحة منها، فرسم

على شفثيه ابتسامة سخيفة متسائلاً:

-مافيش حاجة كده تشجيع يا ست هانم؟

نفخت مرودة بنفاذ صبر:

-يووه، بعدين، بعدين

لوى ثغره هامسًا بسخط كبير:

-أدي أخرت المعروف!

ظلت تعايره واجمة مزعوجة من عدم تلقي ما كان يطمح فيه من أموال، وانتظر عند عتبة المنزل ليحمل حقيبتها كما أمرته، وما إن خرجت عائدة حتى أعطته بقشيشًا سخيا ليكف عن ملاحظتها يالحاحه الممل، وما إن دس المال في جيبه حتى أسرع بجمل حقيبتها بتلهف واهتمام مبالغ فيه قائلاً:

تُشكري يا هامم، يدوم الكرم يا رب

صاحت فيه بجدة:

-بطل رغي ونزل الشنطة للسواق

حاضر

قالها وهو يسرع في خطواتها منفذًا أمرها وثغره يعلوه ابتسامة رضا فقد نال مبتغاه بسماحته في الأخير.

.....

-ده اسمه كلام يا "معنصم"؟ بقى في واحد عاقل يعمل كده؟ لأ وهنا كمان!

تساءل "مصطفى" بتلك العبارة المعاتبة لأسلوب رفيقه الحاد في التعامل مع "آسيا" بعد أن انفرد به بمكتبه، لكن بدا الأخير غير نادم على ما أقدم عليه، كانت تعايره مشدودة على الأخير، ونظراته محتقنة بصورة مقلقة، ظل يتنفس بعمق ليسيطر على الحالة المستعرة بداخله، دومًا لا يجد التفسير المنطقي لتصرفاته الهمجية معها، لكنه متيقن من كونها أيقونة للاستفزاز واستثارة الأعصاب، فمعرفته المسبقة بتاريخها غير

مشرف يدفعه دفعًا لمعاملتها بتلك الطريقة الدونية المهينة، دس يديه في جيبي بنطاله وأخذ يجوب الغرفة جيئة وذهابًا محتفظًا بما يفكر فيه بداخل عقله، صاح فيه صديقه بنفاذ صبر:

-رد عليا يا "معتصم"، هو أنا بأكلم نفسي؟

التفت رفيقه نحوه قائلاً بعبوس:

-خلاص يا "مصطفى"، أنا اتخنقت، كفاية كلام عنها!

واصل رفيقه توبيخه له مرددًا بنفس النبرة الجادة:

علشانك غلطان

رد "معتصم" بعصبية ملحوظة وقد تعقدت ملامحه:

-لأ، بس هي بني آدمة مستفزة، تفور الدم، إنت مش عارف حاجة

توجه ناحيته ليقف قبالته ثم رد بعتاب:

-ومش عاوز أعرف، بس دي مريضة، جاية في محاولة انتحار، وشوفتك وانت بتحاول

تعتدي عليها، عاوزني أفهم إيه؟

لم يتحمل "معتصم" أن يتم اتهامه بشيء لم يفعله، قهدر بصوت غاضب:

-كداية، ده محصلش، أنا كنت بأفهام معاها

لوى "مصطفى" ثغره متسائلًا بتهم:

بجد! ده بقى أسلوب جديد للتفاهم!؟

رد مبررًا تصرفه معها بخشونة:

هي ما ينفعش معاها إلا كده، وبعدين لو سبتها تعمل ما بدالها هتضيعنا كلنا، بما فيهم
أمي

أشار بكف يده قائلاً بوجه ممتعض:

ماشى، إنت عندك مبرراتك، بس هي طالما جت عندي المستشفى بقت مريضة
وليها حق العلاج

زفر "معتصم" هاتقاً بتأفف وهو يشيح بوجهه:

- "مصطفى"، فكك من جو المثاليات ده، محدش عايش في العالم الأفلطوني بتاعك
تحولت نبرته للقتامة وهو يكمل:

اللي زياها جاي من مستنقع قذارة، متعودة على الطريقة دي، دي متعرفش معنى
الاحترام والأخلاق

ورغم استنكار "مصطفى" لوصفها بتلك الصفات إلا أنه رد مدافعاً عنها:

وإن يكن، هي مريضة وليها حق عليا

بدا "معتصم" مزعوجاً من دفاعه عنها، لكن ظل رفيقه على موقفه نحوها، ثم أضاف
بهدهوء ليمتص حدة الأجواء:

-عمومًا مش هاتكلم معاك في الموضوع ده لأن واضح إن التفاهم هايكون صعب أوي،
بس أتمنى إنك تهدي وتفكر بالعقل شوية وخصوصًا معها

رد باقتضاب:

إن شاء الله

أشار له بيده متابعا:

طب يالا بينا، أنا هاوصلك

اعترض عليه بوجوم:

معايا العربية

ابتسم له "مصطفى" هاتفًا بمزاح وهو يريت على كتفه:

طيب هننزل سوا، ما هو أنا بصراحة ماضمنكش

تصنع "معتصم" الابتسام وهو يسير إلى جواره بخطواتٍ شبه متهادية، فقد خبت

ثورته نوعًا ما، لكن تضاعفت كراهيته لـ "آسيا" وزادت عدائيته نحوها، وما إن تأكد

"مصطفى" من وجوده بسيارته حتى استطرد قائلاً:

اسبقني إنت، أنا هاطلع أبص على حاجة

مش كنت خلصت

أيوه، بس بصراحة مقلق من موضوع "آسيا"، جايز تعملنا شوشرة وأنا عاوز أكلمها

نلم الدور و....

تبدلت تعابيره للتجهم ونظراته للإيظلام، قاطعه صائحًا بعبوس:

-كمان هتسترجاها؟

توجس خيفة من قلب مزاجه، فرد بحذر:

-لا، بس ماتنساش إنها ممكن تتهمك بجاجة و...

هدر بعصبية وغير مكترث بما يمكن أن تفعله:

أعلى ما في خيلها تركبه، تجدعن بس وتوريني هاتعمل إيه!

زفر "مصطفى" باستياء من ردة فعل رفيقه فقد كان الأخير متحجر التفكير فيما يخصها
رافضاً الإنصات لصوت العقل، تتم مع نفسه هامساً:

-ربنا يستر من اللي جاي!

.....

نفضت شعرها المعقود بخصلة منه للخلف وهي تتبع خطوات العامل نحو غرفتها التي
قامت بحجزها في أحد أشهر الفنادق، لم تكن "آسيا" قادرة على القيادة لذا تركت
سيارتها عند البناية وأكملت مشوارها مع سائق سيارة الأجرة الذي بدا متحمساً بعد
أن تقلى منها أجرة مضاعفة نظير انتظاره لها، كذلك أعدت بعض النقود لتمنحها للعامل
فور أن يضع حقيبتها بداخلها، استدار الأخير نحوها قائلاً بروتينية رسمية وهو يتسهم
بتكليف:

-إقامة سعيدة يا فندم

ردت "آسيا" متصنعة الابتسام:

-ميرسي

ثم مدت يدها بالنقود ليلتقطها منها، تابع قائلاً بعد وضع ما منحته إياه في جيبه:
-حضرتك لو احتاجتي أي حاجة دوسي زيرو في التليفون والريسبشن هيرد عليكي
و...

قاطعته يارهاق:

-أنا عارفة، شكراً

رد محافظاً على ابتسامته الباردة:

تحت أمرك يا هامم، شرفتنا

راقبته وهو ينصرف مغلقاً الباب خلفه لتلقي بثقل جسدها على الفراش، كانت عضلاتها تن من الأوجاع، وجسدها لم يكن بحالة جيدة بعد تجربة الانتحار، أما عن نفسها فقد بلغت الحضيض، كانت بحاجة لمن تشكو له همومها، بمن يشعر بما يختلج صدرها من الآم وأثقال أتعبتها حتى انهارت في لحظة ضعف ربما ستكرر إن تعرضت لنفس الضغوط من جديد، لكنها لم تجد من يحتويها، من يضمها إلى صدره ليطمئنها ويقول لها - ولو حتى كذباً - أن الأمور ستكون بخير، أدركت أنها وحيدة بالفعل رغم وجود أباؤها على قيد الحياة، شعرت بالخواء والفراغ، فقدت رغبتها في الحياة، اكتفت بالاستلقاء والتمدد على الفراش لتنسى كل ما مرت به خلال ذلك اليوم الطويل، خاصة وجه خصمها الذي انتزع ما افتقدته بالكامل منذ نعومة أظفارها ليحظى هو به؛ "معتصم".

.....

لم تم ليلتها وابنتها الوحيدة راقدة بالمشفى لا تعرف حالتها بعد، توسلها زوجها أن تمنح جسدها حقه في الراحة لكنها رفضت الاستماع له وأصرت على البقاء مستيقظة ريثما يبرز فجر، جلس "وحيد" إلى جوارها على الأريكة قائلاً ببراءة:

يا "نادية" ما ينعش كده، نامي بس ساعتين، خلاص الفجر إدن والنهار شقشق والزياره مش قبل الظهر

ردت محتجة بإصرار:

مش عاوزة يا "وحيد"، من فضلك سيني على راحتي!

سألها بضيق:

-يعني عاوزة تقعي من طولك؟

أجابته بقلب أم متلهف:

لأ، أنا عاوزة أشوف بنتي!

حاوطها من كتفها قائلاً بابتسامة صغيرة:

حاضر يا "نادية"، هياحصل، بس لسه بدري

تابعت مرددة بتوجيس:

- "معتصم" كمان مجاش، أكيد في حاجة حصلت ومش عاوز يقولي!

سحب "وحيد" نفساً عميقاً لفظه ببطء قبل أن يرد:

يا ستي أنا كلمته، وهو في الطريق، ويظمنك عليها

وكان في كلماته البلمس لها، سألته باشتياق مضاعف:

بجد يا "وحيد"؟ هو قالك إن "آسيا" كويسة وفاقت

رد موضحاً:

ما إتي بنفسك سمعتي د. "مصطفى" وهو يقول كده، وزيادة تأكيد "معتصم" طلع

بص عليها وقال إنها بخير

-يعني هو شافها؟

أيوه

تهدت قائلة بامتنان:

ألف حمد وشكر ليك يا رب

وجايز كمان يقنعها تيجي تقعد معانا

ردت بنبرة متلهفة وكأنها تتمنى حدوث ذلك

يا ريت والله، ده اليوم اللي بأحلم بيه، إن بنتي تيجي تعيش معايا هنا وأعوضها عن
السنين اللي فاتت

ربت على كتفها برفق ثم طلب منها بهدوء:

هايحصل يا حبيبتى، قومي بقى ارتاحي علشان لما تشوفها

أومات برأسها تلك المرة موافقة وهي ترد:

حاضر

ساعدها "وحيد" على النهوض من على الأريكة، تأبطت في ذراعه وسار الاثنان سوياً
نحو الفراش ليتمددا عليه، امتلأ قلب "نادية" بالآمال العريضة لرؤية ابنتها باكر، وما
زاد من حماسها هو كلمات زوجها الأخيرة باحتمالية قدومها للعيش معهم، أغمضت عينيها
بارتياح طامعة في نفسها أن تحمل الساعات القادمة السعادة لـ "آسيا"

!!

.....

الفصل الثامن عشر

سار بخطوات شبه سريعة نسيبًا نحو الرواق المؤدي إلى غرفتها آملًا أن تصغي إلى توسلاته بشأن العدول عن قرار الشكوى في حق رفيقه "معتصم"، ضبط "مصطفى" من طرفي ياقة قميصه وهو يستدير نحو باب الغرفة، وقبل أن يدقه انتبه لصوت المريضة الهاتف بتلهف:

د. "مصطفى"، تعالي بسرعة

تسمر في مكانه كالصنم، لكن تحركت رأسه في اتجاه المريضة ليسألها بجدية:

في إيه؟

أجابته بلا تردد:

في حالة حرجة جت الطوارئ وما فيش حد متخصص يلحقها

تعقدت ملامحه مرددًا باستنكار شديد وهو يشير بيده:

مستشفى طويلة عريضة زي دي وما فيهاش

قاطعته مبررة بصوت أقرب للهاث:

الوقت متأخر يا دكتور، وأغلب الدكاترة سلموا ورديات والنبطشي الموجود مش

عارف يتعامل مع الحالة المستعجلة دي!

أدرك "مصطفى" خطورة الوضع، نظر في ساعة يده ليجد بالفعل أن الوقت بات

متأخرًا للغاية، ثم ألقى نظرة حائرة على باب الغرفة، كان الخيار الحاسم هو الذهاب

لنجدة المريض الذي هو بحاجة الآن، تهدد قائلاً باستسلام:

طيب، أنا جاي

ثم تتم مع نفسه وهو يتحرك خلف المريضة بخطوات راكضة:

-الظاهر ما فيش فرصة أتكلم معاكي

تذكر أيضًا انتظار رفيقه بالجراج الملحق بالمشفى، فأخرج على عجلة هاتفه من جيبيه،
عبث بأزراره ثم وضعه على أذنه ليقول بعدها:

-ألو، أيوه يا "معتصم"، معلش جتلي حالة طارئة فمش هاعرف أمشي، ارجع إنت
البيت ماتستنايش

أنهى معه المكالمة وواصل سيره نحو غرفة الطوارئ ليتعامل مع المريض الراقد هناك
غير مدرك أن "آسيا" ليست بالغرفة، بل لم تعد بالمشفى من الأساس.

.....

حملق بشرود في الطريق المطل من شرفة غرفته وهو يعاود إشعال سيجارة جديدة،
عاد "معتصم" للتدخين بشراهة مرة أخرى بعد أن ألق عن تلك العادة السيئة، لكنه
كان بحاجة للتنفيس عما يعتمر صدره من مشاعر مشتتة، أراد إحراق شيء ما، أن
يفرغ غضبه المكثوم بداخله، مل من القيادة بلا وجهة محددة لساعات للهروب من
أسئلة "نادية" عن ابنتها الجاحدة، تلك الفتاة التي شغلت تفكيره بالكامل واستحوذت
على عقله بعكس أي فتاة أخرى عرفها، بدت "آسيا" كالخدر الذي ما إن يدمنه
الشخص، يصعب عليه التعافي منه بسهولة، رجع إلى المنزل بعد أن قضى وقتًا طويلًا
بالخارج، تسلل بجذر نحو غرفته وظل باقيا بها حتى بزغ الفجر.

كان "معتصم" لا يزال واقفًا بالشرفة يراقب الطرقات الخاوية، ورغم الإرهاق المسيطر
عليه إلا أنه لم يرغب بالنوم، وكيف يغفو وعقله يفكر بها، ولج إلى داخل الحمام ليغتسل
وينعش جسده المتعب بالمياه الباردة، وقف أسفل الدش لفترة طويلة تاركًا للماء مهمة
إزاحة كل شيء عن جسده، وما إن انتهى حتى لف خصره بالمنشفة وقرر أن يرتدي
زيًا مريحًا غير تلك الحلات الرسمية التي اعتاد ارتداؤها في العمل، خرج إلى الصالة

فوجد الخادمة تؤدي عملها المعتاد في تنظيف محتوياته، جلس على الأريكة قائلاً بنبرة متغيرة تحمل التعب:

-عملي فنجان قهوة

تعجبت الخادمة من رؤيته في تلك الساعة المبكرة من النهار، لكنها رسمت ابتسامة لطيفة على ثغرها وهي تقول:

حاضر يا "معتصم" بيه، تحب أعمل لحضرتك فطار كمان؟

رد باقتضاب:

-لا، قهوة بس

-تمام

تابعها بنظراته الحادة وهي تسير في اتجاه المطبخ حتى اختفت من أمامه، نهض من مكانه متجهاً إلى تلك اللوحة الفوتوغرافية التي تتوسط الجدار، تأملها مطولاً متذكراً اللقاء الأول الذي جمعه معها وانتهى بعد لحظات بالطرد من المنزل، شبك كفي يده معاً خلف ظهره متمتماً مع نفسه بكلمة واحدة احتوت على الكثير:

- "آسيا"

- "معتصم"

التفت برأسه للخلف على إثر صوت "نادية" الحزين، تصلبت عروقه وهو يفكر سريعاً في طريقه تمكنه من المماطلة معها إن سألته عن أحوال ابنتها، لكن على عكس ما توقع وجدها تقول:

-كويس إنك صاحي، أنا جاهزة علشان نروح المستشفى سوا

حاول أن يخفي شعوره بالضيق من تلك الزيارة الكريمة على قلبه، تصنع الابتسام
قائلاً باختصار:

-كويس

سألته بتلهف مشتاق:

-تفتكر هاتكون فاقت؟

أجابها بحذرٍ وهو يدنو منها:

أُكيد، د. "مصطفى" معاها ومتابع حالتها من بالليل

تعلقت أنظارها المتحمسة بأعين ابنها، ثم تابعت حديثها برجاء:

عاوزاك يا "معتصم" تكون هادي معاها، هي ماتستهلش نقسى عليها

رد عليها "وحيد" وهو يقترب من الخلف:

-اطمني يا "نادية"، ابنك عاقل وبيقدر المواقف اللي زي دي كويس

كانت نبرته تحمل تلميحا جديا لابنه، ولم يكن الأخير بحاجة لتفسير كلمات والده المحذرة،

اكتفى بالإيماء برأسه كتعبير عن ذلك، ثم تحرك معها نحو باب المنزل، اعترضت الخادمة

طريقهم مرددة باستغراب:

- "معتصم" بيه القهوة بتاعة حضرتك!

أشار بيده قائلاً:

-معلش، وقت ثاني

ردت عليه بابتسامة رقيقة:

-اللي تشوفوه يا فندم!

هتف "وحيد" بهدوء وقد كان الأسبق في الإمساك بمقبض الباب ليفتحه:

-يا بينا يا جماعة!

ثم خرج أولاً من المنزل وتبعته زوجته ليلحق بها "معتصم" وهو يدعو الله في نفسه أن يكون منضبطاً في انفعالاته، ومتحكماً في أعصابه حينما تحدث المواجهة من جديد.

.....

أثر "معتصم" أن يستقل ثلاثتهم سيارة واحدة ويتبعهم السائق بالسيارة الأخرى طالما أن وجهتهم واحدة، لم يعترض "وحيد" وزوجته فالمهم أن يصلوا إلى المشفى في أقرب وقت، بعد برهة اصطفت السيارتان أمام مدخل المشفى، ترجلت "نادية" منها واتجهت بخطوات متحمسة نحو الاستقبال الداخلي، لحق بها زوجها بينما تباطأ "معتصم" في خطاه، بدت الموظفة الواقعة خلف الطاولة الرخامية صارمة للغاية وهي تقول:

-أسفة يا فندم، ماينفش دلوقتي، لسه وقت الزيارة مجاش

ردت "نادية" باحتجاج وقد بدأت العصبية تعرف طريقها إليها:

-يعني إيه الكلام ده؟ أنا عاوزة أشوف بنتي، إنتو من امبارح مانعيني عنها

ثم التفتت برأسها نحو زوجها لتكمل صياحها المعترض:

-اتصرف يا "وحيد"، شوفك حل في الموضوع ده

سحب الأخير نفساً عميقاً لفظه بتريث قبل أن يستطرد حديثه مردداً:

-يا أستاذة مايفيش ماينع إننا نطمن على "آسيا" بنتنا، يعني مش أزمة هي

لاحظ "معتصم" وجود حالة من التوتر سائدة بين والديه والموظفة، اقترب منهم

متسائلاً بجديّة:

هو في إيه؟

أجابته "نادية" بصوتها المزعوج:

مش عاوزة تخليني أشوف بنتي، أنا هاطلعلها دلوقتي

ردت الموظفة بروتينية رسمية وقد اعتادت على تلك النوعية من عصبية المرضى:

يا فندم أنا ملتزمة بمجدول مواعيد الزيارات، مقدرش أطلعكم بدون أوامر وإلا أنا اللي هتأذى

بدت "نادية" غير مقتنعة تمامًا بما قالته، وكانت على وشك الانفعال والاشتباك معها مجددًا لكن دعم "معتصم" موقف الموظفة موضحًا:

هي بتشوف شغلها يا ماما، وأي حد في مكانها هيعمل كده

صاحت فيه بنفاذ صبر:

خلاص اتصرف وخليني أشوف "آسيا"، إنت مش صاحبك دكتور هنا

امتعض وجهه قائلاً:

طيب، ثواني هاكلم "مصطفى"

ثم تنحى للجانب ليتمكن من مهاتفة صديقه، وما إن أجاب عليه حتى سأله بجمود:

أيوه يا "مصطفى"، إنت فين؟

صمت لثانية ليتابع بعدها:

عاوزينك تحللنا المشكلة دي

بدأ بعدها في توضيح ما حدث باقتضاب مختصر ليضيف بعد ذلك وهو يوجه هاتفه

نحو الموظفة:

-اتفضلي، كلمي الدكتور "مصطفى"

تناولت الممرضة الهاتف منه ووضعتة على أذنها ثم استمعت إلى تعريف مصطفى بنفسه لتتأكد من صحة هويته، أومأت برأسها عدة مرات قائلة بابتسامة باردة:

-تمام يا دكتور، حاضر

أنهت المكالمة وهي تمد يدها لـ "معتصم" الذي استعاد منها هاتفه، ثم قالت بعدها:

-اتفضلوا، تقدروا تطلعوا فوق تشوفوا المريضة بس يا ريت مايكونش في إزعاج ليها!

رد عليها "معتصم" ببسمة سخيفة:

إن شاء الله

تهللت أسارير "نادية" على الأخير، وشعرت بالحيوية والنشاط تجتاح خلاياها، فعدة خطوات تفصلها فقط عن رؤية ابنتها بعد السماح لها بتلك الزيارة الاستثنائية في الفترة الصباحية للمريضة، أسرع في خطواتها متجهة نحو الطابق المنشود، استدارت برأسها نحو "معتصم" تسأله:

دي أوضتها

رد بجذر وقد شرد يتذكر ما فعله بالأمس:

أيوه

تلاحقت دقات قلبها من فرط التوتر المتحمس، أمسكت بالمقبض وأدارته متوقعة أن تجد ابنتها الوحيدة نائمة على الفراش، كانت حذرة للغاية كي لا يتسبب صرير الباب في إيقاظها، ولكن كانت المفاجأة التي تنتظرها هناك هي خلو الغرفة منها، للحظة توقفت عن التنفس لتستوعب ما يدور، شل تفكيرها، وتجمدت حواسها من الصدمة، اهتزت نبرتها وهي تتساءل بحيرة:

- "آسيا" فين؟

أصيب "معتصم" هو الآخر بالذهول، فقد كان يتوقع وجودها بالداخل، اتجه مسرعًا نحو الحمام الملحق بالغرفة ليتفقدده، لكنها لم تكن به، تسمر في مكانه ليفكر مليًا في السر وراء اختفائها، تساءلت "نادية" من جديد بنبرة مرعوبة وقد لمعت أعينها بعبراتها:

-بنتي راحت فين؟

شحب وجهها وزاغت أبصارها مع إكمال تساؤلاتها:

هي .. هي مش المفروض تكون هنا؟!!

خشيت من مجرد الاعتقاد في فكرة فقدانها مجددًا، ارتجف جسدها كليًا وعجزت عن الوقوف باتزان وقد أنبتها حدسها بما تشك فيه مع ذلك الصمت المخيف، تزايدت مخاوفها وأحست بصدق ما يمليه عليها قلبها، ابنتها لم تعد هنا، وقف "وحيد" خلفها ليسندها قبل أن تفقد توازنها وتتهار، تشبث جيدًا بها ثم ساعدها على السير ببطء نحو المقعد الموجود بالغرفة وأجلسها عليه، جثا على ركبتيه أمامها، ثم مد يده ليحتضن كفها المرتعش بين راحتيه وبدأ في فركه ليث له الدفء، نظر في عينيها يرجوها:

- "نادية" حبيبتي اهدي شوية، أكيد بتعمل تحاليل أو أشعة، ما إتي عارفة هي في مستشفى والحاجات دي مهمة

أدار "وحيد" رأسه في اتجاه ابنه يسأله:

-كلامي مضبوط يا "معتصم" ولا لأ؟

لم يعلق عليه الأخير بكل كان الصمت مسيطرًا عليه، وإن جاز التعبير يمكن القول بأنه كان يفكر في تبعات هجومه على "آسيا" بالأمس، هل بالفعل حدث ما قاله رفيقه بأنها ستقدم بالشكوى ضده متهمه إياه بالاعتداء عليها؟ بدا حائرًا للغاية أمام نظرات والده الحادة، انتزعه من شروده سؤاله الموحى :

-سمعتني يا "معتصم"، مش هي جاز بتعمل تحاليل أو أشعة؟

رد عليه بارتباك طفيف حاول إخفائه:

-أيوه يا بابا

نظرت لها "نادية" بعتاب ولوم، لم تستطع النطق، لكن تعبيراتها كانت كفيلة بتوضيح ذلك، هتف "معتصم" بجدية وهو يتحاشى النظر نحوها:

-أنا هاروح أشوفها

ابتسم له "وحيد" بامتنان لكونه ييندل ما في وسعه لإسعاد وتلبية أوامر من عوضته عن حنان الأم، لم يعتبرها مطلقاً زوجة أبيه، بل إنها كوالدته التي أنجبتته، وذلك ما حملة مسئولية كبيرة، ومشاعراً عظيمة، أوماً "معتصم" برأسه متصنعاً الالبتسام قبل أن يخطو بتعجل نحو الخارج آملاً أن تكون حجة إجراء "آسيا" للأشعة قد انطلت على والدتها التي ربما ستتهار حقاً إن عرفت الحقيقة.

.....

لم تتحمل صدمة غياب ابنتها، وتخلى عنها قلبها وعنفها بقسوة لتركها إياها هكذا في أشد لحظاتها احتياجاً لها، انهارت "نادية" فور أن علمت باختفاء "آسيا" وصعوبة إيجادها بأي مكان بالمشفى، صدق حدسها وفقدت بالفعل ابنتها للمرة الأخيرة، تم وضعها تحت الملاحظة الشديدة بالعناية الفائقة لمراقبة نشاط أجهزتها العضوية التي بدأت في التداعي وكأنها بذلك تعلن ضمناً عن رفضها للحياة بدون وجودها، وقف "معتصم" بالخارج يضرب كفه بالحائط وهو يردد بغضب:

ليه عملي كده! ليه!؟!

انزعج "وحيد" من صياحه اللافت للأنظار، خاصة أن الأطباء والمرضين الموجودين بالرواق ينظرون له بغرابة، اقترب منه هاتقاً بصوتٍ شبه صارم:

-بشويش يا "معتصم"، لاحظ إن احنا في مستشفى!

التفت ناحيته قائلاً بحنق وهو يركز على أسنانه:

هاتجنن يا بابا، هي قاصدة تموتها بعمايلها

استاء "وحيد" من تلميحتها الصريح بكون زوجته على وشك خسارة حياتها، نفخ قائلاً بضيق كبير:

-استغفر الله العظيم يا رب، أنا مش عارف أقول إيه

رد عليه "معتصم" بصوته الغاضب:

يا بابا أنا الوحيد اللي فاهم "آسيا" دي كويس وعارف هي ناوية على إيه، مش هترتاح إلا لما تدفنها

هدر به "وحيد" بانفعال:

-كفاية بقي

توقف مضطراً عن قول المزيد بعد عبارته الحادة، ابتعد عنه والده متخذاً أحد المقاعد الشاغرة ليجلس عليه، فابنه لا يقدم له شيئاً سوى القسوة على فتاة عانت الأمرين بغياب أمها وجمود والدها، هو لن يدع لنفسه الفرصة ليفهم طبيعة تصرفاتها أو حتى يبرر لها مواقفها العدائية، نظر له بإشفاق، ثم أشاح بوجهه بعيداً عنه ليوجه أنظاره نحو باب غرفة العناية، تنهد مع نفسها راجياً:

-ربنا يشفيكي يا "نادية"، أنا مش هاستحمل أخسرك بعد العمر ده كله!

تحرك "معتصم" نحو الزاوية حيث توجد نافذة مفتوحة، كان بحاجة لاستنشاق بعض الهواء غير ذلك الخناق الموجود بالمشفى، انتفض في وقفته المنزوية على إثر ملمس اليد

على كتفه، استدار برأسه وهو يعتدل في وقفته ليجد "مصطفى" واقفاً بجواره، سأله الأخير بجدية:

-إيه أخبار طنط "نادية"؟

رد عليه "معتصم" بعصبية وهو يكاد يمسك به من ياقته:

-إنت اللي قولي "آسيا" راحت فين بعد ما اتكلمت معاها امبارح؟

اندهش رفيقه من ردة فعله المتجاوزة معه، انتزع يده بجزر وهو يرد:

-أنا أصلاً ما قبلتهاش من بعد ما بعدتكم عن بعض

-يعني ماشوفتهاش

-لأ، جاتلي حالة طارئة وانشغلت بيها

-أومال راحت فيه

راقب "وحيد" المشادة الكلامية بينهما واستشعرت وجود خطب ما، نهض بجزر من

مكانه واقترب منها مصغياً بتركيز لحديثها، تساءل بجدية وقد تعقدت تعابيره:

-هو إيه اللي حصل بالضبط؟ أنا مش فاهم حاجة!!!

أجابه "مصطفى" بلا تردد كي لا يسيء فهمه:

-يا عمو "وحيد" أنا لاقيت "معتصم" بيتهجم على "آسيا" امبارح

ارتفع حاجباه للأعلى في استنكار شديد مردداً بصدمة:

-إيه؟

قست نظرات "معتصم" نحو رفيقه، لم يكن راغباً في أن تفسر الأمور من منظور

محدود، رد مدافعاً عن نفسه بقوة:

-معملتش فيها حاجة، أنا كنت بأكلم معاها

لكزه "وحيد" في كتفه قائلاً بجدة:

-بصلي يا "معتصم"

نظر ابنه نحوه فواصل توبيخه له:

-إنت عاوزها تستنى في المستشفى بعد اللي عملته؟

زفر "معتصم" بصوت مسموع لعدة مرات قبل أن يصيح عالياً بإنكار كبير:

-يا بابا أنا مجتئش جمبها، "مصطفى" فهم الموضوع غلط، ماتقوله يا ابني ولا خلاص
لبستني في الحيط

رد عليه "وحيد" بلهجة شديدة:

-صح ولا غلط أهى في النهاية مشيت من غير ما نعرف، والله أعلم راحت فين دلوقتي

لوى ابنه ثغره مردداً بتهمكم:

-هايكون فين غير بيتها، وده أنا عارف عنوانه!

لوح أباه بيده في الهواء يأمره بصرامة:

حطب اتفضل وديني عندها، ومش هاتصرف لوحدك، أنا هاكون معاك المرادي!

لم يجد بداً من الاعتراض عليه، وامتمثل مرغماً لأوامره ليتجه كلاهما بعدها إلى منزل
"آسيا".

.....

فشل مسعى "معتصم" في الوصول إلى "آسيا" سواء في منزلها أو في الأماكن المتوقع
تواجدها به، كان مضطراً مع أبيه لإخفاء تلك الأنباء السيئة عن "نادية"، لكن يبدو

أن حدسها الأنثوي كان الأسبق في إعلامها بذلك فلازمت الرقود لعدة أيام في العناية الفائقة رافضة الاستجابة للعلاج، ما أصابه بالخيرة حقًا هو اختفائها المريب، فوفقًا لعادتها لم تكن لتترك ثأرها هكذا ببساطة، ومع ذلك بدت كما لو أن وجودها كان أمرًا مجازيًا، أصيب بالإحباط والغضب، وما ضاعف من إحساسه بالعذاب هو رؤيته لـ "نادية" تنازع للبقاء على قيد الحياة.

في تلك الأثناء حظيت "آسيا" بما أسمته بفترة استجمام كاملة ابتعدت فيها ذهنيًا ونفسيًا عن كل المشكلات المحيطة بها، أرغمت نفسها على الانفصال عما يمكن أن يؤلمها، حتى انتقامها المزعوم من والدتها تناسبه، كانت بحاجة لتلك الفسحة الإجبارية لتعيد توازن الأمور في حياتها، قضت أغلب وقتها بالفندق في المركز الصحي والرياضي وفي الحصول على تدليك مريح لجسدها، بدت الأجواء بالنسبة لها رائقة لا يعكر صفوها أي شيء لولا فقط أن لمحها من لم يخطر على بالها مصادفة، توقف "سامر" لثانية عن نفث دخان سيجاره الفاخر ليعلق أنظاره بجمالها الذي خطف لبه، التوى ثغره بابتسامة مأكرة، ورفع حاجبه للأعلى مبدئيًا إعجاب به بالصدق التي جمعتة معها، كان الأخير جالسًا مع عدد من ممثلي بعض الشركات في الياهو الرئيسي بالفندق، أدار رأسه تلقائيًا للجانب فرأها تمشي الهويناء بدلال جلي لا يليق إلا بها، أسرت عينيه سريعًا وحركت حواسه معها ففقد تركيزه مع المحيطين به، ظلت أعينه مشدودة لها حتى ولجت لداخل المصعد، لكن جذب انتباهه من جديد صوت أحدهم:

- "سامر" بيه، إيه رأي حضرتك؟

اعتدل في جلسته ثم تنحنح قائلاً بجديّة وهو ينظر نحوه:

-تمام، جهزوا العقود وهاعرضها على المحامي نتفق سوا

حاول قدر المستطاع أن ينهي الاجتماع ليتعامل مع ظهور "آسيا"، صاحف ضيوفه على عجلة ثم اتجه نحو استقبال الفندق، وهناك تبادل حوارًا وديًا مع الموظف المسئول الذي

لم يدخر وسعه في منحه ما يريد من معلومات أكدت له إقامتها به، خاصة أنه يعد أحد الشركاء المساهمين في تشييد ذلك الصرح الفخم، التوى ثغر "سامر" ببسمة شيطانية وقد حصل منه بسهولة على مبتغاه، أشعل سيجارة فاخرة من جديد ناخفاً باستمتاع دخانها في الهواء، بدأ في رسم الخطوط العريضة لمكيدة مأكرة ستوقعها في كارثة كبيرة، انتصب في وقفته محدثاً نفسه بعبت:

-كده اللعب الثقيل بدأ يا "آسيا"، ماهو صعب واحدة تقولي لأ !!

.....

الفصل التاسع عشر

أدارت المقبض ببطء وهي تمد قدمها داخل المغطس ليبدأ الماء الدافئ في الانهيار على جسدها وإغراقه، أغمضت "آسيا" عينيها تاركة لضغط المياه المهمة في إزاحة كل ما يؤلمها، ربما أفادتها تلك العطلة في إبعادها عن الأزمات لكنها أثبتت لها أمرًا هامًا، أنها بالفعل وحيدة، لا رفاق لها أو أصدقاء مقربون يشغلونها بهمومهم ويستحوذون على وقت فراغها، شعرت بمرارة الوحدة من جديد، ذلك الشعور الذي تبغضه كثيرًا ويوقظ فيها ذكريات لا تحب التفكير فيها مطلقًا، توقفت عن الاعتسال حينما سمعت الدقات الخافتة على باب غرفتها الفندقية، أسرعت بارتداء روبها القطني وتأكدت من إحكام رباطه حول خصرها، ولفت شعرها المبتل بمنشفة أخرى بجرعة ماهرة لتبدو كالتاج أعلى رأسها، اتجهت نحو الباب لتفتحه فتفاجأت بوجود أحد عمال الفندق بالخارج، نظرت له مطولاً وهي تسأله باستغراب:

-أيوه في حاجة؟

رد العامل بهدوء وهو مخفض لعينه ومطرق رأسه للأسفل:

-باعتذر يا هامم عن إزعاجك

مطت فمها متسائلة:

خير

أجابها بتمهل وهو يتحاشى النظر نحوها:

-في مشكلة يا فندم عند حضرتك في السباكة والصيانة هايجوا يضبطوها في الأوضة

قطبت "آسيا" جبينها متعجبة مما يقول، فهي لم تلاحظ وجود أي شيء غير مألوف بالحمام أثناء استحمامها، كتفت ساعديها أمام صدرها ثم قالت معترضة:

-لأ مافيش، أنا لسه واخدة دش ومافيش أي حاجة من دي خالص

توترت تعابيره قليلاً فهو قد كُلف بمهمة محددة من قبل الإدارة ولن يقبلوا بفشله في أدائها، تنحني قائلاً بارتباك طفيف:

أصل المشكلة مع الغرفة المجاورة لحضرتك

سألته بنفاذ صبر:

-والمطلوب إيه؟

استشعر قرب إقناعه لها فاستأنف حديثه موضحاً:

إدارة الفندق هتنتقل حضرتك غرفة ثانية بنفس المستوى علشان حضرتك تكوني مرتاحة، كمان كنوع من الاعتذار عن إزعاج سيادتك هايكون ده مع يومين Full Board (مصحوب بالوجبات) for free، ده غير ال spa كنوع من الاعتذار لحضرتك

صممت "آسيا" تفكر في العرض المغربي الغريب، لكنها لم تشك مطلقاً أن ورائه خطب ما، رسمت على ثغرها ابتسامة رضا وهي تقول:

أوكي، إديني ١٠ دقائق أجهز نفسي

تنفس العامل الصعداء لحصوله على موافقتها، رد بامتنان كبير ظهر في نبرته:

خدي راحتك يا فندم، وهابعت لحضرتك واحدة من ال room service تساعد سيادتك في تجهيز الشنط

أومات برأسها موافقة وهي ترد:

أوكي

ثم أغلقت الباب بعد ذلك لتسير بتؤدة وهي تفرك شعرها بعد أن انتزعت المنشفة عنه قائلة لنفسها:

غريبة أوي الحكاية دي

لم ترتاب للأمر أبدًا بل على العكس كانت تبحث عن أشياءها الملقاة بإهمال لتضعها على الفراش لتبدأ في إعداد حقيبتها للانتقال للغرفة الأخرى.

.....

-زي ما تكون فص ملح ودابت، أنا مش عارف أعمل إيه!

قالها "معتصم" وهو يضرب بكفه طاولة مكتبه بعصبية واضحة، ركز "نبيل" أنظاره عليه مراقبًا حاله الذي تبدل كثيرًا في الفترة الأخيرة من الرزانة والهدوء للانفعال والغضب، اعتدل في جلسته ليقول له بنبرة عقلانية:

-ما تشغلش بالك بيها، هي يومين وهتظهر!

رد عليه بتهكم وقد زاد عبوس وجهه:

-ده لما تجيب أجل ماما!

زفر "نبيل" معترضًا على تشاؤمه:

-بعد الشر يا سيدي، ده الأعمار بيد الله

حدق "معتصم" أمامه بنظرات شديدة الغموض محدثًا نفسه بنبرة متوعدة:

-بس لو أعرف أطولك

انزعج "نبيل" من كم التهديدات والوعيد الذي يحمله نحو "آسيا" دون مبرر قوي، استطرد قائلاً بجديّة:

- "معتصم"، مش ملاحظ إنك متعصب زيادة عن اللزوم؟

رد عليه الأخير بسخط:

هو حد يعرف بني آدمة بالشكل ده ويكون هادي
أشار له ابن عمه متابعا بنفس اللهجة الجادة المحذرة:

محدث طلب منك تعرفها، اللي فهمته منك إن طنط "نادية" مامتها وعاوزه تكون
جمب بنتها، إنت دخلك إيه في الموضوع ده؟ سيدهم يتصرفوا مع بعض
وكأن في عباراته خنجرا حادا يوخز به صدره، صاح هادرا وقد هب واقفا من مكانه:
علشانها

شعر أن الكلمات تجمدت على طرف لسانه، وجد صعوبة في تفسير تصرفاته الحادة
معها، انتظر "نبيل" منه أن يعطيه المبرر المنطقي المقنع لكل ما يقوم به، شبك كفيه
معا قائلًا:

أيوه، علشانها إيه بالظبط؟

ارتبك إلى حد ما وهو يجيبه:

-يعني ماما وصتني بالموضوع ده

مط ابن عمه فمه للأمام وهو يحرك رأسه قليلا، كان واضحًا عليه عدم الاقتناع بكلمة
واحدة مما تلفظ بها، تنفس بعمق ليرد عليه بعدها:

-مممم.. قولتلي بقى

أضاف "معتصم" قائلًا بانفعال:

إنت مش شايف فضايحها اللي على النت، والله أعلم المستخبي إيه

ثم تحرك بعدها مبتعدًا عنه لينزوي عند النافذة، تابعه "نبيل" بأعينه محدثًا نفسه
بصوت خفيض:

-واضح كده إن الفترة الجاية الشغل كله هايكون عليا

.....

انتهت من ارتداء ثوب صيفي قصير أزرق اللون أظهر لون بشرتها الناصع وعكس سواد خصلات شعرها، كما زاد من لمعان حدقتها الفيروزييتين، تطلعت "آسيا" إلى هيئتها بشيء من القناعة، لم تبدو مبتذلة تلك المرة في ارتداء أثوابها المغربية، أرادت أن تكون على طبيعتها، غير متكلفة أو مبهرجة فبدت أكثر إشراقاً ونضارة، سارت بخيلاء خلف عامل الفندق الذي اختلس النظرات متأملاً سحرها المغربي ومتخيلاً في عقله أن يظفر بواحدة مثلها في المستقبل، مرر المفتاح الإلكتروني على الجهاز الخاص به لينفتح باب الغرفة، ثم تنحى للجانب مشيراً بيده لضيافته المميزة بالدخول، وطأت "آسيا" بقدميها الجناح الملكي الذي تخطى ما كانت تتوقعه بمراحل، فغرت شفيتها مدهوشة من مدى فخامة المكان، ظنت أن هناك خطأ ما بالأمر، لذا التفتت نحو العامل تسأله:

-إنت متأكد إن دي الأوضة؟

رسم الأخير ابتسامة متكلفة على ثغره وهو يرد:

-أيوه يا فندم

ثم مد يده به نحوها متابعا:

-تفضلي سيادتك المفتاح!

تجولت "آسيا" في الغرفة متأملة ما بها من أثاث فاخر ومريح، رأت انعكاساً قوياً لجسدها على الأرضية البراقة، همست لنفسها بعدم تصديق:

دي شكلها أغلى من اللي كنت فيها

استغرقت عدة لحظات تتفحص فيها المكان، بدت متوترة نوعًا ما من غرابة الوضع، فالغرفة التي قامت بحجزها لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تصل تكلفة الإقامة بها إلى جناح بذلك الشكل البهي، فسعر الليلة هنا سيكون أضعافًا مضاعفة، ومساءلة تبادل الغرف لوجود مشكلة ما لا تستدعي كل ذلك، بدأت "آسيا" ترتاب في الأمر، وقف العامل خلفها يسألها بفضول بعد أن استشعر ترددتها:

-في حاجة مش عاجبة حضرتك؟

استدارت نحوه ببطء قائلة بتنهيده مطولة:

-لا، كله تمام هنا، بس يعني الموضوع أوفر شوية؟

استمر العامل في الحفاظ على ابتسامته السخيفة وهو يجيبها:

يا فندم دي سياسة الفندق، لو حصل غلط أو مشكلة لازم نعوض الـ guest ونحسسه يانه أهم شخص عندنا

حاول على قدر المستطاع تبرير سبب انتقالها لذلك الجناح، عبث "آسيا" بمخصلات شعرها كتعبير عن شعورها بالملل من ثرثرته الزائدة، فركت عنقها برفق ومن ثم ردت باقتضاب:

-او كي فهمت

ناولته بقشيشًا سخيًا كما اعتادت أن تفعل مع كل من يعاونها في شيء، ثم اتجهت بأنظارها نحو الأريكة، أرادت الجلوس فسارت نحوها لتتخذ موضعها بها واضعة ساقها فوق الأخرى، أخفض العامل نظراته عنها قبل أن يضيف بمهنية احترافية:

-وكلنا هنا تحت أمرك يا فندم في أي حاجة، ٥ دقائق والشنط هاتكون هنا عند حضرتك!

أومات برأسها قائلة:

أوكي

ضجرت "آسيا" من وجوده في الجناح، فليست بحاجة لمرشد ليدها على ما تفعله، ورغم تعبيراتها الموحية بفتورها وانزعاجه إلا أنه أصر على إطالة مدة بقاءه، اقترب من باب جانبي مكلاً حديثه:

الحمام يا فندم مزود بجاكوزي لو حضرتك حابة تستخدميه

ابتسمت قائلة بسخرية:

جاكوزي! واضح إن الخدمة هنا للـ VIP

طبعا يا فندم

رسمت تعابير جامدة على وجهها وهي تقول بضيق:

لو خلصت ممكن تمشي

تخرج العامل منها قائلاً:

-باعتذر عن الإزعاج

أولها ظهره ثم اتجهت نحو باب الجناح ليغلقه خلفه بعد أن خرج، زفرت "آسيا" بصوت مسموع مرددة لنفسها بتأفف:

أخيراً، ده إنت رغاي بشكل!

أغمضت عينيها لثوانٍ لتستمع بالهدوء في المكان وهي جالسة باسترخاء على الأريكة، لحظات ونهضت من مكانها لتتجول بالجناح بتأنٍ، لكن كانت المفاجأة الصادمة لها والتي لم تأتِ على بالها مطلقاً هو خروج "سامر" من الحمام ملتقاً بمنشفة قطنية تغطي الجزء السفلي من جسده، ارتسمت علامات الاندهاش المصدوم على وجهها، حدقت فيه

غير مصدقة أنه بالفعل هو، تحولت نظراتها للاحتقان واندفعت دماؤها الشائرة في عروقها
سريعًا لتحول لون بشرتها للحمرة الملتهبة، صرخت فيه بشراسة:

إنت؟ بتعمل إيه هنا؟

بدا مستعدًا لتلك المواجهة معها، فانتصب في وقفته ليبدو أكثر ضخامة وهو يرد بتفاخر
شيطاني:

إنتي جيتلي في ملعبي

انقبض قلبها من وجوده المريب، بدأت الخيوط إلى حد ما تتضح في رأسها، حاولت
أن تبدو قوية صلبة أمامه كي لا يشعر بذلك التوتر الذي تسرب إليها، صاحت فيه
بعصبية وهو تراجع خطوتين للخلف:

اتفضل برا بدل ما أطلبك الأمن

قهقه ضاحكًا بطريقة واثقة دبت الخوف أكثر في صدرها:

بجد؟

توقف عن الضحك ليكمل متحديًا بغموض مقلق:

مستنية إيه؟ اتفضلي، أنا كمان عاوزه يجي، خلي الحفلة تبدأ بدري!

انزوى ما بين حاجبيها بقوة وهي تردد بذهول:

حفلة!

تضاعف غروره الذكوري بداخله وامترج مع حماسه بالانتقام منها، دنا خطوتين نحوها
قائلًا بكلمات موحية ذات مغزى مخيف وقد توهمت نظراته:

أيوه، ما هو إنتي يا هانم يا محترمة منورة السويت بتاعي

كاد قلبها يقتلع من بين ضلوعها بعد أن فهمت ما يرمي إليه، لم يكن ما حدث عبثاً أو مجرد صدفة، بل مكيدة محكمة التفاصيل، لهت متسائلة بخوف متزايد:

إيه؟

فسر مقصده قائلاً بتفاخر:

-تقدري تفسري إياه وجودك هنا لأمن الفندق بدون ما يقولوا عليك إنك واحدة آ....؟

بتر كلمته الأخيرة ليثير في نفسها الرعب ثم غمز لها متابعًا بانتشاء مغتر:

ما إتي فاهمة بقي!

الآن اتضح صورة كاملة بكافة أبعادها، هو دبر لها تلك المكيدة ليوهم الجميع أنها قد جاءت إليه بمحض إرادتها من أجل إقامة علاقة غير شرعية، احتقن وجهها على الأخير واحتدت نظراتها نحوه، رمقته بنظرات نارية لا تنذر بخير صائحة فيه بصوتها المنفعل متعمدة إهائته:

إنت واحد (.....)

لم يعبا بسبها له، بل استمتع برؤيتها كالفأر الذي وقع في المصيدة ويلفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يقضى عليه، صفق بيده كتعبير عن تباهيه بنفسه قائلاً:

-لأ يا مزة، أنا أستاذ ورئيس قسم

عانتب "آسيا" نفسها بقسوة لكونها لم تكن سريعة البديهة وبالتالي انطلت عليها الخدعة جيداً، كان عليها التصرف قبل أن يصل إليها ويطالها يديه، بات الركن والهروب من المكان هو الخيار الوحيدة المتاح، وكأنه قرأ أفكارها فصارها بجسده مضيئاً المساحات عليها، سألها باستمتاع مخيف:

-رايحة فين؟ احنا لسه مبدأناش

شعرت بأن شجاعتها قد فرت منها، بأنها في مأزق حقيقي لن ينجيه منها أي أحد، ادعت الصلابة أمامه صارخة فيه بتهديد:

-بعد عني أحسنك بدل ما أوديك في داهية!

التوى ثغره بابتسامة مستخفة بها قبل أن يرد مستهتراً:

-ليه كده بس؟ ده احنا لسه بنتعرف على بعض!

انهالت عليه بوابل من السباب اللاذع لكنه قابله بالضحك المستهزئ بها مردداً:

قولي قاموس الشتايم كله ميفرقش معايا، المهم إنك في حضني!

وفجأة اندفع نحوها قاصداً الإمساك بها، فلتت منه بأعجوبة وركضت مبتعدة عنه لكنه أمسك بها من ذراعها ثم جذبها نحوه ولف ذراعه الآخر حول خصرها لتقع أسيرة أحضانه، ضربته في صدره بكل ما أوتيت من قوة بقبضتها وعمدت إلى إصابة وجهه بالخدوش بأظافرها صارخة فيه:

-بعد عني يا

-لالالا، ليه الغلط يا "آسيا"؟

قاومته مستخدمة أقصى طاقاتها لتتحرر منه وهي تصرخ بهلع:

-حيوان، جبان

لم يجد صعوبة في حملها من خصرها نحو الفراش، ألقاها عليه فاستجمت نفسها لتهرب منه، قبض عليها من قدمها وجذبها نحوه لكنها ركته بعنف في وجهه محدثة إصابة جسيمة في أنفه، رأى "سامر" خيط الدماء ينزف من أنفه فسبها بغیظ:

-آه يا بنت ال

تلفتت "آسيا" حولها بنظرات سريعة باحثة عما يمكن أن تستخدمه للدفاع عن نفسها، وقعت أعينها على المزهريّة الصغيرة الموضوعة على الكومود، زحفت على الفراش لتصل إليها، التقطتها بيدها ثم استدارت نحوه لتضرب مقدمة رأسه بها، شتمها من جديد، ثم لكها أسفل فكها مسببًا لها ألمًا عنيفًا، صرخت مستغيثة لكنه أسكتها بلكمة أخرى أشد قوة أفقدتها الوعي على الفور، تراجع عنها ماسحًا الدماء النازفة منه، تنفس بعمق ليضبط أنفاسه اللاهثة هامسًا لنفسه:

-إيه ده!

مرر "سامر" يده بين خصلات شعره رامقًا جسدها المسجي أمامه بنظرات طويلة متفحصة كل جزء فيها باشتهاء ورغبة، كان عليه أن يتحكم في نفسه ليكمل باقي مخططه الدنيء في تدمير سمعتها، ولج إلى داخل الحمام ليلقي نظرة أكثر دقة على جروحه، ثم بدل ثيابه وهاتف أحد الأشخاص أمرًا إياه:

-تعلالي حالاً!

.....

تم ترتيب الجناح لتبدو "آسيا" كما لو جاءت إلى هنا برغبتها الكاملة طامعة في قضاء ليلة ماجنة، خرج "سامر" من المكان تاركًا أحد أعوانه معها ممن سينفذ الجزء الآخر من خطته، استخدم الأخير عطرًا ذو رائحة نفاذة بالقرب من أنفها بعد أن رفع رأسها إليه، تأوهت "آسيا" بأنين خفيض وهي تستعيد وعيها تدريجيًا، فقط لحظات بسيطة وأفقت كليًا، لكنها لم تكن صافية الذهن، شعرت بلمس غريب على كتفها وبأنها في أحضان شخص ما، تطلعت إليه بنظرات مشوشة وهي تسأله بصوتها الثقيل:

-إنت مين؟

لم يجيها الرجل بل ظل يبتسم لها بسخافة متعمداً ضمها إليه، حاولت أن تخلص نفسها من ذراعيه ومن صدره الملتصق بها، لكن لم تسعفها قواها الخائفة، وفجأة استمع كلاهما إلى صوت دقات قوية على باب الجناح، تركها الرجل الغريب لينهض من على الفراش متجهاً نحوه، فتحه وادعى انهدهاشه من وجود هؤلاء الغرباء الذين اقتحموا المكان عنوة، سألهم بتوتر مصطنع:

-إنتو مين؟ أنا معرفهاش، هي اللي جت معايا برضاها!

دقت "آسيا" أنظارها في أوجه الرجال الذين حاصروها، استشعرت وجود خطب ما، لم يكن عقلها في كامل وعيه ليفسر ما يحدث من حولها، التفتت برأسها نحو أحد الأشخاص حينما صاح أمراً:

-هاتوها!

وفجأة انقض عليها اثنان من الرجال الأشداء جذباها من ذراعيها بقسوة، ترنحت وهي تسير مجبرة معها، سألتها بوهن:

هو في إيه؟ إنتو ماسكني ليه؟

نظر لها الرجل شزرًا وباشمئزاز ثم رد قائلاً:

-يالايابت، الشويتين دول مش هاينخشوا علينا، خدوها على البوكس

بدأت تفسر الأمر، وضحت الصورة تمامًا في ذهنها، هي في قبضة رجال الشرطة بتهمة شرف لم ترتكيبها، ويتم اقتيادها للمخفر كأبي فتاة ليل عابثة قبض عليها بالفعل الفاضح، صرخت وهي تتلوى بجسدها:

-أنا معملتش حاجة، إنتو فاهمين غلط، "سامر" هو اللي

قاطعها الضابط هادراً:

ما تكلميش يا، على البوكس يالا!

بدت مقاومتها معدومة أمام سحبهم لها، توسلتهم ببكاء مقهور:

صدقوني، أنا مظلومة، هما في الفندق ضحكوا عليا!

كانت الصدمة الأخرى هو رؤيتها لعدد من المصورين بالرواق، حاصروها بعدسات كاميراتهم وال فلاشات المتلاحقة كإشارة لالتقاطهم صورًا كثيرة لها وكأنهم وحوش ضارية تفترس فريسة سقطت لتوها في عرينهم، حتمًا ستغدو فضيحتها الملققة حديث الجميع، ولن يصدقها أحد مما حاولت الدفاع عن نفسها وإثبات العكس، والأفطع من ذلك كله أنها باتت فعليًا "ساقطة" في نظر والدتها، وكذلك خصمها "معتصم" الذي سيذيقها معاناة لن تنتهي أبدًا، فالفرصة قد جاءت على طبق من ذهب

!!!

.....

الفصل العشرون

لاحقتها عدسات المصورين مقتحمين خصوصيتها بكل بجاجة وجرأة، بدت أسئلتهم كالخناجر المسمومة تطعن في شرفها وتغتال أكثر من روحها، لم تجب "آسيا" عليهم بل انسأقت مع أذرع رجال الشرطة التي تجذبها بشراسة نحو السيارة الشرطة لتجلس في الخلف كعتادي الإجرام، ارتعشت لأكثر من مرة وهي تتجه نحو المجهول، لا تعرف ما

الذي حدث لتقلب حياتها فجأة رأسًا على عقب، توقفت السيارة أمام المخفر، وترجلت منها وهي مقيدة بالأصفاد، أصيبت بجالة من الدهول الصادم وهي تسير كالمغنية وسط حفنة من المجرمين والخارجين عن القانون عبر أروقة قسم الشرطة لتترك بإهمال عند الزاوية القريبة من غرفة الضابط المسئول عن أخذ أقوالها.

لم تجد "آسيا" ما تجلس عليه، وقدماها كانتا كالهلام لا تستطيعان حملها، لذا استندت بجسدها المرتجف على الحائط البارد مما ضاعف من رعشتها، زاغت أبصارها وهي تتأمل الوجوه المتجهمة المحدقة بها بوقاحة، تمت لو انشقت الأرض وابتلعتها فورًا لتهرب من نظراتهم الشهوانية الطامعة فيها، حاولت أن تخبئ جسدها بيديها، لكن ماذا ستخفي وهي ترتدي الكاشف له؟ للحظة شعرت أنها تخوض تجربة تناستها عمدًا من الماضي البعيد، انفصلت عن حولها لا إراديًا لتعود بالذاكرة إلى الوراء حيث كانت في سن المراهقة، تركها والدها بمفردها في المنزل كعادته دون أن يخبرها بمجيء أحد رفاقه في لعب القمار لزيارته، تفاجأت "آسيا" بذلك الضيف الغريب ورحبت به على استحياء قائلة:

بابا مش موجود دلوقتي

رمقها الرجل بنظرات متفحصة لثيابها المنزلية التي كانت منحصرة في سروال قصير وكنزة صيفية ذات حمالات رفيعة أظهرت جمالها الطبيعي، تأثر بسحرها المغربي فوضع يده بجرأة على وجنتها يتلمسها بطريقة مريبة وهو يلج لصالة المنزل مرددًا باستظراف: هو قالي استناه، عن إذنك شوية يا قمر!

انتفضت من لمستة الجريئة على بشرتها وردت عليه بوجوم وقد زادت ملامحها عبوسًا: إنك ممكن تجيله وقت ثاني

تجاهل جملتها الأخيرة عن عمد سائحًا لنفسه بالدخول، التفت ناحيتها متابعًا بسماجة:

-وأسيب قعدتك الحلوة دي يا حلوة؟

نظرت له بازدراء لكنه أكمل ببرود:

-مممكن كوباية مياه، أصل أنا ريتي ناشف، ناشف أوي!

بدأت طريقته في الحديث غير مريحة على الإطلاق، لم تترك العنان لخيالها ليفسر الأمور من منظور آخر، استدارت متجهة نحو المطبخ لتحضر له كوب الماء الذي طلبه، تسلل ورائها قاصدًا احتضانها من الخلف وتلمس جسدها، شهقت مصدومة من فعلته الجريئة وانتفضت بكامل جسدها مصعوقة من تجاوزه المشين معها، دفعته "آسيا" بعنف للخلف صائحة فيه بحدة:

-إنت بتعمل إيه؟

رد عليها الرجل وهو يندفع من جديد نحوها ليحتضنها:

-أنا مهووس بيكي يا "آسيا"

تفاجأت به يحاوطها بذراعيه ليضمها عنوة إلى صدره، لكزته بقبضتها صارخة فيه:

-إبعد عني يا متخلف

رد بصوت أقرب للهاث وهو يدنو بوجهه نحو شفيتها:

-أنا هاتجنن عليك، إتي مافيش واحدة زيك في جمالك ده!

ضربته بيدٍ وبالأخرى حاولت إبعاد وجهه المقزز عنها، ثم صرخت عاليًا:

-حد يلحقني!

رد عليها بثقة وقد بدأ في غير وعيه:

-مش هاتعرفي تهربي مني، أنا بأحبك!

ثم حاول تقبيلها رغمًا عنها وتلمس ما تطاله يديه من جسدها وهو يجذبها إليه، وجدت "آسيا" صعوبة في منعه من استباحة ما ليس له، كانت مقاومتها محدودة أمام قوته الذكورية المفرطة والتي تضاعفت بسبب نزوته الشهوانية، تعذر عليها طلب المساعدة، تلفتت حولها محاولة إيجاد ما يمكن أن يسعفها في وضعها الحرج، وقعت أنظارها على زجاجة المياه الموضوعة على الطاولة الجانبية في زاوية المطبخ فجرته إلى هناك لتتمكن من الوصول إليها، مدت يدها لتمسك بها ثم انهالت بها على رأسه تضربه بكل عنف، صرخ الرجل متألمًا وهو يتركها مجبرًا، تراجعت "آسيا" للخلف لتحتمي من شره، نظر لها الرجل والشرر يتطاير من عينيه، صاح بها بفضب:

إيه اللي عملتيه ده

تلمس بيده مؤخرة رأسه ليرى خيوط الدماء تندفع منها، استغلت "آسيا" لحظة التهاه واقتربت منه مجددًا لتنهال بالزجاجة على رأسه بكل قوة مسببة له جرحًا عميقًا في مقدمة رأسه جعله يترنح ويفقد اتزانه، ضربة ثالثة تلقاها فخر ساقطًا على الأرضية الصلبة وغارقًا في دمائه، ارتعشت "آسيا" من هول المنظر وتراجعت مبتعدة عنه وهي توشك على الانهيار من صدمتها لما أقدمت على فعله، لكنها كانت في حالة دفاع عن نفسها. في تلك الأثناء، عاد والدها من الخارج وهو يندندن بسعادة، تفاجأ برفيقه طريح الأرض فانتابته الخوف الشديد، حدق في ابنته مذهولاً وهو يسألها بفرع:

إيه اللي حصل هنا

أجابته "آسيا" بنبرتها المهتزة وهي ترتجف كليًا:

الراجل ده .. حاول يـ ... يتهجم عليا

جثا "شرف الدين" على ركبتيه محاولاً التأكد من بقاء صديقه على قيد الحياة، انجست أنفاسه لمجرد تخيل أنه سيموت هنا، تنفس الصعداء وقد سمع نبضات قلبه وتأوهات المتألمة، تأكد أنه لا يزال بخير، فتح الرجل عينيه هامساً بوهن:

-بنتك يا "شرف" .. كانت... هتموتي!

رد عليه بخوف:

حقك عليا

فغرت "آسيا" شفيتها مدهوشة من رده عليه شاخصة أبصارها بذهول، وما زاد من صدمتها هو اعتذاره له، حاول "شرف الدين" أن يفكر في حل سريع لتلك المشكلة التي ربما ستودي به في السجن إن عرفت الشرطة الطريق إليه، كان عليه التضحية بسمعة ابنته ورفض تصديق أن رفيقه حاول استمالة ابنته والاعتداء عليها، فالأخير لديه صلات قوية بمعارف في السلك الشرطي، وهو ليس إلا مغترب قد جاء للإقامة هنا، استند على يديه لينهض ثم اتجه إلى ابنته ليعنفها صائحاً بقسوة:

-عملي فيه إيه؟

أنا ...

قبض على كتفها يهزها بعنف صارخاً فيها:

فكرك أنا معايا فلوس علشان أذفع تم محامي حتى لو هو اشتكى عليكي هنا؟

اغرورقت حدقتها بالعبرات وهي تبرر تصرفها:

ده هو كان

لم يمنحها فرصة الدفاع عن نفسها بل هوى على وجنتيها بصفعات عنيفة جعلتها في حالة شلل واضحة، بدت "آسيا" كالصنم وهي تتلقى صفعاته الشرسة، قسا عليها أيضاً

بكلماته المهينة لكرامتها معاتباً تصرفها الأرعن مع رفيقه المحترم، لم تشعر إلا بالألم والقهر، فوالدها لم يصدقها وانحاز مع ذلك الوقح ضدها، بالغ في ردة فعله معها لبدو مقنعاً أمام صديقه، وبالتالي يتخلى الأخير عن حقه في الشكوى فينأى بنفسه عن المساءلة القانونية، خاصة أنه كان يدير أعمالاً غير مشروعة كتنظيم حفلاتٍ للقمار، ما لم يضعه في عين الاعتبار أنه أضاع ابنته في تلك الليلة بتصرفه وجعلها تتقين من داخلها أنها وحدها بلا مدافع حقيقي عنها، تركها محطة من الداخل قبل الخارج، أجبرها على الاندفاع نحو طريق سريع للثراء لم ترغب في السير فيه يوماً لتحقق شهرة زائفة تملأ الخواء الموجود فيها حتى لو كلفها نفسها، آمنت بأنها مهما فعلت لتدافع عن شخصها لن تجني شيئاً، فالجميع سيصدقون ما يريدون فقط حتى لو كان على حساب روحها، والأموال وحدها هي التي ستحميها وتؤمن لها الضمان الكامل من تهور أصحاب النفوس المريضة، خاصة إن ظنوا أنها فتاة محاطة بالشائعات غير جيدة، لن يرغبوا في الاقتراب منها، لكنها كانت مخطئة، اعتقدوا أنها في متناول الرجال، فريسة سهلة لمن يدفع أكثر، فلم تحصد من ذلك الطريق سوى الفضائح والأطماع الذكورية الراغبة في استباحة جسدها.

.....

على الجانب الآخر، قاد "معتصم" سيارته كالجنون نحو مخفر الشرطة بعد أن أبلغه محاميه الخاص بمكان تواجدها، بالطبع فقد أعصابه وثار تائرت مع انتشار أخبارها الفاضحة على كافة المواقع الإخبارية والاجتماعية، لم يتصور أن ترتكب فعلاً مشيناً كهذا وتدنس سمعتها بتلك الطريقة الكارثية التي يصعب نسيانها حتى لو مرت عشرات السنون، ناهيك عن التلميحات المسيئة التي يمكن أن تطال عائلته إن تم كشف الصلة بينهما، رافقه "نبيل" بعد أن رأى حالة الهياج التي تملكته في مكتبه، وحاول قدر المستطاع تهدئته لكنه فشل، لذا أثر الذهاب معه ليضمن عدم تهوره.

صف "معتصم" سيارته بجوار المخفر ثم ترجل منها متجهًا بخطوات أقرب للركض نحو الداخل، أرشده أحد العساكر إلى مكانها بعد أن سأل عنها، ترك لمحاميه مهمة البحث عن الثغرات القانونية التي يمكن أن تخرجها من ذلك الوضع الحرج بأقل الخسائر، استدار نحو رواق جانبي إضاءته منخفضة وجدرانه رمادية كثيفة تبعث على النفس الاتقباض، ضاقت نظراته باحثًا عنها، وجدها تقف عند الزاوية في حالة شحوب مريية، حدجها بنظرات مزدرية كارهة لكل ما يتعلق بها، ودَّ لو كان باستطاعته الاتقباض عليها وخنقها من عنقها ليريح العالم بأسره من وجودها الشيطاني الذي يفسد صفو حياته وحياة أسرته، لم تره "آسيا" ولم تشعر بوجوده، فقط إحساس البرودة القارصة سيطر عليها وجعل شعيراتها ترتجف، رفعت رأسها للأعلى لتجده أمامها بوجهه المتشنج ونظراته المظلمة، لوهلة ظنت أنه قد جاء لنجدها، حركت شفيتها لتهمس بشيء ما معتقدة أنه سيكون في صفها، لكنه جمد الكلمات على طرف لسانها بصفعه لها بقسوة وبقوة مباغته، نظرت له مصدومة عاجزة عن النطق، رمقها بنظرة احتقارية جلية قائلاً لها:

مشوقتش أقدر منك!

تلك المرة اغرورقت أعينها الفيروزية بعبرات المظلوم الذي تكالب الجميع ضده وأصدروا الحكم عليه، لم تكن بحاجة للدفاع عن نفسها وإثبات براءتها أكثر من حاجتها لمن يدعمها ويشعرها أنه إلى جوارها، بكت في صمت وهي تنظر له بعتاب مقهور، لم يفهم "معتصم" نظراتها، بل ظل يرمقها بكره كبير، حتى أنه بات ناقماً على النفس الذي يجمعها سوياً، قبض على ذراعها معتصراً إياه بشراسة، مال نحوها ليمس لها من بين أسنانه المضغوطة:

هدفك تمن ده بس لما نخرج من هنا!!!

الفصل الحادي والعشرون

حذر العسكري "معتصم" من الاقتراب من "آسيا" وطلب منه الابتعاد عنها بعد أن لاحظ المشادة الكلامية بينهما، كان الأخير مضطراً لتنفيذ أمره دون نقاش، رمقها بنظرة طويلة عدائية كارهة لها وهو يزيد من ضغطه على ذراعها، ثم بغضب مشحون بداخله دفعها للخلف فارتطمت بقسوة بالحائط، أصدرت أيتها موجوعاً من أثر الصدمة فلولا

وجود الحائط كانت افترشت الأرضية بجسدها المستنزف معنوياً، نظرت له بأسف من بين دمعاتها الباكية، آه لو ترك لها الفرصة لتبوح بالحقيقة وتدافع عن نفسها لاختلفت حالتها كثيراً! لكن هيات هو مثل غيره صدق ما قيل عنها ببساطة ودون تفكير، أشار لها بسبابته هاتفاً بسخط:

-كلامي معاني مخلص لسه!

رد عليه العسكري وهو يدفعه للخلف:

-بعد إذنك شوية يا أستاذ

التفت برأسه لينظر له بأعينه المشتعلة دون أن ينبس بكلمة، كان محاميه على مقربة منه فناده قائلاً:

-أستاذ "معتصم"، من فضلك تعالى شوية

عاود التحديق في وجه "آسيا" بكل معاني الازدراء هاتفاً بقليل من الحدة:

حاضر!

ثم سار في اتجاه المحامي الذي أراد الانفراد معه ليبلغه بشيء مريب وغامض قد لاحظته، تابع "نبيل" الموقف بانزعاج، وعلى عكس ابن عمه ألمه أن يرى "آسيا" في ذلك الوضع المخزي، أشفق على حالتها واقترب منها ليؤازرها في مصابها، استطرد قائلاً بجذبة كحالة بائسة منه لتلطيف الأجواء:

-أزمة وتعدي!

رفعت وجهها لتنظر نحو صاحب الصوت الغريب، بدت ملامحه مشابهة لـ "معتصم" رغم اختلاف الشخصيتين، ظل يتحدث بكلمات مدعمة لها وهي تتابعه في صمت غير مصدقة أنه يوجد بالفعل من يساندها، كانت بحاجة لمن يصغي لها، فهمت بيأس:

معملتش حاجة

بدا "نبيل" في حيرة من أمره، فطريقتها في الحديث معه تخالف ما يردده "معتصم" دومًا عن سوء أخلاقها ونواياها الخبيثة نحو عائلته، كانت منكسرة، محطمة، بقايا امرأة تكالب عليها الجميع، مد يده ليربت على كتفها قائلاً:

المحامي موجود وهيتصرف، متقلقيش، كلنا معاكي

نظرت إلى يده الموضوعة على كتفها باستغراب، بينما تابع مؤكدًا:

مممكن الموضوع يكون متفبرك، ساعات بتحصل!

انفجرت شفاتها كتعبير عن تفاجئها، لأول مرة تُعامل برفق من قبل شخص غريب عنها لا يريد منها شيئًا ولا يطمع في لمسة محرمة من جسدها، فقط أراد أن يشعرها بدعمه لها، أشفقت على نفسها، ذلك ما كانت تحتاج إليه حقًا، ابتسمت له بامتنان من بين بكائها المقهور، حرك "نبيل" رأسه في اتجاه "معتصم" ليضيف بعدها بارتباك طفيف:

أنا هاروح أشوف بيعملوا إيه، واحنا معاكي هنا

هزت رأسها بالإيجاب، يكفيها ذلك الإحساس بوجود السند لتمالك نفسها قليلًا، كفكت "آسيا" عبارتها بأناملها المرتعشة ممررة أنظارها على الأوجه العابسة المتطلعة إليها، لم تعد مكترثة بنظرات الإعجاب التي كانت تطاردها على الدوام لتشعرها بالقوة والفخر، باتت تخشى حاليًا من أي نظرة عابرة نحوها، انكشيت على نفسها وراقبت بحذر من يتحركون على مقربة منها.

.....
هي حاجة غريبة فعلاً؟

تساءل "نبيل" بتلك العبارة وهو يفرك مؤخرة رأسه في حيرة بعد أن استمع هو الآخر لتفاصيل قضية "آسيا" العجيبة، كان الوضع مريبًا ومثيرًا للشكوك، فهناك من تلاعب في الإجراءات، وبات الوضع كما لو لم تكن هناك قضية من الأساس، تعقدت ملامح "معتصم" وهو يتساءل بانفعال رغم انخفاض نبرته:

طب ازاي؟ أنا مش فاهم

صمت المحامي للحظات قبل أن يجيبه:

مش عارف أفيدك يا أستاذ "معتصم" لكني اتفاجئت وأنا بأطلب الإطلاع على المحضر إنه مش موجود أصلاً

صاح فيه باستنكار وقد أوشك على الخروج عن شعوره:

-أومال الفضايح دي تسميها إيه؟

أمسك به "نبيل" من ذراعه يتوسله:

-اهدى شوية يا "معتصم"، احنا في القسم!

كز على أسنانه متمتماً بحنق:

-ما هو أكيد مش مقلب ولا الكاميرا الخفية

رد عليه المحامي بمنطقية:

-ماهو ده اللي أنا مستغربه، واضح إن الحكاية وراها حد أو المقصود بيها

لوهلة عبث شيطان "معتصم" برأسه فوسوس له بشيء خطير، جمحظت عيناه في رعب وهو يتخيل أن "آسيا" ربما من دبر ذلك الأمر للإضرار بعائلته، تذكر وعيدها حينما قابلها لأول مرة بعدم تخليها عن محاولات إذلال "نادية" وتدميرها، بدا كمن يفكر بصوت مسموع وهو يقول:

-للدرجادي تفكيرها وصلها تعمل حاجة قدرة زي كده علشان تدمر سمعتها وتضر
بسمعتنا معاها

سلط "نبيل" أنظاره عليه متسائلًا بجديّة:
-قصدك إيه؟ إن "آسيا" فبركت موضوع الفندق و....
قاطعته مؤكّدًا وقد احتقنت نظراته:

-مش بعيد

استنكر "نبيل" بشدة سوء ظن ابن عمه وظلمه الكبير لها دون تحري الصدق، صاح
محتجًا:

-حرام عليك، مكانش ده يبقى شكلها، بص كويس لمنظرها وشوف عاملة إزاي
التفت "معتصم" نحو "آسيا" ليجدها مختلفة كليًا عن تلك المرأة القوية التي اعتاد أن
يجدها عليها، حتى في أضعف حالاتها كانت متماسكة، لكن ما يراه الآن هو واحدة
غيرها هشة ضعيفة، رفض الاقتناع باحتمالية تعرضها لتلك المكيدة، هتف معترضًا:
-كداية، دي تمثيلية وأنا هاكشفها!
أشار له المحامي بكفه مضيّفًا بهدوء:

-عمومًا أنا هحاول أعرف بصلاّتي تفاصيل الموضوع وملابساته وأبلغك!

رد عليه "نبيل" وهو ينظر في اتجاه ابن عمه:

-ماشى يا أستاذ، هنتعبك معانا

ابتسم مجاملًا:

-أنا معملتش حاجة، ده شغلي!

.....

تحاشت النظر على قدر المستطاع في اتجاه "معتصم"، فقد شعر بأن نظراته تلاحقها وتمسك بها إن حدثت فيه بقصد أو بدونه، جاهدت "آسيا" لتشتت تفكيرها فيه، فهي تخشى من ردة فعله معها، وهي ليست في حالة تسمح لها بالصمود أمام قسوته وعدائته، الأمر تلك المرة فاق ما تخيلته، وفجأة اتسعت حدقتها الفيروزيان على الأخير في اندهاش حينما رأت "سامر" مقبلاً عليها، تحول وجهها لكتلة من الدماء الحارقة، أرادت الانقضاض عليه والفتك به منتقمة منه لفعلة الدينئة معها، اضطربت أنفاسها، وتلاحقت دقات قلبها بقوة، أدركت أن مجيئه إلى هنا يحمل الأذى، أتى إليها راسماً على ثغره ابتسامة لثيمة مستفزة، سيطر عليه غروره وعنجهيته، رمقها بنظرة متشفية قائلاً للعسكري المرابط جميعها:

-هاقول للـ.. هانم كلمة!

بدت طريقته مهينة رغم عدم تلفظه بذلك، استشاطت أعين "آسيا" وتشنج جسدها لمجرد رؤيته، رد عليه العسكري بامتعاض:

-ماتطولش يا أستاذ، مش عاوزين نسمع كلمة من البيه الظابط

رد مبتسماً ببرود:

-اطمن!

سلط "سامر" أعينه المتوهجة بريقها الماكر على وجه "آسيا"، مد يده ليتلمس طرف ذقنها مردداً بهتكم:

مش قولتلك أنا ما بهزرش، إيه رأيك بقي، عجبتك؟!!

تهدج صدرها علواً وهبوطاً من فرط الانفعال الذي تكبته بداخلها، فقدت في لحظة أعصابها، فلم تشعر بنفسها إلا وهي مندفعة نحوه لتقبض على عنقه، حاولت خنقه صارخة فيه:

إنت واحد جبان، معندكش أخلاق

وضع قبضتيه على يديها لينترعها هامساً لها بنبرة ذات مغزى:

دي مجرد قرصة ودن يا حلوة، علشان تعرفي مين هو "سامر عمران"!

ارتفع صارخها متوعدة إياه:

هاموتك!

انتبه الجميع إلى صوتها وتدخل العسكري سريعاً ليفض بينهما متوجساً خيفة من تبعات إهماله في مراقبة سجينته المؤقتة، كرر "سامر" ضاحكاً بطريقة مستفزة ليزيد من إتلاف أعصابها، أرخى قبضتيه عنها واستدار بجسده ليجد "معتصم" محمداً فيه بذهول، فقد تفاجأ الأخير بوجوده بالمخفر، أسرع في خطاه نحوه ليشتبك معه، لكن اعترض "نبيل" طريقه بجسده وشكل حائلاً به لينعه من لمسه، صاح "معتصم" بنبرة مغلولة:

إنت جاي هنا ليه؟

حك "سامر" طرف ذقنه ببطء متعمداً إطالة الوقت قبل أن يجيبه ببرود وقاصداً استفزازه:

مع إني ماجبش أخذ فاضلة (بواقي) حد بس يالا هسيبالك!

التهبت مقاتي "معتصم" من تلميحه الوقح، في حين تابع "سامر" بابتسامته اللئيمة وهو يغمر له بطرف عينه:

-كفاية إني علمت عليك معاها!

كاد "معتصم" أن يتهور ويسدد له لكمة عنيفة في وجهه لكن منعه "نبيل" من الإقدام على ذلك، هدر فيه بعصبية:

-أخرس يا

حذره "سامر" مشيراً بسبابته:

حاسب على كلامك بدل ما أندمك!

ثم تحسس الكدمة الموجودة في وجهه لا إرادياً، تدارك نفسه قبل أن تساور غريمه الشكوك نحوه ليتابع بعدها بتفاخر:

-أبقى خليها تحكيك على رواقه أنا ظبطتها ازاي

رد عليه "معتصم" بشراسة:

-واطي و !

حذره "نبيل" مجدداً من تهوره بصوت خفيض:

خذ بالك يا "معتصم" احنا في القسم!

تدخل المحامي في المسألة ليخمد النزاع بينهما قبل أن ينشب قائلاً بجدية:

-أستاذ "معتصم" من فضلك تعالى معايا شوية

وقف أحد الضباط بينهم متسائلاً بخشونة:

-في ايه هنا؟

أجابه "سامر" بابتسامة سخيفة:

-مافيش حاجة يا حضرت الطابط، احنا كنا بندردش شوية مع بعض وخلصنا كلام!

ثم لوح بإصبعيه لـ "معتصم" ومن معه مكلاً:

-سلام يا ... رجالة!

نظر له الضابط بغرابة ثم وجه حديثه للمحامي محذراً بغلطة:

-مش عاوز لبش هنا وإلا هاحطكم في الحبس!

رد عليه بهدوء:

-حاضر يا فندم

زاد عبوس وجه الضابط وهو يتابع حديثه:

-وانت يا عسكري شوف مين مالوش لازمة هنا ومشيه، مش ناقصين زحمة في القسم!

أمسك المحامي بيد "معتصم" قائلاً له:

-تعالى نتكلم على جنب!

اضطر أن يسير معه ليبعد عن ذلك الجو المشحون والباعث على الانفجار من أقل الأسباب، في حين اقترب "نبيل" من "آسيا" ليخبرها بما عرفه من المحامي، صدمت مما قاله وأصابها حيرة جلية شلت تفكيرها.

.....

تأكد المحامي من عدم الحاجة إلى وجود "آسيا" بالمخفر فتم تركها دون إجراء أي تحقيق معها، كانت في حالة يرثى لها، تجرر ساقها نحو الخارج، شعرت بأن الإرهاق قد تمكن منها، بعدم قدرتها على السير بصورة متزنة، أشفق عليها "نبيل" حينما رآها على تلك الحالة، خشي أن تفقد وعيها أو أن تصاب بمكروه ما إن ظلت بمفردها، اتجه نحوها قائلاً:

-تفضلي في العربية شوية

اعتزضت بصوت متعب:

مش عاوزة

أصر على ركوبها السيارة هاتقًا بلباقة وهو يشير بيده:

-لأ مش هاينفع أسيبك وإتني بالشكل ده، تعالي بس ارتاحي شوية

هزت رأسها برفض:

قولتلك مش عاوزة، ابعد عني لو سمحت

رد ببحر:

-أنا أسف، والله مقصدش أضايق، بس فعلاً إتني شكلك تعبان، وأنا غرضي بس

أساعدك

خشيت أن يكون "معتصم" متواجداً هناك فيتشاجر معها، لذلك أصررت على رفضها

العنيد، ثم بدأت في السير لكنها شعرت بأن الأرض تميد بها، وضعت يدها على طرف

جينها، حاوطها "نبيل" بذراعه دون أن يلمسها ليبدو مستعداً للإمساك بها إن

سقطت فجأة، أصر على جلوسها بالسيارة قائلاً:

-أرجوكي ارتاحي شوية في العربية

-لأ

لو قلقانة من "معتصم" فهو مش هناك، بيعمل كام تليفون، ارتاحي حبة لحد ما

تفوقي

لم تجد بداً من الرفض تلك المرة، فقد شعرت أنها ليست على ما يرام، وعدم وجود

"معتصم" قد أراحها قليلاً، سارت معه نحو السيارة لتجلس فيها بعد أن تأكدت من

غيابه، استعادت "آسيا" في ذاكرتها ما مرت به في الساعات الأخيرة، خاصة طريقة

إذلالها بما جعلها أقرب للساقطات العابثات لمجرد رفضها إقامة علاقة مع "سامر"، وكيف اجتمع الجميع على تأكيد ذلك دون التحقق من صدق روايته، تجمعت العبرات في طرفيها تأثراً بذلك، راقب "نبيل" ما يحدث معها باهتمام ومع ذلك لم يتدخل، اكتفى بالمتابعة الصامتة، حركت "آسيا" شفيتها لتهمس بانكسار:

هو السبب، أنا معملتش حاجة

سألها "نبيل" مستفهماً بهدوء:

قصدك مين؟ "سامر"

رفعت وجهها لتحدق فيه بأعينها التي لمعت بشدة، مسحت بظهر كفها عبراتها المنهمرة على وجنتيها، ثم استرسلت مضيئة بنحيب يحمل المرارة:

كان فآكر إني زي أي واحدة سهلة يشاورلها تجيله، بس أنا مش كده، أنا كويسة على فكرة

هز رأسه كتعبير عن تضامنه مع ما تقول، ثم أردف قائلاً بجدية:

بس إتي بتحطي نفسك في موضع شبهة

رمقته بنظرة ذليلة فتحرج من صراحته الزائدة، تنحنح قائلاً بندم:

أنا أسف مقصدتش، بس ده من اللي بأعرفه عنك وبقراه

أنا

بترت عبارتها فجأة حينما رأت "معتصم" يقف أمام السيارة بوجهه المشدود ونظراته النارية، شعرت بجفاف كبير يحتاج حلقتها، أحست بأن قلبها يكاد ينخلع من صدرها وأن نبضاته تصمت آذانها، لاحظ "نبيل" تبدل تعابيرها للخوف والقلق فاستدار هو الآخر برأسه ليفسر منطقياً سبب اضطرابها !!

الفصل الثاني والعشرون

تخشب جسدها وتصلبت تعابير وجهها حينما رأته بغضبه المشحون يطالعها بنظراته النارية، شعرت "آسيا" بجفاف شديد يجتاح حلقها، وتتسارع دقات قلبها، توترت نظراتها من تحديقه العدائي لها، شل تفكيرها مما يمكن أن يفعله بها، رأى "نبيل" حالة الخوف القلق التي انتابتها وتأكدت هواجسه حينما وجد "معتصم" أمامه لا ينتوي أي خير مطلقًا، صرخ الأخير بصوت متشنج وهو يلوح بذراعه:

-بتعملي إيه هنا؟

رد عليه "نبيل" وهو يتجه نحوه ليمنعه من الاقتراب منها:

-أنا اللي قولتلها تيجي

سد عليه الطريق بجسده ومع ذلك ظل "معتصم" يندفع بقوة نحو السيارة محاولاً الوصول إليها وهو يهدر بغضب جم:

-إزاي تسمح لواحدة زي دي تفضل هنا

حاول "نبيل" امتصاص ثورة انفعاله قائلاً بنبرة عقلانية عله يرتدع:

لو سمحت يا "معتصم"

لكزه بقسوة في جانبه ليتمكن من المرور، لم يتمكن "نبيل" من منعه، فقد كان ابن عمه كالأعمى، يحركه غضبه الشديد، فتح "معتصم" باب السيارة، صرخت "آسيا" عفوياً لمجرد وجوده، انكشيت على نفسها وحاولت الزود بنفسها بعيداً عنه لكنه مد ذراعه ليقبض على رسغها، اعتصره بأصابعه وهو يجذبها بشراسة إلى خارج السيارة صارخاً بها:

-برا

بكت بحرقة وهي تقاومه بوهن:

سيني

فشلت في تحرير يدها من قبضته، وكذلك في منعه من إخراجها من سيارته، قبض "معتصم" على ذراعيه ليهزها بعنف مكماً صراخه المهتاج بها:

عاوزة إيه تاني مننا؟ خربتيا وارحتي، ابعدي عننا!

تأوهت حقًا من شدة الألم، لم تكن باستطاعتها تحمل الأوجاع، زاد بكائها المرير وهي
ترد مدافعة عن نفسها:

أنا معملتش حاجة

اتسعت حدقتاه غضبًا وهو يهدر بها:

-كنت عاوزة تموتي أمك واهوو حصل

ارتفع حاجباها للأعلى في صدمة جلية، هتفت بلا تصديق:

قصدك إيه؟

أجابها بقسوة متعمدًا هزها بشراسة:

قصدي إنها بتموت في المستشفى، ارتاحي بقى وحلي عن سمانا

ارتجفت شفتها قائلة بصدمة:

أنا

قاطعها صارخًا بجنون:

-إنتي كارثة على أي حد يعرفك، ارجعي مطرح ما جيتي، اللي نفسك فيه حصل،

شوهتي كل حاجة، إنتي لعنة!

فقدت أعصابها من كثرة ضغطه عليها وتحملها ما لا يطيق من اتهاماته وافتراءاته، لم يعد

بمقدورها تقبل ذلك، انهارت صارخة وقد شحذت قواها المستهلكة نافضة قبضتيه عنها:

-كفاية بقى!

ظن أنها تستكمل ألعوبتها بادعاء دور الضحية، نظر لها شزرًا ثم وضع يده على فمها

كأنما إياه وهو يرد بعدائية شديدة:

-أخوسي

أبعدت يده متراجعة خطوة للخلف مرددة:

-لأ إنت اللي تخرس وتسمعي!

استشاط لمجرد استعادتها لقوتها رغم أنها لم تكن كذلك، كان ما يحركها هو قوة المقهور الذي لا يجد ما يخسره، صاح بها منفعلًا:

-إتي التجنتي

ردت ببكاء مضاعف وقد تهدجت أنفاسها:

-ايوه التجنت! أنا خدت منك إيه علشان تكون محروق أوي كده؟!

نظر لها "معتصم" مصدومًا من سؤالها الغريب، وقبل أن يجيبها واصلت "آسيا" استرسالها بقلب مفطور:

-أنا اتحرت من كلمة ماما، ماشوفتهاش أصلاً، ما حسنتش ناحيتها غير بالكره والحقد، كنت لوحدي طول عمري

ظل محدقًا بها متعجبًا من أسلوبها الجديد في إظهار ضعفها لتحرك مشاعره ويشفق عليها، بينما كانت هي في أصدق حالاتها مصارحة مع نفسها، تابعت مضيف بانكسار:

تخيل؟ رغم كل البشر اللي حواليا واللي يتمنوا رضايا، بس أنا لا كان عندي أب ولا أم، اتجبرت على حاجات مكوتنش عاوزاها، واتعرضت لحاجات مش عاوزة افكرها أصلاً!

بدا "نبيل" متأثرًا بكل ما تقول، شعر أن خلف تلك المتسلطة القاسية مدعية جحود القلب أنثى ضعيفة عصفت بها ظروف الحياة وتحتاج لمن يحتوي أحزانها ويخفف عنها الألم، اتسعت أعينها الفيروزية الباكية بدرجة ملحوظة وهي تكمل:

أه أنا كنت جاية أخرب حياة "نادية" هانم، بس معملتش حاجة فعلاً، مقدرتش حتى

انخفضت نبرتها لاختناقها بالعبرات، فقد غص صدرها ببكاء يدي القلوب، رفض عقل "معتصم" تصديق ما تبوح به، ظن أنها تلجأ لتلك الحيلة لتؤثر عليه بطريقة أخرى غير تلك التي اعتادها منها، صاح بخشونة:

-بطلي كذب

فغرت شفيتها وقلبا يعتصر أماً من قسوته غير مبررة، استأنف صياحه الأمر هادراً:

-الي زيك يستاهل يموت

ثم انقض عليها ماسكاً إياها من ذراعها، صرخت متألماً لكنه لم يكثرث بها، دفعها بعنف للخلف وهو يردد:

-امشي من هنا، اعتبرها ماتت علشان ترتاحي

تأهب "نبيل" للتدخل فوراً للحول بينهما هاتفاً:

- "معتصم"، ابعدها

ردت "آسيا" مدافعة عن نفسها:

-إنت غلطان، أنا

قاطعها "معتصم" صائحاً بصوته المنفعل:

-يالاً من هنا

ثم استمر في دفعه لها بعيداً عن السيارة رغم محاولات ابن عمه التدخل وإفلات قبضته من عليها، هتف به "نبيل" بحنق:

- "معتصم"

كان الأخير مغيبًا لا يسمع إلا صوت عقله المتحجر التفكير الذي أصدر حكمه وتعامل مع "آسيا" على كونها مجرمة مدانة ارتكبت الأفعال المشينة، رفض الإصغاء لرجائه حتى ألقى بها بعيدًا عنه لتطرح أرضًا وهي تصرخ متأوهة من الألم، التقت نظراتها المنكسرة قهراً بأعينه المظلمة، فقدت مع معاملته الجافة لها قوتها، شعرت أنها عاجزة حتى عن النهوض، بأنها جسد ممزق يوشك على مفارقة الحياة، حاول "نبيل" مساعدتها لكن جذبه "معتصم" رغمًا عنه للخلف لتغدو بمفردها وهو يهتف به بجفاء منقطع النظير:

- ولا كلمة، تعالى معايا

قاومه "نبيل" بغضب:

سييني يا "معتصم"، إنت مش شايف حالتها

رد عليه تهكم وهو يرمقها بنظراته الاحتقارية:

دي تمثيلية بتضحك فيها على الهبل

حدجه بنظرات حادة مستنكرة إجحافه عليها وهو يقول بعدم أكرات:

-أنا راضي إني أكون أهبل بس مش هاسيها

أمسك به "معتصم" من ذراعه قائلاً:

-أنا هامنعك!

رد "نبيل" بتحد:

مش هاتقدر

ثم سأله مستفهمًا وقد أوشك على الخروج عن وقاره معه:

حرام عليك، إنت بتعاملها كده ليه؟

أجابه بلا تردد بنبرة تحمل الكراهية:

-لأنها تستاهل، إنت متعرفهاش زي

رد متسائلاً بنبرة ذات مغزى:

-وانت تعرف إيه عنها زيادة عني؟

للحظة شل تفكيره وأصيب بالحيرة من سؤاله الغريب، فقد ابن عمه محققاً في جزئية بعينها، أنه بالفعل لا يعرف عنها شيئاً سوى ما تنشره الصحف الإخبارية عنها من شائعات ربما تكون صحيحة أو لا، ظن أن ذلك عبثاً ليفكر بمنطقية لذا استجمع نفسه ليجيبه:

-إنت مابتقراش أخبارها على النت، ده هي

قاطعته "نبيل" موبخاً إياه على محدودية تفكيره:

-يعني كل اللي تعرفه من على النت، يعني الله أعلم إن كان صح ولا غلط، إنت صدقت زي أي حد بيقرى، فرقت إيه عن الغريب اللي حكم عليها بدون حتى ما يسمعها؟ جريت إنت تكلم معاها؟!!

استغرب "معتصم" كثيراً من تأثره بـ "آسيا" بتلك الطريقة العجيبة، وكأنها ألقت عليه تعويذة سحر تخصصها ليصبح تحت تأثيرها، نظر له بعدم مبالاة قائلاً:

-مش محتاج، وبعدين أنا الوحيد اللي فاهم كويس دماغها فيها إيه وناوية على إيه!

انزعج "نبيل" كثيراً من سوء نواياه نحوها فرد مدافعاً عنها:

- "معتصم" إنت غلطان، "آسيا" مش كده

رد ساخراً:

-الظاهر إنها شغلتك المحامي بتاعها!

برر موقفه معها قائلاً بقوة وبمنطقية واضحة:

لأ، أنا بأقول كلمة حق، تفكر واحدة هتخاطر بسمعتها وهي مشهورة وتعمل فضيحة
علشان بس تغيظك ولا تدمر سمعة العيلة ومحدش أصلاً يعرف الصلة دي غيركم؟!
صمت ابن عمه ليفكر للحظة في حديثه الأخير، بينما تابع "نبيل" موضحاً بنفس الجدية:
يا "معتصم" فكر بالعقل وشوف مين ورا الليلة دي كلها، استحالة بعد الفضيحة دي
كلها يطلع الموضوع فشذك، في حد تقيل وراه، بس مش "آسيا"!

.....

في نفس الأثناء، كانت "آسيا" ترتجف في رقتها المهينة على الأرضية الإسفلتية،
أصيبت ساقها بخدوش وسبجات سطحية من قسوة الارتطام بها، لم يشعر أحد بألمها
الداخلي والخارجي، هي بمفردها مهما امتلكت من أموال وامتيازات كثيرة أهمها جمالها
الفطري، ترسخ بداخلها إحساساً أنها نقمة على من يعرفها، أنها لعنة على نفسها قبل
غيرها، كذلك تيقنت أن انتقامها من والدتها كان زائفاً، لم تكن لتؤذيها حتى لو اتاحت
لها الفرصة، هي أضعف مما تتخيل، وأجن من تلك الشجاعة الزائفة التي تدعيها،
استندت بيديها محاولة الوقوف، استغرقت عدة لحظات لتمكن من النهوض، راقبت
مشادة "نبيل" و"معتصم" الكلامية بخوف، كانت تخشى هجوم الأخير عليها إن أفلت
من يد قريبه، أثرت أن تهرب قبل أن يستدير نحوها، ترنحت في سيرها وهي تدير
رأسها من آن لآخر لتتأكد أنه لا يتبعها، لكنها لم تنتبه للموتور القادم من الخلف، ضغط
قائده على البوق عدة مرات عليها تأخذ حذرهما، ورغم ذلك كانت كمن فصل عن حوله
فلم تسمع شيئاً، وجدت "آسيا" فجأة ضوءاً قوياً يكاد يعمي أبصارها فصرخت لا إرادياً

وهي تراه يقترب منها، شعرت بعد ذلك بألم عنيف يضرب الجزء السفلي من جسدها قبل أن تُقذف للخلف عدة أمتار ليسقط جسدها غارقًا في دماثة ويسكن معه صوتها. استدار كلاً من "نبيل" و"معتصم" في اتجاه صوت الصراخ الفرع ليتجسد المشهد الدامي نصب أعينهما، لم يتمكن قائد الموتور من مفاداة "آسيا" التي ظهرت أمامه فجأة هكذا، حاول إخفاض سرعته لكن فات الأوان، واصطدم بها بقوة عنيفة مطيحًا بجسدها في الهواء لتفترش بعدها الأرضية وهي في حالة سيئة لا تبشر بخير، صاح "نبيل" مفزوعًا من هول المنظر وهو يركض نحوها هاتفًا باسمها:

- "آسيا"

وقبل أن يصل إليها استدار برأسه للخلف هادراً بنبرة تحمل اللوم الصريح:

لو جرالها حاجة هاتكون إنت السبب!

شعر "معتصم" أن أنفاسه انقطعت فجأة، وبانتباضة قوية اعتصرت قلبه بشراسة وقد شهد بعينه ما حدث لها في ثوانٍ معدودة، تسمر في مكانه عاجزًا عن السير أو التفكير، ارتجفت أطرافه وهو يجاهد ليحرك قدميه نحوها رافضًا تصديق ما رآه تواء، وما ضاعف من إحساسه بالخوف هو إلقاء ابن عمه للوم عليه وكأنه من تسبب في ذلك الحادث المخيف.

ترجل قائد الموتور عن خاصته لينظر إلى ما اقترفه بهلع، ارتعدت نبرته وهو يقول:

-والله ما شوفتها، هي اللي طلعت قدامي فجأة

تجمع عدد من المارة حول جسد "آسيا" متأملين ما حدث لها وامترجت عباراتهم المواسية مع تلك المصدومة والمستنكرة، ردد أحدهم من الخلف:

يا ساتر يا رب

وأضاف آخر:

إسعاف بسرعة يا ناس

-لا حول ولا قوة إلا بالله

اندفع "نبيل" وسط أجسادها ليمر بينهم حتى وصل إليها، جثا على ركبتيه أمامها وبدأ في تفقدها مع شخص آخر بدا إلى حد ما متخصصًا فيما له علاقة بالأمر الطبية، كان ذلك واضحًا من طريقة تعامله معها وفحصه لنبضها، أراد الأخير أن يتأكد من بقائها على قيد الحياة، شحب وجه "معتصم" وقد وصل إليها، هربت الدماء من عروقه وهو ينظر بأعين زائغة ومترقبة لوجه ابن عمه وذلك الغريب الذي كان يفحصها، حركت بصره ناحية وجهها فوجده ملطخًا بالدماء، تضاعفت رجفته وهوى على قدميه أمامها شاعرًا بقوة ضربات قلبه، التفت "نبيل" نحوه مسلطًا أنظاره عليه ثم استطرد قائلاً بصوتٍ مختنق:

إنت السبب !!!

.....

الفصل الثالث والعشرون

تخيل أنه يخوض كابوسًا مزعجًا سيفيق منه بعد قليل ليغدو كل شيء طبيعيًا كما اعتاد في حياته الهادئة قبل أن يلقاها، لكن على عكس ما تمنى "معتصم" كان الأمر واقعًا ملموسًا؛ "آسيا" ممددة على الأرضية الإسفلتية غارقة في دماها ووجهها يختبئ خلف تلك الصبغة المخيفة، ويحاوطها أشخاص غرباء لا يستطيع أن يفسر مهماتهم المتداخلة، حبس أنفاسه مترقبًا انسداد الستار والإعلان عن خبر مشؤوم سيتحمل هو اللوم كليًا عنه، انقطعت أنفاسه وأحس بارتفاع صوت نبضات قلبه في صدره، التدافع يزداد والوجوه تعكس ما يدور، شعر "معتصم" بقبضة قوية تدفعه للخلف، نظر بشرود

مصدوم لمن فعل ذلك فوجد أحد المسعفين يريد أن يمر ليتفقدوها، انزوى بعيداً عن الحشد المتكثف حولها غير مدرك لما سيفعله، لأول مرة يفقد قدرته على التصرف في المواقف الصعبة.

عاون "نبيل" المسعفين في رفع "آسيا" على الناقلة الطبية وتولى مهمة الإدلاء عن البيانات الشخصية التي تخصها لأحدهم، استدار برأسه ناحية ابن عمه يسأله بنبرة محتفنة لكنها رسمية للغاية:

جاي معايا؟

بدا "معتصم" فاقداً لقدرته على النطق أو التعبير، كان وجهه جامداً خالياً من أي تعبيرات تدل على قبوله أو رفضه، نظر له "نبيل" باستياء محبط ثم أضاف بجديّة:
خليك مكانك أنا رايح معاها!

حاول "معتصم" الرد عليه لكنه كان في حالة صدمة، شعر أن الكلمات هربت من على طرف لسانه، بأنه مسلوب الإرادة ومضطرب في الإحساس، تحركت أعينه مع ابن عمه وهو يستقل عربة الإسعاف برفقة "آسيا" ليستفيق بعدها من جموده المريب مدرّكاً أنه بات بمفرده في الشارع وبعض الأفراد ممن يندبون حظ تلك الشابة التعسة التي ربما لن تنجو من ذلك الحادث الأليم، استوعب ما يدور وعاد إلى أرض الواقع، استجمع نفسه ثم هرول متجهاً نحو سيارته ليستقلها ويتبعهم محاولاً إجبار عقله على التفكير بمنطقية في تلك الظروف العصيبة.

.....

شهقت بحشجة مخيفة وهي تنتفض من رقبتها الطويلة مستعيدة وعيها، وكأن قلبها استشعر ما تمر به ابنتها فأجبر عقلها على العمل بكفاءة والنهوض من ذلك السبات العميق، بدأت "نادية" في تحريك جسدها المتيبس بحركات متكررة معلنة عن إفاقتها،

هب "وحيد" واقفاً من مكانه بعد أن أغلق مصحفه وأسندته على الطاولة متوجهاً إليها،
لم يصدق عينيه وهو يرى بنفسه حركتها المحدودة، تهللت أساريره هاتفاً بسعادة:

- "نادية" حبيبتي، إتي سمعاني

حاولت نزع الكمامة البلاستيكية التي تمدها بالأكسجين لتقول بصوت خفيض وواهن:
- "آسيا"

لم يفسر زوجها ما تقوله، لكنه احتضن كفها بين راحتيه قائلاً بجماس:

حمد الله على سلامتك، أنا مش مصدق نفسي والله

التفتت بأعينها المتسعة في توتر لتقول له بجدية شديدة:

- "آسيا"

عقد ما بين حاجبيه مبدئياً استغرابه من سؤالها عنها، حافظ على ثبات ابتسامته قائلاً
بهدوء كي لا يثير قلقها عليها خاصة بعد أن نما إلى مسامعه ما حدث مؤخراً من فضائح
مخجلة تصدرت الأخبار والمواقع:

هي كويسة

هزت رأسها بالنفي وهي ترد بصوتها الهامس:

- لا، قلبي يقول لي لأ

رد بجدري:

صدقيني هي

بتر عبارته مضطراً حينما انتبه إلى وقع أقدام أحدهم، سلط "وحيد" أنظاره على المريضة التي ولجت إلى داخل الغرفة للتأكد من نشاط أجهزتها الحيوية، ابتسمت بمحبة حينما رأت المريضة قد عادت إلى وعيها، وقفت إلى جوار فراشها مرددة بنبرة رسمية:

حمدلله على سلامة الهام، أنا هابلغ الدكتور علشان يجي يشوفها

رد عليها "وحيد" بجدية:

يا ريت يكون بسرعة

على طول يا فندم

قالتها المريضة وهي توليه ظهرها لتسير في اتجاه باب الغرفة، ظل متابعا لحركتها حتى انصرفت من المكان فعاود التحديق في زوجته التي كانت تكافح للنهوض من على الفراش، حذرها قائلاً بتوجيس:

- "نادية"، مافيش داعي للحركة الكثير

ردت عليه بنبرتها الواهنة:

عاوزة أشوف بنتي، هي محتاجاني

بدا "وحيد" حائراً في التعامل مع إصرارها العنيد، ابتسم مضيقاً بهدوء:

ماشى، بس نظمن عليكى الأول ولا عاوزه توقعي من طولك تاني

استسلمت أمام جديته، فهي بحاجة لاستعادة نشاطها لتتمكن من الوقوف على قدميها، على عكسها شرد "وحيد" يفكر ملياً في أكذوبة مقنعة يسردها عليها بشأن ابنتها لتصدقها دون الحاجة إلى أي مبررات، فهي إن عرفت بما صار لها لانهارت فوراً، لم يكن أيضاً على علم بحادث السير المروع الذي تعرضت له مؤخراً مما سيزيد الأمور تعقيداً.

.....

وضعت بالعناية الفائقة بعد أن أجريت لها عمليات جراحية دقيقة في الأجزاء المصابة من جسدها لمعالجتها في الحال قبل أن تتفاقم حالتها وتدهور للأسوأ، خاصة بعد أن نذفت كثيراً، منعت الزيارة عن "آسيا" حتى إشعار آخر، جلس "معتصم" على المقعد المعدني الموجود بالرواق محنيًا بجسده للأمام ومسنداً جبينه على كفيه المشبكين معاً، استعاد في ذاكرته مشاهدًا جمعة لأغلب المواجهات الحامية بينهما، تحديات وصدمات شرسة لم تخلو من الصفعات وتبادل الاتهامات، ومع ذلك لم تنته أيًا منهم بحادث أليم مثل تلك المشاجرة الأخيرة، كان ضلعًا مباشرًا في إصابتها حتى وإن أنكر ذلك، تمنى ألا تكون في وضع حرج وتفيق مما هي فيه ليتغلب على إحساسه بالذنب نحوها، فجزء منه يوبخه على تجاوزه المبالغ فيه معها دون مراعاة لحالتها النفسية السيئة، كان كالأعمى مغيبًا عما تمر به، وما زال على عناده في شأنها، يرفض تصديق براءتها، انتزعه من تفكيره العميق صوت "نبيل" المعاتب بقسوة:

-إنت السبب في اللي جرالها

تجمدت أنظاره عليه فواصل تعنيفه بغلظة:

لو ماتت ذنبها في رقبتك

مجرد ذلك تلك الكلمة أصابه بالقشعريرة، تحفزت دماثة واعتدل في جلسته مقاومًا شعور تأنيب الضمير الذي يورقه منذ وقوع الحادث لها، استطرد قائلاً بصوت شبه متحشرج مدعيًا الهدوء:

يا ريت ما تتكلمش في الموضوع ده دلوقتي

رد عليه بعنادٍ وهو يشير بسبابته:

لأ هنتكلم، إنت ظلمتها ولازم تعرف ده كويس

لم يتحمل إلقاء اللوم عليه فدافع عن نفسه قائلاً:

هي اللي عملت كده في نفسها بفضايحها، أنا لا هاكون أول واحد ولا آخر واحد يواجهها بمصايها، كان لازم تعرف هي إيه بالضبط

اغتاظ "نبيل" من كونه يخلق الأسباب ليريح نفسه حتى لو كانت مخطئة، هتف بجدة غير مكترث بارتفاع نبرته وبوجوده في المشفى:

مين إنت علشان تحاسبها ولا تحكم عليها؟ مجرد ابن جوز أمها، يعني ملكش صلة قرابة مباشرة معاها

توتر "معتصم" من التفات الأنظار نحوهما فهب واقفاً من جلسته غير مسترخية ليرد وهو يضع يده على كتف ابن عمه:

خلاص نتكلم بعدين!

أزاح الأخير قبضته بعيداً عنه ثم رد بإصرار أشد عناداً:

مافيش بعدين، خرينا نتكلم بصراحة، واحدة اتحرمت من حنان أمها لسنين، وشافت حد تاني أخذ كل حاجة طبيعي لازم تكرهه وتعاديه، وإنت كنت الواحد ده، لو كنت مكانها كنت هتصرف إزاي؟

قست ملامحه قائلاً:

إنت بتدورلها على مبررات وخلص يا "نبيل"، بلاش تكون على نيائك كده، محدش قالها تبقى صايعة وفضايحها على كل لسان، محدش قالها ترمي نفسها في حضن اللي يدفع تمها

احتدت نظراته من أسلوبه المستفز ثم تابع بغلظة:

وإنت إتاكدت من ده ولا مجرد ترديد للكلام اللي بنقراه ونسمعه؟!!!

تحدث قائلاً من زاوية فمه:

مش محتاج أتأكد، كلها على بعضها يقول إنها كده، أنا فاهمها كويس!

يئس "نبيل" منه فرد بإحباط:

-بجد إنت تركيبة عجيبية، عمرك ما كنت كده، بالعكس إنت محترم جدًا مع البنات
وبتعاملهم كويس

نظر له شزرًا وهو يرد:

-لما يكونوا محترمين، غير كده أنا

قاطع الطيب "مصطفى" قبل أن يكمل جملته مرددًا بنبرة جادة للغاية وهو يدنو منها:

- "معتصم"!

استدار برأسه نحوه هاتفًا:

- "مصطفى"

سأله "نبيل" بتلهف وقد تضاعف توتره بداخله:

طمنا إيه أخبار "آسيا"؟ محدش هنا عاوز يقول حاجة عن حالتها!

بدا وجهه مشدودًا إلى حد ما وهو يجيبه:

مخبيش عليكم، وضعها كان سيء أول ما جت، بس عشمنا في الله إنها تفوق وتتجاوب
مع العلاج

انقبض قلب "معتصم" رغم ثباته الوهمي أمام الاثنيين، للحظة اعتقد أنها ستقضي نحبها،

وأنه الطرف الرئيسي في إلقاء حتفها، بينما تساءل "نبيل" بقلبي:

في حاجة خطيرة عندها؟

حرك "مصطفى" رأسه نحوه قليلاً ليرد بأسف:

ارتجاج في المخ، كسر في الساق اليسري، وتهتك في جانب الحوض الأيسر، ده غير الخلع اللي في الكتف، وللأسف حصل تمزق في بطانة الرحم وتم خياطته وده ممكن يآثر على عملية الحمل في المستقبل

كان "معتصم" كمن أصيب بالصاعقة عندما سمع ملخصًا موجزًا لوضعها الصحي، تجمد في مكانه وهدق في وجه صديقه مصدومًا، لم يتوقع أن تكون حالتها على تلك الدرجة من الخطورة، والأسوأ من ذلك احتمالية حرمانها من إحساس الأمومة إن قدر لها أن تتزوج، على عكسه كان ابن عمه في حالة تأثر واضحة، تتم بحسرة كبيرة:

يا ساتر يا رب

ساد الصمت لثوانٍ بين ثلاثهم حتى قطعه "معتصم" بجمود زائف:

طب هي هتفوق امتي؟

أجابه "مصطفى" بروتينية:

لسه مش عارفين

كانت المفاجأة الأكبر التي جذبت أنظارهم لبداية الرواق هو رؤية ثلاثتهم لـ "نادية" تسير مستندة على ذراع زوجها، اعتلت تعابير "معتصم" دهشة عجيبة، فمذ سويغات كانت راقدة في فراشها تنازع للبقاء على قيد الحياة، والآن هو يراها مستعيدة لوعياها وتمشي بتؤدة (بطء)، التفت نحو ابن عمه يبادلها نظرات مدهوشة، ثم عاود التحديق بها، ارتسمت ابتسامة سعادة على وجهه العابس مرددًا:

ماما

هرول نحوها ليحتضنها باشتياق كبير، نسي مع ضمتهما ما يمر به من ضغوطات عصبية، ظل باقيًا في أحضانها متنعمًا بدفته الحنون، همس لها بنبرة شبه مختنقة:

حمدلله على سلامتك!

مسدت على رأسه ومسحت على ظهره برفق ليتغمده إحساس مطمئن أصابه بالسكينة، لكنها سريعًا أعادته لمرارة الأحداث حينما سألته بتلهف:

فين "آسيا"؟

شعر بغصة عالقة في حلقه، بوقع قسوة سؤالها البسيط على نفسه، تراجع عنها ليحذر فيها بأعين مليئة بالدهشة والصدمة، هربت الكلمات من جوفه فعجز عن الرد عليها، بدا مشتتًا ضائعًا أمام نظراتها العطوفة، مدت يدها لتمسح على صدغه برفق ثم تابعت قائلة بابتسامة باهتة:

أنا عرفت إنها هنا، عاوزة أشوفها يا "معتصم"!

ارتجفت شفته وهو يرد بارتباك:

بس هي

قاطعته والده قائلاً بجدية وبكلمات موحية:

- "معتصم"، احنا سمعنا عن حادثة الموتوسكيل من الدكتور "مصطفى"، وجاين نشوف "آسيا"، فافيش داعي نفتح في أي مواضيع

حملق فيه ابنه بنظرات غريبة، لكن نظرات والده كانت واضحة للغاية هو لا يريد الخوض في الحديث عن فضيحة الفندق كي لا يثير انزعاج زوجته التي لا تزال تعاني من آثار مرضها، أوماً "معتصم" برأسه قائلاً بتفهم:

-تمام يا بابا!

أردف "مصطفى" قائلاً:

-باعتذرلكم يا جماعة مش هاينفع حد يشوفها دلوقتي، لما الحالة تستقر!

اعتصر الألم قلب والدتها فردت عليه بجزن:

للدرجادي بنتي حالتها وحشة

تدارك "مصطفى" الموقف سريعاً قبل أن ينعكس بالسلب على حالتها قائلاً:

-ماتتخضيش يا طنط، بس ده إجراء روتيني!

أضاف "معتصم" بابتسامة مصطنعة:

-ماما وجودنا هنا مالوش لازمة، تعالي نشرب حاجة أو ...

نفس الجملة تتكرر على مسامعها، الابتعاد عن ابنتها ريثما تفيق، لم تنس "نادية" ما

حدث في المرة الماضية، لذا صاحت مقاطعة بلهجة شديدة:

-مش هامشي يا "معتصم"

انزوى ما بين حاجبيه بقوة وهي تكمل:

-أنا هافضل جنب بنتي حتى لو استنيت برا باب أوضتها، مش هاسيدها ثاني أبدًا

!!!

.....

الفصل الرابع والعشرون

ركز أنظاره القلقة على وجهها المتوتر في انفعالاته الطبيعية، فليس من السهل على أي أم أن تتلقى خبر مرض فلذة كبدها ودخولها للعناية الفائقة، وما حدث مع ابنتها ليس بالأمر الهين، فالحادث على ما يبدو مروّعاً للغاية، نظرت له "نادية" مطولاً عاقدة العزم على عدم التراجع عما قرره، استطرقت مضيفة بنبرة تحمل الندم:

-كفاية إني كنت مقصرة في حقها السنين اللي فاتت

رد عليها "معتصم" بجدري:

ماشى بس

سيها على راحتها

قالها "وحيد" بلهجة هادئة لكنها صارمة قطعت على ابنه أي مجال للنقاش أو المجادلة، لم يكن أمام الأخير بداً من الاعتراض، تنفس بعمق ورسم ابتسامة باهتة على ثغره قائلاً:

حاضر

ثم ربت على كتفي "نادية" بجنونٍ مكثفياً بالتزام الصمت، اقترب "نبيل" منهم مضيئاً بجديّة:

إن شاء الله نطمئن عليها

ردت عليه "نادية بنبرة راجية وقد لمعت أعينها:

يا رب

استخدم الطبيب "مصطفى" يديه في الإشارة قائلاً:

هستأذن حضراتكم تقعدوا في الكافيتريا اللي تحت لحد ما يتم السماح بالزيارة

تطلع إليه الجميع بنظرات متنوعة كان السائد فيها الرفض من قبل "نادية"، فأكمل موضحاً بهدوء جاد:

صعب كلّم تفضلوا متواجدين هنا في الطريقة، ده لراحتكم ولراحة المرضى كمان

ردت "نادية" معترضة:

وينتي؟

وقف قبالتها قائلاً:

اطمني، أنا بنفسى هابلغ حضرتك، لكن صدقيني وقفتك هنا مش هاتقدم ولا هتأخر، وماتنسيش حضرتك لسه قايمه من تعب شديد

دعم "وحيد" موقفه مضيئاً:

د. "مصطفى" عنده حق يا "نادية"، تعالي نشرب حاجة وهنيجي عندها، احنا مش رايجين في حته!

اضطرت أن تستسلم -مؤقتاً- أمام إصرارها الجاد بالتواجد في الكافيتريا الملحقة بالمشفى لبعض الوقت، لكنها لن ترحل أبداً عن ابنتها.

.....

ظل صدى كلمات "نبيل" يتردد في عقله ليضعف من إحساسه بالذنب وتأنيب ضميره، فكر ملياً بأنها حتماً مخطئة في اختيار ذلك النمط السيء من الحياة لتسلكه، لكنه كان مجحفاً في معاملتها بتلك القسوة والخشونة لمجرد رغبتها في الانتقام -كما تزعم- ممن سلوبها استقرار حياتها، فبالرغم من تهديداتها المتواصلة إلا أنها فعلياً لم تفعل ما يسيء للعائلة، بل على العكس كانت سمعتها شخصياً هي المستهدفة، ولم تعلن في أي موقف عن وجود صلات أو روابط أسرية بينها وبين زوجة أبيه، احتار "معتصم" في تلك التركيبة العجيبة من شخصيتها، ورغم ذلك لم يرفق بها، كان يفضل تحميلها الذنب كاملاً على أن يشعر بالندم نحوها، هي لا تستحق أن تنال جزءاً من تفكيره، فاختيارها نابعة من عقلها وليس نياية عنها، إذاً هي الملامة الوحيدة على ما وصلت إليه أمورها، اتخذ سيارته الملاذ ليهرب ممن حوله وخاصة نظرات زوجة أبيه التي تلومه صراحة على ما حدث، أثر الابتعاد والانزواء مع نفسه ليستعيد ثباته، وسيطر على ارتباك وتخبط مشاعره وأفكاره، لكن تعكر صفو سكونه مع تجسد طيف "آسيا" على الزجاج الأمامي لسيارته، كان وجهها كما رآه آخر مرة، ملطخاً بالدماء، وعينيها الفيروزيتين تفيضان بالدمع الغزير، انتفضت حواسه وتسارعت دقات قلبه مع تلك الهيئة التي تخيلها، كانت نظراتها إليه مليئة بالعتاب، اخترقته وأشعرته بشيء ما، ابتلع ريقه بتوتر، وحاول أن يضبط اضطراب أنفاسه، تتم مع نفسه محاولاً إبعادها عن ذهنه:

-إتي السبب مش أنا

احتقن وجهه وبرزت عروقه متابعًا:

ما تجيش تحملي حد ذنوبك، إتي اللي اختارتي طريقك وجيتي علشان تخربي حياتنا!
حاول إيجاد المبررات الواهية لنفسه ليريح عقله المنزعج من كثرة التفكير، أشار لطيفها
بسبابته مكملًا صياحه بها:

-مش ذنبي إن مامتك اتجوزت بابا، أنا ما اخترتهاش تكون أمي، بس هي اختارت تقوم
بالدور ده، وحقها عليا أحميها من شرك بعد كل اللي عملته علشانني!

بحث عن أسباب تدفعه لكرهها أكثر كي لا يلين قلبه نحوه، تابع مضيئًا بعدائية:

-من أول لحظة اتواجهنا فيها سوا قولتي ده بنفسك، إنك جاية للخراب وبس، جاية
تدمري، تحرقني، تهدمي، فاستحالة كنت أسيدك تعملي ده
وكأنه وجد المنفذ لتنفيس أحاسيسه المكبوتة فاتفجر معبرًا:

-إتي اللي وصلتي لحالتك دي بنفسك، إتي اللي شوهتي سمعتك، ناس كثير ظروفها
كانت أصعب وعاشوا شرفا، لكن إتي استسهلتي تبيعي نفسك وجاية دلوقتي عاوزانا
نتعاطف معاك، إتي بتحلبي

انخفضت نبرته مضيئًا بلهجة قائمة:

-أنا عمري ما هانسي إتي إيه!

ردد تلك الجملة لنفسه مرارًا وتكرارًا حتى تلاشى طيفها تدريجيًا، أغمض عينيه ساحبًا
نفسًا عميقًا حبسه في صدره ثم لفظه ببطء كي يهدأ من ثورته الداخلية، حرك رأسه
للجانب حينما سمع هاتفه المحمول يرن، التقطه واضعًا إياه على أذنه بعد أن قرأ اسم
"نبيل" مضيئًا على شاشته ليقول بوجوم:

-أيوه

أتاه صوته مردداً:

-إنت فين يا "معتصم"؟ الدكتور سمح بزيارة ٥ دقائق، طنط "نادية" دلوقتي عند
"آسيا" و...

قاطعته بفتور:

-والمطلوب مني إيه؟

سأله متعجباً:

مش ناوي تشوفها

صمت للحظة قبل أن يجيبه برد قاطع:

-لأ

لم يتوقع ابن عمه ذلك الرد منه، فقد ظن في ابتعاده فرصة لترتيب أفكاره وتوضيح
الصورة كاملة في عقله، لكنه ظل على عناده، ارتفعت حدة نبرته قائلاً:

- "معتصم"، إنت

قاطعته مردداً بجمود قاس:

-وجودي مالوش لازمة، أنا مش من بقية أهلها!

تفاجأ من رده الفظ لكن تابع "معتصم" بنفس اللهجة الجافة:

-ويا ريت ماتحاسبينش عن حاجة أنا ماليش يد فيها، حادثة حصلت زي أي حادثة

بتحصل لأي حد ماشي في الشارع

رد عليه "نبيل" بانفعال شبه ملحوظ:

براحتك، واضح إن كلامي معاك زي قلته، سلام!

أنهى معه "معتصم" المكالمة ملقياً هاتفه إلى جواره على المقعد مخرجاً زفيراً مهموماً من صدره، شعر بأن الأجواء قد باتت خائفة وباعثة على الانتقباض فقرر أن ينصرف فوراً، فلا حاجة له للبقاء في مكان يبث له مشاعر الكراهية والعداء.

.....

كانت الأشياء ساكنة من حولها إلا صوت جهاز قياس نبضات القلب المعلن عن بقائها على قيد الحياة، بقي رنينه الثابت هو الإشارة المقروءة لوجود "آسيا" في عالم الأحياء، نظرت لها "نادية" بأعين مليئة بالعبرات الملتاعة لرؤيتها راقدة في سكون مخيف، جزع قلبها مع تأملها لتلك الكدمات الزرقاء التي غطت جانب وجهها الأيسر رغم تجبئته خلف قناع الأكسجين، زاد شعورها بالخوف عندما أخفضت نظراتها لترى باقي الإصابات المتفرقة في أنحاء جسدها، كتمت شهقاتها المتحسرة على حالها، لم تستطع الوقوف، فأحضرت لها الممرضة مقعداً لتجلس بجوار فراشها، نعم قدماها لم تسعفاها أمام مُصاب ابنتها الخطير، مدت يدها لتلمس كفها البارد فارتعشت من مجرد تحسس جلدها، همست لها بنحيب:

- "آسيا"، أنا هنا جيبك

مسحت عبراتها بظهر كفها، وتابع قائلة:

-أنا أسفة عن كل لحظة كنتي فيها بعيدة عني، حقك عليا لأني سبتك لوحذك وكملت حياتي من غير ما أدور عليك أكثر، أنا فعلاً قصرت في حقك!

غص صدرها ببيكاءٍ أشد مرارة حينما سألتها:

-ردي عليا يا بنتي، خليني أسمع صوتك

انقبض قلبها أكثر لعدم استجابتها لها، وتضاعفت رجفتها مع تلك اللمسة الخفيفة على كتفها، التفتت برأسها للجانب لتجد زوجها إلى جوارها يؤازرها، احتضنها من كتفها قائلاً بصوت خفيض:

-اهدي يا "نادية"، إن شاء الله هاتبقى كويسة

بكت قائلة بحزنٍ جلي:

-أنا خايفة يا "وحيد"، شايف شكلها عامل إزاي؟

ألقي نظرة خاطفة على "آسيا" وتفهم سبب خوفها من احتمالية خسارتها، حاول تلطيف الأجواء باعثة الأمل في نفسها فرد قائلاً:

خليكي مؤمنة بالله، اللي هي فيه ده ابتلاء، وإن شاء الله تقوم منه وتبقى أحسن، ساعات ربنا بيحطنا في اختبارات علشان يشوف هنعمل إيه

كانت كلماته كالبلسم الشافي لأوجاعها، ورغم إحساس الطمأنينة الذي بثه لها إلا أنها ظلت خائفة من تطور وضعها للأسوأ، وضعت "نادية" يدها على صدرها هامسة بتوجسٍ وقد توترت نظراتها:

- "وحيد"، قلبي مقبوض، هو "آسيا" ممكن ... ت ... تموت؟

قاطعها بهدوء:

-ماتقوليش كده، الأعمار بيد الله، إتني بس ادعيها وربنا عليه الاستجابة!

رفعت نظرها للسماء قائلة ببكاءٍ متوسل:

يا رب اشفيها وزيح عنها يا كريم!

.....

مرت عدة أيام وحالة "آسيا" الصحية في استقرار غير مقلق رغم عدم استعادتها للوعي بعد، لكن بعث ذلك بريق أمل في تجاوزها لمرحلة الخطر، نقلت بعد ذلك إلى غرفة عادية مع وجود رعاية تمريضية مكثفة لتتابعها على مدار الساعة بناءً على تعليمات الطبيب "مصطفى"، كذلك تم إخفاء هويتها والتشديد على وجودها بالمشفى لتجنب الملاحقة الصحفية لها، وشكل ذلك نوعاً من الراحة لـ "معتصم" الذي لم يزرها مطلقاً متحججاً بانها في أعماله المؤجلة، ورغم قوة حجه إلا أن والده عاتبه لتجاهله لها، ومع ذلك لم يعر الأمر أي اهتمام، فيكفيه ما تكبده منها على مدار الفترة الماضية، حزنت "نادية" لعدم أكثرائه، واحتفظت بضيقتها الحالي منه في نفسها، فشاعلها الأكبر كان ابنتها فقط، لازمتها في أزمتها ولم تتركها للحظة، ومكثت معها بنفس الغرفة حينما سُمح لها بذلك، ورغم صعوبة رؤيتها على تلك الحالة إلا أنها عاشت معها أجمل اللحظات، فهي انفردت بها كأم مع ابنتها، كانت تدعو لها يومياً طالبة الشفاء لها من المولى، أيقنت أن دعواتها استجيبت حينما حركت "آسيا" رأسها وهي تئن بهمس ضعيف، أسرعت نحوها لتجلس على طرف الفراش بجوارها، احتضنت كفيها بين راحتي يدها قائلة بسعادة:

- "آسيا"

تشوقت لرؤيتها تفتح عينيها وتبادلها الحديث حتى لو كان معاتباً قاسياً، المهم أن تعود للحياة ولا تبقى حبيسة رقدتها بالفراش، دلكت كفيها متابعة بنفس الحماسة الفرحة:

أنا معاكي يا بنتي وماسبتكيش للحظة

فتحت "آسيا" جفنيها بثقل، تجهمت تعابير وجهها وتشنجت مع محاولتها الاعتياد على الإضاءة القوية، اتضح الخيال المشوش قليلاً، دقتت النظر في ملامح صاحبة الوجه الضاحك الذي تطالعها بنظرات غريبة، همست متسائلة باندهاش:

إنتي مين؟

ردت عليها "نادية" باستنكار قلق:

إتتي مش عارفاني ولا إيه؟

أغمضت "آسيا" عينيها من جديد ساحبة كفها بوهن من بين راحتي والذتها، ثم ردت
بضعف:

لأ

هوى قلبها في قدميها فزعًا من تلك الكلمة المقتضبة التي بدت كالخنجر المسموم الذي
طعنها بغتة، جف حلقها وتهدجت أنفاسها وهي تسألها بتلثم:

- "آسيا"، أنا مامتك، إتتي مش فكراني؟

نظرت لها بنصف عين ثم أشاحت بوجهها بعيدًا عنها لترد بغموض مخيف:

مين "آسيا"؟

ردت عفويًا وبتلقائية شديدة:

إتتي!

بدت "آسيا" كمن يجد صعوبة في الحديث، حركت يدها لتفرك جبينها برفق ثم همست
بتعبٍ وهي تعاود إغماض جفنيها:

أنا مش فأكرة حاجة !!

.....

الفصل الخامس والعشرون

لحظات مرت عليها كالدهر وهي تطالعها باندهاش تام بعد أن قالت عبارتها الأخيرة، أحست "نادية" بألم يعتصر قلبها حزناً على وحيدتها التي تعاني من بؤس شيء خطير تخشى الاعتقاد في إصابتها به، رسمت بسمة مصطنعة على شفيتها المرتعشتين وهي تسألها بتردد:

-يعني .. ده بجد؟ إنتي مش فاكدة حاجة خالص؟

نظرت لها "آسيا" بنصف عين قبل أن تجيبها بنفاذ صبر:

أيوه

ثم خرجت منها تأويهة موجوعة وهي تحاول تحريك جسدها لتفكه من حالة التيبس المسيطرة عليه، وجدت صعوبة في فعل ذلك بسبب ساقها المكسورة، والأربطة الطبية المحاطة لمنطقة الخصر، تنهدت هامسة بضعف:

أنا تعبانة

أدركت "نادية" أنها إلى الآن لم تستدع الطبيب ليقوم بفحص حالتها بعد استعادتها لوعيها، انتفضت من جلستها لتقول بتلهف:

أنا هناديك الدكتور يشوفك، معلىش يا بنتي ساحيني فرحتي يانك فايقة وبتكلميني نستني ده

ردت عليها "آسيا" بعبوس رغم خفوت صوتها وهي تحجب عينيها:

أنا عاوزاكي تطفي النور أو تضلمي الأوضة، عاوزة أنام، تعبانة مش قادرة خالص وصدر عنها أنات أخرى تشير إلى تألمها، أحنت "نادية" رأسها على جبين ابنتها لتقبله بحنو، اعتدلت في وقفها قائلة لها بود كبير:

حاضر، أنا هاعمل كل اللي إتي عاوزاه

ورغم إحساس الفرحة الذي غمرها لكونها قد عادت إلى واقعهم الملموس إلا أن قلبها لا يزال قلقًا على حالتها العقلية، خرجت من الغرفة وهي تكاد تتماسك في خطواتها، رآها "وحيد" على ذلك الوضع المربك فسألها بجدية:

- "نادية"، في إيه؟

أجابته بتلهف:

- "آسيا" فاقت!

اتسعت ابتسامته المتضامنة مع ذلك الخبر الفرح قائلاً:

-الحمد لله، مش قولتلك

ردت عليه بغموض وهي تتعلق في ذراعه:

-لازم نناديلها الدكتور حالاً، في مشكلة كبيرة أنا خايفة منها

قطب جبينه متسائلاً:

-مشكلة إيه دي؟

.....

-إنت مصدق التخاريف دي؟

قالها "معتصم" بعصبية واضحة لابن عمه الذي هاتفه ليخبره بآخر المستجدات المتعلقة بـ "آسيا"، دفع مقعد مكتبه للخلف وانتصب في وقفته ليحدق أمامه بنظرات مظلمة، لم يصدق حرفاً واحداً من حديثه، واحتج بشراسة على كل ما تفوه به، تجول في غرفة مكتبه محاولاً ضبط أعصابه المنفلتة ليستمع إلى باقي مكالمته، في حين تابع "نبيل" مستنكراً:

-وهو الكلام ده في هزار؟

أجابه مؤكداً وقد توهجت نظراته بجمرة ملتهبة:

-أيوه، مع النبي آدمة دي كل حاجة ممكنة، تلاقيها بتمثل عليكم، عاملة فيلم علشان تلمكم حواليا

سأله مستفهماً:

-وهتستفاد إيه من ده كله؟

رد عليه بزفير ثقيل:

-الله أعلم!

ثم ضاقت أعينه متابعا بنبرة شبه متيقنة:

-بس اللي أنا واثق فيه إن "آسيا" مش سهلة، وهتعامل أي حاجة علشان تاخذ حقها وتلتقم من العيلة

رد عليه "نبيل" بهدوء:

-والله محدش يقدر يلومها بصراحة، إنت في نظرها خدت كل حاجة منها

استشاط "معتصم" غضبا من طريقته في تبرير تصرفاتها، فصاح منفعلًا:

-أنا ملاحظ إنك واقف في صفها، بتدافع عنها زي ما تكون

قاطعته "نبيل" موضحا قبل أن يتجاوز في الحديث معه:

-مافيش داعي تكمل، أنا بأقول الكلام اللي المفروض تسمعه، طنط "نادية" تبقى

مامتها، وهي حرة معاها، الاتنين يتعاتبوا يتخافوا، يبقوا في مشاكل سواء، محدش فينا

ليه يتدخل، لأن لو ده كان حاصل معاك إنت مكوتش هاتقبل إن الغريب ياخذ

مكانك ويستولى على حقك

رد عليه بنبرة محتقنة:

-مش أنا اللي حرمتها منها

أضاف "نبيل" بصوته الهادئ محاولاً امتصاص انفعالاته:

-تمام إنت معاك حق في ده، وهي دلوقتي رجعتها، فالأحسن إنك تكون على الحياد

يا "معتصم"، كفاية أوي اللي "آسيا" شافته وبقته فيه

قصدك إيه؟

سمع صوته زفيره قبل أن يجيبه:

سبب الاتنين مع بعض يتفاهموا على طريقتهم

التوى ثغره قائلاً بسخرية:

لولا إني عارفك كويس، كنت قوتل إنك بدأت تحبها وعلشان كده عمال تخلقلها في
أعدار

انزعج "نبيل" من تلميحه فنهره قائلاً:

-اتكلم جد يا "معتصم"، أنا بأدافع عن الحق!

رد مستهزئاً:

ماشى يا عم الحقاني

ثم صمت للحظة قبل أن يتابع بغموض مريب:

-وأنا أوعدك هافضل ساكت، هاتفرح على اللي يحصل، بس مش لكثير!

.....

فركت كفيها معاً وهي تنتظر بترقب خروج الطبيب من الداخل ليخبرها بما آلت إليه
الأمر في وضع ابنتها الصحي، رفضت "نادية" الابتعاد وظلت ماكثة بجوار غرفتها
تدعو الله أن يهون عليها الألم، راقبها "وحيد" بنظرات مشفقة، فهي مستمرة على
قلقها لعدة أيام حتى أنها أهملت في متابعة صحتها، فقط لتبقى على مقربة من ابنتها،
تهدد بعمق ثم تحرك ليقف إلى جوارها، وضع يده برفق على كتفها ليربت عليه كمحاولة
طيبة منه لبث الطمأنينة في نفسها القلقة، استطرد حديثه قائلاً:

-الدكتور هايطلع دلوقتي ويطمنك

ردت عليه بتوتر:

-خايفة أوي يا "وحيد"، دي معرفتنيش وبتتوجع جامد

مسح على ظهرها برفق قائلاً لها:

-معلش، هي بقالها فترة في الغيبوبة، طبيعي يكون ده رد فعلها

-استر يا رب

قالتها برجاءٍ وهي تنظر للسماء آملة أن يستجيب المولى لدعائها المتواصل، أخفضت أعينها من جديد لتحقق في باب الغرفة، شعرت بوخزة في قلبها لمجرد رؤية الطبيب أمامها، هبت واقفة وهي تسأله بتلهف:

-ها يا دكتور؟

أجابها الأخير بنبرة رسمية وقد بدت الجدية واضحة على تعابيرها:

-وضعها الصحي في تحسن، أما مشكلة فقدان الذاكرة فده محتاج متابعة

سأله وحيد مستفهماً:

-يعني هي فعلاً مش فاكرة حاجة من اللي حصلت لها؟

أجابه بعملية:

-وارد إن ده يحصل كرد فعل طبيعي للحوادث العنيفة، في جزء من المخ بيتعطل عن العمل وبيتأثر بالصدمات القوية، ومن الواضح إن الخبطة أثرت على مراكز الذاكرة عندها نظرت "نادية" لزوجها بشرود وبدأت تفكر في وضع ابنتها لاحقاً إن ظلت على تلك الحالة، سأله بقلق أكبر:

-يعني هي مش هتفتكرنا خالص؟

أجابها الطبيب بهدوء:

-مقدرش أفيدك، ده راجع لتشخيص حالتها مع دكتور متخصص هو اللي يقدر يحدد
درجة فقدان الذاكرة وطرق العلاج

سأله "وحيد" بجديّة:

-يعني لو عملنا ده كله معاها هي هتقدر تخف وترجع تفكر كل حاجة؟

أجابه ببساطة مسهّبًا في الحديث:

-مش مستبعد، ولازم تحطوا في الاعتبار استعداد المريض للاستجابة للعلاج، لأن
في بعض الأحيان المريض بيكون جواه رغبة شديدة إنه ينسى فترة معينة من حياته
وده لو تزامن مع حادث عنيف فخلايا المخ بتعمل زي حجب مؤقت عن كل الذكريات
أو الأحداث اللي مش عاوز يفكرها

مد "وحيد" يده ليصافحه قائلاً:

-تمام يا دكتور، شكراً ليك

سألته "نادية" بقلبٍ ملتاغ:

حطب دلوقتي أقدر أدخل أشوف بنتي؟

ابتسم قائلاً:

-اه مافيش مانع، هي خدت حقنة مسكنة، بس يا ريت حضرتك ماتطوليش جوا،
المريضة محتاجة ترتاح

حاضر، هابص عليها واطمن

وما إن سمح لها الطبيب برؤيتها حتى ولجت إلى داخل الغرفة لتمكث بجوارها، جلست
"نادية" على طرف الفراش تتأملها بعينين دامعتين، شعرت بالحزن بتملكها لعجزها عن
تقديم أي مساعدة لها، رغمًا عنها بكت متأثرة لسكونها المخيف، مررت أنظارها على

أجزاء جسدها الملتفة بالشاش الطبي والجبس، زاد بكائها وامترج مع نحيبها الخافت، لم تمسح عبراتها ومدت يدها نحو كفها المسنود بجوار جسدها، مسحت عليه بنعومة هامسة لها بندم:

حقك عليا إن كنت في يوم قصرت في حقك ومعرفتش أوصلك، أنا هنا جمبك يا بنتي!

.....

انتظر خلو غرفتها من الزوار ليتمكن من الذهاب إليها دون أن يعترض أحد على سبب وجوده أو يمنعه عن المواجهة التي رتب لها في ذهنه كثيرًا، تحجج "معتصم" بالكثير من الأعذار ليتجنب رؤيتها مع العائلة رغم مرور عدة أيام على معرفته بمسألة استعادتها لوعياها وادعائها لفقدان الذاكرة، أراد الاقتراف بها ليتأكد من شكوكه، ووجوده وسط الجميع ربما سيعوقه عن معرفة نواياها، كان يتقصى أخبارها أولاً بأول، وانزعج كثيرًا من الاهتمام المبالغ فيه من أفراد عائلته بها، خاصة "نبيل" الذي داوم على زيارتها يوميًا، حتى ابنة عمه "آية" أتت لزيارتها والتعرف إليها كنوع من المجاملة لـ "نادية"، أيقن في نفسه أن "آسيا" تستغل تلك الفرص الذهبية للسيطرة على عقولهم بطريقتها الماكرة في الإيقاع بهم.

وحينما حانت اللحظة المناسبة أقدم على ما انتوى فعله، ظل "معتصم" متواريًا عن الأنظار حتى تأكد من ابتعاد والدتها عن غرفتها وذهابها بصحبة أبيه لتناول الطعام، أدرك أن الوقت قد بات مناسبًا لرؤيتها، لذا أسرع في خطواته متلفتًا حوله بحذر، أدار مقبض الغرفة ببطء وحرص ثم تسلل إلى الداخل موصدًا إياه خلفه، اقترب من فراش "آسيا" ليطلعها بنظراته المغلولة، كانت شبه نائمة، مستكينة في رقدتها، لم تشعر بوجوده معها في الغرفة، حافظ "معتصم" على هدوئه تاركًا لأعينه الفرصة لتأمل سحرها الشيطاني الخداع الذي ينطلي على الجميع إلا هو، تتم مع نفسه قائلاً بتجهم:

-تقدري تضحكي على أي حد إلا أنا يا "آسيا"!

دنا منها أكثر ليتأملها عن قرب، بقيت حدقتاه مثبتة على وجهها الهادئ دون أن يرف له جفن، أخفض رأسه نحوها لتضرب أنفاسه وجنتها وهو يقول لها بهمس:
-أنا عارف إنها تمثيلية رخيصة منك علشان تقدري تعملي اللي في دماغك، بس ده مش ها يحصل، أنا ها قفلك

في تلك الأثناء، شعرت "آسيا" بسخونة طفيفة تداعب بشرتها فأصابتها بالقشعريرة، لكن ذلك الهمس البعيد الذي اخترق أحلامها جعلها تستفيق إجبارياً، فتحت عينيها ببطء غير متوقعة ذلك القرب المريب لأحدهم منها، فزعت من رؤية تلك العين المحدقة بها بغرابة أجفلت بدنها، أبعدت وجهها عن أنفاسه وحدقت فيه بعينيها المتسعيتين، سألته بصوت شبه متحشرح وخفيض:

-إنت مين؟

ظل "معتصم" على قربه المهدد لسكونها لثوانٍ متأملاً حركة بؤبؤيها القلقين، كانت نظراتها نحوه تشير إلى خوفها منه، تلك النظرات التي لم يعتدها منها، اعتدل في وقفته ليقول لها ببرود:

-أنا جاي اطمن عليك

حاولت "آسيا" أن تدقق النظر في تفاصيل وجهه المألوف نوعاً ما، لم يكن غريباً عنها، شعرت أنها التقت به من قبل في مكان ما، أو أنه مرتبط معها بذكرى معينة لكنها لم تستطع التخمين، أرهقتها التفكير في الأمر فسألته من جديد:

هو أنا أعرفك؟

أجابها مبتسماً بابتسامة بذل فيها جهداً ليخفي ما يشعر به نحوها من كره شديد:

-لأ، بس أنا عارفك كويس يا "آسيا شرف الدين"
عبست ملامحها وهي تردد باستغراب ملحوظ:

-إنت عارف اسمي

دس يديه في جيبي بنطاله قائلاً:

-أنا أعرف كل حاجة عنك

حاولت الاعتدال في نومتها غير مريحة لتحقق فيه بفضول، بدا حديثه غامضاً ويحمل الكثير من المفاجآت، شعرت من طريقته في الحديث معها أنه ربما يحمل أسرارها، لذلك سألته باهتمام انعكس على تعبيراتها:

-زي إيه؟

سيطر "معتصم" على ضحكة متهمكة ساخرة من الموقف برمته، فشابة مثلها تجيد التلاعب بالعقول والأبدان تدعي البراءة هكذا كالحملان، استشعر سخافة الموقف ودناءتها، بل إنه أشاد في نفسه ببراعتها في التمثيل، لم يصدق ما تتلفظ به، ورمقها بنظرات غريبة تحمل الاستنكار، ومع ذلك حاول الحفاظ على ثباته أمامها ليكشف نواياها الحقيقية، أخرج زفيراً مطولاً من صدره قبل أن يقول لها:

-كل حاجة هتعرفها في وقتها

زادت حيرتها مع رفضه منحها إجابات وافية عنها، فسألته بانفعال قليل:

-وليه مش دلوقت؟

أحنى جسده عليها مجدداً ليقص المسافات بينهما، ركزت "آسيا" أعينها مع حدقته الغامضتين، ازدردت ريقها وهي ترى انعكاس وجهها فيهما، استشعرت خطراً ما خفياً،

لكنها لم تستطع البوح بما يختلجها من مشاعر مقلقة، رمشت بعينها بتوتر حينما رد عليها:

ماتستعجليش، احنا لسه في أول المشوار، بس المهم نشوف مين هايكشف ..
قصدي هيعرف الثاني الأول !!!

.....

الفصل السادس والعشرون

لن تنكر أن كلماته الواثقة أصابتها بنوع من الخوف والارتباك، ابتلعت ريقها بتوتر وقد تجمدت نظراته القريبة والحادة عليها، نأت "آسيا" بوجهها بعيدًا عن قربه الملبك لها، لم يكن "معتصم" بحاجة إلى فطنة ليفهم رغبتها في الابتعاد عنه، اكتفى هو بإيصال رسالته الضمنية لها وإن كان غير متأكد من صدق ادعائها بفقدان الذاكرة، اعتدل من جديد في وقفته واضعًا كفي في جيبه بنطاله، انتصب في وقفته محققًا فيها بنظرات أكثر غموضًا، ثم استطرد قائلاً بهدوء وابتسامة سخيصة تلوح على ثغره:

فرصة سعيدة يا "آسيا"

أوماً برأسه متمعدًا زيادة ابتسامته اتساعًا، أزعجها طريقته في التلفظ باسمها، بقيت أعينها مسلطة عليه وهو يدير جسده متجهًا نحو باب الغرفة، توترت نظراتها مع تلك النظرة الغامضة التي منحها لها قبل أن يختفي كليًا، شعرت بالتخبط والحيرة، بالقلق والضيق رغم انصرافه، زوت ما بين حاجبيها متسائلة بحيرة:

-مين ده؟ وليه بيتكلم كده؟!

أرخت رأسها على الوسادة بعد أن تسلل الإجهاد لها، أغمضت عينيها لتعيد في مخيلتها مشهد لقاءها مع ذلك الغامض الذي لم تعرف هويته بعد، أجبرت عقلها وأنهكتته في محاولة التذكر حتى استسلمت ليأسها وقررت أن تأخذ قسطًا من الراحة لتعاود بعدها التفكير فيه.

.....

قرر الاحتفاظ بمسألة زيارتها خلصة لنفسه لتجنب الكثير من النقاشات غير المجدية بالنسبة له مع زوجة أبيه، استقل "معتصم" سيارته عائدًا إلى المنزل بعد برهة من التجول في الطرقات بلا وجهة محددة، لم تكن لديه الرغبة في الذهاب إلى مكتبه ومتابعة أعماله، فباله مازال مشغولًا بمعذبتة "آسيا"، ورغم ذلك تخلله إحساسًا غريبًا بصدقها، خشي من فكرة تصديقها فينساق كالبقية في مكيدتها الشيطانية ويفيق في الأخير على كارثة ستطيح به وبعائلته، أخرج زفيرًا مهمومًا من صدره وهو يترجل من السيارة، ببرود غير معتاد منه لم يعر أي من جيرانه الاهتمام وهم يلقون عليه التحية، ولج إلى داخل المنزل ليجد والده في انتظاره، نظر له "معتصم" باستغراب وهو يسأله:

-إنت قاعد هنا ليه يا بابا؟

أجابه "وحيد" بضيق ملحوظ:

مستنيك

سأله متلهفًا وقد اعترى القلق تعايره:

-في حاجة حصلت؟ ماما كويسة؟

رد عليه بعد زفير طويل:

هي بخير، بس المشكلة فيك إنت!

عقد "معتصم" ما بين حاجبيه متسائلًا:

-أنا؟

هز رأسه بالإيجاب قائلاً:

-أيوه

ثم تنفس بعمق قبل أن يتابع متسائلًا بجدة:

-مممكن تفهمني ليه إنت لحد دلوقتي ما روحتش تزور "آسيا"

أجابه "معتصم" ببرود:

-أظن دي حرية شخصية، مش معقول هازورها بالعافية!

استاء "وحيد" من طريقة ابنه في الحديث فعاتبه قائلاً:

-محدثش بيجبرك على ده، بس الست اللي تعبت وربتك من حقها على الأقل تبين

إنك مهتم بحالة بنتها

لم يجب ذلك الأسلوب في الضغط عليه وتوبيخه بتذكرته دومًا بما قدمته زوجة أبيه

لأجله من حب وحنان وعطف مضاعف لترعاه طوال السنوات الماضية، كان يعلم

جيدًا أن الضغط على ذلك الوتر الحساس سيزيد من تعقيد الأمور، حاول تجنب

الحديث في هذه المسألة قائلاً:

-بعدين هاشوف موضوعها!

لم يكن ذلك الرد المتوقع منه، انزعج "وحيد" كثيرًا من فظاظته فعنفه صائحًا:

- "معتصم" إنت إيه اللي مغيرك كده؟ طول عمرك بتهمم بالجنس اللطيف وتعامل البنات كويس، ده أنا اللي اسمي أبوك مكوتنش بلاحق على البنات اللي عمالين يسألوا عليك عشان ذوقك واحترامك وأسلوبك الكويس في معاملتهم، اشمعنى هي؟

ركز ابنه أعينه المحتقنة على وجه والده ليرد بتذمر:

نسيت يا بابا هي مين وعاوزة إيه؟

أجابه والده بوجه مكفهر ومشيرًا بيده:

-لأ مش ناسي، بس الظروف اتغيرت ووضعتها كمان بقى صعب

تحدث "معتصم" من زاوية فمه قائلاً بتهم وهو يوليه:

كل ده علشان الهانم فقدت الذاكرة

التفت والده ناحيته ليقول له بجدية:

-مش جازي تكون دي فرصة ليها علشان تبدأ من الأول

صحح له عبارته موضحًا بسبابته:

-أو خطة لثيمة منها علشان تضيعنا

استنكر أباه محدودية تفكيره فنهره قائلاً:

-بلاش نظرية المؤامرة اللي مسيطرة عليك دي

رد عليه بجدة:

-بكرة أثبتلكم إن كان عندي حق

-وحدد ما يحصل من فضلك عامل "آسيا" كويس، مش علشان بس علشان خاطر
"نادية"

-ربنا يسهل

-روح زورها من فضلك

رد عليه بنفزة واضحة:

-خلاص يا بابا، هابقها أدخلها بوكيه ورد وأزورها، في حاجة تانية؟

أجابه "وحيد" باقتضاب:

-لا، شكراً

تابع مضيئاً بنفس العبوس:

-هادخل ارتاح في أوضتي، عند اذنك!

رد عليه بوجه ممتعض:

-اتفضل

ظلت أنظار "وحيد" معلقة على ابنه، هز رأسه بإيماءات مستنكرة محدثاً نفسه:

-ربنا يهديك يا "معتصم"!

.....

كان ضيف أحلامها طوال الليل يتصارع معها ويحاول النيل منها، قاومته قدر استطاعتها لكنه كان يتمكن منها في كل مرة ويخنقها بأصابعه الغليظة، خافت من نظراته النارية، كانت ترى حدقتيه كجمرتين من نيران مستعرة تتراقص ألسنة اللهب فيهما، شعرت بحسرة أنفاسها وبتمكنه منها، استيقظت "آسيا" من نومها مذعورة وهي تشعر

بالاختناق، تحسست عنقها للتأكد من كونها بخير، تلفتت حولها بخوف للتأكد من عدم وجوده، كانت الغرفة خالية وساكنة، تنفست الصعداء وببطء لتضبط نفسها ثم استرخت من جديد في نومها، تعلق أنظارها بسقفية الغرفة وهي تسأل نفسها:

هو عاوز يموتني ليه؟ هو أنا أذيته؟

حركت "آسيا" ذراعها يتمهل لتضعه على جبينها، التفتت برأسها للجانب عندما سمعت خطوات قادمة من الخارج إليها، رأت الممرضة تبتسم لها قائلة:

صباح الخير، ازيك النهاردة؟

ابتلعت "آسيا" ريقها في حلقها الجاف وهي تجيبها:

- الحمد لله

تابعت قائلة بتفاؤل وهي تضع صينية الإفطار على الطاولة الملتصقة بفراشها:

-الدكتور هايجي كان شوية وهيظمنك، حضرتك اتحسنتي كثير عن أول مرة جيتي

فيها

-أها

يا ريت تاكلي حاجة قبل ما تاخدي الدواء

-ماليش نفس

ناولتها عبوة مغلقة بالبلاستيك الشفاف مرددة بجدية:

-الأكل صحي ومفيد جدًا، وصدقيني طعمه حلو

اعترضت عليها بوهن:

بس ...

قاطعها "مصطفى" قائلاً بهدوء:

هي معاها حق، لازم تاكلي يا "آسيا"

حركت "آسيا" رأسها نحو الطبيب الذي أمسك باللوح المعدني ليقراً الملاحظات الأخيرة التي تخص حالتها، تابع مضيئاً:

-المؤشرات كلها كويسة، وقريب إن شاء الله هتخرجي من هنا

وقفت المريضة إلى جواره فهمس لها ببعض العبارات، فردت عليه باقتضاب:

-تمام يا دكتور

ثم تركته وانصرفت لتكمل عملها بالخارج، أردفت "آسيا" قائلة بضيق وهو يفحصها:

-أنا مش فاكرة حاجة خالص يا دكتور وده تاغيني أوي

رد عليه مبتسماً:

مع الوقت والعلاج الذاكرة هتنشط، وطبعاً لازم يكون في دكتور متخصص علشان

حالتك، أنا أعرف كام حد شاطر هابلغ العيلة بأسمائهم بحيث يتواصلوا معاهم

بدت "آسيا" مترددة بعض الشيء في الاستفسار عن أمر ما، لكنها كانت واثقة أنه

سيمنحها الجواب المناسب، عضت على شفيتها متسائلة:

-دكتور ممكن أسأل عن حاجة

رفع وجهه ناحيتها ليقول:

-اتفضلي

أكملت موضحة بارتباك طفيف:

هي مالهاش علاقة بحالتي، بس تخص اللي بيזורوني، أنا معرفهومش، ممكن تقولي هما مين

اتسعت ابتسامته قائلاً:

لحسن حظك أنا عارفهم بصفة شخصية

تحمست لكونه على معرفة جيدة بهم، سيختصر ذلك عليها الكثير، طلبت منه بلباقة:

حط كلمني عنهم لو مكاش يضايقك أو هاعطلك عن حاجة

سحب "مصطفى" المقعد ليجلس بجوار فراشها ثم استأنف حديثه بعدها:

أنا معاك، والدتك "نادية" هانم إنسانة محترمة بمعنى الكلمة، سيدة مجتمع من بتوع

زمان، حاجة تفتخري بيها، وطبعاً إتي شوفتي اهتمامها بيكي ازاي

هزت رأسها بتفهم وهي تقول:

-كمل يا دكتور

كان متحرجاً من إخبارها بكافة التفاصيل التي يعرفها عن والدتها فأثر الاقتضاب في

الحديث، بدا وجهه هادئاً في تعابيره حينما أكمل بتريث:

هي متجوزة من راجل محترم بيحبها جداً اسمه "وحيد المصري"

ردت عليه مبتسمة:

-اللي شكله رياضي مع إنه كبير في السن، عرفته

تابع قائلاً بمرح:

-بالظبط، عمو "وحيد" واخذ باله من نفسه أوي، ماشي بمقولة الشباب شباب القلب

ردت مبتسمة:

-تمام

خشي من سؤالها عن "معتصم"، فما سيقوله ربما سيكون مزعجاً لها، تحجج بانشغاله
مردداً:

طيب هستأذنك دلوقتي في حالات مستنية ونكمل حديثنا وقت تاني
ثم نهض من جلسته معيداً المقعد للخلف، وقبل أن يتركها هتفت بجديّة:
-دكتور معلى حاجة أخيرة

اتبه شعوراً خفياً بأنها ستسأل عنه، حافظ على هدوئه قائلاً:

-اتفضلي

ضاقت نظراتها نحوه وهي تسترسل قائلة:

-في واحد جه زارني امبارح وكان باين عليه إنه عارفيني بس أنا لآ، ممكن تعرفلي هو
مين

سألها بحدري رغم إحساسه بالعكس:

-مش جايز يكون "نبيل"؟

هزت رأسها بالنفي وهي ترد:

-لآ، مش هو، دي أول مرة يجيلي فيها هنا وأشوفه!

زوى ما بين حاجبيه متسائلاً:

مين ده؟

ردت عليه بجديّة:

-أنا بسألك فيا ريت لو تقدر تفدني في الموضوع ده، أنا عاوزة أعرف هو مين، يعني أنا هاقولك شكله تقريبًا عامل إزاي، جازي يكون من العيلة!

حاول التملص منها قبل أن يكشف لها عن هوية "معتصم" دون أن يتأكد من قيامه بتلك الزيارة، لذا تنحج قائلاً:

هو طنط "نادية" معارفها كتار، والكل أكيد حابب يطمن عليكي باعتبارك بنتها، فجازي يكون ده حد منهم

شردت تفكر فيما قاله رغم عدم اقتناعها، فأسلوبه الغامض في الحديث معها بالأمس أخافها وأربكها، تعجب "مصطفى" من صمتها، ساورته الشكوك قليلاً حول كونها تسأل عن "معتصم" تحديداً، فمن غيره يمكن أن يزورها؟ ادعى الابتسام قائلاً:

-عمومًا أنا هاحاول أسالك مين، ولو عرفت هاقولك

رسمت على ثغرها بسمة صغيرة وهي ترد بامتنان:

-ميرسي يا دكتور، تعبتك!

-ولا يهملك، عن إذنك!

تركها بمفردها في الغرفة متابعًا حديث نفسه وهو يفرك مقدمة رأسه:

-أنا حاسس إنه "معتصم"، بس غريبة، ما هو كان رافض يشوفها، يبقى إزاي جه زارها ومن غير ما يقول لحد؟ في حاجة مش مفهومة!

حك طرف ذقنه مكملًا بنبرة عازمة:

-وليه أحير نفسي ما أنا أسأله أحسن!

.....

-وهازورها ليه؟ إذا كنت أنا مش طايقها

قالها "معتصم" بعصبية واضحة عليه وهو ينظر إلى رفيقه "مصطفى" الذي بدا غير مقتنع بما قاله، تفرس الأخير في ملامحه قاصداً سبر أغوار عقله ليعرف فيما يفكر وفيما يخطط، قرر زيارته في مكتبه لينفرد معه في الحديث، لكنه لم يستفد منه بشيء، أضاف بجدية وهو يشير بيده:

-بس شكلها كان يسأل عليك إنت بالذات

سأله "معتصم" بحذرٍ وقد اشتدت قسامته نسيئاً:

هي قالتك حاجة؟

أجابه نافيئاً:

-لأ، بس بتقول إن حد غريب زارها وكان واضح إن الكلام كله عليك

شعر "معتصم" بالانزعاج لإصراره على التحقيق معه فهتف مستنكراً:

يا ابني هو أي مصيبة تحصل للهانم "آسيا" يبقالي يد فيها

رد عليه "مصطفى" بنبرته الهادئة:

-أنا قولتلك على اللي حصل وخلص، وانت حر

أوماً برأسه هاتقاً برود:

-تسلم يا دكتور

أضاف "مصطفى" قائلاً وهو يستعد للذهاب:

-ماشي مش هاعطلك، أنا قولت أشوفك وأسأل عليك

ابتسم مجاملاً:

شكراً على تعبك

تأكد "مصطفى" من متابعته له ليضيف بجدية ومتعمداً التحديق فيه:
بالمناسبة هي هتخرج على أول الأسبوع الجاي، قعدتها في المستشفى معدتش ليها
لازمة، ممكن تكمل علاج في البيت
رد "معتصم" باقتضاب:

-كويس

تابع مستفهماً بغموض:

-سألت طنط "نادية" هتعمل إيه؟

لم يفهم "معتصم" سؤاله جيداً فتساءل:

في إيه؟

أجابه ببساطة ودون أن يرتد له طرف:

في "آسيا"

زفر قائلاً بضيق:

-معرفة، دي حاجة تخصصها

لم يكن رفيقه على علم بالاتفاقات التي يتم الترتيب لها بشأن "آسيا" لذلك أوضح له
بابتسامة عابثة:

-تمام، بس حط في بالك إنها احتمال تيجي تعيش معاكو في البيت

تبدلت تعابيره مائة وثمانون درجة، من الارتخاء للحدة، ومن الهدوء الممتعض للانفعال،
هدر قائلاً بصدمة:

نعم، بتقول إيه؟!!!

رد ببرود احترافي:

ده احتمال وارد، ماظنش إن طنط "نادية" هاتسيب بنتها في الظروف دي لوحدها اتسعت ابتسامته مكملاً بتسلية وهو يلوح بيده مودعاً:

ويا ريت تخليك كول مع ضيفتك، سلام يا صاحبي!

كظم "معتصم" حنقه لثوانٍ في نفسه حتى انصرف صديقه من غرفته، قذف محتويات سطح مكتبه بعنف دفعة واحدة ليردد بعدها بتشنج:

-بنت اللدينة لعبتها صح، تعمل فيها فاقدة للذاكرة وتيجي تعيش في بيتنا علشان تخربه!

فسر عقله ادعائها للمرض بتلك الطريقة، استشاط غضباً وتوهجت نظراته بحمرة ملتهبة، ضرب بيده المطوقة بعنف على السطح الزجاجي قائلاً بوعيد وهو يركز على أسنانه:

هي اللي جابته لنفسها!

.....

تحملت الألم وهي تحاول النهوض من على الفراش مستعينة باثنتين من الممرضات لتجلساها على المقعد المتحرك، لم تشف ساقها بعد، لكن تماثلت كدماتها وأغلب جروحها للشفاء بعد فترة لا بأس بها من العلاج المكثف، استندت "آسيا" بمرفقها على مسندي المقعد، والتفتت برأسها للجانب لتسأل والدتها:

-احنا هنروح فين؟

أجابتها "نادية" بحماس وقد أشرق وجهها:

على بيتك

ردت "آسيا" متسائلة باستغراب:

هو إتي عارفة مكانه؟

أومات برأسها قائلة بجنو كبير:

أه طبعا، من النهاردة بيتي هو بيتك يا بنتي

شعرت "آسيا" بالغرابة من حديثها رغم بساطته، تملكها إحساسًا قويًا بالخوف والارتباك، شعرت في قرارة نفسها بأنها لا تنتمي إلى أفراد تلك الأسرة، وما يفعله من حولها هو نوع من الإشفاق والرفق بحالتها، تمت لو عرفت الكثير عن حقيقتها، ما يخصها حقًا وليس ما تردده الألسن لها، انتهت إلى صوت "وحيد" القائل بجمايس وهو ينحني ليحمل حقيبة ثيابها الصغيرة:

مامتك مستنية اليوم ده بفارغ الصبر يا "آسيا"

ابتسمت مجاملة له، قامت والدتها بدفع مقعدها وهي تثرثر عما ستفعله معها، ودعت طبيبها وكذلك الممرضات اللاتي أشرفن على حالتها، ثم لظمت الصمت بعد ذلك لمعظم الوقت حتى أثناء ركوبها للسيارة، وإن اضطرت للرد تكتفي بالكلمات المقتضبة.

.....

توقفت السيارة أمام إحدى البنايات بداخل أحد المجمعات السكنية الفاخرة، تأملت "آسيا" المكان بنظرات دقيقة متفحصة له، شعرت بأنها رأته وجاءت إلى هنا من قبل، أخرج "وحيد" مقعدها المتحرك من السيارة ثم أسنده بجوار بابها، استعدت "آسيا" للترجل بحذرٍ والجلوس عليه، ارتجفت كليًا حينما التقطت أنظارها صاحب الوجه الغريب الذي قد جاء لزيارتها في وقت سابق، اختل توازنها من الصدمة ولم تمسك جيدًا بمسند المقعد فانفلتت يدها وسقطت بجواره، هتفت "نادية" بتلهف فزع:

- "آسيا"

أضاف "وحيد" بخوف وهو يزيح المقعد للجانب ليتمكن من الوصول إليها:

خدي بالك!

ردت بصوت شبه متألم:

أنا كويسة، اطمنوا

مد يده نحوها ليعاونها على الوقوف قائلاً:

هاتي إيدك

أشارت له بكفها وهي ترد بعبوس:

شكراً، أنا هاعرف أقوم لوحدي، ماتكسحتش لسه!

ردت عليها والدتها بجزي:

يا بنتي بلاش مكابرة، إتي لسه تعبانة ودي مافياش حاجة

كانت "آسيا" مخطئة حينما ظنت أنه انتهى عنها وابتعد، وجدته واقفاً قبالتها حاجباً عنها

بجسده أشعة الشمس، رفعت أعينها الفيروزية نحوه لتحقق فيه بذهول، طالعها

بنظرات غير مريحة وهو يقول:

إزيك يا "آسيا"

انفجرت شفاتها على الأخير كتعبير عن صدمتها لترحيبه بها بتلك الألفة أمام والدتها

وزوجها، وما زاد من دهشتها هو حديث "نادية" له وهي تربت على كتفه بمحبة:

- "معتصم"، ابني!

بقيت على وضعيتها المصدومة وهي محدقة فيه باندهاش، أحنى نفسه عليها ليحملها

عنوة بين ذراعيه قائلاً:

مايصحش ضيفتنا تفضل على الرصيف كثير!

شهقت بخوف وقد تسارعت دقات قلبها بقوة داخل صدرها حتى كادت تصم أذنيها
من فرط التوتر الممزوج بالاضطراب، التقت أعينه الغامضة بنظراتها الزاهلة، أحست
بعدم الارتياح من كل ما يحدث حولها، رفضت حمله لها قائلة بتلثم:

مش عاوزة مساعدة، لو سمحت نزلي، الكرسي موجود

التوى ثغره للجانب بابتسامة متهمكة، ثم همس لها ساخرًا:

- "آسيا" بتقول لو سمحت! أنا مش مصدق نفسي!

تجهمت تعابيرها من سخريته غير مبررة منها، تيقنت أنه على معرفة جيدة بها، لكنها
تجهله، أجلسها "معتصم" على المقعد وهو يطالعها بنفس النظرات الغامضة التي تثير
فيها الارتباك، أبعد خصلة من شعرها كانت قد التصقت بجبينها قائلاً بهدوء مريب:

هتتوري بيتنا من تاني يا "آسيا" !!

.....

الفصل السابع والعشرون

دار في خلدته أنها تفعل ذلك عمدًا لتستحوذ على اهتمام من حولها مدعية البراءة والضعف، خاصة "نادية" تلك التي وهبته السعادة والدفء والحنان وعوضته عن فقدان الأم، علم في نفسه أنها ترتدي قناعًا لا يليق بها من خلال عبوسها الزائف، خوفها المبرر منه يؤكد له شكوكه نحوها، حسنًا سيدشعرها أنها كالأميرة المدللة فقط ليكشف ملعوبها، دفع "معنصم" مقعد "آسيا" المتحرك بتريث نحو المدخل، كانت منكشثة على نفسها وهي لا تزال مصدومة من حديث والديها الأخير عنه، إنها ابنا الآخر، ربما البكري، لكن لماذا ذلك الجفاف والنظرات غير المريحة في المعاملة؟ ازدردت ريقها وفضلت التركيز حاليًا فيما هي مقبلة عليه، أحست بألفة عجيبة تربطها بذلك المكان، ورغم هذا استشعرت وجود خطب ما، لم تكن مسرورة لتواجدها به، بل شعرت بالانقباض والضيق، وكأن جدرانه تحمل ذكرى مؤلمة أو حادثة مخيبة للآمال، ولجت إلى داخل المصعد بصحبته، تخشب جسدها عندما قالت "نادية"

اطلعوا إئتو واحنا هنحصلكم

ردت عليها "آسيا" متسائلة بنبرة مهتزة قليلاً:

هو إئتو مش جاية معانا؟

أجابتها والدتها ببسمة صافية:

هنطلع وراكم على طول

وقبل أن تسألها مرة أخرى كانت يد "معتصم" تسبقه في الضغط على زر الطابق المنشود فانغلق المصعد وبقي الاثنان سوياً، لوهلة شعرت برجفة تعتربها من تواجدها معه، ضغطت على أصابع يدها كمحاولة لتخفيف حدة توترها، ظلت أنظار "معتصم" مسلطة عليها بقوة، لم ينبس بكلمة مكثفياً بالتحديق الغامض بها، تخرجت من طريقة تطلعه لها، رغبت في صرف انتباهه عنها فسألته بارتباك:

إنت بتبصلي كده ليه؟

أجابها بجمود وهو يدس يده في جيب بنطاله:

عادي

لم تكن أن فضولها كان يحثها على الاستفسار عن صلة القرابة بينهما، فجملة والدتها الأخيرة قد صدمتها كثيراً، سألته بجزرٍ وهي ترمش بعينها:

ليه مقولتش إنك ابن ماما؟

بدا وجهه غير مقروء وهو يجيبها بنفس البرود:

-لأني فعلاً مش كده

اعتزتها دهشة عجيبة من جوابه، كيف لا يكون شقيقها من طرف الأم وقد صرحت والدتها بذلك، ضيقت نظراتها نحوه وقد ازدادت حيرتها، أرادت أن تستفسر عن المزيد منه لكن توقف المصعد، ابتسم لها قائلاً بهدوء يلبكها:

-وصلنا!

دفعها من جديد إلى الخارج متوقفاً بها أمام باب منزله، رفعت "آسيا" وجهها للأعلى لتحقق بنظرات ضيقة في اللافتة، انتابها إحساساً عميقاً بأنها قد قرأته من قبل، وربما قد جاءت إلى هنا، ومضات متلاحقة ومتداخلة ضربت رأسها متضمنة صفقة مؤلمة على وجهها، وشراسة منقطعة النظير على ذراعها، وجدال عنيف انتهى بوعيد وسباب، جفلت شاهقة حينما انتشلها "معتصم" من عاصفة الذكريات المهمة قائلاً:

-ده البيت!

حدقت فيه بشحوب فرفع حاجبه للأعلى متعجباً من ذلك الوجه الذي تطالعه به، سألتها باستغراب:

-في إيه؟

سألته بصوتٍ شبه لاهث:

-هو أنا جيت هنا قبل كده؟

رمقتها بنظرات غريبة لكنها كانت تبعث شحنة غاضبة، ابتلعت ريقها من جديد وهي تراه ينحني عليها ليستند بكفيه على مرفقي مقعدها المتحرك، سلط أنظاره عليها هامساً لها بصوتٍ جعل الخوف يخترقها:

-تفتكري إيه؟

أغمضت عينيها مبعدة وجهها عن أنفاسه التي لطمت بشرتها، شعرت أن وراء سؤاله المقتضب شيئاً سيئاً، ضاعف من حيرتها وتخبطها بذلك الأسلوب الغامض في الحوار، أكمل همسه قائلاً:

-أنا أكثر واحد فاهمك يا "آسيا"!

فتحت عينيها مصدومة من جملته، رآته يرمقها بنظرات تحوي كرهًا خفيًا، توترت أنفاسها، وتحرك بؤبؤها بمركات عصبية، التفتت برأسها للجانب عندما سمعت صوت توقف المصعد، تبعه خروج والدتها منه وبصحبها "وحيد"، تساءلت "نادية" باستغراب وقد رأتهما واقفين عند عتبة المنزل:

-إنتو لسه هنا؟ ده أنا افتكرتكم دخلتوا الشقة

اعتدل "معتصم" في وقفته قائلاً بابتسامة سخيفة:

-كنا مستنينكم!

أضاف "وحيد" بحماس:

هتنوري البيت يا "آسيا"

ابتسمت له مجاملة، ثم استدارت برأسها نحو باب المنزل ساحبة شهيقًا عميقًا تشحذ به نفسها قبل أن تلج إلى الداخل، تلك المرة قامت والدتها بدفعها بحماس متمنية أن يكون القادم أفضل لها، تأملت "آسيا" الصالة بنظرات شاملة، لم تشعر بالغرابة لتواجدها فيها، بدت إلى حد ما مألوفًا لها، أنبأها حدسها أنها قد تواجدت هنا من قبل، ومع ذلك لم تشعر بأنها أحد قاطني المنزل، حالة من التناقض المريب سيطرت عليها، كذلك تغلغل فيها إحساس الغربة مع زيادة تأملها له، شعرت أن ذكرياتها خاوية هنا، مالت عليها "نادية" لتقول لها بود:

ده بيتك يا حبيبتى

مرت "آسيا" أنظارها على كل شبر فيه باحثة عما يطمئنها، تجمدت حدقتها على تلك الصورة الفوتوغرافية، أمعنت النظر على من فيها، تجهمت ملامحها بدرجة كبيرة، لم تكن ضمن المتواجدين بها، إذًا فما شعرت به كان حقيقيًا، هذا ليس منزلها كما ادعت

والدتها، بل هي مجرد ضيفة مؤقتة فيه، عبست تعابيرها عفويًا مع إدراكها لحقيقة جديدة
في ماضيها الغامض، تابعت "نادية" قائلة بسعادة:

-أوضتك فوق يا "آسيا"، معلش هتعبك شوية، بس هنا الريسبشن والصالون
خرج صوتها مهزومًا محبطًا وهي ترد:

مافيش مشكلة

لن تنذر بشأن أي شيء حاليًا، فوجودها هنا لفترة معينة ريثما تتعافى وتستعيد ذاكرتها،
حركت "نادية" مقعدها نحو الدرج الداخلي مكلمة حديثها الودود:

-نفسك تاكلي إيه على الغدا؟ أنا بنفسني هاطبخلك النهاردة، وكم ان ها يكون الخدامين
تحت أمرك يعملوك كل اللي إتني عاوزاه

ردت "آسيا" بفتور وهي تعلق أنظارها للأعلى:

أي حاجة!

-أظنك محتاجة مساعدة

انتفضت "آسيا" في جلستها لتخفض عينيها نحو "معتصم" الذي وقف إلى جوارها
من جديد، امتقع وجهها متسائلة بعدم فهم:

-في إيه؟

أجابها ببساطة وهو يومئ بجابيه:

علشان تطلعي فوق

أشارت له بكفها معترضة:

-لا، شكرًا، أنا

قاطعها وهو ينحني نحوها ليحملها من جديد دون رغبتها:

-عارف، مش عاوزة مساعدة من حد

شهقت مصدومة وهي تطوق عنقه بذراعيها كي لا تسقط، طالعها عن قرب بنظراته
غير المريحة هامسًا لها:

-أتمنى قعدتك هنا ماتطولش، الكل بيجاملك وبس!

كان وحقًا في قوله الأخير، وكأنه يطردها دون أي مقدمات، انفرجت شفتها بجرح كبير
وشعرت بنغصة قوية تؤلم صدرها وكأنها شخص منبوذ وجودها مفروض على أصحاب
ذلك المنزل، أشاح بوجهه بعيدًا عنها متعمدًا تجاهلها ليزيد من إحساسها بالمهانة
والوحدة، أكمل صعوده بها إلى الطابق العلوي حيث تتواجد غرفتها، أو غرفة الضيوف
سابقًا، فقد تم إعدادها لتكون غرفتها في الوقت الحالي، أنزلها على ساقها دون أن يحرر
خصرها من ذراعه، انزعجت من إمساكه بها قائلة:

-شكرًا، أنا بأعرف أقف

نظر لها بجمود وهو يرد متهمًا:

-ماظنش!

تعمد استفزازها بطريقته الجافة في التعامل معها، وقبل أن ترد عليه كان والده قد تولى
إحضار مقعدها لها، استخدمت "آسيا" كفيها في إبعاد "معتصم" عنها لتتجه نحو
المقعد، جلست عليه وقام "وحيد" بدفعها للأمام، لحقت بهم "نادية" وهي تثرثر
بسعادة عما تريد فعله من أجل الترحيب بابنتها، لم تكثر الأخيرة بكل ذلك، فشاغلها
الأكبر هو الشوكة المسماة بـ "معتصم".

.....

أجهدت عقلها في إجباره على تذكر ماضيها المنسي، كانت بحاجة لأي شيء يساعدها على ذلك لترحل سريعاً من هنا، فشلت "آسيا" في تذكر أي شيء حتى لو كان بسيطاً، فقط بعض الومضات المتداخلة التي لا تكفي لتعطيها الصورة كاملة، ولم يمنحها قاطني المنزل ما قد يمكنها من ذلك، بدت كمن يجارب بمفرده في معركة خاسرة، تملكها الإحباط الشديد، خاصة أنها تعلم بعدم رغبة من بالمنزل بها، وأن تلك المعاملة اللطيفة ماهي إلا وضع مؤقت سيتدمرون منه بعد فترة، وستغدو ضيفة ثقيلة بأي حال من الأحوال، مكثت معظم الوقت بغرفتها تتناول الطعام بها، وتتحجج بحاجتها للراحة، لم تكن تتجول إلا في الشرفة الملحقة بها مستخدمة المقعد المتحرك، حاولت ألا تجعل حضورها مزعجاً كي لا تلجأ لمساعدة أحد وحتى لا تشعرهم بأن طلباتها مرهقة لهم، تعجبت "نادية" من عزوفها عنهم، وسألتهما بضيق:

مالك يا بنتي؟ دائماً كده أعدة لوحك وقليل لما بتخرجي من الأوضة

أجابته مبتسمة:

عادي يعني، المنظر هنا حلو

نظرت والدتها إلى المنظر الطبيعي المطلة عليها الشرفة، وافقتها في الرأي وهي ترد:
فعلاً، بس ده مايمنعش إنك تنزلي تحت، الدكتور قال إن الحركة مفيدة ليكي الفترة دي

هزت رأسها قائلة:

أوكي، هابقي اعمل كده

انتهت كلتاهما إلى صوت الدقات الخافتة على باب الغرفة ثم تبعها ظهور "أية" وهي تطل برأسها منه، تهلت أساريرها هاتفة بلطف:

هاي ممكن أدخل

أشارت لها "نادية" مرددة بترحاب كبير:

تعالى يا "أية"

أقبلت على زوجة عمها حاملة في يدها باقة من الزهور، ثم قبلتها من وجنتيها لتقول
بابتسامتها المرحة:

يا رب مكنوش معطلاكم عن حاجة

ردت عليها "نادية" بـود:

أحنا أصلاً قاعدين مش بنعمل حاجة، ده كويس إنك جيتي!

التفتت "أية" نحو "آسيا" ثم انحنت عليها لتقبلها برقة وهي تقول:

هاي، إتني فكراني، أنا "أية" جيت زورتك في المستشفى كذا مرة

ابتسمت لها الأخيرة قائلة:

أيوه، عارفاكي

سألتها "أية" باهتمام:

إتني عاملة إيه دلوقتي؟

أجابتها بنفس البسمة المتكلفة:

تمام الحمد لله

ناولتها باقة الزهور قائلة:

أفضلني، الورد ده علشانك

أخذتها "آسيا" منها وهي تشكرها:

ميرسي على ذوقك

أضافت "أية" بنفس الحماس المرح:

-وفي شيكولاته كمان، احنا كبنات بنحب اللي يهادينا بيها

أها

وزعت "نادية" أنظارها بينها بسعادة، لاحظت الانسجام الواضح بينهما فتمنت في نفسها أن تعقد ابنتها صداقة معها، فكرت في ترك مساحة لهما من الحرية لتثرثرا في حديث الفتيات المعتاد، لذا أردفت قائلة:

طيب هاسيكم يا بنات مع بعض وهانزل أعملكم أحلى نسكافيه، وخذوا راحتكم

عضت "أية" على شفيتها قائلة:

-اوكي يا أنطي

تابعت "آسيا" والدتها بعينها وهي تنصرف من الغرفة ثم عاودت التحديق أمامها حتى سألتها ضيفتها:

-مبسوطة هنا؟

التفتت نحوها لتجيبها باقتضاب:

-يعني

تهدت "أية" مضيئة بمرح لطيف:

على فكرة إتي طلعتي لذيدة مش زي ما كنت فكراكي قبل كده

زوت "آسيا" ما بين حاجيها باستغراب جاد، فقد تضمنت جملتها غموضاً أثار فضولها،
للحظة فكرت في استدراجها في الحديث لتعرف منها ما يخبئه الجميع عنها، لذا سألتها
مدعية البراءة:

ليه هو أنا كنت غلسة معاكي

هزت "آية" رأسها نافية:

لأ طبعًا، احنا مكوناش نعرف بعض شخصيًا، بس الكلام كثير كان عليكي
زاد فضولها مع ما تنفوه به من كلمات موحية، اعتدلت في جلستها على المقعد لتطالعها
بنظرات قوية وهي تسألها:

-كلام إيه؟

خشيت "آية" أن تكون قد تفوهت بحماقات فعضت على شفتها السفلى هامسة بمرح:

أوبس شكلي عكيت في الكلام

لم تكن "آسيا" لتضيع تلك الفرصة الثمينة دون أن تغتمها، انحنت للأمام قليلاً لتمكن
من مد ذراعها نحو ضيفتها، وضعت كفها على فخذه لتضغط عليه وهي ترجوها بجزن
زائف:

- "آية"، إتي تعرفي عني حاجة، بليز ساعديني، أنا عاوزة أفكر ومش عارفة

توترت الأخيرة من الموقف الحرج الذي وضعت فيه، اعترضت قائلة بارتباك:

بس ...

قاطعها "آسيا" قائلة بجدية:

صدقيني، إتي كده بتخدميني

صمت "آية" لتفكر مليًا فيما ستقفوه به، كانت في حيرة من أمرها، لكنها ضعفت أمام توسلات "آسيا" ورجائها اللطيف، ظنت أنها بذلك ستمد يد العون لها وتساعدتها على تجاوز أزمتهما والشفاء مما هي فيه، أخرجت زفيرًا بطيئًا من صدرها لتقول بعدها باستسلام:

-بصي أنا معرفكيش شخصيًا، بس إتني كل أخبارك كانت على النت

تعقدت ملامح "آسيا" وهي تردد:

على النت؟!!

أومات "آية" برأسها مؤكدة:

-أيوه، إتني موديل مشهورة أوي

أرجعت "آسيا" ظهرها للخلف لتستند بإرهاق على مقعدها، انفصلت ذهنيًا عن ضيقها، وشردت أمامها بنظرات فارغة تفكر فيما أخبرتها به، هي فتحت لها بابًا من العدم، وأوجدت لها وسيلة ستساعدتها كثيرًا، إذا كل ما يخصها متاح على صفحات الانترنت، وما عليها إلا الولوج فقط إلى أحد تلك المواقع لتعرف ما يجنبه عنها الآخرون، شعرت بالحاس المزوج بالتوتر، ومع ذلك ليس كل ما يجهله الفرد محمودًا
!!

.....

الفصل الثامن والعشرون:

كان ينقصها فقط الحصول على هاتف محمول لتمكن من تصفح مواقع الانترنت بأريحية دون أن يعي أحد السبب الحقيقي لذلك، لم تجد "آسيا" صعوبة في اقتناء واحد جديد، فقد سعت والدتها لتوفير كل ما ينقصها لتشعر بأنها في منزلها، تلهفت كثيراً لبدأ تجربتها المثيرة في اكتشاف ماضيها، جلست على فراشها باسترخاء ثم تهتت بعمق لتبدأ مغامرتها المثيرة، عضت على شفها السفلى وهي تكتب على محرك البحث "آسيا شرف الدين"، مرت الثواني كأنها سنوات، تضاعف شوقها المتحمس لرؤية النتائج، اعترى تعبيراتها علامات صدمة مذهولة حينما أبصرت العناوين المثيرة التي اقترنت باسمها، زاد شغفها مع رؤيتها للصور المصاحبة، هوى قلبها في قدمها في عدم تصديق وهي تقرأ فحوى كل ما ذكر عنها، امتنع وجهها وشعرت بالضالة والحقارة مع تلك الكلمات الفاضحة لها، لم تكن كما تتخيل شابة عادية لا يشوبها شائبة، أدركت الآن سبب عزوف الجميع عن الحديث عن ماضيها المشين.

اغرورقت حدقتها الفيروزيقان بالدمعات الآسفة الخجلة، وضعت يدها على فمها لتكتم
أنيبها المتحسر على حالها، لم تكن تتخيل نفسها بتلك البشاعة والوضاعة، هي كانت
أقرب لساقطة عن كونها موديل شهير، ارتعشت يدها وسقطت الهاتف من بين
أصابعها، تقلبت على الفراش تلوم نفسها بقسوة:

إزاي أنا كنت كده، مش ممكن!

انفجرت باكية وتعالته شهقاتها فدفنت وجهها بين راحتها، ارتفع صوت نحيبها مع إدراكها
لكم الحقائق المفجعة عنها، مدت يدها لتلتقط الوسادة لتخبئ وجهها فيها، فلم تكن
راغبة في أن يستمع أحد لنواحيها المتألم، تابعت حديث نفسها المصدوم:

ليهم حق ميعرفونيش، أنا عمري ما أشرف أي حد!

زاد حرجها مما كتبت عنها بل شعرت بأنها لا تستحق أن تكون واحدة من أفراد ذلك
المنزل، استطاعت الآن أن تفسر سبب تلك المعاملة الجافة والحذرة من "معتصم"،
إنه يعلم ماضيها جيدًا، ويدرك أنها شابة سيئة السمعة، وجودها سينعكس بالسلب
على أفراد العائلة الشرفاء، أراد أن يشعرها بأن وجودها غير مرغوب فيه، ونجح في
ذلك، أوصل لها رسالته الصريحة لها منذ أن أتى لزيارتها في المشفى دون أن يعلن عن
هويته، فهمت الآن ذلك الغموض الذي غلف علاقته بها، كفكفت "آسيا" عبراتها ومع
ذلك لم تتوقف عن البكاء، نهضت عن الفراش مستندة على الحائط حتى تتمكن من
الوصول إلى باب غرفتها، أوصدته عليها كي لا تسمح لأحد بالولوج إلى الداخل ورؤيتها
على تلك الحالة السيئة، انهارت جالسة على الأرضية وضربت برأسها الباب بحركات
خفيفة نادمة، احتارت فيما ستفعله لاحقًا، لا يمكن أن تدعي البراءة وجملها بما علمته،
عقدت عزمها على التزام الصمت مؤقتًا ريثما ترتب أمورها وتستعيد كامل عافيتها لترحل
فورًا من هنا.

.....

لم يكن ليمرر مسألة اختفائها هكذا ببساطة، هو نجاح في تدمير سمعتها، لكن لم يشف ذلك غليله بعد، توقف "سامر" بسيارته في الجراج الأمامي الملحق بالبنية المتواجدها مكتب غريمه "معتصم"، حدق في اللافتة التي تحمل اسمه واسم شركته المتواضعة -من وجهة نظره- مطولاً، توعده بانتقام يقضي على ما حققه من نجاحات ويعيده لنقطة الصفر، رن هاتفه المحمول فأجاب على المتصل بجمود:

-أيوه

انشغل بإتمام مكالمته ولم ينتبه لتلك القادمة بسيارتها من الخلف، كانت "أية" متحمسة كثيراً للقيادة، خاصة بعد أن استخرجت رخصتها وحصلت على سيارة جديدة كهدية من عائلتها، أرادت أن ترتب لحفل عائلي بسيط بمناسبة تماثل "آسيا" للشفاء، وكانت بحاجة لبعض المساعدة من "نبيل" لتكون مفاجئتها مثالية، كانت مترددة في اللجوء لـ "معتصم" فربما يرفض ذلك لكونه متحفظ بدرجة كبيرة مع ضيفته، وصلت إلى وجهتها لكنها وجدت صعوبة في صفها في المكان المناسب بالجراج، لذا ركنتها عند الزاوية وترجلت منها لتبحث عن من يساعدها، نفخت بضيق ممتعض وهي تجوب بأنظارها المكان، فقد كان خالياً من أصحاب السيارات، ولكن التقطت عينها ذلك الشاب الجالس في سيارته، تخرجت في البداية من الذهاب إليه مبررة لنفسها:

طب هاقوله إيه؟

زفرت مجدداً متابعة حديث نفسها الحائر:

جايز يفكرني برخم عليه ولا بأضايقه، ما هو ميعرفنيش، بس مش معقول هاسيب العربية كده

تشجعت لتخطو نحوه قائلة بعزم:

ده شيء عادي، ممكن لو حد كان مكاني وطلب مساعدة أنا مش هتأخر عنه!

كورت قبضتها وسارت بدلال نحو السيارة القابعة على بعد خطوات منها، استجمعت جأشها لتطرق على زجاجها الجانبي فأدار "سامر" رأسه في اتجاهها، تعجب من وجود تلك الشابة الجميلة أمامه، أخفض الزجاج متسائلاً بفضول رغم جدية نبرته:

-في حاجة؟

تورد وجهها سريعاً بجمرة لطيفة حينما رأته يطالعها بتلك النظرات القوية، ارتبكت كثيراً وهي تفسر له:

سوري إن كنت هاعطلك شوية، بس والله أنا مش شحاته ولا حد بيعاكس رفع "سامر" حاجبه للأعلى مردداً بسخرية:

-بتعاكسي؟!

تخرجت من كلمته المقتضبة لكنها استأنفت حديثها قائلة بخجل جلي:

-أنا مش عارفة أركن عربيتي، فبليز ممكن تساعدني في ده!

عضت على شفتها السفلى من جديد وبدت كالضائعة وهي تنظر له بتوتر، تأمل حركاتها العفوية بنظرات عابثة، للحظة فكر في استغلال الفرصة والتودد إلى تلك الشابة الساذجة، ستكون صيداً سهلاً، لن يحتاج إلى بذل أي مجهود معها، فأمثالها دوماً يقعن في طريقه، مرر أصابعه بين خصلات شعره ثم زفر بقوة وهو يرد مستسلماً:

-او كي

ردت بامتنان كبير:

ميرسي كتير لذوقك

تحركت خطوة للخلف لتفسح له المجال ليفتح باب سيارته، تفاجأت بجسده الرياضي وبتناسق عضلاته، قارنت نفسها بطوله الفاره فوجدت نفسها تكاد تصل إلى كتفه

بارتدائها للكعب العالي، انفرجت شفتها بحماقة وهي محدقة فيه ببلاهة، أبعدت نظراتها عنه حينما أمسك بها وهي تتأمله، سألتها بهدوء وهو يسير إلى جوارها:

هي فين؟

أشارت له بيدها نحو الأمام وهي تجيبه:

هناك!

أسرع قليلاً في خطواته ليبلغها ولحفته بتريث كي لا تتعثر في مشيتها، التفت ناحيتها ليسألها من جديد:

المفتاح في الكونتاك؟

أومات برأسها قائلة بابتسامة صغيرة:

أيوه

استقل "سامر" السيارة وبدأ في ضبط وضعية المقعد حيث أرجعه للخلف قليلاً ليتمكن من الجلوس بأريحية، ابتسمت مرددة بخجل:

أنا قصيرة شوية

استدار ناحيتها ليقول:

ما هو باين!

شعرت "أية" بتلك السخونة المرئية التي تتسلل إلى خلاياها، لم تستطع أن تفسر سببها ولكن الأرجح أنها ناتجة عن توتر كبير، تحرك "سامر" بالسيارة وصفها في مكانها المناسب ثم ترجل منها مناولاً إياها المفتاح هاتفاً:

اتفضلي

أخذته منه وهي تشكره:

بجد مش عارفة أقولك إيه

رد بعدم أكثرث وهو يدس يديه في جيبي بنطاله الجينز:

-أنا معملتش حاجة على فكرة، دي حاجة بسيطة

ابتسمت قائلة:

-كفاية إنك ساعدتني

أخرج يده من جيبيه ليشير بها متابعاً بحرفية صياد ماهر اعتاد الإيقاع بالفتيات الساذجات:

هي بصراحة فرصة إني أتعرف على واحدة حلوة زيك، وعلى فكرة مش بأعكس

هز رأسها بدلال وهي ترد:

أُكيد

مد يده نحوها ليصافحها قائلاً بتفاخر واثق وقد انتصب في وقفته:

-أنا "سامر عمران"

بادلته المصافحة قائلة بسمرة رقيقة:

-وأنا "أية المصري"

أثار لقب عائلتها فضوله على الفور فسألها مستفهماً دون أن يحزر يدها من أصابعه التي تضمها:

-إتي قرية "معتصم المصري"

حركت رأسها بالإيجاب قائلة بحماس:

-أيوه، ده ابن عمي

توهجت نظراته ببريق شيطاني قائلاً لها بنبرة هادئة:

-دي فرصة سعيدة جدًا، حقيقي الدنيا صغيرة

قطبت جبينها لتسأله باستغراب:

هو إنت تعرفه؟

أجابها مبتسمًا بلووم:

طبعا، ده حبيبي!

تحمست "أية" وهي ترد مجاملة:

-أنا مبسوطة بالتعارف ده

رفع "سامر" كفها إلى فمه ليقبله قائلاً بنبرة موحية:

-أنا الأكثر يا آنسة "أية"

ثم أخفض نبرته ليسألها بمكر وقد زاد لمعان عينيه:

مش آنسة صح؟ ولا

قاطعته مؤكدة:

-أيوه

ثم استلت كفها سريعًا من بين أصابعه بجرح كبير وهي تتلفت حولها بتوتر، فلم يتجرأ

أحد ويقبلها بتلك الطريقة الناعمة التي أشعرتها بأنها أميرة مدللة في الطريق هكذا،

تنحنحت هامسة بارتباك:

عن إذنك، هاطلع لابن عمي

أشار لها بكفه قائلاً بابتسامة أكثر اتساعاً:

-تفضلي ..!

ظل واقفاً في مكانه يتابعها وهي تجمع أشياءها من السيارة، لوحته له بيدها مودعة إياه وهي تسير بخطوات متعجلة لتتغلب على ذلك الاضطراب الذي انتابها فجأة، سمعته يردد عاليًا:

-أتمنى نشوف بعض ثاني

لم تتوقف عن السير المتعجل لكنها التفتت نحوه لتقول بنجل:

-أكيد، باي!

راقبها جيدًا حتى اختفت بداخل البناية، شعر بانتشاء عجيب يجتاحه وقد وجد فريسة أخرى أتمه طواعية على طبق من ذهب ليحقق انتقامه من خصمه فيها، ردد لنفسه بتسلية:

-كده بقت فل أوي

أطلق صفيراً مدندناً وهو يسير عائداً إلى سيارته، فخطته القادمة ستحظى بتعديلات إضافية تزيد من وهج الانتقام !!

.....

الفصل التاسع والعشرون:

دندن مستمتعا وهو يستقل سيارته من جديد، فقد تغيرت الأمور في لحظة ليتحول مسار الأحداث نحو ضحية جديدة، ربما ستكون أكثر مثالية لتحقيق انتقامه من "معتصم المصري"، أخرج "سامر" هاتفه المحمول ليطلب أحد الأشخاص، وضع الهاتف على أذنه قائلاً بجديّة:

- اسمعني كويس

طرق بيده على عجلة القيادة مكملاً:

- عاوزك تجيبلي أدق المعلومات عن "أية المصري"، عاوز أعرف كل حاجة عنها، بتعمل إيه كل يوم، نظام حياتها بالضبط، ومتأخرش عليا تقوس فمه بابتسامة لئيمة وهو يضيف:

- ماشي، مستني اتصالك!

أنهى المكالمة الغامضة ليتابع قيادة سيارته محدثاً نفسه بانتشاء حماسي:

-الضربة المرادي هتجيبك الأرض يا "معتصم"!

.....

لم تشعر بمثل ذلك التوتر المريب في حياتها من قبل، فبالرغم من مقابلاتها للعديد من الشباب وتعاملها اللبق معهم وبحدود لا تتجاوزها إلا أن ذلك الشاب تحديداً أحدث تأثيراً قوياً فيها، ربما لهيئته المميزة أو طريقته المختلفة في معاملتها في موقف بسيط، ضربت "أية" مقدمة رأسها بكفها لتعاتب نفسها على التفكير فيه بمبالغة، هي التقت به مصادفة ولن يتكرر الأمر، ضحكت على بلاهتها وقررت تناسي الموضوع، خرجت من المصعد متجهة إلى المكتب الخاص بابن عمها، رحبت بها السكرتيرة وانتظرت بالاستقبال ريثما يتفرغ "معتصم" لمقابلتها بعد ذلك الاجتماع الهام، في تلك الأثناء عاد "نبيل" من الخارج ليجدها به، رحب بها قائلاً:

منورة مكتبنا المتواضع

نهضت من مكانها مبتسمة برقة وهي ترد:

هاي "نبيل"

سألها مهمماً:

يا ترى إيه سبب الزيارة العظيمة دي؟

أجابته ببراءة وهي تهز كتفها:

-كنت عاوزة أتكلم مع "معتصم" في حاجة كده

قطب جبينه متابعا:

حاجة ليها علاقة بالشغل؟

أجابته نافية:

-لأ بـ "آسيا"

اعتلت تعابيره دهشة مريبة وهو يردد:

- "آسيا"؟! -

صمت للحظة ليوازن الأمور في رأسه ثم أضاف بجدية:

حطب تعالي معايا مكتبي

أومات برأسها قائلة:

اوكي

ثم تبعته إلى داخل مكتبه لتناقش معه في مسألة الترتيب لحفل عائلي بسيط كنوع من الاحتفاء بتائل "آسيا" للشفاء وكذلك لكسر الحاجز الجليدي مع "معتصم" وخلق جو من الألفة والود بينهما.

.....

وعدها "نبيل" بتولي مهمة مفاتيح ابن عمها في موضوع إقامة الحفل والترتيب له، لم يرغب في أن توبخ دون سبب مقنع بسبب عقلية "معتصم" المتحجرة حول شخصية "آسيا"، شكرته على مبادرته الطيبة واستأذنت بالانصراف، انتظر حتى انتهى ابن عمه من اجتماعه الهام ثم ولج إلى داخل مكتبه ليستفسر أولاً عن آخر أخبار العمل، بدا "معتصم" هادئاً وهو يرد على أسئلته حتى انتقل إلى الموضوع الثاني، تبدلت قساياه للامتعاض ونظراته للحنق، ردد مستنكراً:

حفلة؟ على إيه إن شاء الله؟

أجابه مبتسماً ليخفف من تأثير انفعاله:

علشانها خفت

هدر فيه بتشنج وقد تحولت نظراته للقسوة:

-إنتو عاملين لها قيمة وهي ماتسواش

استاء "نبيل" من هجومه المتواصل عليها، فزجره بعبوس:

-لأ عندك، هي بني آدمة زها زينا

اعترض على دفاعه عنها صائحًا:

-متقولش زينا، دي

قاطع "نبيل" قبل أن يكمل سبابه المتطاوول عليها مرددًا:

خلينا نتكلم بصراحة، إنت خايف من "آسيا"

اشتعل وجهه بدمائه الثائرة مرددًا بغيظ:

-أنا؟

أوما "نبيل" رأسه مؤكدًا:

-أيوه، إنت قلقان إنها تاخذ المكانة اللي طول عمرك فيها مع إن ده حقها الطبيعي

التهبت نظراته صارخًا بعدم تصديق:

-إنت بتقول إيه؟

رد عليه بهدوء قاصدًا لإزاحة تلك الغيمة التي تعميها عن وضع الأمور في نصابها الصحيح:

-بأقول الحقيقة اللي إنت مش عاوز تعترف بيها لنفسك، "آسيا" من حقها تستمتع

بوجود مامتها في حياتها، وإنت خايف ده يآثر على علاقتك بطنط "نادية"، من الآخر

كده إنت واحد أناني

تشنج جسده بالكامل من مصارحته الجريئة، هدر به محذرًا:

-كفاية يا "نبيل"، ولا كلمة زيادة

كفف ابن عمه ساعديه متسائلاً بسخط:

-ماشي هاسكت بشرط تقولي إيه اللي مخليك مضايق منها للدرجادي مع إنها ما
أذتكش فعلياً؟ وليه رافض تتقبل وجودها

كان "نبيل" كمن يضع الملح على جرح ملتهب، فزاد الطين بلة، انفجر فيه معللاً:
-لأنها باعت شرفها من زمان، في أقل منها في كل حاجة وحافظوا على أنفسهم، بس
هي استرخصت

لم يقتنع ابن عمه بكلمة واحدة مما تفوه بها، كان متأكدًا من تحامله عليها، من خوفه من
أن تحظى بما يمتلكه من ترف ساحبة البساط من تحت قدميه لتغدو هي محور الاهتمام
لـ "نادية" بعد أن كان هو اهتمامها الأول والأخير، رمقه بنظرة قوية وهو يسأله:

-وعرفت ده منين؟

لوى ثغره مرددًا بتهكم:

مش محتاجة دليل

أرخی "نبيل" ساعديه ليشير له بسبابته متابعًا:

-إنت بتظلمها، وتبرر لنفسك علشان تسكت ضميرك من ناحيتها

رفع "معتصم" كفه في وجهه هاتقًا بخشونة:

-خلاص يا "نبيل"، إنتو أحرار، بس أنا ماليش دعوة بيها، ويوم ما تكشف حقيقتها
والملعوب اللي داخلة بيه عليكم، ساعتها بس هاتعرف إن الله حق!

وقف ابن عمه قبالته ليسأله بجدية دون أن يرف له طرف:

-ولو الأيام ثبتتلك إنها مظلومة؟

صمت للحظة يفكر في إجابة مناسبة، لكن آثار فضوله اهتمامه المبالغ فيه بشئونها رغم كونها لا تعنيه في شيء، سأله باستخفاف ساخر:

-أنا عندي سؤال محيرني، إنت ليه بتدافع عنها بالشكل ده؟ تكونش بتحبيها

بدت ملامح "نبيل" جادة للغاية وهو يرد بهدوء مريب:

جايز، وليه لأ؟

لم يتوقع ذلك الرد الصادم منه، هاجت الدماء فجأة في عروقه بعد أن حطت قليلاً ليصبح بعصبية ملحوظة:

نعم؟ إنت اتجننت؟!

تحرك "نبيل" من أمامه واضعاً يديه في جيبي بنطاله، تابع ببرود وقد تشكل على محياه ابتسامة غامضة:

-وايه اللي يمنع!

التف حوله "معتصم" ليستوقفه مردداً بذهول صادم:

- "نبيل"، إنت واعي لى بتقوله؟!!!!

هز رأسه بالإيجاب مؤكداً:

-أيوه، بالطبط زي ما إنت مصدق اللي بيتقال عنها!

وضع "معتصم" كفه على كتفه ضاغظاً عليه بقوة وهو يحذره بشراسة واضحة:

- "نبيل" أحسنك تبعد عنها!

أزاح يده متسائلاً بجدية شديدة:

-والا إيه؟ قول ده تهديد؟

رد عليه بحنق:

-لأ، دي نصيحة

نظر له "نبيل" بجدة قبل أن يعلق عليه بسخط:

يا ريت تقولها لنفسك، أنا عارف أنا بأعمل إيه!

ثم رمقه بنظرة أكثر حدية قبل أن يتركه في غرفته وينصرف، لم يصدق "معتصم" الذي يحدث مع ابن عمه، امتد تأثير "آسيا" إليه لتجعله يقع كالفريسة الطريدة في حبالها الشيطانية، استشاط لمجرد ترديد صدى كلماته المشيرة إلى حبه لها في عقله، وضع يديه على رأسه ليضغط عليها، شعر أنه على وشك الانفجار مما يجابهه معها، الكل بدأ ينساق نحوها مصدقين بسذاجة قناع البراءة الذي ترتديه، ووحده فقط الملام على جفائه معها، أخفض يديه مكورًا الاثنتين وهو يتعهد لنفسه:

-مش هاسمحك تأذي حد فيهم، وهاكشفك قريب!

.....

رفضت في البداية ذلك الحفل الترحيبي بها في النادي لكنها استسلمت أمام إلحاح والدتها وإصرار "أية"، فلم ترغب في إحزانتهم، كذلك أخفت ما عرفته عن ماضيها المشين حتى ترتب أمورها وترحل دون أن تخجل أكثر من نفسها، ارتدت "آسيا" زيا كلاسيكيا تقليديا مكونا من سروال أسود طويل شبه متسع من عند الركبتين ليسمح بقدمها المجبسة بالمرور فيها، وسترة من نفس اللون أسفلها قميصا برونزي اللون، لم يبرز زينا مفاتها ولكنه أظهر أناقتها وجمالها الطبيعي، تألقت أكثر مع تسريحها الثابتة وزادت من جديتها تلك الخصلة المتدللية على جانب وجهها الأيمن، تناقض ذلك تمامًا مع ما كانت ترتديه في هذه النوعية من الاحتفالات، قامت "نادية" بدعوة المقربين فقط لحضور الحفل العائلي والترحيب بعودة ابنتها، ورغم ما كان يعتري "آسيا" من مشاعر

متخبطة وتوتر مبرر من وجودها المزج لتلك العائلة المحترمة إلا أنها شعرت بسعادة بسيطة تتخللها، تمت لو حظيت فعليًا بما يجعل الجميع يفتخر بها وليس العكس، بدت نظراتها إلى حد ما قلقة حينما رأت "معتصم" ينضم للمتواجدين، كان حضوره مريبًا، فقد توقعت عدم قدومه لكنه خيب توقعاته بمجيئه الليلة، اقترب من والدتها وقبلها من وجنتها قائلاً بمدح:

طول عمرك شيك وبنت ناس يا ماما

ربت "نادية" برفق على ظهره مرددة بامتنان:

-كلك ذوق يا "معتصم"

أضاف بنبرة ذات مغزى متعمداً أن تكون كلماته موحية:

-في ناس أصلها فشنك وبتحاول تترسم بس صعب تكون زي الناس المحترمين

اخترقت جملة أذني "آسيا" وجعلت ملامحها تمتنع، رمشت بعينها وهي تكافح لإخفاء توترها الذي زاد، فكلماته كانت كاشفة لأمرها، بل تؤكد لها أنه يعرفها جيداً، استغربت "نادية" من حديثه غير المفهوم بالنسبة لها وسألته:

قصدك إيه؟

تصنع الابتسام وهو يرد:

-ماتخديش في بالك!

ثم التفت ناحية "آسيا" متفرساً في تعبيراتها المقروءة، اقترب منها ليرمقها بنظرة غامضة، ثم استطرد قائلاً بهدوء ألبكها:

حمدلله على سلامتكم

ابتلعت ريقها وحاولت الابتسام وهي ترد:

-الله يسلمك، ميرسي

قصدت الاقتضاب في الحديث معه لتقطع عليه أي فرصة لتوتيرها أو ازعاجها، ابتعدت عنه لكنه اعترض طريقها مرددًا:

ثواني

توقفت عن السير لتنظر له بقلق وهي تسأله:

في حاجة؟

أخرج من جيبه هدية صغيرة مغلفة ناولها لها ثم تابع قائلاً:

دي علشانك

تفاجأت من إحضاره لهدية على الرغم من بغضه لها، أخذتها بيد مرتعشة وهي تشكره:

مكاشش ليه لزوم، تعبت نفسك

رد باقتضاب لكن بدا صوته آمراً:

-افتحها..!

تعقدت ملامحها مع محاولته المتعمدة لإرباكها، قامت بفض الغلاف عن الهدية لتنظر

إلى ما بداخلها، اعتلتها دهشة عجيبة وهي تتأمل ما اشتراه لها، سألته باستغراب حائر:

-ليه ده؟

أجابها ببساطة:

لينسز (عدسات)

هزت كتفها قائلة:

بس أنا مش محتاجهم

التوى ثغره بابتسامة عابثة ثم رد قائلاً وهو يغمز لها:

-حول هما أصول الشغل بتاعك!

ثم مال عليها هامساً بكلماتٍ أكثر إيجاءً:

-أومال هتوقعيني في شباكك ازاي؟

كانت عبارته جارحة لها، بل إنها تضمنت إساءة واضحة وتلميحا صريحا لكونها شابة

لعوب تجيد اصطلياد الرجال، استنشاطت نظراتها على الأخير وتحولت لجمرتين ملتهبتين،

أمسكت بكف يده وأعادت وضع الهدية في راحته وهي ترد بغیظ:

-خليالك!

قبض على رسغها ضاغظاً عليه بقوة بأصابعه، جذبها نحوه مقلصاً المسافات بينها ليقول

لها بصوتٍ خفيض متماسك:

-كده ما يصحش

كزت على أسنانه تأمره بهمس:

-سيب إيدي

رد بهدوء وهو يرفع كفها إلى فمه ليقبله:

عيب تردي الهدية يا "آسيا"

حاولت سحب يدها من قبضته لكنه كان ممسكاً بها جيداً، تابع همسه الملبك لبدنها:

-ده غير إني عاوز

لم يكمل جملته ليسحبها أكثر نحوه، كتمت "آسيا" شهقة متوترة كادت أن تلفت الأنظار

نحوها، ضربت أنفاسه وجنتها وهو يكمل بنفس الهمس الخطير:

-أشوفها عليك قريب!

.....

بلغ عنان السماء لكونه كان مدعوًا في ذلك الحفل العائلي، فهي فرصة طيبة للتقارب مع تلك التي يحبها في صمت، تأنق "مصطفى" ليهر "أية" حينما تقع عينها عليه، بحث عنها منذ أن حضر إلى النادي، تهللت أساريره مع رؤيته لها وهي تضحك بدلال يثيره، اقترب منها ليقول بجرح:

مساء الخير، إزيك يا آنسة "أية"

ردت عليه بخجل:

-هاي د. "مصطفى"، أنا تمام، كويس إنك عرفت تيجي النهاردة

تنحج قائلاً بارتباك طفيف:

فعلاً، حاولت أظبط الشيف بتاعي علشانك، قصدي علشان أكون هنا

أومات برأسها مرددة بكلمة مختصرة:

-أوكي

كان بحاجة إلى مفاتها في أمر هام قرر حسمه الليلة، فقد تقدم منذ برهة بأوراقه لبعثة تعليمية بالخارج وتم قبول أوراقه، وشرع في إنهاء الإجراءات الخاصة بسفره، ينقصه فقط أن ييوج بمشاعره لها ليعرف ردة فعلها، فإن قبلت بحبه لها سيسعى جاهداً لتذليل كل العقبات ليتزوجها ويصطحبها معه، تمني في نفسه أن تغدو الأمور مثلما يرجو، أضاف مستأذناً بجرح:

-آنسة "أية"، تسمحي لي بكلمة كده على انفراد

تعجبت من طلبه لكنها لم ترفضه، ردت مبتسمة:

-مافيش مانع، اتفضل

سار الاثنان سوياً بعيداً عن الصخب المحاوط بهما ثم استطرد مضيئاً:

-أنا كنت عاوز أقولك إني مسافر برا قريب

زوت ما بين حاجبها وهي تسألّه باهتمام:

ليه؟

أجابها مرتبكاً وهو يفرك كفيه المتعرقين معاً:

-اتوافق على سفري ضمن أفراد البعثة

هتفت بسعادة كبيرة وقد لمعت نظراتها:

بجد، ألف مبروك يا د. "مصطفى"، بجد أنا فرحتك أوي

قفز قلبه طرباً لرؤية السعادة جلية في عينيها، ردد بأنفاس متوترة:

-أنا مش مصدق، يعني الخبر ده بسطك؟

أومات برأسها مؤكدة برقة:

طبعاً، ده إنت زي أخويا، قصدي يعني ليك معزة زي "نبيل" و"معتصم"، إنت

صاحبهم، وأكيد حاجة زي دي هتسعدني، ربنا يوفقك ويكتبلك النجاح

كان كمن ضربته صاعقة من السماء عقب عباراتها الصادمة لمشاعره، تجمدت حواسه

وتخشب جسده غير مصدق ما ألقته على مسامعه من صدمة وأدت أحاسيسه ودفنتها

حية، شحب وجهه وانطفاً وهج عينيه ليحل الحزن فيهما، سألته متعجبة من تبدل تعابيره

للعبوس:

هو ده الموضوع اللي كنت عاوزني فيه؟

هربت الكلمات من على طرف لسانه، لم يعرف بماذا يجيبها، هي تعده بمثابة صديق مقرب وليس مثلما تمنى في نفسه أن يكون حبيها، انتهى حبه العذري لها، رسم على وجهه الواجم بسمة زائفة وهو يجيبها:

أيوه، يعني حبيت أفرحك

ردت مجاملة:

ميرسي على اهتمامك، وأنا اتبسطت فعلاً علشانك

بدت ابتسامته متكلفة وهو يقول لها:

شكراً ليكي، وأسف إن كنت عطلتك

انسحب بعدها "مصطفى" بهدوء محاولاً السيطرة على عبارته المقهورة التي تقاتل للظهور في مقتلته حسرة على حاله، فما أصعب أن يكون حبك من طرف واحد، وأن تكتب له الوفاة قبل أن تسطر شهادة ميلاده !!

.....

الفصل الثلاثون

خرج مهزومًا من معركة لم يحارب فيها من الأساس، انسحب "مصطفى" بهدوءٍ شديد متعللاً بوجود حالة مرضية تستدعي وجوده للإشراف عليها، ألقى نظرة أخيرة مليئة بالحزن والقهر على حبيبة سكنت فؤاده لكنها لم ولن تشعر بحبه الكائن به، تنفس بعمق ليمنع عبراته من الانهيار مكملاً سيره المتعجل مودعًا الجميع دافئًا في نفسه آخر ذكريات حبه.

احتدت النظرات وقست الملامح مع أكثر ثنائي عدائية، أنقذ "آسيا" من جدال محتدم مع "معتصم" اقتراب ابنة عمه المبتسمة بإشراق "آية"، رمقته بنظرة حادة هامسة له بعبوس:

- بنت عمك جاية علينا

رد بعدم مبالاة:

- وإيه يعني؟

شحذت قواها لتحرر رسغها من قبضته، نجحت في ذلك رامقة إياه بنظرة حادة مزعوجة، ألهاه عنها سؤال "آية" المهم:

- إيه رأيك يا "آسيا" في تنظيم الحفلة؟ يا رب تكون كل حاجة عجبتك

سحب "معتصم" يده للخلف مخبئًا الهدية الصغيرة في راحته لينظر بطرف عينه إلى ابنة عمه، تولى الإجابة عنها قائلاً بتهمك:

-وهي تقدر تقول غير كده

حدجته "آسيا" بنظرة نارية ثم التفتت إلى "أية" لتجيبها بهدوء حذر:

-ميرسي على تعبك معايا

ردت بحمايس:

-ولا تعب ولا حاجة، بس أنفع أكون Party Planner (منظمة حفلات)؟

أومأت برأسها مؤكدة:

-أؤكد طبعا

تنحح "معتصم" مردداً بسخرية:

-دي بتجاملك بس عشان أنا واقف!

رفعت "آسيا" حاجبها للأعلى لترد مدافعة:

-أنا مش محتاجة أعمل كده زي ناس

ثم ابتسمت له بتكليف متابعة بتجهم دون أن تترك له الفرصة للرد عليها:

عن إذتك!

أسرعت في خطاها لتبتعد عن إزعاجه المستمر لها، هللت لها "أية" وهي تشير بكفها:

-استني يا "آسيا" أنا جاية معاكي

ثم ألقت نظرة معاتبة على ابن عمها وهي تهمس له:

-بطل تبقى بايخ معاها!

لحقت بها متأبطة في ذراعها لتكملا حديثها معاً، تبعتهما أنظار "معتصم" الذي انتصب في وقفته واضعاً في جيبه الهدية التي أحضرها لها، فكر مع نفسه قائلاً بتسليّة:

-بكرة الصبح هتلاقيها على تسريحتك!

ببساطة قرر أن يرسل هديته مع طعام الإفطار بصحبة الخادمة كي لا تجد أي فرصة للاعتراض، انتشله من تفكيره إحساسه باليد التي وضعت على كتفه، أدار رأسه ببطء للجانب ليجد "نادية" ترمقه بنظراتها الحنون، تقوس فيها بابتسامة لطيفة وهي تستطرد حديثها:

-حاسة إن ربنا عوض صبري خير بوجودك إنت و"آسيا" حواليا

أخفى براءة مشاعره الكارهة لابنتها قائلاً:

-المهم إنك تكوني مبسوفة

ردت متحمسة:

-أنا فرحانة بلمتكم، وربنا يبعد عنكم أي وحش

ثم مالت عليه لتسأله هامسة:

-بس إيه رأيك في "آسيا"؟

نظر لها بغموض متعجباً من المغزى من وراء سؤالها الغريب، زوى ما بين حاجبيه وهو يجيبها:

-من ناحية إيه؟ أنا مش فاهم قصدك يا ماما

أجابته تلقائياً:

-يعني أنا شيفها اندمجت مع حياتنا والحمد لله في تحسن في صحتها، ده غير إن قرابيننا يحبوها

هز رأسه بإيماءة متفهمة، لم يستطع تلك المرة إخفاء ضيقه من سذاجتها، عبست
قسامته قائلاً بجديّة:

ما هو واضح

ثم أخفض نبرته ليضيف بتبرم:

هي هتلاقي أحسن من كده معاملة فين

لم تلتقط أذناها ما يقول فسألته:

-بتقول إيه يا "معتصم"

رد مبتسماً وهو يحاوط كنفها بذراعه:

-باقول طبيعي يعجبها الوضع هنا!

نظرت إليه لتوصيه:

عاوزاك تعاملها كويس

رد بوجه ممتعض:

-وهو أنا كلمتها أصلاً، ما إتي شايقة بنفسك!

تجهمت ملامحها الرائقة لتقول مدافعة عن ابنتها الوحيدة:

يا حبيبي هي اتغيرت عن الأول بكثير، إنت مش شايق ده ولا إيه؟

رد بتهمك ساخط:

هو إتي بتسمي فقدان الذاكرة ده تغيير؟!!

زمت شفيتها لتقول بعدها:

مش أحسن من حياتها اللي فاتت؟ على الأقل قدامها فرصة تعيش في مستوى
أحسن بعيد عن اللي كانت فيه

نفخ بصوت مسموع فواصلت حديثها الجاد وهي تطالعه بعينين حانيتين:
يا "معتصم" أنا عاوزاها تحس إن كلنا بنحبها وإن في أسرة حوالها بتخاف عليها،
ومهمتية بيها، وتحميا وقت اللزوم، صدقتي ده هايفرق معاها أوي، وكفاية اللي شافته
قبل كده

بدا غير مقتنع بما تقوله، ابتسم مؤمئًا برأسه:

-ربنا يسهل

ردت "نادية" بجنون:

-خلاص يا حبيبي، مش هاوصيك

علق "معتصم" ذراعها في ذراعه ليشرع في سيره معها وهو يقول:

-ماشي، تعالي نشوف ضيوفنا

.....

انقضت السهرة على خير فاعتقدت في نفسها أن عائلتها ستنعم بحياة مستقرة بعيدة
عن المشاكل والإزعاج، خاصة أن ابنتها الوحيدة قد عادت إلى أحضانها، لم تعرف
"نادية" أن السبب الرئيسي وراء تنغيص ماضيها سيعود اليوم وبقوة، انحنى الخادمة
أمامها واضعة فنجان قهوتها، شكرتها الأخيرة مرددة:

تسلمي

ردت الخادمة مبتسمة:

أي أوامر تانية يا هانم؟

أجابتها بهدوء:

شوفي "آسيا" لو صحيت طلعلها الفطار، هي أكيد تعبانة من سهرة امبارح

أومات الخادمة برأسها مرددة:

حاضر

لكنها انتبهت لصوت قرع الجرس، فتحركت في اتجاه الباب لتفتحه، استقبلت الضيف
الغريب متسائلة بنبرة عملية:

أيوه يا فندم

أخرج "شرف الدين" سيجاره الكوي الفاخر من فمه ليطلع الخادمة بنظرات متعالية،
التوى ثغره ببسمة ساخرة، فقد استطاع الوصول إلى عنوان زوجته السابقة دون
عناء، فعارفه ممن على صلة قد أمدوه بالمعلومات التي يحتاجها ليعرف أين تسكن،
وبكل تكبر وازدراء سألها:

صاحبة البيت ده موجودة؟

ردت متسائلة:

قصدك "نادية" هانم؟

أشار لها بإصبعيه الموضوع بينهما سيجاره قائلاً:

أيوه

تأملت الخادمة هيئته الموحية بالفخامة معتقدة أنه أحد معارفها الأثرياء، ابتسمت مجاملة
قبل تتحرك للجانب وهي تضيف:

موجودة يا فندم، اتفضل حضرتك جوا، بس أقولها مين؟

نظر لها باحتقار قبل أن يجيئها:

- "شرف الدين"

أشارت له بكفها مرحبة به ولتوجهه نحو غرفة الاستقبال ثم خطت في اتجاه ربة المنزل لتخبرها بهوية ضيفها غير المتوقع، انسكبت القهوة من يدها وسعلت شاهقة لمجرد سماع اسمه، تعجبت الخادمة من حالة الوجوم الصادم التي سيطرت عليها، ارتجفت "نادية" وهي تهض من مقعدها متسائلة بصوتٍ أقرب للهاث:

إنتي قولتي مين؟

ظنت أنها توهمت سماع اسمه، لكن أكدت عليها الخادمة بهدوء:

- "شرف الدين" بيه يا هانم

ازدردت ريقها بتوتر جلي وازدحم عقلها بالكثير والكثير من المشاهد المؤسفة التي جمعتها سوياً حتى انتهت بابتزازها وخطفه لابنتها، وجدت صعوبة في السير باتزان وهي تتجه نحوه، جفل جسدها حينما رأته بالفعل متواجداً في منزلها، بحثت عن شجاعتها الهاربة فلم تجدها، هوى قلبها في قدميها حينما استدار ناحيتها لينظر لها بتلك النظرات الحاقدة البغيضة، ورغم مرور سنوات على فراقها إلا أنه احتفظ بنفس ملامحه الباردة، تشجعت "نادية" لتواجهه وتدافع عن فلذة كبدها بكل قوة، فوجوده اليوم هنا يعني مطالبته بها، انتصبت بكتفيها متظاهرة بالعقلانية وهي تسأله:

جاي ليه؟

نفث "شرف الدين" دخان سيجارته من فمه وأنفه معاً قبل أن يجيئها متسائلاً بصوته الأجش:

كنتي فاكرة مش هاعرف أوصلك، ده إنتي كل أخبارك عندي

حافظت على هدونها معاودة تكرار نفس سؤالها:

عاوز إيه يا "شرف الدين"؟ جاي هنا ليه

نظر لها مطولاً مستخفاً بتلك الجرأة التي تدعيها، وقف قبالتها يسألها:

فين "آسيا"؟

لم تتمالك أعصابها، فصوته المقيت أثار في نفسها مشاعر الحنق والكراهة، ردت مهاجمة بعصبية جلية مستعيدة ما مضى في ذاكرتها:

-بنتي اللي ضيعتها ومليت راسها سموم بكذبك وحياتك البشعة!

وكانها لم تحرك ساكناً فيه، ألقى ببقايا سيجاره على الأرضية ليدعسه بقدمه متسائلاً بنفس البرود القاسي:

مخبية "آسيا" فين يا "نادية"؟

انفجرت فيه تهدده بصراخ حاد وهي تشير بيدها:

-اطلع برا بيتي بدل ما أطلبك البوليس

رد متحدياً بعدم أكثر:

-وأنا مش هامشي من هنا إلا وهي معايا

.....

في تلك الأثناء، انتهت "آسيا" من الاعتسال وخرجت من الحمام تلف خصلات شعرها بمنشفة قطنية، جلست على الطرف الفراش لتنزعهما ثم بدأت في تصفيفه بالمجفف الكهربائي، تحركت نحو المرآة لتأمل وجهها، لكن اعتلتها دهشة عجيبة حينما رأت هدية "معتصم" موضوعة في صينية طعام الإفطار المسنودة على الطاولة المجاورة

أفراشها، شعرت بدمائها تفور في عروقها، التقطتها بيدها لتفتحها متأمةً بغيظِ العدسات
اللاصقة الموضوعة بداخلها، أعادت غلقها متسائلةً مع نفسها بغضبٍ:

إزاي جايها هنا؟

ألقتها على الفراش متابعةً بضيق شديد:

-بني آدم مستفز!

حتمًا فضولها على تجربتها لتعرف المغزى من وراء إحضاره لتلك الهدية تحديداً، أخذت
الهدية واقتربت من المرأة ثم بدأت في وضع العدسات على عينيها، حدقت في وجهها
بنظرات متعجبة، استغربت ملامحها وطالعت بتأن عينيها بالعدستين، فجأة أضاء عقلها
بومضات سريعة لمشاهد لم تتبين ماهيتها، لكنها شعرت بالانزعاج من نفسها، فأغلب
ما اقتحم عقلها كان مصحوباً بالصخب والضحكات المستفزة، ابتعدت عن المرأة
لتجلس على الفراش واضعة يديها على رأسها لتضغط عليه، توترت أنفاسها مقاومة
سبل ذكرياتها المزعجة، فهتمت الآن سبب إحضار "معتصم" لتلك الهدية تحديداً، أراد
تذكيرها بماضيها التي تناسته دون قصد لتعرف موضعها الحقيقي بين أفراد تلك العائلة
المحترمة، انتزعت العدسات من حدقتيها وألقتها على الأرضية، هب من جلستها
لتدهسها بقدميها مفرغة غضبها فيها، وقبل أن تستسلم لتلك النوبة التي سيطرت عليها
انتهت للصراخ الحاد بالخارج، التفتت ناحية باب الغرفة وقلبا ينبض بقوة، بدا الصوت
الرجولي الأجش مألوقاً بالنسبة لها، هي متيقنة أنها سمعته من قبل، دنت أكثر من
الباب لتعرف ما الذي يدور، امتزج صوت والدتها معه واستشعرت وجود جدال ما،
خرجت من غرفتها واقتربت من الدرج لتشاهد بعينيها الفيروزييتين ذلك الرجل الغريب
وهو يهدد بشراسة:

-زي ما هديت حياتك زمان أقدر أعمل ده دلوقتي

تحدثه "نادية" بجرأة وقد استشاطت نظراتها على الأخير:

مش هاسمحك تهد اللي بنيتته ولا تاخد "آسيا" مني، ده أنا أموتك قبل ما تعمل كده

مجرد التلطف باسمها جعلها تشك في كون الموضوع ذو صلة بها، استندت "آسيا" على الدرازين بكفي يدها متسائلة بصوت مرتفع:

ماما، في إيه بيحصل عندك؟

رفع "شرف الدين" وجهه للأعلى ليحطق في ابنته التي كانت تعتلي الدرج، رسم على تعابيره الزائفة قلقًا مصطنعًا وهو يهتف بتلهف:

- "آسيا"، بنتي حبيبتي!

انقضت عليه "نادية" لتمسك به من ذراعه لتمنعه من الاقتراب منها وهي تصرخ فيه:

- بعد عن بنتي

نزع يده بقوة دافعًا إياها للخلف مواصلاً سيره المتعجل نحو الدرج، هتف بصياح دون أن يرفع عينيه عن "آسيا":

كنت متأكد إنك هنا، تعالي لحضن بابا، أنا رجعت مخصوص عشانك!

تجمد بصرها على قسماط وجهه مستعيدة في عقلها مشاهدًا تضمنت وجوده معها، شعرت بالبرودة والجفاء، بإحساس موتر مليء بالقلق والخوف، ظلت حدقتها معلقة به رغم اقترابه الشديد منها، وكأنها باتت مسحورة بحضوره، لكن كان حافزها الوحيد هو تخمين سبب ذلك الإحساس المريب الذي انتابها، أفاقت من شرودها فيه على ألم قبضته وهو يجذبها من رسغها لتسير عنوة معه، زاغت عينها نحو وجه والدتها المفزوع وهي تصرخ فيه:

-مش هاسيهالك، ابعده عن بنتي

حاولت "نادية" انتزاع قبضته من على ابنتها لتحررها منه، مل "شرف الدين" من هجومه غير المجدي عليه فدفعها بقسوة صائحًا:

-مش هايحصل

اختل توازن "نادية" فتعثرت قدمها وسقطت على الدرج، شهقت "آسيا" بدعير خائف على والدتها التي كانت تقاتل بشراسة من أجلها، انحنى مرددة بخوف:

-ماما، ماما!

لف "شرف الدين" ذراعه حول خصر ابنته ليمنعها من الوصول إليها، شحذ قواه بالكامل ليدفعها للسير وهو يقول لها:

-تعالى معايا يا "آسيا"

رفضت الانصياع له ودفعته بكفها صارخة فيه:

-ابعده عني، أنا معرفكش

تحولت ملامحه للعدائية بعد إنكارها لمعرفتها به وكأنها تتقن ببراعة دورها في مسرحية رخيصة لتستجدي اهتمام وحماية أمها، دفعها بعنف رافضًا تركها وهو يتوعدها من بين أسنانه المضغوطة:

-بتنكري باباكي بعد اللي عملته عشانك، هنتحاسب على ده بعدين يا "آسيا"، بس أنا مش هاسيبك هنا، إنتي مكانك معايا!

انتابتها حالة من الجنون والخوف وهي تساق عنوة على الدرج، عمّد "شرف الدين" إلى تثبيت مقاومتها بذراعيه، مدت "آسيا" يدها لتمسك بالدرابزين متشبثة به وكأنه

وسيلتها الدفاعية الأخيرة للحول دون أخذها، حاولت أيضًا إلقاء ثقل جسدها عليه لتعيق والدها عن سحبها، نفذ صبره من مقاومتها فجذبها من شعرها المعقود صائحًا:

-مهما عملتي هاترجعي معايا

صرخت بهيسترية محفزة والدتها للدفاع عنها باستماتة، تدخلت الخادمة حينما رأت سيدة المنزل تهان وابنتها تدفع بعنف على الدرج، امتزجت الأصوات الصارخة مع صوته الغاضب فبدأ الوضع فوضويًا على الأخير.

.....

سمع "معتصم" تلك الأصوات المرتفعة تأتي من داخل منزله وهو يدس المفتاح في القفل، ولج إلى الداخل والفضول مسيطر عليه، شخصت أبصاره مع رؤيته للاشتباك الدائر بالأيدي بين والدته والخادمة و"آسيا" وذلك الرجل الغريب، ودون أي تفكير اندفع نحو الدرج صارخًا بجنون:

-إنت بتعمل إيه عندك؟

كان في حضوره النجدة لـ "نادية"، استغاثت به على الفور:

-الحقنا يا "معتصم"، امنعه ياخذ بنتي!

لم يكن بحاجة لفهم ما يدور ليتصرف بعقلانية، يكفيه استغاثتها ليقوم بدوره دون مراجعة أو تفكير، استخدم "معتصم" ذراعيه في دفع جسد "شرف الدين"، لكن ظل الأخير ممسكًا بـ "آسيا" التي استنجدت به:

-مش هامشي معاك، ابعده عني

تضاعفت قوى "معتصم" الغاضبة من هوجائية ذلك الرجل ونجح في تحرير "آسيا" من قبضتيه، استشاط "شرف الدين" غضبًا، فزجر مهددًا:

-إنت مين عشان تمسكني كده، دي بنتي وأنا هاخذها معايا

رد عليه بغلظة:

-برا!

صرخت فيه "آسيا" ببيكاء مهتاج:

-مش هاجي معاك، أنا معرفكش!

احتوتها "نادية" في أحضانها لتحميها من بطشه، ثم دعمتها في رفضها وهي تضمها إلى صدرها:

-بنتي مش هاتمشي من هنا يا "شرف الدين"، سامع!

جلست الخادمة أمامها لتشكّل بجسدها حائلاً يمنع وصول ذاك الرجل إليهما، في حين نظر "معتصم" لـ "شرف الدين" شزرًا وهو يقول له بصوته الجهوري الحانق:

-سمعت قالت إيه، بنتها مش قاصر عشان تاخذها بالعافية، ويالا برا!

رفع الأخير ذراعه ملوحًا بتهديد عدائي:

-بتتحمي في الواد ده، أنا أقدر أجيب بلطجية يطربأوا البيت ده على اللي فيه

اغتاظ "معتصم" من إهائته التي مست رجولته ووصفه بالطفل، رد عليه "معتصم" بشراسة وقد اشتعلت نظراته:

تحب أعرفك أنا هاعمل إيه

تأزم الوضع وانقلبت كفة الميزان لصالح عائلة "المصري"، خاصة بوجود "معتصم" الغاضب، وبجسبة سريعة فكر "شرف الدين" في أن الموقف ليس لصالحه، سينسحب مؤقتًا حتى يتمكن من الرد بقوة في الوقت المناسب، يكفيه الآن أنه توصل

لمكان ابنته بعد أن اختفت منذ آخر مكالمة هاتفية أجراها معها، رمق "معتصم" بنظرة نارية قائلاً له:

لسه الكلام ماخلصش، و"آسيا" بنتي وتربيتي، يعني حته مني، والتمثيلية السخيفة دي هاتكشف قريب

ببساطة زرع الشكوك من جديد في نفس "معتصم" بجديته المسموم، التفت الأخير ملقياً نظرة حاققة نحو "آسيا" التي كانت تدفن وجهها في صدر أمها وهي تبكي، عاود التحديق في والدها هاتفاً بصيغة امرأة:

-اطلع برا!

هندم "شرف الدين" نفسه مردداً:

-وماله، بس راجع تاني!

حرك رأسه للجانب ليلقي نظرة مليئة بالحقد على وجه "نادية" وهو يتابع:

-أنا مش بأسيب حتي يا "نادية"، افتكري كلامي كويس

دفعه "معتصم" بقسوة بعيداً عن الدرج حتى قام بطرده من المنزل، التفت نحو "آسيا" يرمقها بنظراتٍ كارهة، فوجودها كاد أن يتسبب في فضيحة جلية بين جيرانهم بسبب والدها الفظ الوقح، وما أشعل لهيب غضبه يقينه بأن ما حدث قبل لحظات أمر مدير بين الابنة وأبيها لخداع الجميع، أطلت من حدقتيه شرارات الاستنكار والنفور، عبس أكثر مع صوت "نادية" القائل:

-ماتخافيش يا "آسيا"، محدش هيقدر ياخذك من هنا

تعلقت ابنتها بها تتوسلها:

-ماتسبنيش يا ماما

امتقع وجه "معتصم" وهو يتابع ذلك المشهد الدرامي الزائف من وجهة نظره، عقد العزم على التظاهر بالإشفاق عليها ودعمها فقط ليكشف ملعوبها، وسيكون رده عليها يليق بشخصها .. بريريًا !!

.....

الفصل الحادي والثلاثون (الجزء الأول)

استندت على والديها لتمكن من النهوض وتولت الخادمة إسنادها من الجانب الآخر، تورمت عيني "آسيا" من كثرة البكاء وبج صوتها من صراخها المتواصل، تأثرت والديها بحالها الضعيف وضمتهما إليها وهي تعاونها في سيرها البطيء لتكمل صعودها على الدرج، أردفت قائلة لتدعمها:

محدث هيقدر يعملك حاجة طول ما أنا عايشة على وش الدنيا، خليكي واثقة في ده يا "آسيا"

وكانها تخاطب نفسها، لم تكن واعية عقليًا لما تقوله، انخرطت في دوامة ذكريات متداخلة مع أيها كانت تنتهي دومًا بالشجار بينهما، لم تشعر نحوه بالحنو أو الاشتياق، بل كانت مشاعرها غريبة مليئة بالجفاء والبرود، لم تنتبه لعينين "معتصم" المركبتين معها، لم يقتنع بما رآه رغم حدة تصرفات والدها، أيقن أنها مسرحية هزلية لإقناع الجميع بأنها الضحية لقسوة أيها وأنها لا تزال تعاني من فقدان الذاكرة، التفتت "نادية" نحوه برأسها صائحة فيه:

- "معتصم" اتأكد لو سمحت إن النبي آدم ده مشي خالص من الكومباوند

رد تهكم:

-أُكيد مش هيستنى بعد اللي حصل، ما هو دوره خالص على كده
رمقته "آسيا" بطرف عينها بنظرة حادة ساخطة، فذلك الشخص الفظ لا يمتلك ذرة
إحساس واحدة ليشعر بما يختلج صدرها من ضيق كبير، لم يؤازرها بكلمة طيبة لتهدي
من روعها، فقط قنوطه نحوها هو الواضح على تعابيره وظاهر حتى في ردوده الجافة،
تأكدت في نفسها أن ردها عليه لن يجدي مطلقاً، أبعدت عينها عنه وتابعت سيرها
المؤلم حتى وصلت إلى غرفتها، لم تتركها "نادية" ولازمتها طوال اليوم جالسة إلى جوارها
على الفراش، وواضعة لرأسها على صدرها لتبث لها إحساس الطمأنينة في نفسها حتى
خلدت إلى النوم، فتركها وانسحبت بهدوء حذر من الغرفة.

.....

علم "وحيد" بما حدث أثناء غيابه من تجاوز عنيف لـ "شرف الدين" ومحاولته أخذ
ابنته بالقوة الجبرية، غلت الدماء في عروقه لإخفاء الأمر عنه حتى عودته إلى المنزل في
المساء، عاتب زوجته قائلاً بامتعاض شديد ونظراته نحوها تحمل اللوم:

إزاي كل ده يحصل وأنا معرفش؟

أجابته بحذر:

ما هو "معتصم" اتعامل معاه

لوح بيده متابعاً بعصبية ملحوظة:

الراجل ده لازم يتعمل ضده محضر، مش معقول يتهجم على بيتي في غيابي ويتساب

كده عادي من غير ما يتحاسب

ردت عليه "نادية" بقلق:

- "وحيد" أنا مش عاوزة مشاكل، خلاص هو غار في داهية، خيلنا

قاطعها بجدّة وقد تجهم وجهه:

يا "نادية" اللي زي ده مش هابتهد، طالما عرف سكة البيت هنا توقعي وجوده في
أي وقت

شعبت ملامحها نوعًا ما عقب جملته الأخيرة التي زرعت القلق فيها، هتفت بجدية:

-أنا هابلغ الأمن يمنعه يدخل لو فكر يجي تاني

فرك طرف ذقنه وهو يكمل بنفس النبذة المزعوجة:

-ماشى ده حل مؤقت، بس أنا هاشور المحامي بتاعنا ولازم يبقى في إجراء قانوني ضده

أكلت قائلة بتوجيس وقد انعكس التوتر في نظراتها:

-مش ده المهم، بنتي فين من كل ده يا "وحيد"؟

لاحظ الاضطراب الظاهر عليها فوضع يده على كفها ضاغطًا عليه برفق وهو يؤكد لها:

-متقلقيش، محدش هيتعرض لـ "آسيا" طول ما أنا موجود

ردت بامتنان وقد تلالأت العبرات في نظراتها:

-ربنا يخليك ليا يا "وحيد"

ثم عادت لشرودها الحائر من جديد، بدت كمن يفكر بصوت مسموع وهي تغغم
خافتة:

لو أضمن بس

ابتلعت باقي جملتها لتضفي المزيد من الغموض عليها، اعتدل "وحيد" في جلسته ليسألها
مهتمًا:

-بتفكري في إيه؟

ترددت في البداية عن الإفصاح عما تفكر فيه، لكن نظرات زوجها كانت واضحة للغاية
في صرامتها، ودعم ذلك نبرته القائلة:

قوليلي يا "نادية"

ابتلعت ريقها لتقول بجرح مرتبك:

متقولش عليا بأخرف ولا ...

رد مبتسمًا ليدفعها للبوخ بما يملأ رأسها من أفكار:

يا حبيبتي قولي بس وأنا سامعك

سحب شهيقًا عميقًا زفرته دفعة واحدة لتحفز نفسها قبل أن تتابع:

لو كان ينفع كنت خليت "معتصم" يتجوز "آسيا"، بس أنا عارفة إنه صعب

رفع حاجبه للأعلى متسائلًا باستغراب كبير وقد بدا مستنكرًا لمجرد تفكيرها في ذلك

الاقتراح غير الفعال:

إنتي بتتكلمي جد؟!

ردت موضحة:

هو الوحيد اللي هايقدر يحميها، إنت مشوفتش دافع عنها إزاي

أعاد زوجها ظهره للخلف نافيًا:

استحالة ابني يوافق

تهدت قائلة بيأس موافقة إياه الرأي:

ما هو عشان كده أنا مستبعدة الحل ده

لاحظ تشكّل علامات العبوس على تعابيرها المرهقة فمسح برفق على ظهر كفها قائلاً:

-احنا محتاجين نفكر في حل ثاني عملي ومناسب للكل، بس دلوقتي حاولي ترتاحي
نظرت له بإحباط وهي ترد:

-منين هاتيحي الراحة وبالي هيفضل مشغول طول ما هو موجود في حياتنا
كانت محقة في ذلك، فظهور "شرف الدين" في هذا التوقيت بالذات يعني وجود ذريعة
لمشاكل جمة ستزيد باستمرار بقائه.

.....

انحنت للأمام لتلتقط أنفاسها بعد نصف ساعة من الركض المتواصل في مضمار العدو
بالنادي، تنفست "أية" بعمق لتجبر صدرها المهتاج على التنفس بروية، ثم اعتدلت
في وقتها لتواصل تمرينها، شهقت بصدمة حينما رأت آخر من توقعت تواجهه بالمكان،
ارتسم على ملامحها علامات الاندهاش الفرحة، تداركت نفسها وحاولت أن تبدو
هادئة أمامه، خاصة أن ضربات قلبها كانت متلاحقة للغاية، مد "سامر" يده لمصافحتها
قائلاً بلطف:

-إيه المفاجآت الحلوة دي

بادلته المصافحة فرفض ترك يدها ورفعها إلى فمه ليقبلها بنفس اللباقة السابقة، توردت
وجنتاها وتلعثمت وهي ترحب به:

-أستاذ "سامر"، ازيك

سحبت يدها سريعاً للخلف مبذلة مجهوداً كبيراً للظهور بشكل هادئ أمامه، قطب ما
بين حاجبيه ثم عبس بوجهه يعاتبها بضيق مصطنع:

-مافيش داعي للألقاب دي، مش احنا المفروض بقينا أصحاب

عضت على شفتها السفلى بارتباك ثم ردت بخجل:

أُكيد

تابع متسائلاً باهتمام:

صدفة حلوة إني أشوفك هنا، إتي بتيجي كثير النادي ده؟

أجابته عفويًا:

ده أنا عضوة فيه، يوم بعد يوم بأجي أدرب، ده غير معظم خروجاتي مع أصحابي هنا
أوماً بحاجة متابعاً بابتسامه عذبة:

حلو أوي

نجلت وارتبكت من تحديقه الجريء بها، أخفضت نظراتها ليتضاعف حرجها مع رؤيتها
لذلك العرق الذي يبلل ثيابها الرياضية، شعرت بسخونة كبيرة تجتاح بشرتها وهي
متأكدة لرؤيته لها، تحاشت النظر نحوه مرددة بجرح:

أنا هستأذنك أروح أغير هدومي، شكلي مش لطيف بعد المجهود اللي عملته
رد مجاملًا وقد أسبل عينيه نحوها بطريقة حاملة:

إتي حلوة في كل الأحوال

زادت ريكتها من أسلوبه الناعم في تجاذب أطراف الحديث معها، أشارت بيدها قائلة:

أنا مش هتأخر، هما ١٠ دقائق هاخذ شاور وأغير هدومي وأرجع ثاني

فرك طرف ذقنه مرددًا بهدوء محنك:

للأسف مش هالحق أقعد معاك، عندي شغل كثير، بس أوعدك نتقابل ثاني

تفهمت اعتذاره فهزت رأسها مبتسمة:

أوكي ولا يهيك

ثم لوحث له وهي تشرع في الركض:
بأي!

رفع إصبعيه ليلوح لها بابتسامة مكررة:
سلام يا حلوة

تعلقت أنظاره الغريبة بها رغم ابتعادها عنها متابعا حديث نفسه:
أنا مش ورايا غيرك دلوقتي!

.....

كان كالقنبلة الموقوتة التي انتزع فتيلها لمجرد سرد "معتصم" لتفاصيل ما حدث في منزله من تصادم "آسيا" مع أبيها، خرج "نبيل" عن هدوئه ليثور في وجه ابن عمه الذي كان غير مكترث بانفعالاته، ما ضاعف من حنقه هو بروده المستفز واقتناعه بأنه ملعوب مفتعل منها لكسب تعاطف من حولها ولإجبارهم على تصديق أكوذاتها فعنفه هادرا:

-إنت مصدق نفسك؟

رد عليه بجمود:

-أيوه، عشان فاهم كويس دماغها

احتقنت نظرات "نبيل" بصورة واضحة ورد عليه بتشنج:

-اقسم بالله إنت مريض نفسي، ولو حد فعلا محتاج علاج يبقى مخك اللي فوت
ومصدق التخاريف والهبل ده

اغتاظ "معتصم" من هجومه العدائي على شخصه فنهره بخشونة:

-اتكلم عدل معايا يا "نبيل"، ماتنساش نفسك!

نظر له شزراً قبل أن يرد:

-والله لو قولتلك إيه، هاتفضل زي ما إنت، طالما اللي في دماغك موجود عمرك ما تشوف الحقيقة حتى لو كانت ظاهرة قصادك

صمت "معتصم" ولم يعلق عليه، بدت حدقتي "نبيل" كجمرتين مشتعلتين من النيران وهو يرى بنفسه أسلوبه المستفز الذي يثير أعصاب أي شخص طبيعي هادئ، رمقه بنظرات نارية قائلاً بنبرة غامضة:

ماشى أنا هاريجك من مشاكل "آسيا" كلها

التوى ثغره بابتسامة ساخرة وهو يسأله باستخفاف:

هاتعمل إيه يعني؟

أجابه بنبرة جادة لا تحمل المزاح ودون أن يرتد له جفن:

هاتجوزها

اعتقد أنها مزحة سخيفة منه فكرر ضاحكاً للحظات، لكن لم يظهر على وجه "نبيل" التأثير، كان جاداً للغاية، أدرك "معتصم" خطورة الأمر، تقلصت أمعائه بتوتر من طريقة تحديقه المقلقة به، هب واقفاً من مكانه مدهوشاً من اقتراحه الصادم الذي تخطى حدود تفكيره، ثم سأله بعدم تصديق:

نعم؟ بتقول إيه؟

كانت نظرات "نبيل" قوية وجدية، اقترب منه ليواجهه باستبسال غير مسبوق، ثم أجابه بنفس الإصرار:

إنت سمعتني كويس

سريت حمرة غاضبة في وجه ابن عمه وهو يرد مستنكراً بنبرة شبه متعصبة:

-بطل أمور الاستعباط دي يا "نبيل"

تحدث من زاوية فمه متابعا:

- "آسيا" محتاجة لواحد يخاف عليها بجد ويحميها، مش يهينها ولا يذلها لمجرد غلطات عملتها زمان

ظن "معتصم" أنه واقع في حالة ما بين الاستخفاف والجنون، تحرك "نبيل" خطوة لتتكش المسافة بين نظراتها الحادة والغاضبة ثم أضاف بإصرار عنيد:

-وأنا هاكون الشخص ده يا ابن عمي

.....

الفصل الحادي والثلاثون (الجزء الثاني)

لم تكن بنكته سخيّة ألقاها على مسامعه ليستفزه بصورة أو بأخرى، وإنما حديثًا جادًا للغاية ينم عن نية مُبينة للارتباط بها، ظن "معتصم" أن "نبيل" يفعل ذلك عمدًا ليخرجه عن عجزته الباردة، لكنه لم يكن بالشخص المازح، رمقه ابن عمه بنظرة صارمة للغاية قبل أن يضيف بنفس الإصرار:

-نتقابل ليلة فرحي يا "معتصم"، سلام!

انصرف دون أن يدع له الفرصة للرد أو التعبير، فغر الأخير شفثيه مصدومًا من تصريحه الذي تخطى ما فكر فيه يومًا، بقيت أنظاره معلقة بطيفه الذي رحل غير واع لما عقد العزم عليه، ببساطةٍ نجح "نبيل" في إيقاظ مشاعر غريبة لم يعتقد "معتصم" يومًا أنها ستؤثر به، ورغم ذلك فسرها بصورة خاطئة بأنه أشعل بضراوة فيه غضبه نحو "آسيا"، كور قبضته ضاربًا سطح مكتبه بعنف، كز على أسنانه بقوة محدثًا نفسه بحنق:

-مش ها يحصل أبدًا!

قذف محتويات المكتب بعصبية على الأرضية، تهدجت أنفاسه والتف حول نفسه متحركًا بتوترٍ، اعتصر عقله محاولاً إيجاد الحل لتلك الأزمة التي اختلقها ابن عمه قائلاً لنفسه:

-مش هنولهاك يا "نبيل"!

.....

لاحقًا، تأخر في عودته إلى المنزل وتجاوز موعد حضوره وقت الغذاء بكثير، توهمت "نادية" بأن "معتصم" مشغول في أعماله، فلم تهاتفه وتناولت الطعام مع زوجها وابنتها،

خيم الصمت على جلستهم الاعتيادية، فقط بعض الملحوظات المقتضبة من "وحيد"
ليكسر حاجز الملل، ابتسمت "آسيا" بتكلف ثم استأذنت قائلة:

أنا هاطلع أرتاح في أوضتي

قطبت "نادية" جبينها متسائلة باستغراب:

خليكي أداة شوية، الأكل مش عاجبك ولا إيه؟

أشارت بيدها معذرة:

كله تمام، بس أنا تعبانة شوية

نظرت لها باهتمام وهي تسألها بتلهف:

في حاجة تعبكي؟ أطلبلك الدكتور و....

قاطعتها "آسيا" بهدوء:

لا يا ماما، أنا محتاجة أنام وهابقى كويسة

فضلت أن تعود إلى غرفتها لتبقى معزولة عن حولها، يكفيها ما عاشته وتعايشيه
لتحمل غيرها همومها ومشاكلها التي لا تنتهي، انسحبت بهدوء تاركة أنظار والدتها معلقة
بها، استندت "نادية" بيدها على وجنتها مرددة بضيق:

أنا مش عارفة أعملها إيه بس عشان أخرجها من الحالة اللي هي فيها دي

رد عليها زوجها بنبرة عقلانية:

سببها على راحتها يا "نادية"

تابعت قائلة ييأس:

دي مش بتخرج ولا بتقابل حد، ومعظم الوقت حابسة نفسها في الأوضة، وكذا مرة
أقولها تعالي نروح النادي، نغير جو، نخرج شوية ترفض وتفضل أعدة فوق!

أخرج زفيرًا بطيئًا من صدره قبل أن يعقب بتريث:

-ماتنسيش إن وضعها مختلف بعكس أي حد تاني، هي تعتبر في حكم المشاهير، وأي
حاجة بتعملها محسوبة عليها

اعترضت بضيق:

-مايسبوها في حالها بقي!

ادعى "وحيد" الابتسام ليخفف من حالة الانزعاج الظاهرة عليها، وضع يده على كتفها
ضاغظًا عليه بلطف، ثم طمأنها قائلاً:

-متقلقيش يا حبيبتي، طول ما كلنا معاها وحواليها هاتكون أحسن

تهدت مضيفة:

يا ريت والله!

عادت للتحديق بشرود أمامها لتفكر في حل يُريح ابنتها من معاناتها الصامتة، هي
متفهمة لكل ما مرت به، لكنها إلى الآن لم تتخذ موقفًا جديًا يحول دون تعرضها للأذى،
ولم تقدم لها ما يشعرها بالأمان والاحتواء، انعكست نظراتها الحزينة على وجهه، راقبها
"وحيد" باهتمام فقد أزعجه هو الآخر أن يقف مكتوف الأيدي ولا يقدم أي مساعدة
مجزية لـ "آسيا".

.....

تلكع في عودته إلى المنزل ليتجنب الالتقاء بها، فلا يمكن أن يضمن ردة فعله حينما
يراه، هاجت الدماء في شرايين "معتصم" مجرد تخيلها متأبطة ذراع ابن عمه الساذج

الذي انطلت عليه خدعتها وتوهم أنه يحبها، بل ويسعى جاهداً للتقدم لخطبتها والزواج منها رسمياً رغم الفضائح المشينة المحيطة بها، اختفى وجومه لتحل الدهشة كبديل عنه حينما وجده بالمنزل جالساً بصحبتها في غرفة الصالون بأريحية واضحة، اتسعت حدقاته في عدم تصديق، ثارت دماؤه من جديد وتدفقت بداخل عروقه محفزة إياه على الاشتباك معها، سيطر بصعوبة على نفسه واقترب منها متسائلاً بغیظٍ وقد استشاطت عيناه:

-إنت بتعمل إيه هنا؟

نظر له "نبيل" ببرود وهو يرد مبتسماً:

-إزيك يا "معتصم"، مش ترحب بيا، ده أنا برضوه ضيفك

أدرك أنه يحاول استفزازه فالتفت نحو "آسيا"، كانت نظراته حاتقة للغاية، أشار لها بسبابته متسائلاً بنفس الطريقة الهجومية:

-إنتي أعدة ليه معاه؟

رمقته بنظرة غير مكترثة قبل أن تخرجه بهدوء:

-شيء ما يخصكش

تلون وجهه بحمرة غاضبة مغتاضاً بشراسة من ردها المستفز له، في حين أضاف "نبيل" بابتسامة سخيفة:

-ممکن تسيبنا لوحدنا شوية، ولو عوزناك هنبقى نناديلك يا "معتصم"

انفجر فيه الأخير خارجاً عن المألوف من أسلوب مرحب بالضيوف فهدر به:

-"نبيل" ماتنساش إنت هنا في بيتي

وكانه موضوع في قلب من الثلج، حافظ "نبيل" على بسمته الباردة قائلاً له:

عارف ده كويس، ومستأذن قبل ما أجي
وقبل أن يشتعل الوضع أكثر من هذا تدخلت "نادية" في الوقت المناسب لتحول
دون اندلاعها قائلة بحذر:
تعالى معايا يا "معتصم" شوية

كان كالجبل الشامخ رافضًا التحرك من مكانه، اضطرت "نادية" لاستخدام كفيها
لدفعه، سار بثقل متعصب مبتعدًا عنها وهو يغمغم بسخط غاضب:

ماما إتي إزاي تسمحيلهم يقعدوا كده سوا لوحدهم؟!!!!

أجبرته على المشي معها لترد باستغراب:

ودي فيها إيه؟ ابن عمك وجاي يزور بنتي يطمن عليها

صاح بتشنج:

فيها كثير، وخصوصًا لما يكون مكلمي على إنه عاوز يتجوزها

تجمدت تعبيرات وجهه مذهولة من جملته الأخيرة، رددت باندهاش أكبر:

إيه؟ مش معقول!

.....

أسند كأس مشروبه البارد في الصينية بعد أن ارتشف القليل منه، اعتدل "نبيل" في
جلسته ليتأملها مبتسمًا وقد امتلأت نظراته بالإشراق، تخرجت "آسيا" من طريقة
تحديق الناعمة بها وعمدت إلى النظر إلى أي شيء إلا وجهه، ناداها بنبرة رخيمة ليجذب
انتباهها:

- "آسيا" .. تسمحيلي أفتحك في حاجة، بس يا ريت متعتبرهاش تطفل مني

رفعت رأسها لتنظر نحوه وهي ترد بهدوء مقتضب:

-اتفضل

سحب نفساً طويلاً ليشحذ به نفسه قبل أن يحرره مسترسلاً في الحديث وفي نفس الوقت مراقباً عن كثب لردة فعلها:

-مابتفكيريش في موضوع الارتباط؟

تفاجأت من سؤاله مرددة:

-ارتباط؟!!

أوضح لها مقصده بعقلانية شديدة:

قصدي تعارف أو خطوبة أو حتى جواز

تقوست شفتها بابتسامة ساخرة مما يقوله، فمن سيرتضي بمثلها عروس لشاب ما من عائلة محترمة والأكاذيب التي نهشت من سمعتها تحاوطها من كل الاتجاهات؟ ردت بنهيدة مليئة بالضيق:

-لأ

تشجع أكثر للمضي قدماً في خطواته التالية ومفاتها فيما انتوى عليه، ابتلع ريقه قائلاً بجدية:

-"آسيا"، أنا مش عاوزك تفهميني غلط أو تتسرعي في رأيك، كل اللي عاوز أقوله ليكي إني

تردد للحظة في استكمال باقي جملته، حاز على انتباهها وبدت مترقبة باهتمام لما سينفوه به بعد ذلك، أخرج كتلة من الهواء من صدره دفعة واحدة قبل أن يقول:

-أنا حاسس ناحيتك بانجذاب كبير، وجايز يكون أكثر من إعجاب!

توترت "آسيا" من مصارحته العلنية لها بما يكنه من مشاعر راقية، لم تتخيل ذلك، أن تكون محور اهتمام أحدهم، بل ويحمل نحوها أحاسيسًا من نوع مختلف، جف حلقها وارتبكت في جلستها، فركت أصابع يدها معًا لتخفف من اضطرابها، شعرت بعدم الارتياح لعدم قدرتها على الرد عليه بنفس الصراحة، اعترتها حيرة جليلة، فهي حتماً لن تمنحه ما لا تشعر به حتى وإن كانت تقدره وتكن له مشاعر الاحترام، لن تتحمل أن تراه أو ترى غيره مغلوبًا على أمره مع مشاكلها الدائمة، بحثت سريعًا عن طريقة لبقة لتخلصها من ذلك الموقف الحرج، رمشت بعينها قائلة بحيرة:

أنا مقدرة مشاعرك دي وبأشكرك عليها

اعترض عليها قائلاً:

بس أنا لسه ...

رفعت يدها لتقاطععه بجمود:

-أنا أسفة بس صدقتي أنا فعلاً معنديش الرغبة إني ارتبط بجد خالص، باعتذرلك أنا لازم أطلع أوضتي، عن إذتك!

لم تنتظر رده بل نهضت من مكانها وفرت سريعًا من حصار عينيه، كانت متيقنة أنها أصابته بالإحباط وخيبة الأمل، لكن ذلك الأفضل من وجهة نظرها، لم ييأس "نبيل" من هروبها الغريب وانسحابها المفاجئ، توقع أن تصده مع أول محاولة جدية للتودد لها، لن يستسلم وسيعيد تكرار المحاولة ويحرك عواطفها المتجمدة لتشعر بقلبه، هي فقط بحاجة لاكتساب ثقته ومعرفة قيمة نفسها، ومجرد التفكير في مسألة الارتباط سيفرق

معها كثيرًا!!!

.....

الفصل الثاني والثلاثون

تفهم بعقلانية رفضها اللبق لمسألة الارتباط به أو بغيره بسبب ما مرت به وما تمر به من مشكلات مختلفة، لن يضغط عليها ليحصل على رد قاطع، بل سيعاود بتريث تكرار المحاولة بعد برهة، جلس "نبيل" بهدوء في مكانه مكلاً ارتشاف مشروبه، لمح "معتصم" وهو يندفع نحوه بوجه مليء بإشارات غاضبة، اعتدل في جلسته ليبدو أكثر استرخاءً عن ذي قبل، وقف ابن عمه في مواجهته يسأله بانفعال:

-عملت اللي في دماغك وارتحت؟

رد مبتسمًا ببرود شديد واضحًا ساقه فوق الأخرى:

-أيوه

توهجت نظراته بحنق مضاعف، رفع سبابته أمامه يتوعده:

-متحلمش كثير يا "نبيل"، اللي بتطلبه عمره ما هيحصل!

أنزل "نبيل" ساقه ثم هب واقفًا ليرد محتجًا على كلماته الأخيرة:

ليه إن شاء الله؟ إنت عندك مانع؟ ولا تكونش بتحبها وأنا معرفش؟

نظر له باستخفاف قبل أن يقول بسخطٍ حاقد:

-أنا ما بكرهش في حياتي أدها

تيقن "نبيل" من كرهه الشديد لكل ما يخصها، تحداه بنظراته القوية متسائلًا:

حبيب زعلان ليه بقى؟ ما تكبر إنت دماغك منها

ثم غمز له بطرف عينه مكلاً بابتسامة مغترية:

-وليك عليا يا سيدي أريحك منها ومن مشاكلها كلها

وكان ابن عمه لا يفعل شيئاً سوى استثارة أعصابه، انقل عليه مردداً:

مش بالساهل يا "نبيل"

تمسك الأخير بهدوئه وضبط النفس لأقصى درجة خلال تعامله معه، رد بعنجهية وهو يشير بحاجبه:

أنا عارف كويس أوي أنا بأعمل إيه معاها

ثم وضع يده على كتفه ليرت عليه متابعاً:

وكفاية إنها تثق فيا الأول، وبعد كده يجي الحب والارتباط

نفض "معتصم" يده من عليه بعصية قائلاً له من بين أسنانه المضغوطة:

إنت

قاطعته "نادية" مرددة جدية:

- "معتصم" ممكن تسييني شوية مع "نبيل"

التفت ناحيتها يرمقها بنظراته المشتعلة، بادلته نظرات جادة فاضطر أن ينسحب من المجادلة قائلاً بامتعاض عابس:

ماشى يا ماما

تابعه "نبيل" بعينه مراقباً بتفرس ردة فعله العنيفة، عاود الالتفات ناحية زوجة عمه حينما أشارت له بيدها وهي تقول:

ارتاح يا حبيبي

جلس متحفظاً وهو يرد مجاملاً:

شكراً يا طنط

انتظرت للحظات حتى تصفو الأجواء لتقول بعدها:

- "معتصم" كان قالي إنك عاوز تتجوز "آسيا"، الكلام ده مضبوط؟

أجابها بجدية واضحة وهو مسلط عينيه عليها:

-أيوه، وأتمنى إنها توافق عليا

رمقته بنظرة مطولة حائرة، كانت متيقنة من صدق نواياه الجادة في الارتباط بابتها، لكنها تخشى من تبعات قراره، خاصة أن والدته ذات شخصية مختلفة عنه، ناهيك عن خلافها الودي معها في الكثير من الأفكار والاتجاهات فتحولت علاقتها إلى نوع من الجفاء والمقاطعة، وبالتالي طرح مسألة الزواج من ابتها على الساحة قد يتسبب في حدوث الكثير من الجدل، ضغطت "نادية" قليلاً على شفيتها موضحة بمرح ملحوظ:

- "نبيل" إنت عارف وضع بنتي كويس ومشاكلها، ده غير ال.... يعني الحاجات القديمة والكلام اللي اتقال عنها و....

قاطعها "نبيل" هاتفاً بإصرار:

-كل ده ما يفرقش معايا، أنا عاوز أبدأ معها من أول وجديد، هي تستحق تاخذ فرصة ثانية، ليه أحرما وأحرم نفسي من ده

لم تظن "نادية" أنه يملك من الصفات الجيدة ما قد يمنح أي فتاة زوجاً رائعاً، ابتسمت عفويًا وأشرقت نظراتها وهي ترد بعدم تصديق:

-أنا مش عارفة أقولك إيه، بس فرحانة أوي بيك، ويا ريت بنتي توافق عليك

تهللت أساريره بفرحة من موافقتها المبدئية عليه، سألها بتلهف:

-يعني حضرتك مش ممانعة؟

ردت مؤكدة بسمة أكثر سعادة:

-لأ طبعًا، إنت معزتك زي "معتصم" بالظبط، ومش هاقلق على بنتي لو مع واحد
زيك في أخلاقك وذوقك!

.....

تمددت على فراشها لتحقق في السقفية بشروءٍ، ربما لو كان الوضع مختلفًا لباتت ترقص
طربًا من السعادة لتقدم أحدهم لخطبتها، لكنها تعلم أنها أبعد ما يكون عن ذلك الشعور،
فها هو هم آخر يجثم على صدرها، أغمضت "آسيا" عينها لتسمح لتلك العبرات
الحبيسة بالانسياب على وجنتيها أسفًا على حالها، انتهت لصوت الدقات الثابتة على
باب غرفتها، فتحت عينها وكفكت سريعًا عبراتها، مسحت ما تبقى من دمعاتها على
وجنتيها بظهر كفها ثم تنفست بعمق لتبدو طبيعية، تنحنحت قائلة بنبرة غير صافية
معتقدة أنها الخادمة:

-اتفضلي

تفاجأت بوجود "معتصم" فنظرت له مذهولة وهي تقول:

-إنت!

أغلق الباب من خلفه بعد أن وجم للداخل قائلاً لها بجمودٍ مقلق:

-عاوزك في كلمتين

ظنت أنه أتى لافتعال المشكلات معها واستفزازها فبادرت قائلة بجدّة:

-لو جاي تسأل على هديتك فأنا دوست عليها برجلي

رغم غيظه من تصرفها إلا أنه رد بنفس الجمود:

-ماهمنيش!

وقبل أن تحصل على فرصتها لسؤاله تابع بخشونة وهو يشير بسبابته في وجهه:

-إتي تقديري تضحكي على حد وتبلفيه بالأعييك، إلا أنا!
اتسعت حدقتهاها في حنق مبرر من هجومه الدائم على شخصها، ردت باستنكار:

-نعم، قصدك إيه؟

ضيق نظراته نحوها وهو يرد بغموض:

-إتي فاهمة كويس أنا بأتكلم عن إيه

صاحت فيه بانفعال وقد فاض الكيل بها من أسلوبه المبتز لمشاعرها المرهقة:

-ماتكلمنيش بالألغاز

تحرك نحوها لتتقلص المسافة بينهما، نظر في عينيها بغضب مقيت، ثم أردف موضحًا:

- "نبيل" طيب ومحترم، وإتي عرفتي تضحكي عليه بطريقتك عشان يقع في حبك
ويتجوزك

صدمت من مصارحته بما عرفته قبل قليل من نوايا ابن عمه في رغبته بالارتباط بها،
ردت مدافعة عن نفسها بتعالٍ:

-أنا ما أجبرتوش على ده، وقولتله إني مش عاوزة

التوى ثغره بابتسامة متهمكة وهو يرد:

-حجة حلوة عشان يتمسك بيكي أكثر

لم تتحمل "آسيا" المزيد من هرائه فهدرت به بنفاذ صبرٍ:

لو سمحت اطلع برا أوضتي!

أشار لها بذراعيه في الهواء بعد أن ترجع خطوة للوراء:

-إتي ضيفة هنا عندنا في بيتنا، ماتنسيش ده!

كان محققًا في تلميحه الصريح، ابتلعت بقايا جرحه لكرامتها وتذكيره بأنها لا تنتمي إلى هنا
لتقول بنبرة مهتزة:

-شكرًا إنك بتفكرني كل شوية

لوح بسبابته أمام وجهها متابعا بعجرفة سخيفة:

-بلاش الوش ده معايا

كظمت ضيقها منه واكتفت بجدجه بنظرات شرسة تريد الفتك به، اقترب منها
"معتصم" من جديد مهددًا:

-أنا هاقتلك فيها يا "آسيا"

امتلاً صدرها من تهديده المتواصل لها على أصغر الأمور، صرخت فيه منفعة:

-إنت عاوز إيه مني؟

أجابها بقسوة:

-أكشفك قصاد الكل

ردت بعصبية وقد احتقنت بشرتها وبرقت عيناها الفيروزيتان:

-وأنا مخيبة إيه عشان تكشفه؟!!

رمقها بنظرة جافة قبل أن يجيبها:

-الفيلم اللي إتني عملاه ده كله، فاقدة الذاكرة ومش عارفة حد، لأ وطمع الحنية اللي
هبط عليكى فجأة، وأخرها أبوكي اللي جه يعمل الحبطين بتوعه هنا

انفجرت شفتها عن استنكار كبير، ابتلعت ريقها في حلقها لتسأله بصوتها المتشنج:

-وايه كمان؟

رمقها بنظرة احتقارية وهو يقول:

دور الضحية اللي عايشة فيه وانتي واحدة رخيصة ملهاش تمن!
استشاطت على الأخير وفقدت قدرها على التحكم في أعصابها، رفعت كفيها لتصفعه
صارخة فيه:

أخرس

صدم من تجرؤها عليه بوقاحة شديدة، لم يضبط انفعالاته وبادلها بصفعة قاسية تألمت
من شدتها، وضعت "آسيا" يدها على وجتها لتسبه بعدها بصوتٍ شبه مختنق:
إنّ حيوان!

تراجع عنها ليتوعدها بغضبٍ وهو يهدد بإصبعه:

هنتحاسب قريب يا "آسيا"

حدجته بنظرات حادة من بين عبارتها التي ملأت مقلتيها، صاحت فيه ببكاءٍ:

اطلع برا

خرج "معتصم" من غرفتها صافقًا الباب خلفه بقوة، بينما انهارت "آسيا" على الفراش
منخرطة في بكاء مؤلم على كرامتها التي تُضطهد يوميًا على يده.

.....

حسنت أمرها بالرحيل، فهي ليست مضطرة لتحمل ما لا تطيق، جمعت "آسيا"
ثيابها في حقيبة سفر، ثم خرجت من غرفتها متجهة نحو الدرج ساجدة إياها خلفها،
نظرت لها "نادية" باندهاش، أخفضت عينيها لتتأمل حقيبتها متسائلة بقلب متوتر:

- "آسيا" رايحة فين؟

أجابتها بجمود وقد تحول وجهها للقساوة:

أنا ماشية

أحست والدتها بأن قلبها يقتلع من بين ضلوعها بعد جملتها تلك، سألتها بأنفاس شله
متهدجة:

-تمشي! ليه؟ في إيه اللي حصل؟

ردت بنبرة خالية من الحياة وهي تكمل سيرها نحو باب المنزل:

-ولا حاجة

حاولت "نادية" إيقافها وهي ترجوها:

-استني يا بنتي

توقفت "آسيا" عن السير لتنظر نحوها مطولاً، كادت أن تتأثر بعينين والدتها الدامعتين
ونظراتها المذعورة نحوها، أخفت ببراعة مشاعرها المتألّمة لتبدو أمامها متحجرة القلب،
ردت بعزة نفيس:

ده أحسن للكل

وضعت "نادية" قبضتها على ذراعي ابنتها تسألها بقلبٍ منفطر:

فهميني بس، في حد زعلك ولا عمل حاجة ضايقتك؟ طب أنا قصرت معاك في
حاجة؟

انزعجت لرؤية كل ذلك الفزع معكوس على وجهها فردت بجذري:

-إنتي أم عظيمة، وطيبة أوي

ثم صمتت للحظة قبل أن تكمل بصعوبة بائنة:

بس .. ماتستيليش واحدة زي تبقى بنتك، كفاية عليكى "معتصم"!

نهج صدرها جزءًا لمجرد رؤية ابنتها تستعد للرحيل، ألمها أن تهجرها وتتركها بعد أن استعادتها في أحضانها، تلفتت "نادية" حولها باحثة عن تستنجد به، رأت زوجها يخرج من مكتبه فصرخت به باستعطاف:

- "وحيد" الحقتي، "آسيا" عاوزة تمشي، أنا مش هاستحمل تبعد عني، اتصرف!

تفاجأ هو الآخر باستعادها للذهاب من منزله، أسرع في خطاه يروجها بلباقة:

- "آسيا" استني لو سمحتي

نظرت نحوه بحزنٍ قبل أن تقول ممتنة:

شكرًا على كل حاجة عملتها عشاني، بس أنا لازم أمشي، أشوفكم على خير

اضطربت أنفاس "نادية" وتلاحقت دقات قلبها بشكل مخيف، وضعت يدها على

صدرها لتضغط عليه وقد بدا على بشرتها الشحوب المفرع، همست بوهن:

-بنتي .. آ....

خارت قواها وتخلت عقلها عن وعيه لينهار جسدها كليًا، صرخ "وحيد" مفزوعًا وهو

يسرع بإسنادها من خصرها قبل أن ترتطم بالأرضية:

- "نادية" !!!

.....

الفصل الثالث والثلاثون:

نقلتها سيارة الإسعاف إلى المشفى الخاص ليطمئن عليها، ألقى نظرة سريعة على "آسيا" الجالسة في الزاوية في صمت حزين، ثم تجاهلها متجهاً إلى والده ليسأله مستفهماً:

إيه اللي حصل؟

أجابه "وحيد" بتجهم وقد أكتست تعابيره بعلامات اليأس:
مامتك تعبت جامد بعد ما عرفت إن "آسيا" عاوزة تمشي
التفت عفويًا نحوها ليردد بتردد:

هاه، هي كانت هتمشي

تساءلت "وحيد" مع نفسه بحيرة واضحة عليه:

أنا مش فاهم بس إيه اللي خلاها تصمم على ده؟ ما كانت كل حاجة كويسة!
ضاقت نظراته نحو ابنه مخمناً أن يكون له ضلع خفي في ذلك التصرف المفاجئ منها،
سأله بجدّة رغم خفوت نبرته:

إنت عملت في "آسيا" إيه؟

تنحى قائلاً بجذرٍ وهو يتحاشى النظر نحوه:

ولا حاجة

انضم إليهما "نبيل" الذي أتى هو الآخر فور أن علم بتعبها الشديد، حاول في البداية طمأنة "آسيا" وشد أزرها ثم تركها واتجه إلى عمه، تبادل معه حديثاً سريعاً قبل أن يوجه كلامه إلى "معتصم" قائلاً بلهجة شبه حادة:

عاوزك في كلمتين على جنب
سار معه بعيدًا عن والده ليتمكن ابن عمه من الاستفسار عما حدث، سأله بجدية وهو
يرمقه بنظراته الملتهبة:

إنت ليك يد في اللي حصل لطنط؟

نظر له "معتصم" شزرًا قبل أن يرد ببرود:

-لأ طبعًا، ما أنا كنت معاك في الشغل

احتدت نظرات "نبيل" نحوه وهو يتابع بصوته الخافت لكنه كان جادًا للغاية:

- "معتصم" أنا مش هاسمحك تجرح "آسيا" بكلمة، عمو قالي على اللي حصل في
التليفون

حك طرف ذقنه مضيئًا بجفاء:

-ماليش فيه، هي حرة

أومأ برأسه محذرًا بجدية:

-ماشي، كويس إنك عارف إنها حرة، عشان هي هتبقى مراتي

رفع "معتصم" سبابته مصححًا:

لحد دلوقتي لسه، لما يحصل بيقالك الكلام

رد عليه مؤكّدًا:

قريب إن شاء الله، وهاتشوف

ثم تركه واتجه إلى "آسيا" ليجلس بجوارها على المقعد، تبعته نظرات "معتصم" المغتظة والمراقبة لتصرفاتها سويًا، بدا كمن يجلس على موقد مشتعل من طريقة تودده إليها، صرف أنظاره بعيدًا عنها لينشغل بالحديث مع أبيه، ورغم هذا بقي عقله يفكر فيها.

.....

لاحقًا، سمح الطبيب بزيارة المريضة بعد أن تجاوزت مع العلاج واستعادت قدرًا بسيطًا من عافيتها، كانت "آسيا" أول من ولجت إلى غرفتها لتطمئن عليها، ابتسمت لها "نادية" ابتسامة باهتة لرؤية ابنتها واقفة على مقربة منها، مدت "آسيا" يدها لتمسك بكفها ثم رفعته إلى وجتها لتمسح به على بشرتها هامسة بصوتٍ مقهورٍ:

غصب عني أمشي يا ماما

ردت عليه والدتها بنبرتها الواهنة:

-ماتعمليش كده

أغمضت "آسيا" عينيها تاركة لعبراتها العنان وهي تكمل بصعوبة:

بس ده أحسن للكل، وجودي بيأذي اللي حواليا و....

قاطعتها "نادية" بحزنٍ وقد أدمعت عيناها بقوة:

-ماتبعديش يا بنتي، أنا مصدقت ألاقكي، ليه بتحرميني منك دلوقتي

ألما حديثها الموجه، سمجت شهيقًا عميقًا لتهدئ به من هياج صدرها الملتاع من قسوة ما تجابهه، فتحت جفניה لترد بابتسامة باهتة:

حاولي ترتاحي يا ماما، الكلام بيتعبك

هزت "نادية" رأسها بالنفي وهي تقول:

-مش هاشوف طعم الراحة لو إتي بتفكري تسيبني وتمشي

تهدت "آسيا" قائلة باستسلام:

حاضر، هافضل جمبك

ابتسمت لها والدتها بامتنان، وظلت تمسح بضعفٍ على بشرتها لتستشعر معها "آسيا"
حنوها الغريزي.

.....

لم يكن الظرف مناسبًا للقيام بأي زيارات عائلية في الفترة الحالية، لكن تحتم عليه حسم الأمر مبكرًا وانهاؤه قبل أن يأخذ منحًا جديدًا يصعب السيطرة عليه، قرر "معتصم" زيارة زوجة عمه المعروف عنها بتمسكها بالأصول والتقاليد القديمة وتشدها في بعض المسائل بعد عودة "نادية" إلى المنزل واطمئنان الجميع على صحتها، تعجبت "مها" من زيارته الغريبة لها لكنها رحبت به واستقبلته بترحاب ودود، تناول الحلوى التي أعدتها له مادحًا:

تسلم إيدك يا مرات عمي، طول عمرك أستاذة

ردت عليه بعتاب رقيق:

بالهنا والشفاء يا حبيبي، عاش من شافك يا "معتصم"، كده متسألش فيا، ولا "نادية"
موصيالك متعديش علينا

فهم المغزي من وراء جملتها الأخيرة، فزوجة عمه تختلف في الطباع والصفات عن "نادية"، إن لم تكن الاثنان على وفاق في الكثير من الأمور، رد موضحًا:

-لا والله، بس فعلاً أنا مشغول، وبعدين أنا ببعثك السلام مع "نبيل" كل يوم

عبست بوجهها قائلة:

-ده مش كفاية

حافظ على ابتسامته المتكيفة وهو يكمل بغموض ليثير ربيتها:

عائيتني براحتك بس أنا كنت عاوز أقولك على حاجة مهمة جدًا

زوت ما بين حاجبها لتسألّه باهتمام:

خير يا "معتصم"

أخفى ابتسامه عابثة لكونه قد نجح في جذب انتباهها، زفر قائلاً بهدوء مدروس:

- "نبيل" ناوي يخطب

على عكس ما توقع تهلت أسارير "مها" وهي ترد بسعادة:

-والله، أخيراً فكر في الارتباط، ده أنا غلبت معاه وجبتله بنات كثير كويسين وولاد
ناس محترمة

حافظ على جمود تعابيره مكملاً:

مش دي المشكلة يا طنط "مها"

توجست قليلاً من أسلوبه الغامض في الحديث وسألته باقتضاب:

-أومال؟

أجابها بتهملي مراقباً ردة فعلها:

- "نبيل" عاوز يتجوز "آسيا"

اتسعت مقلتها بصدمة واضحة، هتفت باستنكار:

- "آسيا" مين؟ اوعى تكون بنت "نادية"؟

حرك رأسه بالإيجاب مؤكداً صحة شكوكها:

-أيوه هي

حدث ما تمناه "معتصم"، تبدلت تعابير وجهها الرائقة إلى التجهم والامتعاض، احتدت نظراتها صارخة:

-تجنن ده ولا إيه؟ على آخر الزمن هايرتبط بواحدة زي دي

لم ينبس الأخير بكلمة وطالعتها بوجه غير مقروء التعبيرات، جمدت "مها" أنظارها المستشافة على وجهه لتقول بغلظة:

-أنا أسفة يا "معتصم"، عارفة إن وضعك محرج، وإنها بنت الست اللي ربتك

تنحج قائلاً بمرح مصطنع:

فاهمك يا مرات عمي

تابعت قائلة بعدائية وكره كبير:

-بس زي ما إنت عارف، دي واحدة سمعتها على كل لسان، والكلام الغلط كثير عليها، وفضايحها مالية الدنيا، يعني بالمختصر ماتشرفش أي حد، كمان أنا واحدة حابة البنت اللي يتجوزها ابني تكون شهيبي في كل حاجة، بنت أصول ومن عيلة، دي ماتنفعش "نبيل" خالص

ارتدى قناع الضيق وهو يرد:

-أنا فاهم ده كويس، وعشان كده جيت النهاردة أعرفك بده قبل ما "نبيل" يفاتحك فيه عشان يكون عندك خلفية باللي ناوي يعمله

شكرته رغم وجهها الممتقع:

-كتر خيرك يا "معتصم"، أنا مقدره ده أوي

هز رأسه بإيماءة صغيرة دون أن ينطق فأضافت قائلة:

-وأرجوك متزعلش من كلامي عن بنت "نادية"، بس مقدرش أتقبل واحدة زهيا تدخل
عيلتي، لأ وتخلف ولاد من ابني يكونوا شبيها، ده جاز يستعروا منها لما يكبروا
ويعرفوا ماضيها، غير الفضائح اللي مش هاتسيب ابني
أخرج زفيراً ثقيلاً من جوفه ليرد بعدها باستياء:

-عارف ده كله يا طنط، وفي النهاية أنا غرضي مصلحة "نبيل"
ابتسمت له نصف ابتسامة وهي تقول:

-طبعا، محدش هيخاف عليه زيك، ده إنت أخوه

-أيوه

-ربنا يخليكوا لبعض

التوى ثغر "معتصم" ببسمة انتصار صغيرة حملت من المكر واللؤم ما قد يعكر صفو
المياه الراقئة، رد بهدوء ملاك بريء:

-تسلمي يا طنط!

.....

تحفرت وتأهبت للقتال من أجل إبعاد من تسول لها نفسها للاقتراب من ابنها الوحيد
الذي أفنت عمرها كله في تربيته، لم تكن لتسمح لامرأة عابثة بالظفر بابنها في الأخير،
اتجهت "مها" لمنزل عائلة "المصري" لتضع النقاط فوق الحروف، تفاجأت "نادية" من
قدومها الغريب إلى منزلها بعد سنوات من المقاطعة والجفاء رغم لقاءها المحدود بها في
بعض المناسبات العائلية، جلست الاثنتان بغرفة الصالون، بادرت "نادية" متسائلة
باهتمام رغم نظراتها الغريبة نحوها:

-بقالنا كثير ماتشرفناش بالزيارة دي يا "مها"

أجابتها "مها" بعبوس ووجه مكفهر:

اللي جابني الشديد الأوي

توترت "نادية" من طريقته المريبة في الحديث، سألتها بجديّة:

خير؟

ركزت عليها أنظارها لترد بتساؤل مختصر وبنبرة شديدة اللهجة:

فين بنتك؟

حركت "نادية" شفيتها مرددة:

- "آسيا"

هزت رأسها بالإيجاب متابعة:

أيوه، عايزة أتكلم معاها شوية

لم تشعر بالارتياح من غموضها الملبك، فسألتها مستفهمة:

خير في حاجة؟

لم تمنحها السكينة وردت باختصارٍ:

هتعرفي دلوقتي

أرسلت "نادية" الخادمة في طلبها، وانتظرت بترقب حضورها لتكشف عن السبب

الحقيقي لتلك الزيارة الغامضة، تألقت "آسيا" في ثوب رقيق يغطي جسدها بالكامل

فيما عدا كتفها وذراعيها، استطردت والدتها قائلة:

تعالِي يا "آسيا"، سلمي على طنط "مها"، مامت "نبيل"

اقتربت الأخيرة من الضيفة لترحب بها وهي تمد يدها بالمصافحة لتقول بنعومة:

أهلاً وسهلاً بحضرتك

نظرت لها "مها" بازدراء رافضة مصافحتها لتبينها بوقاحة:

إتني بقى اللي واكله عقل الرجالة

هربت الدماء من بشرتها وتوترت نظراتها من هجومها الفظ عليها، ردت بصدمة جلية:

افندم؟

استنكرت "نادية" أسلوبها العدائي فوبختها بجدّة:

إيه الكلام اللي بتقوليه ده يا "مها"؟ إتني هتغلطي في بنتي قصادي

تجاهلت مضيفتها لتكمل بنفس الفظاظة وهي تهددها:

ابعدني عن ابني أحسنك، شوفي أي حد ثاني واتجوزيه، لكن "نبيل" لأ!

بدأت "آسيا" في حالة صدمة من شرستها معها، لم تتوقع ذلك، كانت معتقدة أن

"نبيل" نسخة مصغرة عن والدته، لكنها اكتشفت أنه على النقيض معها، دافعت

"نادية" عن ابنتها مرددة بقوة:

هو ده الموضوع، لعلمك ابنك اللي مصمم عليها

استدارت نحوها "مها" لتبرر ميله نحو ابنتها:

مش عارف مصلحته، السكنينة سرقاه

ضغطت "آسيا" على أصابعها بقوة لتكظم غيظها، ثم ردت بكبرياء:

أنا بلغت "نبيل" برفضني فيا ريت تطمني

عاودت التحديق فيها ورمقتها بنظرة دونية قبل أن تتابع بلهجتها المتعالية:

مش كفاية، أنا عاوزاكي تشيليه من حساباتك خالص، هو ماينفعكيش، ولا إيتي
تنفعيه، واحدة زيك ليها رجالة معينة

فهمت "نادية" تلميحها المسيء إلى ابنتها فصاحت بها:

- "مها"! أنا بأحذرك متغلطيش في بنتي

ردت عليها بنفس القوة المهددة دون أن تبعد نظراتها عن "آسيا"

-وأنا بأبئه عليها ماتقربش من ابني، وده آخر ما عندي

تأملت "نادية" وجه ابنتها المشدود وعينيها المشتعلتين، خشيت من انعكاس ما حدث
بالسلب على نفسيتها المتعبة، لذا هتفت بنزقٍ وكأنها تتعمد طرد ضيفتها:

-شرفتي يا "مها"

تقوس فمها بابتسامة ساخطة وهي تكلم:

-الحمدلله إن عنده ابن عم زي "معتصم" خايف على مصلحته

لم تفهم "نادية" مقصدها من ذكر اسمه فسألته مستفهمة:

- "معتصم"، وإيه دخله في الموضوع؟

استشفت "آسيا" سريعًا ما ترمي إليه، بدا الأمر واضحًا لها وضوح الشمس في كبد
النهار، تدخل "معتصم" بصورة أو بأخرى لإفساد المسألة كما توعددها من قبل، أفاقت
من شرودها السريع على صوت "مها" القائل:

-أنا قولت اللي عندي، سلام!

لم تودعها "نادية" ورمقتها بنظراتها الحاققة الغاضبة من فجأتها المستفزة، اعتصر قلبها
ألمًا حينما استمعت إلى ابنتها وهي تقول بقهر:

هو في إيه؟ الكل بيكرهني ليه؟ للدرجادي وجودي تابع كل الناس؟
احتضنتها سريعًا لتحتوي ذلك الألم الموجه بالنبذ والكرهية، ربتت على ظهرها بكفها
وهي تحاول تهدئتها:

-متقوليش كده يا "آسيا"، هي طول عمرها كده أسلوبها ناشف ومحدث بيحب يتعامل
معاها بسبب طريقتها دي، إتني بنتي وغالية عندي، وملعون أي حد يضايقك!
أجهشت "آسيا" بالبكاء فرجتها والدتها بصوتٍ شبه مختنق:

-ماتفكريش في اللي حصل، ارميه ورا ضهرك
ثم تراجعت لتتنظر إلى وجهها الباكي، احتضنته بكفيها ومسحت عبراتها عنها متابعة:
أنا بصراحة مكوتنش هابقي مطمئنة لو هي بقت حماك

لم تعلق عليها "آسيا"، تكلمت عبراتها عنها، حاولت "نادية" الابتسام لتهون عليها
الأمر وهي تقول:

-اضحكي يا حبيبتي، محدش واخذ منها حاجة، وكفاية إنك معايا ومنورة حياتي، ربنا
يخليكي ليا يا بنتي

عجزت عن التعبير عما يجيش في صدرها من كره تجاه حياتها السابقة، هي تسعى للمضي
قدمًا ونسيان الماضي، لكن لا يكف الجميع عن تذكيرها بما كانت عليه، بل ودفعها
بقسوة لتعود إلى حياة العث واللغو والانتقام الأعمى، ومن بين دمعاتها الملتهبة لمع اسم
"معتصم" في عقلها، هو يقف وراء ذلك، هو يجتهد لتدميرها رغم كونه قد استمتع
بحياته مع والدتها بدلاً منها، حاز على حبها وحنانها وعطفها وكل شيء، وحرمت هي
من أبسط حقوقها، والآن وكل نفسه جلاذًا ليحاسبها على ما ارتكبت رغمًا عنها مانحًا
لنفسه سلطة مطلقة لا تخصه، امتلأ صدرها حقًا منه، وقررت ألا تمرر الأمر هكذا،
ستواجه معه وتضع الأمور في نصابها الصحيح.

ذرت غرفتها جيئة وذهابًا وهي تكاد تحترق من كثرة الانتظار، عضت على أصابعها بتوتر، حولت "آسيا" ضعفها إلى وسيلة لتشحن به غضبها تجاه "معتصم" لتحاسبه على ما اقترف في حقها غيبًا، لن تتسلح بضعفها وتستسلم للضغوطات المهلكة، أو حتى تقف بأكية على الأطلال، هي تعلم أنها سلكت طريقًا محفوفًا بالكثير من الشائعات المغرضة والمشكلات المشينة، ورغم ذلك لم تسيء إلا لنفسها بإيهاام الجميع أنها فتاة عابثة، لكن أن يُروج هو عنها الأكاذيب ويفسد ما تحاول إصلاحه فهي لن تسمح له بذلك، ليس من حقه أن يتحدث بالسوء عنها حتى وإن كانت مجرمة، انتظرت في الشرفة على أحر من الجمر، وما إن رأته يدخل البناية حتى تأهبت لمواجهته، لن يمنعه عنه شيء، سترد له الصاع صاعين، خاصة أن والدتها قد ذهبت بصحبة زوجها للكشف الأسبوعي عند طبيبها المعالج، فأصبحت الفرصة سانحة لها.

انتظرت لدقائق في غرفتها للتأكد من تواجده بغرفته، ثم اندفعت مشحونة بغضبها نحوه، لم تعبأ بكونها ترتدي قميص نومها المنزلي -ذو اللون الرمادي- والذي يصل تقريبًا إلى ركبتيها رغم كونه طويل الأكمام، التهمت عن ارتداء المناسب مما قد يظهر فيها لمحة إغراء مثيرة، طرقت الباب منتظرة السماح لها بالدخول، وقفت عند عتبه ترمقه بنظراتها الساخطة، وبدون أي مقدمات هدرت فيه:

-إنت عاوز مني إيه؟!

نظر لها "معتصم" بعدم اكتراث، تأمل سريعًا قميصها المنزلي مخفيًا نظرة إعجاب كادت تفضحه، دس يديه في جيبه بنطاله بعد أن أرخى رابطة عنقه ليرد بهرود:

جاية ليه؟

صاحت فيه بنبرة متشنجة وقد ولجت للداخل:

-عملت اللي في دماغك وارتحت، نفسيتك هديت لما بوظت موضوع الخطوبة
التفت نحوها مظهرًا ابتسامه متشفية مستفزة قائلاً لها:
أنا يدوب بس عرفت طنط "مها" بحقيقة خطيبة ابنها المستقبلية
بلغت ذروة احتقانها منه في لحظة، صرخت فيه بانفعال وهي تلوح بذراعها في الهواء:
طب ليه كل ده؟ خدت منك إيه عشان تعمل فيا كده؟
أشار لها بإصبعه أمام وجهها مرددًا بخشونة:
أنا مانستش للحظة اللي قولتية أول يوم جيتي فيه هنا
نظرت له بازدراء ثم كتفت ساعديها أمام صدرها لتسأله بسخط:
ويا ترى عملت منه حاجة؟
كان وجهه قاسيًا للغاية وهو يرد محذرًا:
أنا مش هاسمحك، وهافضل كده وراكي لحد ما أكشفك
صرخت فيه بنفاذ صبر:
-تكشف إيه بالظبط؟
أجابها دون تردد:
حقيقتك!
اضطربت أنفاسها وهي تكمل بنفس الصراخ المتعصب:
ما الكل عارفها، في إيه تاني عاوز تكشفه
وقف قبالتها يرمقها بنظراته الكارهة قبل أن يكمل:

-كذبك وخطتك الدينئة عشان تضحكي على الكل هنا

فغرت شفيتها مشدوهة بما يدعيه عليها، هي حقًا لا تذكر سوى لمحات متداخلة من العديد من المشاهد التي مرت بها في حياتها، لكنها لا تذكر كافة التفاصيل بخدافيرها، ردت عليه باستنكار:

-إنت مصدق اللي بتقوله؟

هز رأسه مؤكدًا بنفس الحنق الظاهر عليه:

-أيوه

أيقنت أنها مهما حاولت إثبات العكس لن يصدقها مطلقًا، سيحاربها بكافة الوسائل حتى تسقط في القاع، رفعت وجهها في إباء وتعالٍ ثم وضعت يدها على منتصف خصرها لتقول بهدوء متنافٍ مع الحرب المشتعلة بداخلها:

-ماشيا يا "معتصم"، لو ده هيريجك فأنا أه بأكذب، مثلت عليكم الدور ده كله، عملت عيانة عشان أجي هنا وأخرب حياتكم، كده إنت مبسوط؟

حدجها بنظرات نارية فتابعت بنفس البرود متعمدة استثارة أعصابه مشيرة بيدها الأخرى:

-واللي جاي بقى إني هافضل هنا ومش هامشي، ولو بتعمل كل ده عشان تطفشني، فأنسى

انتصبت "آسيا" في وقفها أكثر لتكمل بتهديد واثق:

-وبأحذرك أنا ممكن أعمل اللي عمرك ما تتخيله، ومش بعيد تلاقي نفسك إنت اللي برا مش أنا!

اشتعلت عيناه على الأخير وصاح بها هادرًا:

-إتي اتجننتي

ابتسمت له بعث وهي ترد بتحدٍ:

-مش ده اللي حاب تسمعه وتصدقه؟

رد "معتصم" صارخًا بقوة وقد برزت عروقه:

-مش هاسمحك

رمقته "آسيا" بنظرة احتقارية مستخفة به قبل أن ترد باستهزاء:

-إنت مين أصلاً عشان تسمحي، ولا لأ؟

كادت الحرب أن تندلع بينهما، أشعلت فيه بكلماتها الغاضبة نيران ثورته الحارقة، نظرت له بشجاعة جريئة وهي تكمل:

-زي ما ليك حق هنا فأنا برضوه ليا لي، وقريب أوي خد حقي كله

ألقت عليه نظرة احتقارية أخرى ضاعفت من غضبه المستعر، التفتت دون أن تعباً بوجهه الملتهب لتكمل بثبات:

-اشبع بقي بفلك اللي بياكلك من جواك

أخرجته عن شعوره فاندفع نحوها ليمسك بها من شعرها الأسود، جذبها منه بشراسة متعمداً إهانتها:

-أه يا بنت ال.....

لكزته في صدره بعنف فألمته، حرر خصلاتها بعد أن أدارها نحوه ليمنح وجهها صفة قاسية ألهمت وجتها، نظرت له بعينين مغلولتين وهي تهتف من بين أسنانها المضغوطة:

-إنت بتمد إيدك عليا

تلقت حولها بغضبٍ باحثة عما تؤذيه به، لن تسكت تلك المرة، ستقتص لنفسها، لمحت الكوب الزجاجي الموضوع على الكومود بجوار الفراش فأسرعت في خطاها نحوه، لم يفهم ما الذي تفعله، اعتقد أنها ستلقي في وجهه شيء ما، فتحفز لها، التقطت "آسيا" الكوب بيدها وضربته بعنف في الحافة لتحطمه، نظر لها باستغراب، توهم "معتصم" أنها ستحاول الانتحار عندما أمسكت بقطعة زجاجية حادة لتتحول في يدها إلى سلاح خطير، دنت منه ثم في لحظة مباغتة مدت يدها لتجرح ذراعه بعمق، صرخ متألماً وهو يكاد لا يصدق ما فعلته به، ألقت بالقطعة التي حملت دمائه على الأرضية متوعدة إياه:

أنا هاوريك يا "معتصم"

.....

الفصل الرابع والثلاثون

وضع يده على جرحه النازف متحملاً ذلك الألم الشديد الذي أصابه، لم يخاطر بباله أن تتجرأ عليه هكذا، جمد "معتصم" نظراته الحائرة على "آسيا" التي وقفت عند باب غرفته لتتابع انتقامها الشرس منه، فكما صدق ما شاء عنها، هو أوقف فيها نزعتها الحقودة لإلحاق الأذى بمن يتجرأ عليها، ستمنحه قسوة لا تنتهي لتدافع عن نفسها وترد اعتبارها طالما أصدر حكمه عليها واعتبرها فنانة تتقن التمثيل، إذًا ليستمتع بالعرض الذي ستقدمه الآن، رمقته بنظرة غامضة تحوي كرهاً مبرراً، ثم أردفت قائلة بنبرة ذات مغزى:

شوف بقى التمثيل اللي بجد، واتعلم

قطب "معتصم" جبينه بشدة وقد بدت على قسماته التوتر الحائر، بعثرت "آسيا" خصلات شعرها فباتت غير مرتبة، واستخدمت أظافرها لتخريش بشرتها في عدة أماكن ثم أفسدت قميصها بمحاولة نزع أكامه لتصرخ بعدها بصورة مفزعة:

- ابعد عني، إنت بتعمل إيه يا "معتصم"؟ حرام عليك!

ضُدم الأخير مما تفعله، وحقق فيها مدهوشًا بعينين متسعيتين في ذهول، حاول تفسير ما تقوم به لكن صراخها الذي هز أركان المنزل جعله يرتبك ويرتعد من داخله، رمقته بنظرة انتقامية لا تعرف الشفقة ثم تراجع للخلف لتقترب من الدرج، تابعت صراخها المدعور:

- الحقوني، ابعد عني!

اندفع نحوها بلا تفكير محاولاً إسكاتها، فهي ستسبب في حدوث فضيحة له دون أي أساس من الصحة، انقض عليها مكمًا إياها من فمها ومحاطًا لرأسها بذراعه الأخر، نظر لها بنظرات مشتعلة، كز على أسنانه هامسًا بغل:

-إنتي التجننتي، عاوزة تلبسيني مصيبة

أبدت "آسيا" مقاومة عنيفة وهي تدفعه من صدره بقبضتها وفي نفس الوقت تجتهد لانتزاع يده من على فمها بقبضتها الأخرى، خرجت الخادمة من المطبخ على إثر الصراخ المريب، رفعت بصرها للأعلى لتجد الاثنين متلاحمين بطريقة مثيرة للشك، للحظة توهمت أنه يحاول الاعتداء الجسدي عليها، بدا المشهد هكذا بالنسبة لها، تساءلت مع نفسها بقلقٍ وهي تتابع الموقف من الأسفل:

هو بيعمل إيه معاها؟

التفتت برأسها للجانب حينما سمعت قرع الجرس، أسرعت بفتحها وهي توزع نظراتها بينه وبين "معتصم" و"آسيا"، تفاجأت بوصول "وحيد" وزوجته إلى منزلها، رمقتها بنظرة قلقة مضطربة، سألتها رب عملها باستغراب حينما رأى تعبيراتها المرئية:

-مالك؟

أجابته بارتباك جلي وقد تلثم صوتها:

-أصل .. في ...

ولجت "نادية" من خلفه لتسألها أيضًا باهتمام:

-أكلمي على طول، في إيه؟

في تلك الأثناء نجحت "آسيا" في التخلص من قبضة "معتصم" لتصرخ بعدها بوعيد:

-مش هاسكت، هافضحك وأقولهم

حاول تكميها من جديد قبل أن تثير جلبه بصراخها، لكنه تجمد في مكانه مذعورًا حينما

سمع صوته والده يهدر به:

- "معتصم"، بتعمل إيه عندك؟

رقص شيطان عقلها طربًا لحضور والدتها وزوجها، سيكتمل الآن المشهد الدرامي المشين

والذي سيلقي باللوم حتمًا على الابن البكري للزوج المحترم، لم تكن لتفعل ذلك لولا

استمرار "معتصم" في الضغط على أعصابها واستفزازها لأقصى درجة لتعود إلى ما

كانت عليه في السابق، تخشب جسده مع صدمته لرؤية أبيه وهو يصعد على الدرج

بتلهف، تراخت يدها عنها ليرد بارتباك:

-أنا .. قصدي .. هي كانت

تراجعت "آسيا" بظهرها للخلف مبدية خوفاً مصطنعاً لتخرط في بكاء مرتعد، ارتطمت عن قصد بـ "وحيد" الذي أسندها من كتفها، استدارت نحوه برأسها تتوسله من بين نحيبها المرتاع ليأخذ حديثها على محمل الجد:

-الحقني يا عمو! ابعده عنه

تأملها الأخير بنظرة فاحصة مخمناً طبيعة ما كان يحدث، استنشأت نظراته غضباً من طيش ابنه وتجاوزه غير المقبول مع ابنة زوجته، عاود التحديق في وجه "معتصم" متسائلاً بنبرة محتقنة:

-إنت عملت فيها إيه؟

انضمت إليه "نادية" التي شهقت بفرع حينما رأت الحالة المزرية الموجودة عليها ابنتها، تلقفتها في أحضانها وهي تردد بخوف:

-بنتي!

أجهشت "آسيا" ببكاء شديد وهي تقول لها مستخدمة نظراتها في الإشارة إلى "معتصم":

هو ضربي، وكان عاوز ...

تعمدت إتقان دورها لتنطلي الخدعة على والدتها فتفرع أكثر عليها مبتزة مشاعرها الأمومية، قطمت عبارتها عن قصد لتضاعف من مشاعر الخوف فيها، أظهرت صعوبة في انتظام أنفاسها، وعمدت إلى ادعاء عدم قدرتها على الوقوف لتتشبث "نادية" بها جيداً وقد زاد رعبها من تدهور حالتها، ولتبدو مقنعة أكثر، ادعت فقدانها للوعي ليتناقل جسدها على والدتها التي صرخت بلا وعي:

- "آسيا" ردي عليا!

مالت بها "نادية" حتى مددتها على الأرضية وجثت على ركبتيها إلى جوارها رافعة إياها إلى صدرها لتضمها بجنو مرتعد، كالثور الغاضب اندفع "وحيد" نحو ابنه ليمسك به من ياقته، جذبه بعنف منها صارخاً فيه:

-إنت اتخبلت في مخك، عملت في البنت إيه؟

عجز "معتصم" عن الرد عليه، فقد كان مدهوشاً بجيلتها الماكرة التي أوقعته في مصيبة خطيرة لن يخرج منها أبداً، كانت محقة حينما هددته بأنه قد يجد نفسه مطروداً خارج المنزل، رمقها بنظرة مغلولة تود الفتك بها، ركز عينيه مع والده حينما هدر به من جديد:

-انطق يا حيوان، إزاي تهجم على "آسيا"؟

كانت تلك هي المرة الأولى التي يتعرض فيها "معتصم" للإهانة من والده، بل وللتوبيخ اللاذع لشيء لم يقترفه ولم يفكر مطلقاً في فعله، واصل "وحيد" صراخه المتعصب به قائلاً وهو يهزه بغضب:

-بقي دي الأمانة اللي ساينها معاك؟ ما فيش اعتبار لينا خالص؟!!

لم يكن ليخرج أبداً من تلك الكارثة المحاكة ضده بإحكام لو لم يفكر سريعاً في حل منطقي جهنمي ينجده بأقل الخسائر، أطلقت من عينيه شرارات النفور والغضب وهو يستطرد قائلاً بنبرة خالية من الحياة:

-حقكم عليا، أنا غلطت وبأعترف بده!

ورغم زيف فقدانها للوعي إلا أنها كانت منصتة جيداً لكل ما يتفوه به، حافظت على وجهها الخالي من أي تعبيرات لتصغي إلى الباقي باهتمام، عنفه والده بشراسة:

-وده يدك الحق تهجم عليها؟

بدت نظرات "معتصم" فارغة وهو يضيف بنبرة شبه متحشجة:

غضب عني، أنا ...

توقف عن إتمام جملته ليتأكد من متابعتها له رغم إغماضها لجفنيها، أكل قائلاً:

أنا .. بأحبها!

سيطرت "آسيا" على اضطراب ملاحظها بمجهود زائد كي لا ينكشف أمرها ويظهر ارتباكها من اعترافه المثير والصادم، حطم بكلماته المنتقاة تلك حيلتها الماكرة، حدق فيه "وحيد" مشدوهاً وهو يردد:

نعم؟ بتحبيها!

أكد بنبرته الهادئة التي تسبق العاصفة:

أيوه، من أول يوم شففتها فيه وأنا اتعلقت بيها، وغضب عني مقدرتش أسيطر على نفسي وأنا معاها

احتاجت "آسيا" لبذل الكثير من الجهد لضبط ردة فعلها، فما يلقيه على مسامعها من أكاذيب فاقت تصورها جعلها تشعر بالاضطراب، تفاجأت "نادية" من اعترافه المريب بحب ابنتها، نظرت له بعتاب وهي توبخه:

وهو ده أسلوب يا "معتصم"، ينفع تعمل كده فيها؟

نظر لها معتذراً ليستميل قلبها نحوه:

أنا أسف، مكوتتش حاسس بنفسي وهي رافضة تسمعي أو حتى تديني فرصة أعبر لها عن مشاعري!

وجد "وحيد" نفسه في موقف حرج، بين ابنة زوجته التي استأمتها عليه، وبين ابنه الغارق حتى النخاع في حبها وحاول أن يعبر عن ذلك بصورة متهورة، أرخى قبضته عنه ليقول له بنبرة أقل حدية:

-وان يكن، ده مايدكش الحق تعمل فيها كده، عاوز البنت تخاف منك
نكس رأسه بحزن مصطنع وهو يرد:

-مش هاتكرر تاني، وأنا أهوو قصادك يا ماما بأطلب إيد "آسيا"، وأتمنى هي توافق!
فغرت "نادية" شفيتها مصدومة من توقيت عرض الزواج وأسلوبه، حاول "وحيد"
لملمة الأمور قائلاً بجديّة:

-مش وقته، وخلينا نشوف دكتور يطمنا على "آسيا"
أولاه ظهره لیتجه إلى زوجته الجائية على الأرضية، عاونها في رفع ابنتها نحوه مردداً:
-سيبيها يا "نادية"، أنا هاسندها

لكن تدخل "معتصم" بجسده ليحاوط "آسيا" من خصرها قائلاً بإصرار:
عنك يا بابا، أنا اللي هاشيلها
اعترضت عليه "نادية":

-مالوش لازمة
رد عليها بنفس العناد:

-مايصحش وأنا موجود

تدفقت الدماء المتوترة في عروق "آسيا" لتغزو أنحاء جسدها وتصيبها بالارتباك مع
لمسة "معتصم" القاسية عليها، أحست بدقات قلبها تتسابق بداخلها، فقد أوجدت
فيه وحشه البربري الذي لن يتوقف عن الثأر لنفسه، شعر وهو يحملها بين ذراعيه
ببشرتها الساخنة فتأكد أنها تأثرت بما صرح به وأفسد مخططها، أسرع في خطاه نحو
غرفتها قاصد استباق خطوات والده والدتها ليمس لها في أذنها:

-إتي لعبتي بالنار، فاستحملي لسعتها!

.....

تكررت اللقاءات في أماكن متفرقة للحظات لكنها شغلت بالها لساعات، شردت "أية" تفكر في ذلك الشاب الذي استحوذ على تفكيرها وبات محور اهتمامها رغم حديثها المحدود معه، لكنه في كل مرة كان يشعرها بمدى سعادته لمقابلتها، حتى أنها ولجت إلى مواقع التواصل الاجتماعية لتتقصى أخباره، وانداهشت بمدى ثرائه ونفوذه رغم تعامله المتواضع واللبق معها، احتفظت كذلك ببعض صور "سامر" على هاتفها المحمول لتتأمل ملامحه خلصة أثناء جلوسها في المطعم الملحق بالنادي، لم تشعر به وهو يقف ورائها يراقب اندماجها مع التحديق في صورته، التوى ثغره بابتسامة عابثة، وتحولت نظراته لشيء من اللؤم، انتابه إحساسًا غامرًا بالانتشاء لكونه قد بات قاب قوسين أو أدنى من الإيقاع بها، فلو تعامل معها بأسلوبه الاندفاعي القديم لما تمكن من إحكام سيطرته عليها، وبجنكة مدروسة تراجع للخلف كي لا تشعر بوجوده، ثم أصدر جلبة خفيفة فأثار انتباهها، أغلقت "أية" هاتفها والتفت عفويًا برأسها نحوه لتنظر له وابتسامة مشرقة تعلقو صفحة وجهها النضر، تنفست الصعداء معتقدة أنه لم يراها وهي مستمتعة بالتطلع إلى صورته، اقترب منها "سامر" ممددًا يده ليصافحها قائلاً بتهذيب:

-إيه أخبارك؟

ردت ببشرة متوردة وهي تبادلها المصافحة:

-تمام، اتفضل

رفع كفها إلى فمه ليقبله كالعادة مما أشعرها بالحرج الشديد، اعتدل في وقفته راميًا إياها بنظرة طويلة ناعمة تحمل الكثير، رمشت بعينها في نخل وهي محتفظة بنفس الابتسامة الرقيقة على ثغرها، أضاف بعبوس زائف:

مش حابب اتطفل عليكي، جايز يكونوا أصحابك جاينين ولا ...

قاطعته بتلهف رغم ارتباكها المرئي للعيان:

-لا، أنا أعدة لوحدي

اتسعت ابتسامته المغترة قائلاً:

طب حيث كده هافرض نفسي عليكي وأعزمك على العشا

زادت حمرة وجهها وهي ترد معترضة:

بس ...

قاطعها رافعاً يده أمام وجهها بجديّة:

مش هاقبل إنك ترفضني

أومات برأسها في استسلام متدلل:

أوكي

سحب "سامر" المقعد ليجلس بجوارها تلك المرة، أسند متعلقاته الشخصية على الطاولة

وشرد يتأملها عن قصد ليزداد ارتباكها من نظراته الجريئة إليها، مال نحوها لتشعر

بأنفاسه تلطم بشرتها، استطرده قائلاً بهمس:

عينيك لونها حلو أوي

شعرت بسخونة حارة تنبعث من وجنتيها عقب تغزله بها، ردت بجياء وهي تحاشي

التحديق فيه:

ميرسي

تراجع عنها ليسألها باهتمام:

ها قوليلي، تحبي تاكلي إيه؟

حاولت إخفاء ارتباكها فردت بصوت خفيض شبه مهتز:

-نشوف المنيو ونختار

أسبل "سامر" عينيه نحوها متابعا بأسلوبه الاحترافي:

-تمام، تعرفي أنا محظوظ النهاردة عشان لاقيتك، بجد يومي مكانش هيكمل من غيرك،
إنتي بقيتي إدمان بالنسبالي

ردت في نجل وقد تضاعفت ريكتها من حديثه الناعم:

ياه، للدرجادي

رمقها بنظرة رومانسية حاملة تلبك البدن وتحرك المشاعر النائمة، مال نحوها ليستأنف
همسه الآسر:

حطبعا، أنا عمري ما قبلت واحدة زيك في أدبك وجمالك، يعني مش هاكذب عليكي
وأقولك مش بأقابل بنات، بس زيك ما فيش خالص

نظرت له بتوتر وهي ترد:

-شكرا على مجاملتك

تقوس فمه ببسمة صغيرة قائلاً:

-دي حقيقة على فكرة

-ميرسي

وفي جراءة منه مد يده نحو كفها ليضعه عليه، خرجت منها شهقة عفوية خافتة من
لمسته عليها، داعب أناملها بأصابعه قائلاً بصوت خافت:

مش عاوزك تتكسفي مني، احنا دلوقتي بقينا أكثر من الأصحاب، صح؟
سحبت يدها من أسفل كفه هامسة بتلعثم:

أُكيد

تهد متابعا:

حبيب، أنا حاب أعرفك أكثر

سألته بخجل:

عاوز تعرف إيه؟

اعتدل "سامر" في جلسته ليبدو أكثر استرخاء عنها وهو يكمل:

كل حاجة عنك، طبعا لو ده مش هيضايقك

ابتلعت ريقها في حلقتها الجاف ثم ردت مبتسمة بنبرة رقيقة:

أوكي

مش محتاجة دكتور، هي هاتبقى كويسة

قالها "معتصم" بثقة تامة وهو يضع "آسيا" برفق على فراشها بالغرفة، فبالرغم من اعتراض والده إلا أنه أصر على حملها ليشعرها أنها عادت إلى قبضته من جديد، كذلك أظهر اضطراب جفنيها بعصبية إدراكها الحسي لما يدور من حولها، حدجها بنظرة قاسية قبل أن يستدير ببطء نحو والدتها ليقول لها مؤكداً:

دي إغماء بسيطة، دلوقتي هاتفوق!

حدقت فيه "نادية" بحيرة، اقتربت من ابنتها لتدثرها بالغطاء، أحنت وجهها عليها لتقبلها من جبينها ثم مسدت على رأسها برفق، هتفت بقلبي:

-أنا مش مطمئة!

رد عليها بهدوء:

-متخافيش يا ماما

نظرت له من طرف عينها لتجده يطالعها بنظراته الجادة، شردت تفكر في تدمره مؤخرًا على طلب "نبيل" للارتباط من ابنتها، وربطت بين ما حدث وزيارته الاستثنائية لزوجته عمه لمنع ذلك من الحدوث، استطاعت أن تفسر الأمور الآن بوضوح، لقد افتعل كل ذلك ليمهد الطريق لنفسه، وحينما ضاقت به السبل تهور قليلاً وتجاوز في تصرفه مع "آسيا"، انتشلها من تفكيرها المتعمق صوت زوجها المنفعل:

-أحنا كلامنا مخلصش يا "معتصم"

رد عليه ابنه بهدوء عقلائي:

-وماله يا بابا، حاسبني زي ما إنت عاوز!

تجاوزت "نادية" مؤقتًا عن طيش "معتصم" لتقول بجدية:

-مش وقته يا "وحيد"، أطمئن على بنتي وبعد كده اتخائق معاه زي ما إنت عاوز

نظر لها زوجها بضيق وهو يرد:

-ماشني

ثم وجه حديثه لابنه ليأمره:

-اتفضل قدامي

أوماً "معتصم" برأسه مردداً:

ماشى

كظم مجبراً غضبه في نفسه ليرد لغريمته "آسيا" بتخطيط مدروس الصاع صاعين ويقلب الطاولة على رأسها، فإن كان الزواج وسيلته لتحقيق ذلك فلن يتردد.

.....

انتظر تقريباً حتى الساعات الأولى من الصباح ليتأكد من هدوء الأجواء من حولها، تسلل "معتصم" على أطراف أصابعه متجهاً إلى غرفته والديه، ألصق أذنه بالبواب ليستمع إلى صوت شخير المرتفع، تأكد من استغراقه في النوم، وبالطبع لن تكون "نادية" مستيقظة، تحفز كثيراً لإكمال ما اتوى عليه، فقد قرر زيارة "آسيا" فجراً في غرفتها لمحاسبتها، لم تتخذ الأخيرة حذرًا وتوصد باب الغرفة بسبب مصاحبة والدتها لها حتى ساعة متأخرة فغفت بجوارها، فتح الباب بهدوء شديد كي لا يصدر صريراً يفضحه، أطل برأسه أولاً ليتأمل وجهها النائم في الظلمة الموجودة بالغرفة، ولج إلى الداخل وأوصد الباب من خلفه بحذرٍ شديد، اقترب من فراشها ببطء ليجلس على طرفه بجوارها، تأملها عن كثب بنظرات عدائية كارهة لها، أضاء الأباجورة الموضوعة على الكومود، تأثرت "آسيا" من الإنارة الخافتة وتحرك جفناها قليلاً، نظر لها بتمعن معزراً في نفسه مشاعره الحائرة نحوها، مد يده نحو وجهها ليكلمها فيها وضغط بأصابعه على فكها، ذعرت من تلك اللمسة الخشنة القاسية عليها وأفاقت من نومتها لتتفاجأ بجلوسه أمامها، شخصت أبصارها من حضوره الصادم، انحبس صوتها في جوفها وتلوت بجسدها محاولة الملاص منه، وضع "معتصم" ذراعه أسفل عنقها ليثبتها ثم مال نحوها ليهمس لها:

فكرك هاتفتي باللي عملتيه فيا

حاولت أن ترد عليه لكن منعت قبضته صوتها من الخروج، قاتلت "آسيا" بشراسة لتتخلص منه، ومع ذلك كان يزداد إصرارًا على عدم تركها، أضاف بوعيدٍ وقد توجهت نظراته:

-بقي أنا اتهمجت عليك؟

هزت رأسها بالنفي كوسيلة بائسة لردعه عنها بعد أن قرأت رغبة انتقامية عارمة في عينيه، همس متسائلًا بغل:

تحبي تشوفي ده بجد؟

اتسعت حدقتها الفيروزيتان في رعب لمجرد توهم ما قد يفعله بها، برق عقلها بذكري طفيفة لوجه أحدهم وهو يتهمج عليها في مكان ما ومحاولته التمتع بجسدها رغمًا عنها وتصديها العنيف له، بدت الذكرى قريبة وقوية وأثرت فيها كثيرًا فشحب وجهها، وتسارعت نبضات قلبها، راقب "معتصم" ردة فعلها بتفريس، لم يخطط للتادي معها، أراد فقط إرعابها، حذرًا بصيغة آمنة:

-أنا هاشيل إيدي، بس قسمًا بالله لو صرختي هاقول إنك جيباني أوضتك بمزاجك، والي حصل ده كله تمثيلية منك عشان تداري على فضحيتنا!

أومات موافقة باستسلام ليزيح يده عنها، التهب وجهها من شدة ضغطه على بشرتها وأصدرت تأويهة متألمة، تراجع "معتصم" بجسده للخلف لتعتدل في نومتها دون أن تبعد نظراتها المتوترة عنه، ظل جالسًا أمامها يطالعها بعينه الشرستين، سألها بصوته المحتد رغم خفوته:

-عملتي كده ليه؟

ردت بارتباك وهي تفرك ذقنها:

-إنت اللي بدأت

صاح بها بعصبية:

-إتي مجنونة في عقلك

تدارك نفسه فأخفض نبرته مكملًا:

-ليه مجاش في بالك إنك بتورطيني معاكي في حاجة قدرة، عاوزة تطلعيني واحد واطي
معندوش أخلاق؟

ردت تهكم:

-إنت اللي أجبرتني أقول كده!

ثم رمقته بنظرات احتقارية غير مبالية لتستفزه، ضاعفت من حنقه نحوها، توعدھا
قائلًا:

ماشى يا "آسيا"، وأنا عند كلمتي

نظرت له بعدم فهم فتابع موضحًا:

-أنا خطبتك من مامتك، وتقريبًا هي موافقة، وسهل أقنع بابا بجوازي منك، يعني
قريب أوي هنتجوز، وساعتها كل واحد هياخذ حقه من الثاني
تشكل على ثغرها ابتسامة ساخرة منه، أشارت له بعينها قائلة:

-ابقى اتغطى كويس لأنه مش هياحصل إلا في أحلامك

نهض من جوارها ليرمقها بنظرة مقببة قبل أن يقول لها مؤكدًا عن ثقة:

هانشوف !!

.....

الفصل الخامس والثلاثون

أرق مضطجعا باقتحامه لغرفتها والبوح بعزمه على إتمام زواجه منها، استثار أعصابها بتهوره وبجراته الزائدة معها وكأنه ملك زمام أمرها، تلفتت "آسيا" حولها باحثة عما تلقيه نحو "معتصم" كوسيلة لإفراغ شحنة غضبها منه، وقعت عينها على مبرد الأظافر والمزهرية الصغيرة الموضوعة إلى جواره على الكومود فالتقطت الأخيرة بيدها وقذفتها في اتجاهه لتصطدم بمؤخرة رأسه، تألم من الضربة المباغتة واستدار نحوها يرمقها بنظراته الغاضبة، بادلته بنظرات متممة وهي تقف على ركبتيها على الفراش، أشارت له بيدها تحذره بشراسة:

إياك تجي هنا ثاني!

رد متحدياً بصوته المحتد وقد تبدلت قسماته للقسوة:

إنتي متعرفينش

انحنت لتأخذ مبرد الأظافر مستخدمة إياه كأداة حادة للدفاع عن نفسها، زحفت بركبتيها متراجعة على الفراش، نظر لها بنظرة تحمل السخرية، ثم أردف قائلاً بتهكم وهو يومئ بعينه:

ده على أساس إنه هيجمكي، ارمي البتاع ده من إيدك!

حدجته بعينين ملتبتتين وهي ترد بوقاحة لتستفزه:

-بلاش أعلم عليك تاني

تحسس عفويًا جرحه الذي ضمده بمساعدة الصيدلي قبل ساعات متذكرا هجومها عليه، استشاط من طريقة تحديقها الباردة به والتي أشارت إلى عدم تقديره لما يمكن أن يفعله معها إن خرج عن عقلانيته، ظلت محافظة على تلك النظرات المستفزة مما حفز دماؤه على الالتهياج، كذلك ازدحم عقله بكل ما يخصها من أخبار يندى لها الجبين لتزيد من وهج غضبه، خرج "معتصم" عن عقلانيته وهدوئه الحذر ليندفع نحوها قاصدًا الإمساك بها، تملصت منه "آسيا" ببراعة قبل أن يطالها وركضت نحو باب الغرفة، لحق بها وجذبها من ذراعها ليستوقفها، التفتت نحوه قاصدة غرز المبرد في عضده، لكنه تمكن منها وقبض على رسغها وانتزعه قسرًا من بين أصابعها، شهقت بخوف، وقبل أن تصرخ لتفضح أمره كانت يده موضوعة على فمها، كمها جيدًا وألصق ظهرها بصدره، ثم استخدم ذراعه الآخر في تقييد رسغيها، اهتمجت "آسيا" من أسلوبه الطائش معها، تلوت بجسدها بكامل قوتها لتتخلص من قبضتيه، لكنه لم يحررها، مال على أذنها يهمس لها بوعيد:

ده ليه حسابه

شعر بحركة خافتة خارج غرفتها وبصرير باب ما يفتح، فتأهبت حواسه وشدت من قبضتيه عليها، تراجع بها للخلف مسندًا ظهره على الحائط ومجبرًا إياها على الالتصاق به والبقاء تحت رحمة حصاره، توترت نظراته وخفق قلبه بقوة مع رؤيته لمقبض الباب يتحرك، جزعت "آسيا" وتضاعفت حركتها مما حثه على استخدام قدراته العضلية في تثبيتها وتثبيط مقاومتها حتى لا تثير أي جلبة، لحظات مرت عليه كالدهر لكنها انتهت

بسماعه لصوت خطوات الأقدام تبتعد، تنفس "معتصم" الصعداء وأرخی يديه عنها قليلاً، غمغمت بصوتها المكتوم بتذمر وكأنها تلغنه، عاد ليهمس لها:

حظك إني قفلت الباب وإلا كنتي هتتفهمي غلط

انزعجت من تلميحه المسيء لكونه يشير عمدًا إلى محاولتها إغرائه وربما دعوته لقضاء الليل في غرفتها، حررها لتبتعد فورًا عنه ونظراتها النارية تكاد تفتك به، ردت بصوت خفيض لكنه مهدد:

هافضحك يا "معتصم"

أشار بيده مرحبًا:

-تفضلي

ثم تراجع نحو الفراش ليتمدد عليه موسدًا ذراعيه خلف رأسه، نظر لها بطرف عينه قائلاً ببرود:

-وأنا مستني، وابقى فسري لمامتك أنا بأعمل إيه هنا

كزت على أسنانها مرددة بغیظ:

-إنت جبان!

اعتدل في نومته محذرًا:

-لي لسانك، لأنني ممكن أغلط جامد أوي، ودي أقل حاجة عندي

صاحت فيه بصوت مختنق رغم خفوته:

-أنا مش هاتجوزك، افهم بقى

تهدت بعمق قبل أن تكمل بإحباط:

عارفة إن وجودي هنا غصب عنك، بس مش هاسيب حقي

تحدث من زاوية فمه قائلاً بازدراء:

باني على حقيقتك كمان

ردت باستنكارٍ:

هو أنا غلظت في إيه لما أطالب بحقي في الست اللي ربيتك؟!!

هب واقفاً من على الفراش ليقف قبالتها، رمقها بنظرة مغلولة وهو يرد:

-بلاش تكدي الكدبة وتصديقتها

هزت رأسها بالنفي مدافعة عن نفسها:

-والله ما كدبت في حاجة

رمقها بنظرة احتقار قبل أن ينطق:

-ما فيش أسهل من الحلفان

يُست "آسيا" من إقناعه ببراءة نواياها حاليًا، سيظل على موقفه المعاند مهما حاولت

أن توجد له من مبررات ودلائل قوية، لكزها بإصبعه في وجنتها مضيئًا بجديّة:

-أنا هاسيبك بمزاجي، بس مش ناسي اللي عملتيه فيا

ثم أخفض نظراته نحو جرحه لتدقق هي الأخرى النظر فيه، تأكدت أنه سيثأر لنفسه

منها، تراجعت عنه لتتجه نحو المرأة باحثة عن شيء ما، التقطت المقص وفتحته على

الأخير لترد بنبرة غامضة وهي ترفعه نصب عينيه:

-ولا تزعل نفسك، كده احنا خالصين

ثم قامت بجرح معصمها بقوة بنصله الحاد، اتسعت مقلته فرغاً من تهورها الأهوج،
هرول نحوها منتزعاً المقص من أصابعها وهو يهتف مصدوماً بصوته الخافت:

يخرب عقلك، إتني مجنونة!

ألقاه على الفراش ثم رفع ذراعها المصاب عالياً ليضغط على جرحها النازف، خشي أن
تكون قد قطعت في لحظة طيشها شريانها، نظرت له بعينين دامعتين قائلة بنبرة متألّمة:

كده ملكش حاجة عندي

حدجها بنظرة غاضبة كارهة لما فعلته، ثم رد مغتاضاً:

إتني مش طبيعية، مخك ده في حاجة!

وقف "معتمص" حائراً في مكانه يفكر على عجالة في طريقة لوقف نزف الدماء، أجلسها
على الفراش واتجه نحو الحمام ليبحث بداخله في خزانة الأدوية عما يمكن أن يستخدمه
لإسعافها دون أن يزعج والدتها أو والده، عاد إليها وجثا على ركبتيه أمامها ليضمّد جرحها،
ركز انتباهه على ما يفعل متمتماً بضيق كبير:

أنا ما شوفتش كده

غابت "آسيا" عن وعيها بعد أن زحف ذلك الدوار الرهيب إلى رأسها، مالت بجسدها
على "معتمص" الذي تفاجأ بها تسقط عليه، أمسك بها ليعدها هاتفاً بقلق:

- "آسيا"، ردي عليا

ضرب على وجتها بكفيه محاولاً إفاقتها وهو يردد بخوف:

- "آسيا"، سمعاني، "آسيا"

لم يجد منها أي استجابة فلف ذراعه حول كتفيها ومرر الآخر أسفل ركبتيها ثم حملها
ليمددها على الفراش، وضع يده أعلى رأسه وهو يدور حول نفسه في حيرة جليلة،

خاف من تخطي المسألة لمجرد جرح عابر، كان عليه أن يضع الخطة لإيقاظها دون أن يكشف أمر زيارته السرية لها، خطا نحو باب غرفتها ليفتحه بحذر، تسلل إلى الخارج بعد أن تأكد من عدم وجود أحد بالرواق، عاود إغلاق الباب بالمفتاح بهدوء ثم سحب نفساً عميقاً ليشرع في تنفيذ ما أملاه عليه عقله من حلٍ جهنمي للفت الأنظار إليها دون أن يثير الريبة حوله، صاح عاليًا بصوته الأجهش:

-ماينفesch كده يا "آسيا"، دي مش طريقة، افتحي الباب لو سمحتي

دق الباب بعنفٍ مواصلاً صراخه:

لو سمحتي ردي عليا، بلاش تأذي نفسك

استيقظ والده على صوته المرتفع متسائلاً بقلق:

في إيه؟

استدار نحوه ليجيبه بعبوس وهو يجاهد لإخفاء نظراته المضطربة:

- "آسيا" حابسة نفسها في أوضتها

سأله "وحيد" بامتعاض مستنكر:

هي حرة تعمل اللي عاوزاه؟

تدارك والده سريعاً الأمر واستغرب من تواجد ابنه أمام غرفتها في تلك الساعة المتأخرة،

تجهمت ملامحه وهو يعاود سؤاله بضيق أكبر:

-وبعدين إنت إيه اللي موقفك هنا عندها السعادي؟

رد بارتباك ملحوظ:

أصل هي .. يعني مش بترد عليا في الموبايل و...

أراد إشعاره أنها على تواصل خفي بعيدًا عن أنظارهما، كذلك لم يكمل جملته بسبب مقاطعة "نادية" له:

-بنتي مالها؟

رمقته بنظرة متوترة وهي تتابع:

-أنا قلقته لما لاقيتها قفلاه، بس بصراحة افكرتها خايفة من بعد اللي حصل النهاردة
خمن "معتصم" بمنطقية أنها كانت الشخص الذي حاول فتح باب غرفتها قبل قليل،
أجابها وهو يشير بيده:

يا ماما كنت بأحاول أكلمها زي ما متعودين كل يوم بالليل، بس هي ما بتردش عليا
بدت كلماته مريبة للغاية وتحمل الكثير من المعاني، وضع "وحيد" يده على كتف ابنه
ليديره نحوه قبل أن يسأله بجدة:

ما تفهمني بالظبط في إيه بينك وبينها؟!!!

أجاب "معتصم" بتذمر:

-بعدين يا بابا هاوضحلك كل حاجة، خلينا نشوف الأول هي مالها!

طرقت "نادية" باب الغرفة وهي تهتف عاليًا:

-افتحي يا "آسيا"، ردي عليا يا بنتي

تابع "معتصم" برجاء:

-"آسيا" لو سمحتي كلمينا بس!

انقبض قلب والدتها بقوة، وضعت يدها على صدرها مرددة بتوجس مدعور:

-لأحسن يكون جرالها حاجة!

هتف "معتصم" بنزق وقد تراجع عدة خطوات للخلف:

أنا هاكسر الباب

اعترض والده طريقه قائلاً:

-استنى يا "معتصم"!

جمد أنظاره عليه قبل أن يرد بخشونة:

- "آسيا" مجنونة ويمكن تعمل أي حاجة

زاد هلع "نادية" من أسلوبه في الحديث عن تصرفات ابنتها غير العقلانية، لم تمنع على الإطلاق تحطيم "معتصم" للباب، اندفع الأخير بجسده نحوه ليصطدم به بقوة لعدة مرات حتى انفتح الباب على مصراعيه، بالطبع أظهر اندهاشة مصدومة أمام والدتها التي صرخت بهلع:

-بنتي!

هرولت "نادية" نحو فراشها لتجد دمائها تغرق الملاءة، صرخت بلا وعي:

-عملي تاني كده ليه؟ كلم الدكتور بسرعة يا "وحيد"!

أوما زوجها برأسه هاتفاً:

حاضر

ثم انطلق إلى خارج الغرفة ليهاتف الطبيب، انتبه "معتصم" لعلبة الإسعافات الأولية الموضوعية بجوار الفراش، اتجه نحوها بجذير ودفعها برفق بقدمه لتختفي أسفله، رفع وجهه ليحرق في "نادية" التي توسلته بخوف وهي تحتضن ابنتها:

-وديها على المستشفى يا "معتصم"

رد معترضًا بترث:

-بلاش يا ماما، هايكون فيها محاضر وسين وجيم، إن شاء الله تكون حاجة بسيطة،

أنا هاحاول أوقف النزيف لحد ما الدكتور يجي

وكانها لم تصغ له، سألت ابنتها الغائبة عن الوعي بقلبٍ ملتاغ:

-عملي كده ليه بس؟

أجابها "معتمص" بحزن:

كانت بتقولي إنها هتنتحر لو ماتجوزناش، خايفة إن بابا يرفض

حدقت فيه بذهول كبير، ثم أخفضت نظراتها نحو ابنتها، رددت بعينين باكيتين:

للدرجاي متمسكة بيك، أنا مش مصدقة!

استمر "معتمص" في أداء دور المصدوم في تلك التمثيلية المصطنعة، دنا منها ليقف

خلفها قائلاً بأسف:

هاحكيك كل حاجة يا ماما بس نظمن عليها الأول

.....

تقلبت على جانبها في الفراش لتشعر بتلك الوخزة القوية في معصمها مما نبه كامل

حواسها وأجبر عقلها على العودة من سباته العميق، فتحت "آسيا" عينيها ببطءٍ ثم

نظرت بنصف عين إلى الأشياء المبهمة من حولها، أغضت جفنيها وعاودت فتحها

لتذهب النعاس عنها، تأملت باستغراب رسغها المضمّد جيّدًا، تحيرت في البداية عن

سبب وجوده، اعتدلت على ظهرها لتجد "معتمص" واقفًا على رأس الفراش يطالعهما

بنظراتٍ واثقة وهو متأنق في بدلته، تلاشى مع حضوره آثار النعاس من على وجهها،

امتعت قسماتها من تحديقه المطول والمستمتع بها، سألته بجدّة:

إنت واقف عندك كده ليه؟

رد ببرود دون أن يخفي تلك البسمة السخيفة من على محياه:

صباح الخير

تذكرت سريعًا صدامها العنيف فتحفزت في نومتها وبدت مستعدة للدفاع عن نفسها،
سألته بفرقة طفيفة:

إنت مش خايف أصرخ و ...؟!؟

قاطعها بتمهل:

ششششش، اللي حصل بالليل عدى خلاص، إتي بقى اهدي واسمعي كويس يا
"آسيا"

رمقته بنظراتها المشتعلة فأكمل بهدوئه المريب:

مامتك فاهمة إنك انتحرتي عشان تقنعهم يوافقوا على جوازنا، وكل اللي حصل بينا
فيلم عملناه عليهم عشان يضطروا يوافقوا نتجوز

شخصت أبصارها مما ألقاه على مسامعه، توترت أنفاسها متسائلة بصدمة كبيرة:

نعم، إنت بتقول إيه؟

تابع بنفس النبرة الجليدية الجافة:

زي ما سمعتي، وأي كلام تاني هاتقولييه محدش هيصدقه، وخصوصًا إن الكل بقى في
صفي دلوقتي، يعني الكرة في ملعبى، واللعب على المكشوف

صرخت فيه باستنكار:

أنا مش مصدقة نفسي، وسيادتك هاتستفيد إيه؟

حذرها بقوة:

-وطي صوتك

بدت لهجته صارمة بالإضافة إلى نظراته الجادة، التزمت الصمت مضطرة لتفكر في
إجابة مقنعة لسؤالها الحائر، استشفت الرد سريعًا، قطبت جبينها موضحة:

-أها، دلوقتي فهمت، إنت بتعمل كل ده عشان ترميني برا البيت، فكرك لما تتجوزني
هاتمنعني من هنا؟

دس يديه في جيبي بنطاله قائلًا بعدم مبالاة:

-والله هاكون حر في تصرفاتي مع مراتي!

نظرت له شزرًا قبل أن تهينه:

-إنت أسوأ حد قابلته في حياتي

رد عليها ببرودٍ متجاوزًا إهاتها:

من بعض ما عندكم يا "آسيا" هانم!

أطلت شرارات الحنق من عينيها الفيروزييتين، كان حقًا ناجحًا في إثارة دمائها، انتهت
لصوت والدتها المتسائل:

حبيبتي عاملة إيه دلوقتي؟

التفتت نحوها لتجيبها باقتضاب:

-الحمد لله

اقترب "معتصم" من "نادية" ليلف ذراعه حول كتفيها، اندمج في الحديث قائلًا بعتاب:

-أنا زعلان منها أوي يا ماما، يعني بتتصرف من دماغها ومش عاوزة تصبر لحد ما أقنع بابا

زوت والدتها جبينها قائلة بثقة:

-ومين قالك إن "وحيد" معترض؟ بالعكس هو مرحب جدًا بفكرة جوازكم، بس طريققتكم إئتو الاتنين غلط

رد منكسًا رأسه:

-هانعمل إيه، كنا خايفين يحصل زي موضوع طنط "مها"!

ردت "نادية" مؤكدة عن ثقة:

-اطمنوا، احنا يهمننا إيه غير سعادتكم يا ولادي

أخنى "معتصم" رأسه على جبينها ليقبله بود قبل أن يرد ممتنًا:

-ربنا يخليكي لينا، المهم دلوقتي عاوزين أحلى فطار لأجمل "آسيا" عندنا!

ضحكت قائلة:

على طول

تبعها "معتصم" بعينه حتى خرجت من الغرفة، رمقته "آسيا" بنظرة نارية وهي تقول
بتهمك:

-المفروض يدوك جائزة أوسكار أحسن ممثل كداب

مط فمه قائلًا يا عجب:

-البركة فيكي

اقترب من فراشها فاستندت على مرفقيها محاولة التراجع بعيداً عنه، انحنى للأسفل نحوها ليتأمل تعابيرها الغاضبة عن قرب، منحته نظرة تحمل الحنق والبغض ثم ضغطت على أسنانها قائلة:

-باكرهك

رد هامساً وهو يبتسم لها بعجرفة:

-وأنا مش عاوزك تحبيني

تجهمت مضيفة بغضب:

-انسان حقودي مليون غل

رد مهيناً إياها بفضافة:

-كفاية العفة والسمعة النضيفة اللي طالعة منك

ضجرت من تطاوله عليها فارتفع صوتها وهي تحذره:

-احترم نفسك

وضع "معتصم" إصبعه على شفيتها، شهقت من تجرأه عليها، همس مضيقاً بنبرة ذات مغزى:

-أنا لسه مغلطتش، فحدي بالك!

أبعدت يده عنها صائحة فيه:

-برا

قبض على رسغها ضاغظاً عليه بأصابعه فأخرجت أنيناً متألماً من حلقها، بدا صوته قوياً رغم همسه:

-برضوه مش عاوزة تلمي لسانك!

توترت حدقتهاها من لهجته المريية والتي ذكرتها بصوت أحدهم حينما أوشك على الاعتداء عليها، شعر برجفتها فترك يدها متأكدًا من جدية تهديده لها، اعتدل في وقفته مسلطًا نظراته عليها، بدا "معتصم" أكثر غرورًا وتملكًا عن ذي قبل، تمط بكتفيه قائلاً:

-أنا خارج، سلام!

تسارعت أنفاسها الغاضبة والتي امتزجت مع خوفها الغامض، كورت أصابع يدها لتضرب بها الوسادة مرددة مع نفسها:

-ربنا يا خدك!

.....

تعمد في الفترة الأخيرة التواجد في المواقع الإنشائية التابعة لإشراف مكتبه ليتجنب الالتقاء مع ابن عمه، فقد علم الأخير برغبته في الزواج من "آسيا" فاستشاط غضبًا وتأكد من كونه يقف وراء إفساد خطبته منها، عرف "نبيل" مكان "معتصم" فتوجه إليه قاصدًا الاشتباك معه، لم يعبأ بكونه وسط العمال والمهندسين، انقض عليه ممسكًا به بطريقة مريبة من ذراعه، نظر له "معتصم" باستنكار ومع ذلك لم يقاوم جذبه له منعًا للمشاكل، سار الاثنان بعيدًا عن الجميع لينزوي كلاهما في بقعة خالية، اندلع غضب "نبيل" فصرخ منفعلًا:

-عملت كده ليه؟ وماتقوليش إنك بتحبها!

رد عليه "معتصم" بجذرٍ ليمتص غضبته:

-اهدى يا "نبيل"، احنا وسط الناس، هايقولوا إيه عننا

صاح به بعدم أكثر:

-ملكش دعوة، رد عليا
تمسك "معتصم" بهدوئه قائلاً:
-لما توطي صوتك الأول!
أضاف "نبيل" صارخاً باستنكار أكبر:

-وطبعًا تلاقيك إنت اللي بنحيت الكلمتين بتوعك في ودن ماما عشان تقلب على
"آسيا" من قبل ما تشوفها حتى
بدا "معتصم" مستفزًا وهو يسأله:
-إنت مش عاوز تسمعني ليه؟
أجابه بعصبية:

-لأني أكثر واحد فاهمك يا "معتصم"، إنت عمرك ما حبيت "آسيا" ولا هتحبها،
محدث بيكرها أدك، وجوازك منها مش بنية صافية، إنت قاصد تعمل ده عشان تأذيها
عبس بوجهه قائلاً بجمود:

-بلاش أفورة، إنت مكبر الموضوع أوي، وبعدين يا سيدي الجواز قسمة ونصيب
التهبت نظراته مرددًا بإنكار:

-أه مع حد ثاني إلا أنت
اغتاظ من هجومه عليه متسائلًا:

-واشمعني يعني؟

أجابه ببساطة:

إنت ناسي كنت بتقول عليها إيه ولا بتعاملها إزاي؟ فجأة كده حبيتها وبقيت متيم بيها
وعاوز تجوزها

وضع "معتصم" قبضتيه على كتفي ابن عمه قائلاً له:

- "نبيل" إنت مش هاتقدر تفهمني

نرح يديه عنه مردداً:

غلطان، أنا أكثر واحد عارف إنت بتعمل كل ده ليه، بس لعلمك حتى لو بقت
"آسيا" مراتك فأنا هاقفلك لو اتعرضلتها

استفز بكلامه المتعصب نزعتة الرجولية فاشتعلت نظراته وسأله بخشونة:

- أفندم، بصفتك إيه؟

نظر في عينيه بقسوة قبل أن يرد:

- اختار اللي إنت عاوزه، بس "آسيا" مش لوحدها، أنا في ظهرها، وده آخر ما
عندي!

حافظ "معتصم" على بروده الجامد رغم النيران المستعرة بداخله لدفاع ابن عمه عنها
باستماتة وكأنها سحرته بتعويدة ما، تهدد بعمق ليحبس انفعالاته بصدرة قائلاً:

- تمام، ممكن نشوف شغلنا بقى!

.....

كانت بحاجة لمن تفضفض معها وتسترسل في الحديث حول مشاعرها الناشئة مع ذلك
الذي خفق قلبها لأجله، استغلت "أية" انتشار خبر رغبة "معتصم" في الارتباط بـ
"آسيا" لتأتي لزيارتها وتبوح لها بما خبئته عن صديقاتها المقربات، جلست معها في
غرفتها وتمددت على الفراش لتسألها بفضول وقد أخرجت تهيدة حارة من صدرها:

قوليلي يا "آسيا"، حبيتوا بعض إزاي؟

التفتت نحوها دون أن تحرك ساكناً من مقعدها المواجه للشرفة لترتمقها بنظرة مزعوجة، فقد سئمت من حديث الجميع عن الخطبة المزعومة واهتمامهم بكافة التفاصيل المتعلقة بها وكأن الاثنان طائرا الحب، كانت متيقنة في داخلة أن ما يحدث مجرد أكلوبة يحيكها "معتصم" لتدميرها نفسياً وذهنياً لترحل وتترك له كل شيء، أشاحت بوجهها للجانب لتخفي نغمها من الموضوع برمته، ثم سألتها بفتور:

إنتي أخبارك إيه؟ بقالي فترة مشوفتكيش، في حاجة شغلاني ولا إيه

أخرجت "أية" زفيراً بطيئاً من صدرها قبل أن تجيبها بغموض مقتضب:

-يعني حاجة زي كده

نهضت من على الفراش لتجلس بجوارها في الشرفة، حدقت فيها قائلة بتلهف وقد بدا على تعبيراتها الحيوية والتورد:

-أنا كنت عاوزة أخذ رأيك في حاجة

تفرست "آسيا" في وجهها متسائلة باهتمام:

إيه هي؟

أجابتها بعد أن زفرت بعمق:

-بصراحة كده أنا في واحد بيحبني جدًا وهاموت عليا

ارتسمت على قسائتها الاهتمام، فأخيراً وجدت ما يشغل تفكيرها عن "معتصم" وأموره، لذا سألتها بحماسة طفيفة:

وده حصل امتي؟

عضت "أية" على شفثها السفلى لتقول بعدها بنجلى:

-يعني من قريب، بس أنا لسه مش قايلة لحد
أومات برأسها متفهمة، ثم سألتها هامسة:
أها، واتي بتحببته؟
تشكلت ابتسامه رقيقة على ثغرها وهي تجيبها:
باين كده، بس طبعًا مش زي مغامراتك إتي و"معتصم"
رفعت "آسيا" حاجبها للأعلى في استنكار بائن لذلك التشبيه الجائر بين قصة حب
زائفة وأخرى حقيقية، ردت عليها بتهكم ساخط:
هو في زينا أصلًا
تابعت "آية" مضيفة:
المهم، "سامر" كان عاوز ...
اعتدلت "آسيا" في جلستها بعد سماعها لاسم ذلك الشاب، بدا لها مألوفًا بدرجة
كبيرة، سألتها بجدية:
ده اسمه؟
هزت "آية" رأسها بالإيجاب:
أيوه، على فكرة هو شاب غني أوي وعنده شركات وحاجات كتير
تمام، طب هايتقدمك امتي بقى طالما معندوش مشاكل؟
لسه مش دلوقتي، أما تقرب من بعض أكثر
رينا يسعدك

تحمست "أية" كثيرًا من تجاوب "آسيا" معها، فقررت أن تجازف أكثر عليها تجد الداعم لها في أنشودة حبها العذب، أخرجت هاتفها المحمول وعبثت بأزراره ثم مدته ناحيتها قائلة بجرارة:

-بصي دي صورته

تأملت "آسيا" حالة المشاعر الفياضة البائنة عليها بابتسامة مجاملة، ثم أمسكت بالهاتف لتحقق في صورته، انتابها حالة من الارتباك لمجرد تطلعها لملامحه التي أوقظت فيها مشاعرًا بالضييق والتوتر، انتشلها من شرودها في تدقيق النظر فيه صوت "أية" القائل:

-شكله واو خالص، أنا مبهورة بيه

ظلت عينها مركزة على تفاصيل وجهه وهي تتسائل باهتمام مريب:

قولتيلي اسمه ايه؟

أجابتها دون تردد وهي تميل برأسها في خجل:

-"سامر عمران"

شردت "آسيا" من جديد في قسماته التي لم تكن غريبة عليها بالمرّة، كانت متأكدة في قرارة نفسها أنها التقت به من قبل، رددت بهمس غير مفهوم:

أنا حاسة إني شوفته قبل كده!!!

الفصل السادس والثلاثون

أمعنت النظر في تأمل تفاصيل وجهه وهيئته، لم يكن "سامر" بالشخص الغريب عنها، شعرت "آسيا" بوجود صلة ما أو رابط خفي يجمعها سوياً، لكنها لم تستشف بعد ماهية الأمر، ولتقضي على فضولها التفتت نحو "آية" لتقول لها بنزقٍ وقد اتسع بؤبؤها قليلاً:

-أنا عاززة أشوفه، ينفع؟

فركت "آية" طرف ذقنها قبل أن ترد بجذري:

-أوكي، بس أقوله الأول

بررت "آسيا" رغبتها في رؤيته موضحة:

-أنا هاتكلم معاه وأشوفه إن كان جاد معاكي ولا لا، وصدقيني ده هايفرق أوي

تحمست لفكرتها كثيراً فرمى حضورها سيسهم في تشجيعه على الارتباط الرسمي بها، اتسعت ابتسامتها مضيفة:

على فكرة هو بيتقول إنه يعرف "معتصم" وصاحبه كمان

أبدت "آسيا" إعجاباً مصطنعاً بجملتها الأخيرة لترد مبتسمة بتكلف:

بجد، طب كويس

هو مسافر كام يوم يخلص شغله، وأول ما يرجع هتف قمعه

تمام

انضمت "نادية" لها وتبعها الخادمة التي أسندت صينية المشروبات والحلوى على الطاولة الصغيرة بالشرفة لتصرف بعدها في عجلة، قامت "نادية" بالترحيب من جديد بـ "أية" وجلست على المقعد المواجه لابنتها، تبادلت معها حديثًا ودّيًا لدقائق لم تشاركها فيه "آسيا" بالتعليق، دقت والدتها النظر فيها فلاحظت ذلك التبدل الطفيف في تعابيرها، لذا سألتها باهتمام:

في إيه شاغل بالك يا "آسيا"؟

انتبهت لها فردت نافية:

مافيش حاجة يا ماما

غمزت "أية" لزوجتها قائلة بتسليّة:

تلاقيا بتفكر في "معتصم"، مش كده برضوه؟!

ثم أخفت ضحكة عابثة ظهرت على شفيتها، رمقتها "آسيا" بنظرة متممة قبل أن تدير وجهها في اتجاه والدتها لتقول لها بجدية:

ماما، أنا مش حابة أتجوز "معتصم"

حملت فيها بغرابة وسألتها باندهاش:

طب إيه اللي غير رأيك كده؟

ردت عليها "أية" وهي تهز كتفها:

-تلاقيها خائفة من التجربة

أشارت "نادية" بيدها وهي موجهة حديثها لابنتها:

طبيعي كل البنات تقلق قبل ما يرتبطوا ببعض، وبعدين "معتصم" غير أي حد، ده متري على إيدي

زفرت "آسيا" بعمقٍ قبل أن ترد:

-الموضوع مش كده، هو أسلوبه معايا صعب

رسمت والدتها بسمة ناعمة على ثغرها قبل أن تميل نحوها لتقول:

طبيعة الرجاله كده، مش سهل تتفاهمي معاهم، لكن كفاية إنه بيحبك وتمسك بيكي

اعترضت على مبرراتها التي لا تتفق مع ما يحدث بينهما من مناوشات وجدال يصل في بعض الأحيان للعنف، زمت شفيتها لترد بضجر:

-ماما، مش كده خالص، كل اللي بيعمله "معتصم" مجرد فيلم بايخ قدامكم

سألته بجيرة:

-وايه اللي هيجبره على كده؟

كتفت ذراعها أمام صدرها لترد بزجرة طفيفة:

-معرفش

انحنت "نادية" نحوها لتضع يدها على فخذاها، ربتت عليها برفق وهي تقنعها قائلة:

يا "آسيا" مش هلاقي حد زي "معتصم" يخاف عليك ويحميكي من أي أذى وفوق

ده كله بيحبك كمان

حدقت ابنتها أمامها تفكر فيما تقوله، فتابعت بجديّة:

إتني ناسية حياتك اللي فاتت، ووجود "شرف الدين" هيعرضك للخطر، وإتني شوفتي بنفسك

ظنت "آية" أن "آسيا" مترددة في مسألة زواجها منه لعدم استطاعتها فهم شخصيته فأضافت قائلة:

على فكرة "معتصم" مش بالساهل يرضى بأي واحدة ويتجوزها، بنات كثير هاتموت عليه، وهو بيعاملهم كويس جدًا، بس معمروش زود في التعامل معاهم عن الطبيعي، بس هو جنتل جدًا و....

استدارت "آسيا" نحوها لتنظر لها باستنكار، فكل ما قالته يتناقض كليًا مع تصرفاته الفظة معها، صاحت مقاطعة بانفعال قليل:

ده عصبي ومجنون، ومد إيدته عليا

ارتفع حاجبي "نادية" للأعلى في صدمة، سألتها بجدية وقد اختفت البسمة من على تعبيراتها البشوشة:

إيه الكلام الغريب ده؟

التفتت ابنتها لتسألها بتذمر:

تقبلي أتجوز واحد بيهيني يا ماما؟

احتجت "نادية" قائلة بجدية شديدة:

لأ طبعًا، ولو فعلاً عمل كده هيبقالي كلام معاه

لم تنتبه ثلاثتهن إلى وجود "معتصم" الذي استمع مصادفة إلى حديثهن عنه، توخى حذره لتبوح "آسيا" بما في جعبتها دون زيف فيتخذ حيطته معها، ما أزججه أيضًا حديثها عن تطاوله باليد عليها حتى وإن كان مخطئًا في تصرفه معها، سيؤثر ذلك على طبيعة

ما يخطط له، فكر سريعًا في إفساد محاولتها الفاشلة لتتقلب الطاولة على رأسها، قست
ملاحه وهو يخطو لداخل الغرفة مرددًا بخشونة:

- "آسيا"

انقضت الأخيرة في جلستها بمجرد سماعها لصوته، جمدت أنظارها عليه متوقعة ثورة
غاضبة منه، في حين هبت "نادية" واقفة من مكانها لتسأله بعبوس:

- "معتصم"، إيه الكلام اللي بتقوله ده؟ إنت مديت إيدك عليها؟!

رد باستنكار شديد وقد انزوى ما بين حاجبيه:

-وده حصل أمتي؟ في خيالها مثلاً؟!

ثم التفت ناحية ابنتها ليقول لها بعتاب:

-عمومًا شكرًا يا "آسيا" على ذوقك، كل ده عشان مرضتش أجيبيك الخاتم السوليتير
اللي شوفتيه على النت؟!

رفعت حاجبها للأعلى مرددة باندهاش مصدوم:

نعم

تابع عاتبها برقة وهو مسبل عينيه نحوها:

طاوئك قلبك تفترى عليا كده؟

فاض بها الكيل من حيله التي لا تنضب فصاحت بجدّة:

-شايفة يا ماما كدبه

نظرت لها والدتها بحيرة، لم تفهم حقًا ما الذي يدور بينها لتستمر حالة الجدل هكذا،
سألتهما بنفاذ صبر:

ما تفهموني في إيه بالضبط؟!!!

دس "معتصم" يده في جيب سترته ليخرج علبة صغيرة، فتحتها أمام نظرات الثلاثة ليظهر ذلك الخاتم البراق الذي يخطف الأنظار، مده نحو "آسيا" قائلاً بابتسامة صغيرة:

-تفضلي يا حبيبتى، طلباتك أوامر عندي

صفقت "آية" بيديها هاتفه بجاس:

-واو، So Romantic (رومانسي للغاية)

اندهشت "نادية" هي الأخرى من تلك الهدية الباهظة الثمن، نظرت إلى الخاتم بإعجاب ملحوظ، ثم استطردت قائلة:

-حلو أوي يا "معتصم"، مبروك عليكى يا "آسيا"

رد عليها بتنهيدة متعبة:

-يا رب بس أنول الرضا منها، أنا كل غرضي إني أسعدها وأخليها تكون مبسوفة

ريبت "نادية" على كتفه قائلة بامتنان:

-ربنا يباركلي فيك يا ابني، ويهنيكم يا ولاد

أضاف "معتصم" بابتسامته المأكرة:

-خديه يا "آسيا"، ماتكسفيش بقى، احنا بقينا واحد دلوقتي

جذبت الأخيرة العلبة بغيظ وأغلقها دون أن تتوقف عن رمقه بنظراتها المغتظة منه، تنحنت "آية" قائلة:

-أنا هامشي بقى يا طنط عشان متأخرش

تحركت "نادية" نحوها لتودعها:

-تعالى هاوصلك لتحت

كتفت "آسيا" ساعديها مترقبة خروج والدتها و"آية" من الغرفة لتنفجر في "معتصم"
هاتفه بغضب:

-اقسم بالله إنت تجنن العاقل

ثم أرختها لتتمكن من إلقاء هديته على الفراش، تابع ما تفعله ببرود جليدي، حدجها
بنظرة خالية من المشاعر وهو يقول لها عن ثقة تامة:

-إتي لسه مشوفتيش مني حاجة

-ولحقت تعمل حكاية الخاتم دي امتى بقي؟

تحدث من زاوية فمه قائلاً:

طبيعي تلبسي شبكة يا "آسيا" هانم، أومال هي جوازة فشنك!

تحركت خطوة لتقف قبالته، نظرت في عينيه بقوة وهي ترد مؤكدة:

-وأنا هاكشف كدبك قصادهم

رد متحدياً بخشونة:

مش قبل ما أفصح الأعيبك القدرة يا "آسيا"

-رجعنا تاني للتخاريف اللي في دماغك وبس

قبض على ذراعها ضاغظاً عليه بأصابعه بقوة وهو يرد:

دي حقيقتك اللي مخبياها عن الكل

تأوهت من قسوة ضغطه واستخدمت قواه لنفض يده عنها، ثم تراجعت خطوة للخلف

لترمقه بنظرة تهكمية قبل أن تضيف:

-ماتعيش الدور أوي وتصدق نفسك

هي تحاول استفزازه باستمرار اتقائها لدور الشابة الفاقدة للذاكرة، سيتجاهل هذا مؤقتًا كي يحافظ على هدوئه، فقد تأتي والتمها بين لحظة وأخرى وتلاحظ جدالهما، رمقها بنظرة جافة قائلاً لها بصيغة شبه أمره:

-بالمناسبة اختاريلك فستان محترم عشان كتب كتابنا

ردت ساخرة:

-بطل أوهامك دي

كانت تعابيره جادة للغاية حينما قال:

هانشوف

ثم أولاهها ظهره ليتجه نحو باب غرفتها، سمع صوتها يصيح من خلفه:
صدقني هاتشوف معايا أيام سودة تكره فيها اللحظة اللي فكرت فيها فيا
استدار ببطء نحوها ليرد مبتسمًا باستخفاف:

مستني الأيام دي، سلام

ضربت "آسيا" بقدمها الأرضية بعصبية مرددة مع نفسها بغيط:

-بني آدم بارد مستفز

.....

خاصم النوم جفنيها لليال عديدة، فكلما زاد الضغط عليها ممن حولها للقبول بـ "معتصم" كزوج لها، تضاعف نفورها منه وأصرت على رفضها، خاصة أنها تعرف نواياه الخبيثة، وفي كل مرة تتحجج فيها "آسيا" بشيء يفسده عليها "معتصم" وكأنها قد باتت كتابًا

مفتوحًا بالنسبة له يستطيع التنبؤ بتصرفاتها، فأصبحت في موقف حرج وانتهت كافة أعذارها، لم يبق لها إلا الرضوخ أمام إصرار والدتها التي لجأت لابتنازها عاطفيًا بالحديث عن خوفها مما يمكن أن يصيبها إن فارقت الحياة وصارت وحيدة، ضعفت أمام إلحاحها المتواصل وقبلت بعقد قرانها فقط عليه دون إقامة أي مراسم للزفاف، وستستغل تلك الفترة لإظهار أسوأ ما فيه لتكشف حقيقة نواياها، وافقت أمها على طلباتها فقد كانت تأمل في عمل الأفضل لها، والأهم من ذلك هو أن تتزوج بمن يستطيع حمايتها والدفاع عنها إن لزم الأمر.

كان كمن يحترق على بركان ثائر وهو يرى بأم عينيه "آسيا" توقع على وثيقة الزواج، تعجب "نبيل" كثيرًا من موافقتها عليه بعد رفضها المستمر، شعر بوجود خطب ما وراء قبولها به، وما إن انتهت من التوقيع حتى أطلقت الخادمة زغرودة فرحة، فقد تم الحفل في منزل العائلة بعيدًا عن أي أجواء صاخبة، وفي حضور بعض الأقرباء المعدودين، لم تكن السعادة بادية على تعبيرات "آسيا"، بل على العكس كانت واجمة، مكفهرة الوجه، صامته أغلب الوقت، مال "نبيل" على ابنه عمه ليمس له:

عاوزك في كلمتين

نهض الأخير من مكانه ليذهب معه، توجه الاثنان للشرفة الخارجية ليتجنبوا متابعة أحد ما لها، استند "معتصم" بيديه على حافة الشرفة متسائلًا:

ها، في إيه ثاني؟

أجابه بضيق كبير:

-عملت اللي في دماغك واتجوزتها؟

رد ببرود وهو يتأمل المارة في الطريق:

ده مجرد كتب كتاب، يعني خطوبة بس بشكل رسمي!

جذبه "نبيل" من كتفه ليقول له بجدية:

- "معتصم" أنا عند كلامي ليك، مش هاسمحك تأذي "آسيا"

نظر له بجدة قبل أن يبعد يده عنه، ثم رد باستنكار:

هو إنت هتخاف عليها أكثر مني؟!!

برر له سبب دفاعه المستميت عنها:

عشان عارف إن نيتك مش صافية ناحيتها

لم يعلق عليه "معتصم" والتفت ليحذق في الطريق، سأله "نبيل" بتهكم:

-الي أنا مستغربه هي إزاي وافقت عليك كده بسهولة؟

أجابه ابن عمه ببساطة:

-أنا ليا لي أساليبي، ده غير ماما "نادية"، عملت الواجب وزيادة عشان توافق

رد عليه بوجه ممتعض:

-والله طنط "نادية" مظلومة معاك، ولو عرفت اللي

قاطعته "معتصم" بنفاذ صبر:

-افرحلي إنت بس وماتفكرش في حاجة

رد عليه بجمود:

عيبك إني فهمك كويس

تهد قائلاً ببسمة سخيفة:

-إنت غلطان، ويالا ندخل، أكيد الناس بتسأل عليا، ما أنا العريس برضوه

تركه في مكانه وعاد إلى ضيوفه ليتلقى التهنئات على عقد القران، في حين بقي "نبيل" في الشرفة رافضًا المشاركة في تلك الفرحة الزائفة ومتوجسًا خيفة من المستقبل المجهول الذي سيجمع بين النقيضين.

.....

انسحبت بعد برهة من عقد قرانها لتنزوي بعيدًا عن الضيوف في غرفتها، كانت "آسيا" بحاجة لمساحة من الخصوصية لاستنشاق بعض الهواء المنعش لتريح عن صدرها ذلك الثقل الذي يجثو عليه، هزت رأسها باستنكار وهي تتذكر موافقتها الغريبة على الزواج من أكثر الأشخاص كرهًا لها، تجسد في مخيلتها فرحة والدتها العارمة حينما أبلغتها بذلك، التوت شفتاها بابتسامة ساخرة من اختيارها العجيب، فكيف تشكو قسوته وعنفة غير المقبول وفي نفس الآن تقبل به كزوج تكمل معه حياتها؟ أرهق عقلها من كثرة التفكير والبحث عن مبررات ليصدق الجميع أنها ضحية حياة غير متكافئة، حتى أنها لم تهتم باختيار ثوبًا فخمًا، وفضلت ارتداء البسيط غير المتكلف الذي مزج بين جمالها الطبيعي وروعة تصميمه، لم تلاحظ مراقبة "معتصم" لها، سار الأخير ببطء ممرًا عينيه على كل تفصيلا فيها، بدت كملكات الجمال وهي تقف بخيلاء في الشرفة تتلأأ في ثوبها ياغراء مهلك، نفذ بصعوبة عن عقله تلك الخيالات المتهورة التي روادته، دنا منها لتنتفض فزعًا مع صوته المتسائل:

-سايبة ضيوفك وأعدة هنا لوحذك!!؟

تنفست بعمق لتهدئ من روعتها ثم ردت عليه بجفاءٍ دون أن تمنحه نظرة منها:

خليك إنت معاهم

أخفض عينيه ليتأمل عن قرب تفاصيلها المتناسقة مع قسَمات الثوب، خالفت توقعاته وارتدت ما لم يكشف مفاتها، لكنه أبرز سحرًا خفيًا يخطف الألباب، زفر قائلاً بنبرة استغريتها:

-ماينعش، الكل جاي يبارك للعروسة ويشوف حلاوتها
استدارت نحوه لتجده محدقًا فيها بجرأة، زفرت بصوت مسموع واعتدلت في وقفها لتفسد عليه مشهد تأمله الذي طال، ابتسم لها بسخافة وهو يقول لها:

-شكلك حلو

ردت مجاملة بعبوس:

-ميرسي

أشار لها بعينه قائلاً بوقاحة:

-ماتخديش مقلب في نفسك، كل ده شغل الكوافيرات ومراكز التجميل
انفجرت شفتها عن صدمة مستنكرة من فظاظته الفجة، ردت عليه بجدّة وقد وضعت يدها أعلى خصرها:

-والله أنا مش محتاجة أتصنفر عشان أعجب سيادتك

رمقها بنظرة قللت من شأنها ثم تابع بعدم مبالاة:

-مش فارقة

تجاهلت وقاحته المستفزة وولجت إلى داخل غرفتها ولم تنتبه إلى نظراته التي لم تفارق تفاصيلها المغربية، سار "معتصم" بترث قاصدًا إزعاجمًا بطريقة تحديقه الجريئة ثم أردف قائلاً:

-تعرفي "نبيل" هايتبيل عشان اتجوزنا

أدارت جسدها نصف استدارة لترد عليه بغرور:

-والله عنده حق، واحد بينهم

استفزه ردها الذي تضمن مدحًا لرجل غيره، سألتها بنبرة حملت الغيرة:

-ليه معجبة بيه؟

استشعرت لمحة الضيق الواضحة عليه فتابعت مشيدة به:

-والله ما فيش زيه، إنسان محترم وذوق، ده لازم البنات تعجب بيه من أول نظرة

أيقن أنها تتلاعب به فرد ببرود وكأنها لم تنطق بشيء:

-ده العادي بتاعه مع أي واحدة حتى لو كانت جاية من الشارع

اشتعل وجهها بحمرة قوية من كلماته المحفزة للأعصاب، التوى ثغره بابتسامة مستمتعة

لنجاحه في ترجيح كفة الميزان لصالحه، سألتها بنفس الجفاء:

-مش هانتعشى برا؟

أجابته برفض قاطع:

-لا، نفسي مسدودة

فرك طرف ذقنه بهدوء ثم خطا نحوها قائلاً ببسمة سخيطة مرسومة على محياه:

-أحسن برضوه، أنا كمان ماليش مزاج أخرج معاكي أصلاً، بس عملت اللي عليا وجتلك

زي ما ماما طلبت مني

برقت عيناها بوهج مغتاضٍ من أسلوبه المحفز للقتال، كرت على أسنانها مرددة بجحني:

-أنا مكرهتش حد في حياتي زيك

مد "معتصم" يده نحو وجهها ليداعب وجنتها بكفه قائلاً ببرود:

أول مرة تقولي حاجة عدلة أتفق معاك فيها

اقشعرت "آسيا" من تلمسه لها، فلكرت يده بشراسة لتمنعه من الاقتراب منها رامقة إياه بنظرات نارية، أراد أن يترك لها ذكرى تزعجها في تلك الليلة تحديداً، خاصة أن سحرها الأنثوي المثير قد أوقف رغبات ذكورية في نفسه، تفاجأت به يحتضن وجهها بين كفيه، شلت الصدمة حركتها، كانت على وشك مقاومته لكنه جذبها نحو شفثيه ليطلع أول قبلة جريئة عليها، شخصت نظراتها بذهول مصدوم من تصرفه غير المتوقع معها، استخدمت كفيها لدفعة بأقصى ما تستطيع من صدره ليتوقف عما يفعل، انتهى "معتصم" من تقبيلها هامساً لها بعدوبة:

كده أنا علمت عليك بطريقي

ثم غمز لها بعينه اليسرى وهو يبتسم مضيئاً بعث:

إيه رأيك؟!

رفعت "آسيا" يدها لتصفعه على وجهه كنوع من رد الاعتبار لتجاوزه الوقع وإهائته غير المقبولة، تصدى لها وأمسك برسغها قبل أن تصل إلى صدغه، شهقت بتوتر حينما سحبها منه إليه، أحاطها من خصرها بذراعه الآخر لتلتصق به، تلوت بجسدها محاولة التملص منه، لم تنجح بسبب إحكامه قبضتيه عليها، ضغط "معتصم" بأصابعه على رسغها متابعا همسه الجاد:

عيب تمدي إيدك على جوزك في أول ليلة لنا سوا

حملت فيه "آسيا" بقلق مضاعف متوقعة أن يبادلها صفة عنيفة، صدمها بتقبيل يدها وعينه مسلطة على حدقتها اللامعتين، دفعها ببرود بعيداً عنه وكأنها نكرة ليضيف بنبرة جافة خالية من أي عطف:

هاعديالك المرادي، بمزاجي!

لكزها بقوة من كتفها وهو يمر إلى خارج الغرفة لتظل محدقة فيه بنفس الحالة المصدومة،
تأججت مشاعر الكراهية نحوه، مسحت بيدها ما ظنت أنها بقايا قلبته من على
شفتيها، ألقت بجسدها على الفراش تتوعده بغضب:

-ماشي يا "معتصم"، أنا وانت والزمن طويل!

.....

تلقي اتصالها الهاتفني ببغطة جلية، فقد انشغل عنها "سامر" مؤخرًا بعمله ليتفرغ بعدها
لانتقامه الممتع من قريبة خصمه "أية"، بالطبع لم يخلو حوارهما من عبارات الغزل التي
تسلب العقول وتلهب القلوب ليضمن سيطرته عليها، أيقن أنها باتت جاهزة
لاستدراجها ببساطة إلى حيث يريد، وأثناء لقاءها المعتاد في النادي تفاجأ بها تطلب
منه:

على فكرة أنا حكيت لقريبتي عليك

تحولت ملامحه للانزعاج وهو يلومها:

ليه كده يا "أية"؟ مش احنا متفقين منكمش مع حد في موضوعنا لحد ما يبقى
رسمي؟!!!

بررت تصرفها قائلة بارتباك:

-بالعكس والله، دي فرحت جدًا، وبعدين "آسيا" قالت هتساعدنا

اخترق اسمها ثنانيا عقله فردد باستغراب انعكس على نظراته أيضًا:

- "آسيا"

أومات برأسها مؤكدة:

-أيوه، الموديل المعروفة "آسيا"، تسمع عنها؟

ارتدى قناع البراءة وهو يجيها باقتضاب:

تقريبًا

أكلت "أية" حديثها مبتسمة بنعومة:

دي بقى خطيبة "معتصم"، قصدي كتبوا كتبهم على بعض

تصنع الاندهاش قائلاً:

بجد، بس مقرتش حاجة زي كده عنها

أوضحت له باسترسال:

أصل الموضوع كان عائلي شوية، وبعدين "آسيا" كان عندها شوية ظروف، بيني

وبينك هي فاقدة الذاكرة

اعتدل في جلسته ليفكر بروية في كل كلمة تتفوه بها، لم يتوقع أبدًا ذلك التطور الخطير

في علاقة "آسيا" بعده، بدأت تفاصيل خطة جديدة تتشكل في رأسه، سألها بمكر

دون أن تتبدل تعابير وجهه:

وده حصلها من إيه؟

أجابته على الفور:

حادثة من قريب

تراجع بظهره على المقعد ليرمقها بنظرة مطولة غامضة لم تفهمها، ثم هز رأسه قائلاً:

سلامتها

ردت مبتسمة بوجه متورد:

الله يسلمك، هي كانت عاوزة تشوفك

أخفى "سامر" تلك الابتسامة الشيطانية التي تقا تل للظهور على محياه، فقد نصب من جديد شركاه ليوقع تلك المرة بصيدين ثمينين في وقت واحد، خاصة مع تلك المعلومات الهامة التي عرفها، انحنى نحو "أية" ليتمكن من وضع يده على كفها، داعبه برفق فارتعشت من لمستته، بادلته نظرة خجلة مليئة بالإشراق، نظر لها بعينين لثيمين وهو يضيف باستسلام وكأنه قد وافق على طلبها:

-وماله، طالما إنتي واثقة فيها، يالا حددي ميعاد وتقابل احنا الثلاثة في الفندق بتاعي
!!

.....

الفصل السابع والثلاثون

رفعت يدها للأعلى لتحقق في خاتم الخطبة الذي يزين إصبعها بنظرات متعمقة، لم تشعر "آسيا" مطلقاً بالارتياح لتلك العلاقة التي فرضت عليها وارتضت بها بعد إلحاح شديد من والدتها فقط لتكشف نوايا "معتصم" الحقيقية نحوها، فكيف لامرأة أن تقبل بالزواج ممن يهددها بالاعتداء عليها بالضرب إن أخطأت أو فقدت أعصابها ذات يوم؟ استنكرت كذلك قسوته غير المبررة معها وكأنها قد أجمرت في حقه رغم كونها لم تؤذيه في شيء، أخرجت تهيدة ثقيلة من صدرها، ثم أخفضت يدها لتميل برأسها المسنودة على الوسادة نحو هاتفها الذي بدأ بالرنين، التقطته من على الكومود لتجيب على "أية" التي أضاء اسمها على شاشته، ردت بصوت خفيض:

أيوه

أتاها صوتها المتحمس وهي ترد:

أنا عندي ليكي أخبار حلوة أوي

دست يدها في خصلات شعرها المبعثرة عابثة فيهم وهي تسألها:

إيه هي؟

أجابتها بنفس النبرة المليئة بالحيوية والحماس:

- "سامر" مستعد يقابلك عشان يتعرف عليك

شردت لوهلة لتتذكر حكاية "آية" العاطفية معه، ضربت مقدمة رأسها بظهر كفها كنوع من العتاب لنفسها، فقد تناست كليًا الاهتمام بمعرفة المزيد عن موضوعها بسبب انهاكها في عقد القران، ردت عليها بفتور بعد أن طال صمتها:

حطب كويس

تابعت "آية" مضيئة بجدية:

شوفي إيه الميعاد اللي يناسبك وبلغيني بيه، بس بليز بسرعة

فركت "آسيا" جبينها بإصبعها لتعلق بعدها عليها:

-تمام، هارتب أموري واكلمك

استطاعت أن تستمع إلى تهديدها بوضوح قبل أن تهمس لها بشغيف:

أنا فرحانة أوي يا "آسيا"، حاسة إن ربنا هيكرمني قريب بإنسان بيحبني بجد

ردت عليها الأخيرة قائلة:

إنتي تستاهلي كل خير

مش هاعطلك بقي، باي

أنهت معها المكالمة لتلقي بالهاتف على الوسادة بجوار رأسها، حدقت في سقفية الغرفة

متسائلة مع نفسها بحيرة:

يا ترى حكايتك إيه يا "سامر"، مش مستريحالك خالص!

.....

استند بجسده على مقدمة سيارته متأملاً المشهد من أعلى سفح الجبل، أراد "معتصم" الاختلاء بنفسه ليفكر بتعمق في طبيعة علاقته بـ "آسيا"، لم يتصور أن تأخذ الأمور ذلك المنحنى الغريب بالرغم من عدائته لها، هو لجأ لاختلاق الأكاذيب والحيلة ليظهر أمام والده ووالدتها بأنه العاشق المتيم الذي وقع أسيراً في حبائل حبها ليكشف الأعياب، ولكن عن أي الأعياب يتحدث؟ لم يرها تفعل ما يشين منذ أن وطأت قدماها المنزل، كانت أغلب الوقت مأكثة في غرفتها، وحينما تخرج تكون بصحبة والدتها، حتى نشاطها لم تمارسه أو تبدي رغبتها في متابعته، اختلفت شخصيتها كلياً منذ حادثها الأخير والذي رفض أن يصدق فيه إصابتها بفقدان الذاكرة، فأبي شخصية يمكن أن يصدق؛ "آسيا" المتنمرة الحائقة الحقودة، أم "آسيا" الجديدة التي تعيش في منزله؟

احترار "معتصم" كثيراً وشعر أنه على وشك الانفجار من دوامة التخبط الواقع فيها، لم يتركه "نبيل" وأصر على مرافقته، فقد كان الوحيد المهدد بكشف أمره أمام نفسه وتأنيب ضميره ليل نهار، بل إنه اتهمه بكونه مريضاً بالشك، يصدق فقط ما يريد ويتصيد الأخطاء لـ "آسيا" ليفرغ فيها شحنة غضبه دون أن يترقب ويمهلها الفرصة للدفاع عن نفسها، ويتناسى كلياً أنها ابنة المرأة التي ربته، ومن حقها أن تحظى بالحنان والعطف مثله تماماً، أزعجه أيضاً تحذيره الدائم بحمايته لها إن تطلب الأمر ذلك وتعرضت لمكروه ما على يده، نفخ "معتصم" باستياء مستنكراً تصرفاته، برر لنفسه أفعاله قائلاً ليسكت صوت ضميره المعذب له:

هي اللي كدابة، أنا مش إنسان مريض ولا بأثوم ده، واحدة زهيا تستحق الرجم!

نظر له شزرًا وهو يرد:

إنت مصدق اللي بتقوله؟ "آسيا" إنسانة ضعيفة عاوزه اللي يحتويها

حدق فيه بطرف عينه قائلاً باستهزاء:

-زيك كده يا حنين

لم ينفعل "نبيل" من تهكمه عليه، بل رد بجنكة عقلانية آملاً أن يزيح تلك الغشاوة من على عقل ابن عمه:

-شكراً على تريقتك، ويا ريت كان ينفع، بس إنت فسدتها
استشاطت نظراته من تلميح الصريح، رجزه هادراً بعصبية:

- "نبيل"، ماتنساش نفسك، دي بقت مراي

رد عليه بهدوء:

-ويا ريت ماتنساش إنها واحدة رقيقة محتاجة حب وحنان

-نفسى تبطل تدافع عنها

-أنا بأوعيك، هي مش بقالها فترة عايشة معاكو؟ شوف إيه منها يخليك تفكر في ده؟

لم يعلق عليه "معتصم" فاستأنف حديثه مكماً:

-طبعا ولا حاجة، إنت مصمم تركز على ماضيها وتشوف الجانب الوحش فيها، فكرت
إنك لو اتعاملت معها باحترام هتكسب كتير!؟

زفر هاتفاً بعدم اقتناع:

-ولا هياثر فيها!

ضغط "نبيل" على كتفه بيده متابعا حديثه الموبخ:

-إنت فعلاً إنسان مريض بالشك يا "معتصم"، ولازم تعترف بده

احتقنت نظراته من جملته الأخيرة ورد محتجاً بشراسة:

-دلوقتي طلعت مجنون ولازم أروح السرايا الصفراء، تصدق أنا غلطان إني جيت معاك هنا، يالا نرجع

اعترض "نبيل" طريقه قائلاً بجدية دون أن يرف جفناه:

عشان عارف كويس إني مش هاغشك

قست ملامح "معتصم" بدرجة كبيرة، ثم هتف بتجهم:

-وأنا مش عاوز نصاح لا منك ولا من غيرك، وهاتصرف بدماغى المريضة دي، ها مبسوط كده؟

رمقه ابن عمه بنظرة يائسة، فرأس "معتصم" كاللحجر اليباس الذي يحتاج لمجهود مضاعف كي يلين وينظر للأمور من منظورها الصحيح، وليس من خلال أوهامه غير الحقيقية.

.....

تحجبت لوالدتها بحاجة "أية" لمساعدتها في شراء ثوب جديد لأنها تثق في ذوقها، لم تمنع "نادية" مطلقاً خروج ابنتها، بل كانت تشجع انخراطها في الحياة الاجتماعية واندماجها مع أصدقاء جدد لتستعيد طبيعتها، خرجت "آسيا" من البناية لتجد "أية" في انتظارها، ركبت الاثنتان السيارة وانطلقا نحو الفندق حيث الميعاد لمتفق عليه لمقابلة "سامر عمران"؛ الخطيب المستقبلي لابنة عم زوجها، توقفت السيارة عند المدخل وتولى أحد العاملين صفها بالجراج التابع له، شعرت "آسيا" أنها قد جاءت إلى هنا من قبل، وقفت في مكانها لتتأمل ما حولها بنظرات شاملة، تغلغل في داخلها إحساساً قوياً بأنها خاضت تجربة سيئة هنا، وبدأت ذكريات غير مترابطة في اقتحام عقلها، دفعتها "أية" من ظهرها برفق حينما رأتها متسمة في مكانها، ولجت كلتاهما إلى داخل الاستقبال، تباطأت خطوات "آسيا" مع تمريرها لعينيها على تفاصيله المألوفة، شعرت

أن المكان قابضًا لروحها، وخانقًا لأنفاسها، مالت على "أية" لتهمس لها بارتباك وهي تشير بعينها نحو الآرائك الموضوعة في الزاوية:

-أنا هستناكي هناك

ابتسمت لها قائلة بركة:

-أوكي، وأنا هايلغ موظفة الريسبشن تعرف "سامر" إننا موجودين

أومات برأسها مرددة باختصار:

-تمام

انتابت "آسيا" رعشة خفيفة وقد تجسد في مخيلتها مشهدًا لجرها بإذلال عبر ذلك المدخل، لم تتبين ما الذي حدث لتعامل بتلك الطريقة المهينة، اعتصرت عقلها لتتذكر تفاصيله، ومع ذلك لم تصل لشيء، عادت إليها "أية" التي كانت متحمسة لتلك المقابلة المثيرة، استطردت قائلة بوجه مشرق:

هيقابلنا كان شوية في المطعم اللي فوق

هزت "آسيا" رأسها برفق:

-كويس

ما لم تعرفه كلتاهما أنها كانتا مراقبتان من قبل "سامر"، وقف الأخير في زاوية خفية مسكًا بهاتفه المحمول، سلطه نحوه وجهه ليقوم بتسجيل فيديو مرئي تعمد فيه إظهار الاثنتين في الخلفية، بدا على وجهه الانتشاء وهو يقول:

-ليه رأيك يا "معتصم" في المزين دول؟ مفاجأة مش كده

اتسعت ابتسامته الوضيعة متابعًا:

تحب أبدأ بمين الأول؟ المدام .. قصدي العروسة ولا بنت عمك؟

غمز له بعينه اليمنى مضيئًا بعث:

-متقلش أنا هاعرف أظبطهم

احتل وجهه شاشة الهاتف وهو يكمل بجموح:

-بص أنا مش هازعلك، أنا هاعيد جو الذكريات مع "آسيا" وأفكرها بالذي مضى،
أصلي عرفت إنها فقدت الذاكرة، وأنا بشاطرتي مش بس هانسيتها اسمها، لأ هاخلها
.....

قطم عبارته عمدًا ليضحك بطريقة مستفزة قاصدًا استنزاف أعصاب "معتصم"، انتهى
"سامر" من تسجيل الفيديو ثم قام بإرساله إلى خصمه ليدندن بعدها بصافرة خافته.

.....

كان محققًا حينما توقع أن يفقد غريمه أعصابه بمجرد تلقيه لذلك الفيديو المخيف، ارتعد
"معتصم" لفكرة وقوع "آسيا" و"آية" في قبضة "سامر"، هرول خارج مكتبه وهو
يحاول الاتصال بزوجته التي على ما يبدو تجاهلت اتصاله، لجأ لمهاتفة ابنة عمه فردت
عليه بخفوت:

-ايوه يا "معتصم"

سألها بعصبية وهو يستقل سيارته:

-إنتو فين يا "آية"؟ و"آسيا" ما بتردش عليا ليه؟

أجابته بتلعثم بائن:

-في مشوار كده مع بعض، هو في حاجة؟

هدر بها بجنون وقد بدأ في قيادة سيارته:

فين "آسيا"؟

أجابته باستغراب:

-في الحمام وموبايلها معايا

صرخ بها بجدّة:

قوليلى مكانكو فىن حالاً

اعترضت بتردد:

بس...

ارتفعت نبرته الصارخة أمراً لياها:

-انطقي إنتو فىن؟

ردت بخوف:

حاضر، احنا فى المطعم الموجود فى فندق ((.....))

ضغط على دواسة البنزين ليزيد من سرعة السيارة ثم أمرها بلهجة صارمة:

ماتتحركوش من مكانكم، أنا جاي حالاً

أنهى معها المكالمة دون أن يضيف المزيد، ثم قام بمهاتفة "نبيل" ليلحق به إلى ذلك الفندق بعد أن أخبره باختصار عن المكيدة التي أعدها "سامر" للإيقاع بابنة عمها و"آسيا".

.....

عادت من الحمام لتجلس بجوار "أية" على المقعد، تحاشت "آسيا" النظر في اتجاه "سامر" الذي فضل الجلوس قبالتها لتظل واقعة تحت حصار عينيه، تخرجت من طريقة تطلعه لها، شعرت بوجود صلة خفية تجمعها به، فوجوده لم يكن مريحاً على

الإطلاق، ادعت الانشغال بتناول الطعام المسنود أمامها، كانت شكوكها في محلها ف
"سامر" لم يتوقف عن التحديق بها، بدا مستمتعاً بتلذذ لخداعه لها، وبعض لحظات
سيحظى بمتعة لن تنسى معها مكملاً ما بدأه في الماضي، ما عليه إلا أن يلهي الساذجة
"أية" بأمر ما ليتفرغ لصحيتها الأولى، مال برأسه قليلاً للجانب ليمدحها مجاملاً:

إتني أحلى على الطبيعة يا "آسيا" هانم

رفعت عينها نحوه لتجده يرمقها بنظراته الغريبة، أخفضت مقلتها مرددة باقتضاب:

ميرسي!

وجه حديثه للضييفة الأخرى قائلاً:

كان عندك حق يا "أية" تقوليلها على قصة حبنا

تسربت حمرة طفيفة إلى بشرتها متأثرة بكلماته، ردت بخجلٍ وهي ترمش بعينها:

مش قولتلك

سألها "سامر" باهتمام مصطنع:

ها إيه رأيكم في الفندق بتاعي؟

أجابته "أية" على الفور بانبهار بائن في حدقتها:

حلو أوي

سلط أنظاره من جديد على "آسيا" ليسألها بهدوء أقلقها:

إيه رأيك يا "آسيا"؟ تسمحيلي أناديكي كده ولا في مشكلة؟

ردت بحذر:

عادي

تجمدت عيناه على حدقتها الفيروزييتين، سألها من جديد معمقًا نظراته نحوها:

ها، عجبك الفندق؟

بادلته نظرة غير مريحة وهي تقول:

أيوه

سألها من جديد بابتسامة صغيرة أشعرتها بالارتياح:

تحبي أهدك في جولة فيه

عبست بوجهها مرددة:

شكرا، أنا جاية النهاردة عشان "أية"

هز رأسه بإيماءة متفهمة وهو يرد:

تمام، بس الكلام مش هاينفع هنا، تعالوا نروح مكثي نتكلم فيه

توقفت "أية" عن إكمال ما لم تتناوله من الطعام لتنهض واقفة وهي توافقه الرأي:

اوكي

تحرك "سامر" نحوها ليحاوطها من خصرها، تخرجت للغاية من جرأته، والتهب وجهها

بتلك الحمرة الغزيرة، نظرت إلى "آسيا" بتوترٍ، وحاولت إبعاد يده عنها، لم تفهم الأخيرة

ما الذي يدور بينهما من أحاديث هامسة، وفضلت أن تبعد نظراتها الفضولية عنها كي

لا تبدو كمن يتطفل عليهما، مال "سامر" نحو أذنها ليقول لها بصوت خفيض:

حببتي

همست بارتباك كبير:

أيوه

تابع همسه:

خبطي الميك آب بتاعك، في حاجة فيه غلط

انزعجت من وجود ما قد يفسد صفو جمالها، وأصيبت بحالة من الهلع، التوى ثغر
"سامر" بابتسامة انتصار، فقد نجح ببساطة في إرعاها، شحب لون بشرتها وهي ترد
بحرجٍ مبالغ فيه:

بجد، سوري على المنظر ده، أنا رايحة التويلت وراجعة على طول
أبعد يده عنها قائلاً بهدوء:

خدي راحتك، وأنا مستنيكي

سألته بحيرة:

بس هاعرف مكتبك مينين؟

أجابها مبتسماً بثقة:

-أسألي أي حد من الفندق وهيوصلك عندي

حركت رأسها بإيماءات عديدة وهي ترد:

أوكي

داعب وجنتها بإصبعه مكملاً تغزله بها:

-بأحبك

أطرقت رأسها حياءً منه قائلة:

-وأنا كمان!

راقبها وهي تسير بخطوات شبه متعجلة نحو الحمام ليتحرك في اتجاه "آسيا" التي انتفضت مع أول محاولة جريئة منه للمس ظهرها، نهرته بجدّة:

-إنت بتعمل إيه؟ إيدك لو سمحت!

رد بعبوس زائف:

سوري ما قصدش، اتفضلي على مكنتي

سبقته في خطاها لتضمن عدم اقترابه منها، تعمق بداخلها نفس الإحساس المقلق حول طبيعة ذلك المكان، كانت كمن يحفظ تفاصيله جيدًا رغم اعتقادها بأنها زيارتها الأولى له، أشار "سامر" بيده نحو الرواق الجانبي قائلاً:

-من هنا يا "آسيا"

كان المرر شبه خاليًا من العاملين في الفندق، أنبأها حدسها بوجود خطب ما، نفضت مؤقتًا هواجسها وتبعت إشارته متجهة إلى تلك الغرفة الموضوع على بابها لافتة مدون عليها (المدير)، لم تعرف ما الذي ينتظرها هناك، لكن انقبض قلبها بقوة مع كل خطوة تخطوها، للحظة فكرت في التراجع والرضوخ لحدسها الأثوي القوي، توقفت عن السير لتلتفت نحوه ثم استطردت قائلة بجدية:

-أنا هاستنى "أية" هنا، لما تيجي هادخل

هز رأسه بالنفي معترضًا على تملصها منه:

-لا، مش هايحصل

تعقدت تعابيرها مرددة باندهاش:

-نعم؟!!

تحرك بتهملي نحوها ليجبرها على التراجع للخلف وهو يقول لها بنبرة لا تبشر بأي خير:

زي ما سمعتي، إتي جيتي لحد عندي برجليكي، ومش هاتمشي من هنا قبل ما أخلص
حقي القديم منك

اقشعر بدننا وجزعت من طريقته في الحديث، تأكدت الآن أنه كان على صلة بها،
يريد معاودة تكرار فعل ما رفضته في السابق، نهج صدرها من فرط الخوف، حاولت
إظهار شجاعة زائفة أمامه فدفعته من صدره بيدها لتهرب منه وهي تصيح عاليًا:

-بعد لو سمحت

أمسك بها من خصرها مطبقًا عليها بقبضتيه ومعيديًا إياها للخلف، شهقت بفرع من
إمساكه لها، حملها بخفة فلم تعد قدماها ملامسة للأرضية، همس لها بنبرة تشبه فحيح
الأفعى:

ده أنا عندي ليكي كلام كثير يا "آسيا"

انتفضت مع أنفاسه الساخنة التي لاطمت بشرتها، صرخت مستغيثة:

-الحق.....

كم فها بيده ليمنعها من الصراخ وطلب النجدة، شعر بحرارة أنفاسها المكتومة تحرق
راحتة، وبخها ببرود مخيف:

-كده مش حلو خالص

تحرك بها نحو الغرفة، لم يجد أي صعوبة في أخذها إلى حيث يريد، وبيده الأخرى أدار
المقبض وأدخلها عنوة إلى مكتبه، أوصل الباب عليها دون أن يجررها، ثم سار بها نحو
الأريكة الجلدية العريضة ليلقيها عليها، تأوهت "آسيا" من الألم، واستعدت للنهوض
لكنه جثا فوقها مثبتًا ذراعها بقبضتيه، التوى ثغره بابتسامة شيطانية ترعب الأبدان
وهو يسألها:

-رايحة فين يا حلوة؟

صرخت فيه وهي تقاومه بكامل قواها:

-ابعد عني يا، حد يساعدني، الحقوني

صرخي للصبح، المكتب هنا معزول عن اللي برا

تضاعف خوفها المرتعد من اعتدائه عليها، امتزج ذلك مع ذكرياتها المباغثة عنه، تكرر المشهد واستعادت في عقلها الصلة بينهما، إنه نفس الشخص الذي حاول سلبها شرفها وأهانها بطريقة مذلة لرفضها الامتثال لطلبه في الظفر بليلة عابثة معها، أدمعت عينها برهبة كبيرة، اعتقدت أن نهايتها وشيكة، وأن ذلك الوح الدنيء سينال منها، رمقها "سامر" بنظرة حيوان جائع يتوق شغفًا لافتراس فريسته الشهية والتهاهما بشراهة كبيرة، رد بانتشاء غير طبيعي متلذذًا بما سيفعله:

-أنا مستني اللحظة دي من زمان !!!

.....

الفصل الثامن والثلاثون

على غير عاداتها شعرت بوعكة خفيفة في جسدها المرهق، تحاملت "نادية" على نفسها وجلست بغرفة المكتب مع زوجها لترتشف معه الشاي الساخن، ورغم ذلك لم تتبادل إلا حديثاً مقتضباً، لاحظ "وحيد" ذبول وجهها فاقرب منها تاركاً ما في يده ليجلس بجوارها، مسد برفق على ذراعها متسائلاً باهتمام:

-إتي كويسة يا حبيبي؟

ردت مبتسمة:

-الحمد لله

سألها بجدية وهو يتفرد تعبيرات المتعبة:

-شكلك تعبان النهاردة، قومي ارتاحي فوق

حافظت على ابتسامتها الباهتة لتقول بلطف:

-أنا كويسة يا "وحيد"، ماتقلقش عليا

أوما برأسه باهتزازة خفيفة ثم أرجع ظهره للخلف مخرجاً من صدره تهيدة مطولة، سأله

"نادية" بفضول:

-في إيه شاغل بالك؟

أجابها بضيق:

أنا قلقان من "معتصم" يا "نادية"، مكانش لازم نوافق على جوازهم، ممكن ده يخليهم يكرهوا بعض بزيادة، وخصوصًا إننا فاهمين الحقيقة

ردت عليه مبررة دعمها لتلك الزيجة رغم التناقضات المرئية للعيان:

فكرت أنا دخل عليا الحركات اللي عملها وإنه بيحب "آسيا" والكلام إياه؟

ارتسم على ثغرها ابتسامة ساخرة قبل أن تتابع:

لأ وإنما انتحرت بسبب حبهم وهامتوت عليه، ده "معتصم" ابني الكبير اللي ربيته وعارفاه وفهامه كويس!

ركز "وحيد" أنظاره معها فأكلت بحزن ملموس في صوتها:

هو عمره ما حب "آسيا" ولا كان بيطيقتها، كل الحكاية إنه خايف إنها تاخذ مكانها الطبيعي بعد ما كان كل حاجة في حياتي ويتحط على الرف، غيران من إني أعاملها أحسن منه وهو يتحرم من حبي وحنيتي، مع إنه غلطان في تفكيره ده، غلاوة "معتصم" من غلاوة "آسيا"، الاتنين ولادي، بس كرهه ليها كان باين في عينيه وفي تصرفاته ارتفع حاجبه للأعلى كتعبير عن اندهاشه بإفصاحها عما خبأته في قلبها، بقيت تعبيراتها هادئة وهي تسترسل موضحة:

أنا مش ناسية إنه مزرهاش في المستشفى لما كانت تعبانة، عملت نفسي مش واحدة بالي، ده طبعا غير أسلوبه الناشف معاها رغم إنه بيتعامل بنوق جدًا مع كل البنات مهما كانت طبيعتهم، لكن هي لأ، دايما حاططها الند بتاعه، بيكرها من لا شيء، يا "وحيد" الأم بتحس بابنها، وأنا حافظة "معتصم" أكثر من نفسه، ده متربي على أيدي سألها باستغراب:

أومال أقنعيني ليه واتي عارفة كل ده؟

أجابته "نادية" بساطة:

-لأنه الوحيد اللي هايقدر يدافع عنها ويحميها لو "شرف الدين" حاول يجرها للطريق
اللي كانت فيه

شعرت بأن ثقلاً كبيراً يجثو على صدرها، أغمضت عينيها باستياء ثم زفرت قائلة:

- "آسيا" غضبها عميها عن إنها تشوف الحقيقة وتعرف مين اللي واقف معاها من مين
اللي واقف ضدها، وكل ده بسبب باباها، كرهتني ويمكن كان نفسها تنتقم مني، أنا
متأكدة إن "شرف الدين" ملئ دماغها بأفكاره السم

قاومت إحساساً طاغياً بالبكاء وهي تردد بصعوبة:

ده غير أن قلبي كان بيتقطع لما بقري أخبارها وأعرف اللي بيتقال عنها

ترقرقت دموع رقيقة في حدقتها عندما أكملت بصوتها الأقرب للاختناق:

مافيش أم تتمنى بنتها تكون بالشكل ده، ومع ذلك كان عندي أمل إنها تبقى أحسن،
ويمكن الحادثة اللي حصلت لها كانت أكبر فرصة عشان تبدأ من جديد وأعوذها عن
اللي فات، وانت شوفت ده بنفسك

رد زوجها معترضاً بجديّة:

بس كده هو بيظلمها معاه!!

كان محقاً في تلك النقطة، فابنه لن يظهر محبته لها بسهولة، سيظل لفترة من الوقت
يعاملها بجفاء وقسوة وعدائية رغم ادعائه للعكس أمام الجميع فقط ليحافظ على صورته
المحترمة في أعينهم، لكن حدسها كان أقوى من كل التكهّنات، ابتسمت "نادية" مرددة
بنبرة أملة:

- "معتصم" هيحبها مع الوقت، يمكن لسه ماشفش صفاتها الطيبة، بس مع الوقت
والعشرة هيلاقى فيها حاجات حلوة كتير

بدا غير مقتنع بتفائلها الزائد عن الحد، فتسائل بضيق قليل:

-ابني دماغه ناشفة وصعب يغير رأيه، وأنا مش راضي عن اللي حصل، تفتكري هي
هتغير طريقة تفكيره فيها؟

ردت عليه بهدوء:

-مكاش كذب علينا وقال إنه بيحبها، ولا بوظ موضوع "نبيل"، إنت ناسي "مها" جت
عملت إيه هنا

-معكي حق

-ولو خدت بالك يا "وحيد"، هي دلوقتي غضب عنه محور اهتمامه، كل تفاصيلها تهمة
سألها بامتعاض:

-وده إيه علاقته بإنها تغيره؟

-لو "معتصم" إذا نفسه الفرصة إنه يعرفها على طبيعتها فأنا متأكدة إنه مع الوقت هميل
ناحيتها ويحبها، ده إن مكاش حصل

التوى ثغره مرددًا بعدم تصديق:

للدرجادي

حركت رأسها بالإيجاب مؤكدة:

طبعا، أنا عارفة "معتصم" كويس، بيفضل يكابر ويعاند وبعد كده يستسلم ويعرف إنه
غلطان، كمان احنا مش عايشين لولادنا طول العمر، و"معتصم" هايقدر يحمي "آسيا"

هز رأسه بإيماءة خفيفة قائلاً بنبرة متعشمة:

أتمنى إن ده يحصل

.....

التي عقلها عن إخبار "آسيا" بكلمة "معتصم" لها لتملي عليها ما تفعله لتخبئة أمر تلك المقابلة عنه، بل إنها تناست أيضاً إعطائها هاتفها المحمول ليزداد الوضع تأزماً، أنهت "آية" على عجلة ضبط مساحيق التجميل على وجهها في الحمام النسائي لتسرع في خطاها إلى الخارج، توقفت عن السير لتخرج هاتفها الذي ارتفع رنينه من حقيبتها، قرأت اسم ابن عمها مضيئاً عليه، توترت ملاحظها وأجابته بقلبي طفيف:

-أيوه يا "معتصم"

صرخ بها:

-إنتو في أنهو حته بالظبط في الفندق ده؟

أجابته بتوترٍ وهي تعض على شفتها السفلي:

فوق في المطعم

صاح بها عالياً:

- "آسيا" معاكي؟

تلعثت حينما أجابته:

هي، يعني ... قصدي إنها ..

فقد صبره من جملتها غير المنطقية فهدر منفِعلاً:

-ردي عليا هي معاكي ولا مع ال "سامر"؟!

شهمت مصدومة من سبته النابية لحبيها، بل تضاعفت دهشتها من معرفته لوجوده معها، سألته بارتباك كبير وكأنها تفكر بصوت مسموع:

إنت عرفت منين إن "سامر" معانا؟

استاء من ممالتها غير المجدية، أمرها بجدة:

مترغيش كتير وخليها تكلمني

تلفتت حولها بحيرة، فهي ليست معها لتعطيها الهاتف، بل إنها لا تعرف الطريق إلى مكتب "سامر" لتذهب إلى هناك سريعًا وتخبرها باتصاله، حاولت اختلاق كذبة مقنعة لتخفف من وطأة الأمر، ابتلعت ريقها في حلقها الجاف وردت بتردد:

بس يا "معتصم" هي ...

قاطعها قائلاً بتشنج:

هي معاه دلوقتي، صح

لم تجد بداً من الإنكار، فأخفضت صوتها قائلة:

أيوه

ثم أسرع بالدفاع عنها قبل أن يظن الظنون بكليهما:

بس والله يا "معتصم" الموضوع مش زي ما إنت فاهم، أنا طلبت من "آسيا" إنها تيجي معايا نتعرف على "سامر" عشان لما يتقدملي

لم يصغ إلى حديثها وأنهى المكالمة دون إنذار لتزداد اضطرابًا وتوترًا، شعرت "آية" أن أعصابها على وشك الانهيار من فرط القلق، خطت مسرعة في اتجاه الرواق باحثة عن يريشدها إلى مكتب "سامر" راجية في نفسها ألا تسوء الأمور، والأسهل من ذلك أن تهاتفه ليدلها إليه.

.....
أنا هافضحك وأسجنك!

تلفظت "آسيا" بتلك العبارة المهددة وهي تقاوم بشراسة محاولة "سامر" الاعتداء عليها، كان الأخير يستنزف قواها لتغدو لقمة سائغة في فمه، ضغط بقبضتيه على رسيغها وأرجعها خلف رأسها قائلاً باستخفافٍ وقد سيطرت عليه رغباته الدينية:

مين ها يصدق واحدة زيك سمعتها معروفة؟

أخفض جسده نحوها ليصلها صوته الهامس وهو يتابع بمجون:

إنتي ناسية إنك ممسوكة هنا قبل كده في دعارة

استشاطت كل ذرة في جسدها من كلماته البذيئة واتهامها علناً بأنها شابة سيئة السمعة، استطاعت الآن أن تفسر تلك الخيالات التي رأت فيها نفسها تُساق كالذليلة وهي مكبلة بالأصفاد عبر مدخل الفندق، هدرت فيه بلا وعي:

واطى، حيوان

ضجر "سامر" من انتفاضاتها المتكررة التي تعوق محاولاته للاستمتاع معها، رمقها بنظرة احتقارية أمراً إياها:

ما تهدي خيلنا نخلص قبل ما أشوف شغلي مع المزة الثانية

ارتعدت من مجرد التفكير في احتمالية تعرض "أية" لذلك الموقف، ستنهار على الفور وسينال منها غرضه ببساطةٍ ودون أي مقاومة، صرخت فيه باستماتة:

مش هتلمسها

أطلق ضحكة ماجنة ساخرة منها قبل أن يتوقف عن ذلك ليقول لها بتهمك:

مش لما تعرفني تحمي نفسك مني الأول، وبعدين هي مش هتاخذ في إيدي غلوة،
الدور والباقي عليكي إتي يا مزة

ثم ألقى بثقل جسده عليها ليقبل عنقها ووجتها، حركت "آسيا" رأسها بعصبية وهي
تكاد تختنق من تلمس شفثاه لها، ما أجبره على التماذي أكثر هو رنين هاتفه، تراجع
عنها دون أن يحررها، حيث قام بتثبيتها من عنقها قاصداً خنقها، ويده الأخرى أخرج
هاتفه لينظر إلى المتصل، اتسعت ابتسامته المقيتة لتظهر أنيابه قائلاً بعث:

الحلوة الثانية بتتصل، الظاهر مستعجلة على دورها، مش هاينفع أرد عليها، هابتعلها
مسدج أقولها اننا في الديسكو تحت لحد ما نخلص سوا!
ردت عليه بصوتها المختنق:

جبان، قدر،

زاد "سامر" من ضغطه على عنقها لتكف عن سبه، في حين استغلّت "آسيا" تلك
اللحظة التي التهي فيها عنها لتبحث بعينها عما تستخدمه لضربه، لمحت منفضة السجائر
الكرستالية موضوعة على الطاولة الصغيرة التي تتوسط الأريكة الملائقة عليها والأريكة
المجاورة، مدت يدها محاولة الإمساك بها، فرمما تكون هي وسيلتها المتاحة للدفاع عن
نفسها والتصدي له، أو شكت أصابعها على تلمسها، ظلت تحرك جسدها بعصبية حتى
تمكنت من التقاطها، وفي أقل من ثانية كانت تهوى بها على جبينه، صرخ "سامر"
متألماً من الضربة المباغته التي أصابته وسببت جرحاً فيها، ألقى بهاتفه على الأريكة
الأخرى ليتمكن من صفعها بغيظ لاعتنا إياها بكلمات نائية مهينة، لم تكثر بفضبته
المتهورة، وحاولت تكرار الأمر لكنه انتزع المنفضة من بين أصابعها وضربها بغل أعلى
رأسها لتفقد "آسيا" وعيها على إثر الضربات العنيفة.

.....

في نفس الأثناء وصل "معتصم" إلى المطعم وأبلغ ابن عمه بآخر المستجدات، جاب بعينه المكان باحثًا عن "آية"، وجدها عند الزاوية تنظر بتردد حولها، خطا بخطوات أقرب للركض وهو يصيح عاليًا ليلفت أنظارها إليه:

- "آية"!

انفضت من صوته المشحون، وزاد تمسكها بحقيبتها، بدا وجهها شاحبًا من طريقة تطلعه لها بعينه الحائقتين، قبض على ذراعها ليهزها منه بعنف وهو يسألها:

- "آسيا" فين؟

أجابته بخوف:

أنا اتصلت بـ "سامر" عشان أعرف هما فين، بس هو مردش عليا

ضغط بقوة آلتها وهو يسألها بنرفزة:

آخر مرة كانوا رايحين فين؟

تأوهت من الألم، وتلألأت مقلتها بعبراتٍ خفيفة وهي ترد:

على مكتبه، بس أنا مش عارفة مكانه

دفعها "معتصم" بقسوة متوعداً إياها:

لينا حساب مع بعض يا "آية"

ظنت أن الغيرة قد لعبت دورها معه لكونها قد زجت بـ "آسيا" في مسألة تخصها دون علمه، حاولت تبرئة ساحتها فأردفت مدافعة عنها:

أنا أسفة والله، بس "سامر" فعلاً غرضه شريف وعاوز يتقدملي، وأنا اللي طلبت

من "آسيا" تيجي معايا، عشان خاطري متزعلش منها، هي مقاتلكش بسببي أنا،

بليز متعملش مشكلة معاها

تحولت عيناه إلى جمرتين متقدتين من النيران بعد عباراتها تلك، صرخ بها باستنكار
وقد احتقنت عروقه:

إتني واعية للمصيبة اللي إتني فيها؟

ظلت متمسكة برأيها بأنه أساء فهم الموضوع فتوسلته برجاء:

يا "معتصم"

قاطعها بانفعال:

-ولا كلمة!

أطرقت رأسها نجلاً منه، في حين اقترب "نبيل" منها بعد أن لمح الاثنان من على
بعد، تساءل بصوت شبه لاهث:

ها إيه الأخبار؟

أجابه "معتصم" بتشنج

هنشوف الكلب ده في أنهو داهية هنا

حذره "نبيل" بجدية معتقداً أن شكوكه المريضة قد توهمه بأن "آسيا" تقف وراء ما
حدث وأنها المدبرة لذلك الأمر لتوقع بـ "أية" في مصيبة كبيرة استكمالاً لخطة انتقامها
المزعومة:

- "معتصم"، أوعى دماغك تجييك إنها تكون ورا اللي حصل

رد عليه بغموض وقد تسارعت خطواته:

الله أعلم، أنا ما بقتش عارف أصدق إيه

حاولت "أية" اللحاق بهما، هتفت من خلفها مدافعة عنها:

-والله العظيم "آسيا" ما تعرف حاجة، صدقني يا "معتصم"، أنا قابلت "سامر" بس
عشان قالي إنه صاحبك وإنه عاوز يتقدملي

توقف عن السير ليلتفت نحوها صارخًا بها بلهجة حادة:

-مش عاوز أسمع صوتك دلوقتي

رد عليه "نبيل" بتريث عقلاني:

-اهدى يا "معتصم"، خلينا نركز عشان نعرف نلاقهم!

ضغط ابن عمه على شفثيه بقوة كأنما في نفسه غضبه المشتعل حتى يصل إليها أولاً.

.....

للحظة ارتبك "سامر" من الدماء الزرافة من رأس "آسيا" والتي صبغت بشرتها بحمرة
مخيفة، وضع إصبعيه على جانب عنقها ليتفقد نبضاتها، تأكد من بقائها على قيد الحياة،
نظر لها بغلٍ قبل أن يلعنها بعد أن أفسدت عليه لحظاته العابثة:

غبية

ابتعد عنها ليفكر في حل سريع يبعد الشبهات عنه وفي نفس الوقت يتخلص منها قبل
أن تثير فضيحة ما هنا، اتجه إلى الباب ليستدعي أحد العمال ممن يثق فيهم ليعاونه في
نقلها إلى تلك الغرفة الشاغرة بالطابق الأخير في فندقه حتى يرتب أوضاعه، فتحه غير
متوقع لمن كان متواجدًا بالرواق، اعترت "سامر" صدمة مزعجة حينما رأى "معتصم"
قبالته، ألقى نظرة شاملة على من معه وتأكد أنه بات محاصرًا، خاصة في عدم وجود
أي من عمال الفندق، تحرك مستديرًا بجسده للخلف ليهرب منه، لكن هروول
"معتصم" خلفه ليمسك به قبل أن يفلت من بين يديه، اندفع نحوه قاصدًا الإطاحة به
على الأرضية وهو يهينه:

يا بن ال.....، مش هاسييك إلا ميت

تصدى له "سامر" ودفعه بعنفٍ للخلف ليتخلص منه ويتمكن من النهوض، عاود "معتصم" الوقوف على قدميه ليعترض طريقه من جديد، ثم انقض عليه وكال له من اللكمات المتلاحقة ما جعله يفقد اتزانه ويرتطم بالأرضية، جثا فوقه وبدأ في تسديد ضربات أشد قسوة على فكه حتى نزف الدماء من بين أسنانه، جزعت "أية" من قتالها الشرس وكنمت صرخاتها بصعوبة، فزعت أكثر حينما رأت "آسيا" ملاقة على الأريكة فاقدة للوعي والدماء تغطيها، أسرع نحوها تسألها برعب:

- "آسيا"، إتي كويسة؟

ترك "نبيل" لابن عمه مهمة ضرب "سامر" ولحق بـ "أية" ليطمئن على "آسيا"، توجس خيفة من سوء حالتها فردد بتلهف:

أنا ها طلب الإسعاف!

رفع "معتصم" رأسه للأعلى ليجد زوجته على ذلك الوضع المخيف، لكم "سامر" بعنف صارخًا فيه بهياج:

هاقتلك لو لمستها

رد الأخير مبتسمًا ببرود قاصدًا إحراق أعصابه وزرع الشكوك في نفسه:

هي يعني كانت أول مرة يا عريس

زادت ابتسامته المستفزة وهو يكمل بوقاحة غير مسبوقة:

شكلها قرطستك صح يا "معتصم" باشا، وفهمتك إنها بنت ناس، إيش حال مكوتنش مستلمها من القسم يا معلم !!

الفصل التاسع والثلاثون

حالة من الهرج والمرج سادت بداخل غرفة المدير المعزولة عن حولها بالإضافة إلى التشابك بالأيدي والتراشق بالألفاظ بين "سامر" و"معتصم"، للحظة سكن الأخير ليستوعب تلك الجملة المميته التي نطق بها واتهمت علناً "آسيا" في شرفها، استغل "سامر" التهاؤه عنه ليشحذ قواه ضده، لكمة في فكه بشراسة فأوقعه على جانبه، مجرد لحظة مكنته من ترجيح كفة الميزان لصالحه، جثا فوقه ليسدد له ضربة أشد عنفاً حفزته على الكيل له بالمزيد، غطا "معتصم" وجهه ليتصدى لهجومه المباغت، ثم بدأ في الدفاع عن نفسه ومقاومته.

على الجانب الآخر، توترت "آية" بدرجة شديدة من فظاعة الموقف، شهقت فجأة صارخة حينما لم تجد أي استجابة من "آسيا":

-شوفها يا "نبيل"، لأحسن تكون ماتت

فزع "نبيل" من قولها، ومد إصبعيه نحو عنقها ليتفقد النبضات في عرقها، تنفس الصعداء لوجوده، التفتت "آية" لتحقق في ابن عمها الآخر، انقبض قلبها بقوة مع قسوة ضربات "سامر"، صرخت من جديد فألبكت صرختها غير الطبيعية الأبدان وأثارت ضجة كبيرة بالمكان، لحظات وتجمع البعض من موظفي الفندق ليفصلوا سريعاً بين المتلاحمين خاصة حينما رأوا رب عملهم طرفاً فيها، شكلوا بأجسادهم حاجزاً يفصل طرفي المشاجرة عن بعضهما البعض، مسح "سامر" الدماء العالقة من على فمه ليقول بانتشاء مخيف وقد برقت نظراته:

ما هي مش أول مرة لينا سوا

أن يتخيل "آسيا" في وضع غير ملائم تمارس فيه الفحش برخص جعله في أوج غضبه، هدر به "معتصم" بعصبية زائدة يتوعده:

-خرس، هاموتك النهاردة

شعر "سامر" بلذة عجيبة وانتشاء مرضي في إحراق من حوله بأكاذيبه، بل ونجح ببساطة في بث سمومه في ألد خصامه ليدفعه بلا تفكير نحو انتقام أعمى ربما سيهلك "آسيا"، فتح ذراعيه مرحبًا بذلك وهو يرمقه بنظراته الخالية من الحياة، في حين رد عليه "نبيل" بعدائية متوعداً إياه بغلظة:

هتتاسب على اللي عملته، البلد فيها قانون وهتشوف

اتسعت ابتسامة "سامر" الشيطانية المستفزة قائلاً بعدم أكثر:

يا ريت، بس مش جايز أنا متفق معاها وواخدها سكة عشان أجيب بنت عمك
المصونة لحد عندي وأروق عليها

تحولت الأنظار نحو "آية" التي بدت كمن صعق لتوه بتيار كهربائي فشُل تفكيرها، شخصت أبصارها من قسوة الموقف، فهي لم تكن كما توهمت المثمة بجيب هام بها عشقًا ويطمح في الزواج منها، بل كانت شابة مخدوعة تم استغلالها ببراعة للإساءة إليها وتلويث سمعتها النقية، نهج صدرها علواً وهبوطاً من قوة الصدمة، فماذا لو حدث ما خشيت التفكير فيه وسقطت في بئر المحرمات وسلب منها شرفها رغماً عنها؟ رفض عقلها تصديق تلك الأكذوبة الحقيرة، فصرخت بكاء:

-إنت كذاب

رد عليها بمكرٍ:

عندك الهانم "آسيا"، ما هي عرفاني من زمان، بس إتني عبيطة كلمتين وقعوكي فيا!

هزت رأسها بإيماءات متتالية نافيه وهي تهتف بصراخٍ بالك:

-لا، "آسيا" متعملش كده!

زاد بكائها وهي تلوم نفسها:

أنا ازاي حبيتك وصدقت كل كلمة قولتها لي؟!!

أجابها "سامر" ببرود:

عشانك هبلة، أنا مش بتاع حب ولا جواز

صرخت به باستنكار شديد:

واطى!

أطلق ضحكة ماجنة مستفزة للجميع، فقد "معتصم" لأعصابه وحاول الاتدفاع نحوه للاقتضاض عليه، أمسك به موظفو الفندق جيداً كي لا يفلت من أيديهم، توعده بشراسة وهو يدفعهم بجسده ليتخلص من قبضتهم ويصل إليه:

هاقتلك النهاردة

أشار له "نبيل" بسبابته:

هاتتسجن يا "سامر"، مش هانسيب حق "آسيا" ولا بنت عمي، الكل هايعرف إنت إيه بالظبط!

نظر له الأخير باستخفاف ثم رد بثقة:

وأنا هالبسكم الليلة كلها

حدق فيه "نبيل" بنظرات مغلولة، بينما أضاف "سامر" بنفس الثقة:

إنتو جاين عندي تتعدوا عليا في مقر عملي، والشهود موجودين وكاميرات الفيديو سجلت كل ده، والأمن هيحذف اللي يخصني مع الهانم، يعني في تكة هاتكونوا في السجن، ده غير إن المدام المحترمة هتلبس قضية تسهيل دعارة وممارسة الرزيلة، ما أنا هاروق عليها برضوه، لازم ينوبها من الحب جانب!

ثم سأل "معتصم" بخبثٍ قاصدًا إحراق أعصابه واستنزاف ما تبقى من عقله:
-مش هي لسه المدام ولا ...؟!!

اهتاج "معتصم" من تلميحه البذيء، اندلع غضبه أضعافًا مضاعفة وهدر به:
-يا ابن ال !!

رد عليه "نبيل" بتحدٍ:

-إنت، بتلف وتدور، واحنا مش هانسكت عن حقنا!

ضاقت عيني "سامر" قائلاً:

-وروني هاتعملوا إيه

وصل إلى غرفة المكتب مدير الأمن المسئول عن الفندق ليتولى بنفسه السيطرة على الوضع بعد أن تم استدعائه على عجلة لينقذ الموقف، ألقى نظرة سريعة وشاملة على المتواجدين، وقف كالعبد الطائع أمام رب عمله متسائلاً:

-أوامرك يا "سامر" باشا

رفع الأخير ذراعه للأعلى ليأمره مشيراً بسبابته نحوهم:

-ارمي الكلاب دول برا!

رد مدير الأمن بامتثالٍ:

-تمام يا باشا!

انفجر "معتصم" لاعتنا إياه بكلمات نابية مهينة، جرحه الموظفون بصعوبة إلى خارج المكتب غير قادرين على إسكاته، قاومهم قدر استطاعته طامعًا في النيل من "سامر"، لكنه لم ينل مراده، حذرهم "نبيل" هاتفًا بصوتٍ جهوري حينما حاولوا دفعه هو الآخر:

محدث فيكم يقرب، أنا طالع، يالا يا "أية"

لف ذراعه حول خصرها ليجبرها على التحرك في اتجاه الباب وفي نفس الوقت يضمن
عدم تلمس الغريب لها، لمح أحدهم وهو يدنو من "آسيا" ليحملها فصاح به بقوة:

ماتلمسهاش

انحنى نحوها ليحملها بين ذراعيه برفق ثم سار إلى الخارج ومعه "أية" التي كانت في
حالة انهيار واضحة، بالطبع لم يتم إخراجهم من المدخل الرئيسي للفندق بل من الأبواب
الخلفية لتجنب إثارة فضول الضيوف المتواجدين به، تسارعت خطوات "نبيل" نحو
السيارة ليضع "آسيا" بها، أجلس "أية" بجوار أمرا إياها:

خليكي جنبها

لم تكن شبه مدركة لما يحدث، فالصدمة كانت محطمة لفؤادها ومدمرة لكل آمالها،
أغلق "نبيل" الباب لينظر إلى ابن عمه المهتاج، خشي من تهوره أثناء القيادة، فوضع
يده على كتفه يطلب منه بحذر:

اركب يا "معتصم"، ما فيش وقت نضيعه، لازم نظمن على "آسيا"

اتجهت أنظار ابن عمه نحو الغائبة عن الوعي والغارقة في دماؤها، رمقها بكرهية زائدة،
فقد نجح "سامر" في غرس بذرة شكوك جديدة لتضاف إلى ظنونه السابقة ليجعلها
بسهولة في موضع شبهة، بقي متجمداً في مكانه ونظراته الغريبة الغامضة مسلطة عليها،
خاف "نبيل" من انحراف تفكيره وظنه السوء بها، هو فاهم لطبيعة تفكيره المتهورة،
كان عليه أن يتصرف بترث وحنكة ليجبره على فعل الصواب، وضع يده على كتفه
ضاغظاً عليه:

مش وقت تفكير يا "معتصم"، دي بني آدمة حياتها في خطر، ماينفعلش نسيديها في
الظروف دي

لم تتحرك قدماه فضغط عليه لدفعه:

خليك واثق إن الكلب ده قاصد يولع الدنيا، مش هيرتاح إلا لما

قاطعه "معتصم" بغموض أقلقه:

-وأنا مش هاسيبه وهتاكد من اللي قاله بطريقتي!

ارتاب "نبيل" من طريقته في الحديث فسأله بتوجيس:

-هاتعمل إيه؟

لم يجبه وركب في السيارة ملتزمًا الصمت مما أربك "نبيل" كثيرًا، لم يكن هناك وقتًا متاحًا لإضاعته، أجبر عقله -موقتًا- على عدم التفكير في التفسيرات المزعجة التي تكمن خلف كلامه المريب واستقل السيارة لينطلق بها نحو أقرب مشفى.

.....

وضعت يدها على قلبها تتحسس نبضاته المتلاحقة بعد أن هاتف "نبيل" عمه ليخبرها بنقل "آسيا" إلى المشفى دون ذكرٍ للسبب الحقيقي، استشعرت "نادية" وجود كارثة خفية وراء إصابتها المقلقة، لم يجب أحد على تساؤلاتها الحائرة، بل ارتابت وخافت بدرجة أكبر من هيئة "معتصم" وكدماته الزرقاء التي تعلو وجهه، رفض الأخير معالجتها واكتفى بالبقاء في الزاوية ملتزمًا الصمت، حاول "وحيد" طمأنتها بأسلوبه الهادئ لكنها لم تشعر به، فقط جزعها على ابنتها كان الطاغى عليها، راقبت حركة الأطباء والممرضين بنظرات متوترة منتظرة بترقبٍ إبلاغها بالجديد عن حالتها، خافت من حدوث الأسوأ، قفز قلبها في قدميها رهبةً حينما رأت الطبيب يخرج من غرفة الطوارئ ليقول بروتينية:

-اطمنوا يا جماعة

سأله "نبيل" باهتمام:

أخبارها إليه؟

أجابه بنفس التبرة العملية مشيراً بيده:

أحنا عملنا اللازم مع المريضة، وهنتقل للأشعة عشان نتأكد من حالة المخ، وبعد كده هنتقلها على أوضة عادية

تنفست "نادية" بارتياح عقب أخباره المبشرة والمثلجة لصدرها، سألته بقلب أم متلهف:

هي فاقت يعني؟ كلمتك؟

أجابها بهدوء:

متقلقيش يا هانم، مؤشراتها الحيوية كويسة، وإن شاء الله مايكونش في مضاعفات، هانظمن من خلال الأشعة المقطعية وبعد كده تقدرنا تشوفوها

رد عليه "وحيد" بامتنان وهو يحاوط زوجته من كتفها:

شكراً يا دكتور

ثم التفت ناحيتها ليضيف:

مش قولتلك يا "نادية" إنها هاتبقى كويسة

ردت بتنهيدة ارتياح:

الحمد لله

اقترب "نبيل" من ابن عمه الواقف على حالته الجامدة ليتفقده متسائلاً:

سمعت الدكتور قال إليه؟

أجابه "معتصم" باقتضاب:

-أيوه

سأله من جديد متفرسًا تعابير وجهه الجامدة والتي عززت فيه إحساس القلق:

-وناوي تعمل إيه؟ هاتشوف "آسيا" وتطمئن عليها؟

حملق فيه مطولاً بنظرات غير مريحة ثم أجابه بنبرة جليدية:

هاوصل بنت عمك لبيتها

رغم تفاجئه برده إلا أنه استدار عفويًا برأسه للخلف ليجد "أية" مجهشة بالبكاء، لم تتوقف إلا لثوانٍ لتتخرط من جديد في نوبة أخرى وكأنها تحفز خلاياها الدمعية على خلق المزيد من العبرات، عاد ليحدق فيه مضيئًا:

-الحمدلله إنها جت على أد كده، كان ممكن منلحقهاش وتحصل مصيبة

صمت "معتصم" وبادله بنفس النظرات المزعجة، استأنف "نبيل" وعيده:

-الكلب "سامر" ده مش هاسيبه، لازم أحاسبه على اللي عمله، وبالعقل كمان، إنت إيه رأيك؟

طال صمته المريب فتوجس من سكوته، سأله بتوترٍ وهو يهزه من ذراعه:

- "معتصم"، إنت ساكت ليه؟ قولي بس بتفكر في إيه؟

نفض يده ليقول باقتضاب:

-أنا ماشي

فغر شفثيه من ردة فعله الغامضة، ازدرد ريقه محدثًا نفسه:

يا خوفي تصدق كلامه وتضيع "آسيا" بشكوكك!

انحنت للأمام قليلاً لتتمكن المريضة من وضع الوسادة خلف ظهرها، تابعتها بأنظارها وهي تكمل عملها وتتأكد من ضبط ضماداتها قبل أن تعتدل في نومتها، طالعتها "آسيا" بنظرات مرتابة لتسألها بعدها بجديّة:

هو أنا هافضل هنا كثير؟

أجابتها المريضة بابتسامة مصطنعة:

وقت ما الدكتور يسمح بخروجك هتطلعي على طول، حمدلله على سلامتك ردت باقتضاب:

شكراً

تلمست "آسيا" بيدها جبينها المغطى بالشاش الطبي، تأوهت بصوت خفيض من الألم الموجه، شعرت بوجود خطب ما بها، بخلل في تعاقب الأحداث في رأسها وتداخلها بشكل مزعج، صراعات عنيفة، وعود بالتهديد، ورغبة عارمة بالانتقام، بدت كمن عاد لتوه من رحلة سفر طويلة، رفعت عينيها للأعلى لتحقق في والدتها التي ولجت إلى غرفتها، رمقتها بغرابة وكأنها تتفحصها لأول مرة، تعجبت "نادية" من تطلعها نحوها بتلك الطريقة المريية، تجاوزت عن هذا لتسألها بتلهف حان:

عاملة إيه يا بنتي؟ إنتي كويسة دلوقتي؟

لم تجبها بل سألتها بعبوس وقد ضاقت نظراتها نحوها:

مين جابني هنا؟

تذكرت "آسيا" آخر ما عايشته من صدام عنيف مع "سامر" كاد يؤدي بها إلى الهلاك الحتمي، هاجت الدماء في عروقها وهي تتساءل:

الحقير الواطي "سامر" فين؟ عمل فيا إيه؟

نظرت لها والدتها باندهاش قبل أن تسألها بتوجيس كبير:

ده مين يا "آسيا"؟

توعده بعدوانية:

-أنا مش هاسيبه، هاعرفه مين هي "آسيا شرف الدين"!

ابتلعت "نادية" ريقها بتوترٍ وهي شبه متيقنة من أن ابنتها ربما تكون قد استعادت ذاكرتها، فحديثها بذلك الأسلوب الهجومي يتناقض تمامًا مع الهدوء الذي كانت تتحدث به في الأونة الأخيرة، جزعت حينما تابعت ضاغطة على كل كلمة تتفوه بها:

- "آسيا" بتاعة زمان رجعت من ثاني!

ارتجفت نبرتها وهي تسألها:

-إنتي افكرتي كل حاجة؟

كانت ملامح وجهها إلى حد ما جامدة ومنذرة بشرٍ خفي، ردت بهدوءٍ مريبك:

أيوه

حركت "آسيا" رأسها للجانب قليلاً لتحقق في وجه "وحيد" الذي دخل إلى غرفتها قائلاً:

-أنا حظيت مبلغ في الحسابات يا "نادية" و.....

توقف عن إكمال جملته مع رؤيته لـ "آسيا" في كامل وعيها، دنا منها مهلاً:

حمدلله على سلامتِك يا بنتي، أنا أسف مخدمش بالك إنك فايقة

ضاق حذقتها مرددة باقتضاب:

الله يسلمك

أضاف بحماس طفيف:

إن شاء الله رقدتك ماتطولش هنا

ردت عليه:

-أنا عاوزة أرجع بيتي!

ابتسم قائلاً:

حاضر، على بكرة بالكثير هاتطلعي، الدكتور لسه مقابلني وقايلي ده

مدت "نادية" يدها لتضعها على كف ابنتها، مسحت عليه بلين وهي تقول لها:

-البيت وحش من غيرك يا حبيبي، أنا هافضل معاكي لحد ما نرجع سوا

التفتت نحوها "آسيا" لتقول بجمود:

-أنا باتكلم عن شقتي مش بيتك إتني!

شعرت والدتها بانقباضة مخيفة تعصر قلبها من الخوف، طالعتها بعينين قلقتين وهي

تسألها:

هو إتني مش هاترجعي معايا؟

أجابتها بحسم:

-لأ، مالوش لازمة!

استشعر "وحيد" حالة الارتياح الخائف التي انتابت زوجته، خشي من تأثرها بقرار

"آسيا" الصادم وانعكاسه على وضعها الصحي، استطرد قائلاً بنزق ليقطع عليها

أفكارها:

مش هالينفع عملي ده إلا بموافقة جوزك، ولا نسيتي يا "آسيا" ده!

احتدت نظراتها مرددة بجدية واضحة لتؤكد له وعيها بكل ما مرت به خلال الفترة
الأخيرة:

- "معتصم" مالوش كلمة عليا، واللي حصل بينا غلطة وهاتتصلح قريب
!!!!

.....

الفصل الأربعون

كان رأسها صلبًا وقرارها نافذًا عنيدًا نابغًا من إحساسها الداخلي، لم تكترث "آسيا"
باعتراض والدتها أو زوجها على ابتعادها وتركها لهما، بل لم تعباً من الأساس بكونها
متزوجة من "معتصم"، اعتبر الأمر مجرد تصرف خاطئ يستوجب إصلاحه، حاول
"وحيد" إثنائها عن رأيها قائلاً بجدية:

-تمام، ولحد ما ده يحصل إتني هترجي معانا يا "آسيا"، وكلامي مافهوش نقاش
احتجت عليه بعدائية:

أنا محدش يؤمرني

خشيت "نادية" من اندلاع جدوة صدام جديد بين الاثنين فتدخلت قائلة بجدية:
هو قصده إنه طلب مش أمر

نفخت بصوت مسموع وهي تشيح بوجهها للجانب، استعطفتها والدتها آملة أن تستميل
قلبها:

حطب ليه كده يا بنتي؟ احنا قصرنا معاكي في حاجة؟ أنا جازي أذنبت في حقك زي
ما باباكي فهمك، بس أقسم بالله بأحاول أعوضك الفترة دي عن كل حاجة
مدت يدها لتلمس كفها متابعة برجاء:

عشان خاطري ماتبعديش عني

سحبت "آسيا" يدها من أسفل كفها لترمقها بنظرة جامدة وهي ترد:

-كل واحد عارف هو عمل إيه

اكتست ملاحظتها بتعايير حزينة من قسوتها التي عادت على السطح في تعاملها معها،
أخرجت تهيدة موجعة من صدرها ونظرت بإحباط إلى زوجها، أضاف "وحيد" بهدوء
جاد:

مش وقته يا "آسيا"، تتكلم في ده بعدين، المهم سلامتک دلوقتي
أكلت "نادية" قائلة:

- "معتصم" يبحبك يا بنتي، ده مستعد يضحي بحياته عشانك
تقوس فيها بابتسامه ساخطة مستنكرة لما قالته، استدارت نحوها لترمقها بنظراتها الحادة
قبل أن ترد قائلة بتهكم:

- ممكن أصدق أي حد يعمل كده إلا هو، فبلاش تقولي حاجة مش حقيقية
دافعت عنه "نادية" بجنون:

- والله إتني لما تشوفي شكله هتتاكدي من كلامي، بس إدي لنفسك فرصة
قست نظراتها معلقة بإصرار:

حتى لو كان العاشق المتيم، فده مش هايغير قراري أبدًا، أنا ماشية!
يئست والنتها من إقناعها بشتى الطرق، أدركت في تلك اللحظة أن ابنتها قد عادت
إلى شخصيتها القديمة حيث العناد والحدة والشراسة والجمود، لن يلين قلبها نحوها ولن
ترق مشاعرها من أجلها، فكرت في تذكيرها بعدائية والدها ورغبته في استعادتها بعد
أن رأت ردة فعلها الراضة لوجوده، هتفت قائلة بخوف:

يا بنتي لو "شرف الدين" عرف إنك لوحدهك مش بعيد ياذيكي، أنا مضمنش تصرفاته،
ده ممكن آ.....

قاطعتها بقوة تليق بها:

-أنا أعرف كويس أتعامل معاه إزاي، دي مش أول مرة، وإنتي مش هتعرفيه زي
فاض بها الكيل من تيبس رأسها فصاحت بعصبية:

-افهمي يا "آسيا" وبلاش عند و....

وضع "وحيد" يده على كتفها ليقاطعها بتريث عقلائي:

-ثواني يا "نادية"، خليني أنا أتكلم

نظرت له زوجته بإحباط بائس، استصعب رفض طلبها لكنه جاهد لإقناع ابنتها قائلاً
بحنكة:

محدث هايضغط عليكي أو يجبرك على حاجة إتي مش عاوزاها، بس لحد ما ننفذ
طلبك، أقصد يعني نصلح الغلطة اللي بتقولي عليها هتفضلي في البيت معانا، بدون
ما حد يقيد حريرتك أو يمنعك عن اللي إتي عاوزاه، ها إيه رأيك؟

طالعه بنظرة غامضة للحظات قبل أن تعلق بنبرة جافة خالية من أي إحساس:

-أوكي، وأنا مش هاطول!

نظرت "نادية" بامتنان لزوجها الذي دعمها بكافة السبل ليضمن بقاء ابنتها بجوارها،
ولج إلى داخل الغرفة "نبيل" الذي كان متشوقاً للاطمئنان على "آسيا"، تهللت
أساريره وهو يراها واعية متفاعلة مع من حولها، استطرد قائلاً:

حمدلله على سلامتكم

ردت "نادية" تشكوها بكاءً:

-الحقنا يا "نبيل"، "آسيا" عاوزة تسيب البيت وتمشي

تغيرت ملامح وجهه للعبوس وسألها مهمماً:

ليه كده بس؟ في حاجة حصلت؟

حملت فيه "آسيا" بنظرات جادة، في حين تابع بقوة ووعيد:

متقلقيش، احنا كلنا معاكي ومش هانسب حقا، والكلب "سامر" ده هيتحاسب على كل حاجة عملها، وبعدين "معتصم" كان هيقته لما شافه بيحاول يلمسك غضب عنك

شهقت "نادية" مصدومة فلم تكن ملمة بتفاصيل حادث ابنتها، هتفت بقلبٍ ملتاع:

الجبان ده لازم يتسجن

رد عليها "نبيل" مؤكداً:

هايحصل يا طنط، اطمني

استعادت مشاهدها مع "سامر" فالتببت عينها من هجومه الوحشي عليها لينال من شرفها ويتلذذ برغباته الحيوانية معها، امتنع وجهها بدرجة ملحوظة وبدا صوتها حاداً وهي تعلق:

أنا كفيلا إني اتعامل معاه

ابتسم "نبيل" مضيقاً بمزاح:

أكيد، بس "معتصم" روق عليه وزيادة، اللي نجاه من إيديه إنه اتحمى في رجالتيه، يا سلام لو كنتي تشوفيه!

بالطبع لم تكن "آسيا" واعية لتراه وهو يقاتل من أجل الدفاع عن شرفها وإلا لصدقت كلامه عنه، مررت أنظارها على ثلاثتهم لتتابع بنبرة البكتهم:

-عموماً مرحلة إني ناسية كل حاجة عدت خلاص، أنا رجعت زي زمان، وأظن إن كلامي مفهوم!

ارتعدت "نادية" من جديد من طريقتها في الحديث، تأكدت من حدسها بأن الذاكرة قد عادت لابنتها وأنها باتت تذكر كل ما مرت به، للحظة توهمت أن "شرف الدين"

أمامها يحدثها بنفس اللهجة القاسية المقلقة، ربما لترينته لها فاكسبت ذلك منه، شحب
وجهاً خوفاً واضطربت دقات قلبها، استشعر "وحيد" حالة الانزعاج المسيطرة على
زوجته فعمد إلى تلطيف الأجواء هاتفاً:

-تتكلم في ده بعدين، المهم صحتك

ردت عليه بجفاء:

-أنا أدري بنفسي، وحاسة إني بقيت أحسن

أضاف "نبيل" قائلاً وهو يشير بيده:

خلاص يا جماعة، الحمد لله إنها بخير قدامنا و...

بتر عبارته حينما رأى ابن عمه يلج إلى الغرفة ووجهه يكسوه تعابير غامضة غاضبة،
تفاجأ من حضوره الجميع، تجمدت عيني "نادية" عليه، ولم يختلف اندهاش زوجها
عنها، ردد "نبيل" باستغرابٍ مذهولٍ:

- "معتصم"

نظر له بطرف عينه قبل أن يسلط أنظاره على "آسيا" ليقول لها بابتسامة تحمل
السخط:

حمد الله على السلامة

بادلته نظرة حائقة تحمل الكراهية متسائلة بسخرية وهي ترفع حاجبها للأعلى في
استنكار واضح:

ده بجد؟ جاي بنفسك تسأل عليا؟ مش معقول!

فرك طرف ذقنه معللاً:

طبيعي أشوف مراتي وأفهم حصلها إيه

ردت عليه بازدراء:

أهي دي التكتة البايخة في الموضوع ده كله، مراتك!

تعمدت النظر إليه وحده دون غيره لتسأله بجدية شديدة:

إنت مصدق ده؟ إني فعلاً مراتك؟

تجاهل عن قصد الرد عليها ليلتفت نحو والدتها، سألها مهتماً:

عاملة إيه يا ماما؟

أدارت "نادية" رأسها في اتجاه ابنتها لتتفرس قسماً وجهها المشدودة، أدركت أن وجود "معتصم" الآن ليس بالأمر المحمود، بل إنه يحمل نذير معركة وشيكة، فـ "آسيا" على وشك نبذ كل شيء ورائها والعودة من حيث أتت، وحضوره يدعم مسعاها بقوة، عادت لتحقق فيه ثم تنهدت بعمق ليخرج صوتها ضعيفاً مهزوماً وهي ترد:

بخير يا ابني، إنت تمام؟

أجابها بغموض مزعج وهو ينظر بتمعن في وجه "آسيا" العابس:

أيوه، ما فيش أحسن من كده

تأملت "آسيا" الكدمات والخدوش البارزة في وجهه بنظرات فضولية، إذاً فحديث ابن عمه عن تلاحمه مع "سامر" يبدو صادقاً، توترت نظراتها قليلاً حينما أكمل:

تسمحولي أتكلم مع مراتي لوحدنا شوية

اعترض عليه "نبيل" مبرراً:

ليه؟ في حاجة حصلت ومش عاوزنا نعرفها، لو هتحاسبها على اللي عملته "أية"، فهي مالهاش دعوة، وأظن إنت سمعت بنفسك هي قالت إيه

انزعج "معتصم" من تدخله الزائد عن الحد في شئونه ليرد بجدّة ملحوظة:

أنا عاوز مراتي في مسألة عائلية، ماينفعش أتكلم فيها قصادك!

تخرج ابن عمه من فضاظته معه ومع ذلك أردف قائلاً:

معاك حق، بس مافيش داعي للنفرة والعصبية، أتكلم معاها بهدوء، ما تنساش إنها مرت بظروف صعب وكان ممكن آ...

ربت "معتصم" على ذراعه مؤكداً:

اطمن، دول كلمتين مش هالحق أعمالها حاجة يعني!

هتف "وحيد" بنبرة مرهقة مانحاً ابنه بعض الخصوصية:

بيننا يا "نادية" نستنى تحت وخليهم يتكلموا سوا

أومات برأسها موافقة باستسلام:

حاضر

ثم ركزت عينيها على "معتصم" لتوصيه بجنونٍ:

خذ بالك من بنتي

ابتسم لها بتصنع:

اطمني يا ماما

تابعهم بعينه الحمراءتين من الحنق حتى انصرف ثلاثتهم من الغرفة، أغلق الباب بهدوء ليلتفت بجسده نحو "آسيا"، حلق فيها مطولاً وشارداً في الأحداث الأخيرة، بالطبع تردد صدى كلمات "سامر" في أذنيه لتوغر صدره نحوها، لام نفسه بقسوة لأنه في لحظة ما صدق أنها بريئة تحاول البدء من جديد ملقياً خلف ظهرها ما فعلته، عكست

نظراته نحوها بغضًا غير مكذوب، دقت في طريقة تطلعه لها ورمقته بنظرة كره صريحة،
ثم رفعت يدها أمام وجهه لتشير إليه مستطردة حديثها الجاف معه:

-عمل حسابك قصة جوازنا دي هتنتهي

رد عليها ببرود:

-وحد قالك إني عاوزها تكمل؟

التوت شفتها ببسمة ساخطة معلقة عليه:

-حلو أوي، من الأول أنا كنت حاسة إن في حاجة غلط

دس يديه في جيبي بنطاله ليقول لها وهو يقترب بخطوات بطيئة منها:

-كنت عاوز أكشف تمثيلتك قدامهم، بس للأسف كان ممكن تضيعي بنت عمي في

الرجلين بسبب جمودك!

دافعت عن تلميحه الصريح بكونها اليد الخفية التي دفعت "سامر" لاستدراج "أية"

والزح بها في مكيدته الدينئة:

-أنا ماليش دعوة بموضوعها، هي اللي ...

قاطعها صائحًا:

-عمري ما هاصدقك، إنتي كتلة شر ماشية على الأرض، معرفتيش تنتقي مننا فقولتي

توسخي سمعتنا وتضحكي على "أية"

-أنا مأذتهاش

-إنتي كدابة!

رمقته بنظرة مقبئة، ثم ردت باستياء:

مش عارفة أقولك إيه، خسارة الكلام معاك، قلته أحسن، إنت مش عاوز تصدق
إلا نفسك

أخرج يده من جيبه ليعبث برابطة عنقه التي كانت تشعره بالاختناق، نزعها من ياقته
ثم أكمل:

الحمد لله إننا لحقناها، وإلا مكوتنش هاسامح نفسي أبدًا، غلطتي من الأول إني سمحت
بوجودك وسطنا
ردت عليه بعدائية:

غضب عنك كان ده هايحصل، لأنني بنت "نادية" هانم مرات باباك، ماتنساش ده يا
"معتصم"

قست ملامحه معلقًا عليها:

مضطرب، بس ماتنسيش إتي كمان إني خدمتك بجوازي منك خدمة عمرك ما تحلمي
بيها

رسمت ابتسامة متهمكة على شفيتها وهي تسأله بعدم اقتناع:

والله؟ إيه هي؟

أجابها بوقاحة:

أي حد هايبي بعدي عشان يتجوزك مش هايسأل إن كنتي شريفة ولا لا
اتسعت مقلتها من فجأته المتجاوزة مرددة بصدمة:

نعم

نظر لها شزرًا قبل أن يستأنف حديثه:

-إتي فهاني كويس، ولا تحبي أجيبك "سامر" حبيب القلب يفضحك ويقول عن لياليكم سوا؟

سألته "آسيا" بتشنج:

-ولما إنت شايفني قدرة أوي كده اتجوزتي ليه؟

أجابها بفتور:

-ماما مالهاش ذنب تتخدع في بني آدمة زيك، وزى ما قولتك دي خدمة قصاد تربيتها الطيبة ليا

احتدت عينها من قسوة عباراته التي تستفز سكونها، ردت عليه محاولة الحفاظ على كرامتها:

-حقيقي ضحيت كثير، كويس إنه جواز على الورق ومحصلش بجد لأحسن كنت أحمل منك و....

قاطعها "معتصم" مرددًا بجدية:

-مكاش هيحصل، إتي ناسية الحادثة اللي قبل دي عملت فيكي إيه؟

نظرت له بغرابة فتابع موضحًا بقسوة:

-الدكتور قال إنك جايز متخلفيش، وده كان مطمني بصراحة، يعني مكوتنش هاجيب منك عيال، لما يكبروا يستعروا منك!

ورغم كلماته الموجهة التي أصابها في مقتل وترددت على مسامعها من قبل من خلال "مها" والدة ابن عمه "نبيل" حينما عللت سبب رفضها لتلك الزيجة إلا أنها أخفت تأثيرها براءة لترد عليه بابتسامة عريضة:

دي حاجة كويسة أوي

أرادت إحراقه بنيران غضبه مثلما فعل معها لتذيقه طعم العذاب والألم فتابعت عن عمد:
-وأهوو أعمل اللي أنا عاوزاه براحتي مع أي حد من غير ما أقلق!

نجحت في استثارته بجملتها المأكرة التي أشارت إلى فجورها فاستشاطت نظراته على
الأخير، اندلع غضبه وخرج عن سكونه الزائف، دنا منها كالثور الهائج لينحني نحوها
صافعًا إياها بعنف وهو يهدر بها بعصبية:

سافلة

توقعت "آسيا" أن يفعل ذلك، فلم تكن مرته الأولى ولا الأخيرة التي يفعل عليها
متعمدًا ضربها ليشبع رغبته الذكورية بأنه لا يقبل بالمساس برجولته أو الإنقاص منها،
لم تضع وقتها في التأم والتأوه بل ردت إليه الصفعة بقوة صارخة فيه:

-مش هاسمطك تمد إيدك عليا، أنا مش ضعيفة!

صُدم مجددًا من صفعها له، قبض على راسها ضاغظًا عليه بأصابعه بشراسة، تلوت به
لتخلصه من قبضته، نظر لها بغلٍ، كانت تقف له الند بالند، يبادلها الكراهية فتبادلها
العداء، يعاملها بقسوة فتزد بشراسة، تابعت مكلمة بنفس الصوت الحاد القوي:

-إن كنت سكت الفترة اللي فات، فده لأن في حاجات كثير كانت غايبة عني، دلوقتي
حقي هاخده غضب عن الكل، وهارد القلم بعشرة، أنا مش هاسامح في حقي حتى
لو كان فيه موتي!

أطبق على عنقها قاصدًا خنقها، تحشرجت أنفاسها وقاومته قدر استطاعته، خرج
صوتها مبحوحًا مكتومًا:

خليك راجل للأخر وموتي

نظر في عينيها بكرهية مضاعفة، لم يرتد لها طرف، كانت تنتظر منه أن ينفذ ما قاله، أن يهلك روحها، ما أنقذها من برائته هو دخول المريضة لتتفقددها، هتفت الأخيرة متسائلة بخوف:

- حضرتك بتعمل إيه؟

أرخت "معتصم" أصابعه عنها ليتراجع عنها وقد توتر كلياً، سعلت "آسيا" بقوة لتلتقط أنفاسها، هرعت المريضة إليها متابعة بتهديد:

-أنا هابلغ مدير المستشفى عنك

لم يعقب عليها وأسرع في خطاه دافعاً إياها بغلظة من كتفها، رمقت المريضة بنظرة مزعوجة، هرب "معتصم" من الغرفة وهو يلوم نفسه على طيشه الأهوج، كاد في لحظة غضبه أن يرتكب الأسوأ دون أن يتأكد من شكوكه، هي حقاً بارعة في جره لقعر الجحيم وتركه يعاني من ألسنة اللهب القاتلة، سألتها المريضة بجديّة:

-إتي كويسة؟

أجابتها "آسيا" بصوتها المتحشرح:

-أيوه، وما فيش داعي تبليغي حد باللي حصل

انخفضت نبرتها لتكمل بتهمك ساخر:

-ده الطبيعي بتاعه معايا

اعترضت عليها المريضة بضيق:

بس.....

حدجتها "آسيا" بنظرة صارمة قاتلة لها بلهجة شبه حادة:

-أنا صاحبة المشكلة وأقولك مش عاوزة أبلغ، هو بالعافية!؟

امتثلت المريضة لرغبتها مضطرة، ضغطت على شفيتها قائلة بنبرة مستسلمة:

اللي تؤمري بيه

ثم عدلت لها من وضعية الوسادة لتمدد بأريحية على الفراش، حدقت "آسيا" في سقفية الغرفة متعهدة لنفسها بالاختصاص ممن سببوا لها الأذى في حياتها، تلمست وجنتها وعنقها بأناملها مرددة بهميس:

-وأولهم "معتصم" !!

.....

الفصل الحادي والأربعون:

كانت بحاجة لإنعاش روحها المتعبة من تحميلها ما لا تطيق لمجرد استفزازها وإشعارها بأنها دومًا على خطأ حتى لو كانت بريئة، ولجت "آسيا" إلى الحمام الملحق بغرفتها

بالمشفي لتغتسل، تأملت ما تُرك على جسدها من ندبات وآثار كدمات وجروح لتتأكد أنها لن تعود إلى ما كانت عليه مسبقًا حتى لو ادعت العكس، كتمت يديها شهقة موجوعة حينما أخفضت يدها لتلمس بطنها متذكرة قسوة كلمات "معتصم" بأنها لن تحمل ذات يوم في أحشائها جنينًا تمنحه الحب الذي افتقدته في حياتها، كان وقع الكلمات عليها كاسحًا، ستغدو مثلما أتت إلى تلك الحياة وحيدة، يتيمة، بلا مشاعر طمأنينة وأمان تحويها، بل ستظل مذنبه في أعين الجميع مهما حاولت أن تبرأ ساحتها وتدافع عن نفسها، كفكفت عبارتها التي امتزجت مع الماء الساخن لتتنظر إلى وجهها المتعب في المرآة، بدت كشبح امرأة أرهقتها الزمن بمصاعبه، لم تعد الأثني المغرية المسلط عليها أضواء الشهرة والتي تفتك نظراتها الساحرة بعقول الرجال وتجعلهم صرعى لفتنتها المميته، أشاحت بعينها بعيدًا عن انعكاس صورتها المؤسف لتكمل ارتداء ثيابها بتعجب.

خرجت "آسيا" من الحمام فوجدت والدتها في انتظارها وعلى ثغرها ابتسامة صغيرة، استقبلتها بنفس الحنان الودود قائلة لها:

-كويس إنك خدتي دش، وشك نور يا حبيبتي

صمتت ابنتها ولم تنبس بكلمة، قاومت "نادية" وخزة مباغته ضربت عضلة قلبها وادعت الالبتسام رغم الدمعات التي انسابت من طرفيها، هدا الألم فاقتربت من ابنتها لتمسك من المسح على بشرتها برفق قبل أن تكمل ببسمة سعيدة:

-الدكتور قال إنك تقدري تخرجي النهاردة وما فيش قلق من حالتك

أغمضت "آسيا" عينها لتستمع للحظات لتلك اللمسة التي تفتقدتها، كانت بحجة إلى أن ترتقي في أحضانها لتبكي وتشكو لها بصدق ما تعانیه، أرادت الصراخ وإلقاء اللوم على كل من سبب لها جرحًا في حياتها ليجعلها تتخبط وتقاسي الأمرين، لكنها عزفت عن ذلك مدعية جمودها ثم فتحت عينها لتقول باقتضاب:

-كويس

تراجعت عنها بهدوء وأولتها ظهرها، تحركت "نادية" خلفها متسائلة بقلق خائف وواضح
أيضًا في نظراتها نحوها:

-إنتي راجعة معنا البيت، صح؟

التفتت ناحيتها لتحقق فيها بوجه مليء بالغموض مجيبة إياها:

-هو أنا عندي حل ثاني غيره

تهدت والبتها بارتياح لكونها لن تتركها ولو في الفترة الحالية، ستبذل قصاري جهدها
لتقنعها بالعكس وتجعلها تنعم بالدفء الأسري فتتخلى عن تلك الرغبة المزعجة بالرحيل،
دق "وحيد" الباب مستأذناً بالدخول:

-ها يا "آسيا"، جهزتي؟

ردت عليه:

-أيوه

بينما أضافت "نادية" بتلهف:

-الحمد لله إن الأزمة دي كمان عدت على خير، أنا قلبي اطمئن لما شافها واقفة على رجلها
من ثاني

عجزت "آسيا" عن التطلع إليها، فحنوها يضعفها كثيرًا ويؤثر عليها، حز في قلبها ألا
تركض إليها تتوسل عطفها، هي بحاجة للتسلح بالخشونة والجفاء لمواجهة "معتصم"
وغيره ممن عكروا حياتها، سارت يتمهل إلى خارج الغرفة تتبعها والبتها التي تكافح بشراسة
لإخفاء مرضها، وصل ثلاثتهم إلى المدخل الرئيسي للمشفى حيث تصطف سيارة
"معتصم" بالخارج، لم يترجل منها ليقابلها بل ظل جالسًا في مكانه متجاهلاً حتى النظر

إليها، أجلستها "نادية" في الخلف وجلست بجوارها، في حين شغل "وحيد" المقعد الأمامي لينطلق بعدها ابنه في اتجاه المنزل ملتزمًا بالصمت رغم محاولات "نادية" الجديدة لخلق أحاديث بينهما، وكان "آسيا" تقرأه جيدًا فلم تعلق إلا بالمتضرب الموجز مجاملة لوالدتها.

.....

لم تتوقف عبارتها عن الانهيار منذ أن أدركت أنها ضحية ملعوب شيطاني، وكلما تذكرت ما مرت به انتحبت "أية" أكثر وانخرطت في نوبة جديدة من البكاء حتى تورمت عيناها كثيرًا وتلونت بجمرة مقلقة، زارها "نبيل" ليطمئن عليها، سعدت بوجوده ودافعت عن موقفها قائلة:

-والله ما كنت أعرف إنه بالقذارة دي، هو ضحكك عليا واستغني وأنا بغباي صدقته
أشفق عليها معللاً:

عشان إتني لسه صغيرة مش فاهمة الناس كويس

ثم تحولت نبرته للعتاب وهو يكمل:

-بس مش قادر أسامحك على ده، كان المفروض تعرفينا من أول يوم، أنا و"معتصم"

أخواتك، واللي يخصك يخصنا

ردت بندم وقد طأطأت رأسها:

-أنا أسفة، بس افنكرته بني آدم محترم نيته شريفة

فرك "نبيل" رأسه عدة مرات مرددًا بحيرة:

-اللي مجني إنه إزاي عرف يوصلك؟!!

أجابته بصوتها الباكي:

-مقابلتنا أغلبها كانت صدفة، وأول مرة شوفته كانت عند المكتب بتاعكم
تركزت أنظاره عليها بعد ما تلفظت به من كلمات خطيرة أثارت ريبته، هتف بها بجدية
تامة:

-حكيلي بالتفاصيل يا "أية"، لازم أعرف كل حاجة عشان أعرف أجيب حقك
أومات برأسها مرددة:

-حاضر، بس صدقي أنا مكوتنش أعرف إنه على صلة بـ "آسيا" وفي كمان مشاكل
بينكم ومع "معتصم" بالذات!
وافقها الرأي قائلًا:

-أنا متأكد من ده، الرك على ابن عمك إنه يصدق إنها بريئة، طبعا الشك زي تملي
هيعميه ويظلمها وجايز يقول إنها ورا اللي حصلك
مسحت أنفها بمنشفة ورقية ثم سألته باستغراب:
-معقولة؟

تحدث من زاوية فمه زافرا بامتعايز بأئس:
-إنتي مش عارفة تركيبة دماغه عاملة ازاي
ردت عليه:

-أنا هاتكلم معاه وأقوله على كل حاجة
بدا "نبيل" واثقا من فشلها في ذلك حتى لو أتت له بعشرات البراهين التي تثبت
براءتها، أخرج زفيرا آخرًا مهمومًا من صدرها وهو يعلق:
يا ريت بس يصدق!

.....

تباطأت خطواتها وهي تسير نحو باب المنزل الذي احتضنها في الفترة الأخيرة، فالأتي سيحمل في طياته الكثير بالنسبة لها، توقفت عن المشي حينما استدار "معتصم" بجسده نحوها مغلقاً عليها الطريق ومانعاً إياها من المرور، رمقته "آسيا" بتلك النظرة الحادة الكارهة له، سألته ساخرة وهي تشير بعينيها:

إيه؟ مش هاتخليني أدخل؟

اقترب منها ليهمس لها مؤكداً عن ثقة كبيرة:

اعرفي إن أيامك هنا بقت معدودة

ردت عليه متسائلة:

تحب أمشي دلوقتي؟ أنا أصلاً مش فارق معايا، أقولك سلام يا "معتصم" بيه، اشبع باللي عندك

كادت أن تتحرك من مكانها لكنه قبض على ذراعها ليجذبها منه إليه، ضربت صدره بكفها وهي تستند عليه كرد فعل لشده العنيف، كز على أسنانه هامساً لها:

استني هنا!

رمقته بنظرة ساخرة من تصرفه غير المفهوم، سألته مستفهمة:

إنت حيرتني معاك، مش عارفة بصراحة إنت عاوز إيه بالظبط؟ تموتني ولا تطردني ولا

لم تكمل جملتها بسبب سؤال والدتها القائل بقلبي:

في إيه يا ولاد؟

أرخی "معتصم" قبضته على الفور من على ذراعها وأخضها نحو خصرها ليحاوطها منه، رسم على وجهه بسمة زائفة وهو يقول لها:

-ولا حاجة يا ماما، دي "آسيا" اتكعبلت وهي ماشية وأنا كنت بأسندها رفعت الأخيرة حاجبها باستنكار، حدجته بامتعاض وهي تميل عليه لتهمس له:
-إنت ملك الكذب!

تجاهلها متعمداً التحديق في وجه "نادية" التي كانت تراقب تصرفاتهما باهتمام ملحوظ، أضافت قائلة بابتسامتها الحنون:

-ربنا يخليكوا لبعض، تعالوا جوا يا حبايبي، احنا كلنا تعبنا النهاردة ومحتاجين نرتاح!
رد عليها "معتصم" بتكليف:

حاضر، اسبقينا يا ماما

لكزته "آسيا" في جانبه كتعبير عن رفضها لما يفعله فور أن أولتها والذتها ظهرها ليحررها بعد ذلك، ثم نظرت له شزراً وكأنه نكرة قبل أن تمرق إلى الداخل، استشاط في مكانه حقناً، تسمر في مكانه لثوانٍ ليقاوم تلك العاصفة الهائجة بداخله، فشكوكه تكاد تنهش في عقله الذي استسلم لتلك الأكاذيب الخداعة وبات أسيرها، كور أصابع يده ليضرب بقبضته الحائط بضيق، بدا متخبطاً في مشاعره وأفكاره حتى لم يعد يفرق بين الصواب والخطأ، تنفس بعمق واستعد للدخول آملاً في نفسه ألا يخرج عن طور هدوئه الزائف ويتحكم في أعصابه حتى الأخير.

.....

تحملت فوق قدرتها المحدودة مقاومة حدة الألم الذي يعتصر قلبها من آن لآخر كي لا تثير قلق من حولها لتنشغل فقط بما تعانیه ابنتها من مشكلات كبيرة، أثر عليها ذلك

بالسلب فظهر وهنبا على جسدها بشكل مضاعف، وما إن تأكدت "نادية" من عودة ابنتها للمنزل حتى استأذنها بالصعود إلى غرفتها لترتاح، تهاقلت خطواتها وبدت تكافح للصعود على الدرج الداخلي، بلغت غرفتها وهي بالكاد تلهث لالتقاط أنفاسها، ضعفت عضلة قلبها وخذلها جسدها بعد أن استنزف ما لديه من طاقة لتتوارى عند عتبة الباب، أثارَت بسقوطها المفاجئ فزع "وحيد" الذي صرخ باسمها عاليًا:

- "نادية"

هرع إليها ليرفعها إلى صدره مرددًا بهلج:

في إيه يا "نادية"؟ حصلك إيه؟ ردي عليا!

نظرت له زوجته بعينين مخيفتين وهي تهمس له بصعوبة:

- "آسيا" .. بنتي ..

ضمها إليه يرجوها:

عشان خاطري متكلميش

هرول "معتصم" صاعدًا الدرج بعد تلك الصرخة المخيفة ليجدها تفتش الأرضية بجسدها ووالده يحضنتها بخوف، جثا على ركبته أمامها وأمسك بكفها بين راحتيه ليفركه متسائلًا بقلبي شديد:

مالك يا ماما؟

استشعر تلك البرودة المخيفة في يدها وجزع قلبه من تخيل الأسوأ، لحقت به "آسيا" لتقع أنظارها على والدتها الغائبة عن الوعي، تجمدت قدمها في مكانها من صدمتها، أجبرت نفسها على التحرك في اتجاهها، فزعت وارتعدت أطرافها وهي تدير رأسها في اتجاه "وحيد" الذي صرخ مستنجدًا:

-اطلب الإسعاف بسرعة يا "معتصم"، مامتك حالتها خطيرة

سيطرت على "آسيا" حالة لحظية من الشلل المؤقت في تفكيرها فبدت كالبلهاء وهي تطالعه بنظراتها الغريبة محاولة استيعاب الموقف وتفسيره، أدمعت عينها بقوة حينما رأت تلك الزرقة المفزعة التي كست ملامح وجه والدتها لتبدو أقرب إلى الموتى عنها إلى الأحياء، انتفضت في مكانها عندما هدر صائحًا بتوسلي:

-اوعي تموتي يا "نادية"، ماتسبناش دلوقتي، احنا كلنا محتاجينك!

هزت رأسها باستنكار رافضة تصديق احتمالية تركها للعالم الفاني، رغمًا عنها صرخت "آسيا" بخوف حقيقي نابع من فؤادها وهي تجثو على ركبتيها بجوارها:

ماما!

.....

حدث ما كانت تخشاه وتوفيت والدتها قبل أن تروي ظمأها من حنانها الأمومي ليهتز الجميع بموتها المباغت، بكتها "آسيا" بجزنٍ كبير، وتأثرت برحيلها رغم أنها لم تنعم فعليًا بجبها إلا لفترة بسيطة لكنها ملأت حياتها بإحساس الراحة والاطمئنان، وبالرغم من مرور أكثر من ثلاثة أسابيع على حدوث تلك الفاجعة إلا أنها ظلت على وضعيتها الحزينة المنكسرة، تناست كل شيء ليظل وجه "نادية" البشوش الضاحك متجسدًا أمامها، ألمها أنها كانت تسعى جاهدة لإرضائها وهي لم تمنحها إلا العناد والشقاء، ومع ذلك لم يضعف أملها فيها ليتضاعف تأنيب ضمير "آسيا"، عاقبت نفسها برفضها تناول الطعام إلا من بضعة لقيات تبقىها على قيد الحياة، وانجbstت في غرفتها مع صورتها التي التقطتها مؤخرًا معها لتبكي فقدانها بحرقة.

لم يكن حال "معتصم" مختلفًا عنها، بل كانت أحزانه مضاعفة، فقد خسر والدته للمرة الثانية ليشعره ذلك بالخواء والوجع المهلك، انقطع عن عمله وأهمل فيه غير عابئ بتبعات

ذلك لينزوي مع نفسه ييكها منفردًا، باتت السجائر سلواه الوحيدة لينفث عما يجيش في صدره من آلام تعتصره، أدمن التدخين بشراهة خلال الأيام الماضية متجاهلاً تأثيرها الخطر على صحته، بدا المنزل كثيبًا موحشًا بدون وجود "نادية"، حتى الطعام تحول للعلقم في الأفواه، حاول "وحيد" أن يبدو صلبًا قويًا ليجعل الأمور تسير بسلاسة كما كانت توصيه "نادية" دائمًا إن رحلت فجأة، ولج إلى داخل غرفة ابنه ليجده مهملاً في هيئته وتاركًا للحبته تنبت بهوجائية، ورغم تفهمه لحالته النفسية إلا أنه عارض انغزاله بتلك الصورة، جلس إلى جواره بالشرفة يسأله بهدوء:

هاتفصل كده كتير

التفت "معتصم" نحوه ليجيبه بصوته المنكسر:

ليه مش من حقي أزعل عليها؟

رد عليه نافيًا:

لأ طبعًا، بس مامتك مكانش هيرضيها الوضع ده

اختنق صدر "معتصم" وخرج صوته مكتومًا عندما هتف بقهر:

يا بابا أنا اتكسرت، هي مش بس ربطني، دي كانت كل حاجة في حياتي

نكس "وحيد" رأسه قائلاً بأسف:

مش إنت بس يا "معتصم"، "نادية" خدت معاها حاجات كتير لما ماتت

صمت للحظة ليضبط انفعالاته المتأثرة ثم تابع:

بس صدقتي يا ابني مكانش هاتبقى مبسوفة وإنت عامل في نفسك كده

أخرج ابنه زفيرًا مهمومًا من صدره ليرد بعدها:

أنا محتاج وقت يا بابا لحد ما أفوق من الصدمة

هز رأسه بإيماءة صغيرة متفهّمًا رغبته ثم أضاف بعدها:

طبيب، بس يا ريت تاخد بالك من "آسيا" كمان

ضاقت نظرات "معتصم" وتركزت حواسه مع والده، تناسى مشاكله معها في خضم أحزانه، تابع "وحيد" موضحةً بجدية:

هي بنتها وكانت روحها متعلقة فيها في آخر أيامها، أكيد هترتاح في رقدتها لما تلاقيك واقف جنبها

رد عابسًا دون تردد:

- "آسيا" مش محتاجاني

صح له والده اعتقاده الخاطيء عنها قائلاً:

-إنت غلطان، لو بصيت عليها هتفهم قصدي إيه، حاول تطبطب عليها وتقف جنبها!

نفخ هاتفاً باقتضاب:

-ربنا يسهل

-ماشي يا "معتصم"، أنا هاسيديك على راحتك دلوقتي

قالها "وحيد" وهو يهيم واقفاً لينصرف بعدها من الغرفة تاركًا ابنه في حيرة جديدة بشأن وضعه مع "آسيا"، دفن "معتصم" رأسه بين راحتيه كأنما أنفاسه الحارة بينهما، اختنق من مجرد التفكير فيها وكأنها ثقلًا يطبق على أنفاسه ويستنزفه ليل نهار، اعتدل في جلسته موسدًا يديه خلف عنقه ليحدق أمامه بضيق ممتعض، تهدد محدثًا نفسه بإنهاك:

-النهاية اتكتبت بينا !!

.....

الفصل الثاني والأربعون

ليلة أخرى عابثة قضاها في الجناح الخاص به بفندقه الشهير ليحتفل كعادته وسط رفقاء السوء، بالطبع لم تخلو الأجواء من المحرمات ولا من الساقطات اللاتي حاولن استمالة للحصول على مبالغ مالية باهظة نظير ما يقومون به من أعمال مُخلة، تمدد "سامر" باسترخاء على الأريكة واضعًا في جوفه القليل من الشراب المُسكر، جلس إلى جواره رفيقه مستطرًا حديثه بحماسة وهو يزم أنفه بمادة ما بيضاء:

-الستاف المرادي عالي أوي

سأله "سامر" مهتمًا:

حاجة تعدل المزاج يعني؟

رد دون تردد:

جدًا، جرب وقولي

التقط البعض من تلك المادة وقام بوضعها على الطاولة أمامه، ثم انحنى عليها ليشمها،
حذره رفيقه من تكرار الأمر هاتفًا بجدية:

بالراحة يا "سامر"، مش ورا بعضه

نفخ الأخير بقوة مستشعرًا تلك الحالة العجيبة التي أصابت خلايا جسده والمصحوبة
باندفاع رهيب في تدفق الدماء إلى رأسه، تتم متسائلًا باندهاش:

ليه ده؟

نظر له رفيقه بإعجاب وهو يمدحها:

ها ليه رأيك فيه؟

أشار له بعينه كتعبير عن رضائه عنها، جلست إحدى الشابات العابثات إلى جواره،
داعبت أذنه بأناملها ثم مالت عليه لتهمس له بدلال:

-ممكن أجرب يا باشا

منحها قبلة سريعة قبل أن يرد:

-وماله يا حلوة

ناولته كأسًا مليئًا بالمشروب المسكر قائلة له:

-كاسك يا باشا

أخذه منها ثم ارتشفه "سامر" في جوفه دفعة واحدة ليشعر بذلك الألم الرهيب الذي
كاد أن يفتك برأسه، ألقى بكأسه مردداً:

دماغى آ....

لكزه رفيقه في كتفه قائلاً:

-اتقل، شوية وهتلاقيك فوق، فوق أوي!

أرعى "سامر" رأسه للخلف مقاوماً ذلك الألم المفرط حتى بدأت قواه تنجو تدريجياً،
عاود رفيقه سؤاله بفضول:

هنسافر بكرة ولا هنعمل إيه

أجابه بصعوبة وقد أغمض جفنيه:

مش عارف

تابع محفزاً إياه على القبول بتلك العطلة القصيرة:

-بص أبوك فاحتك معاه الفترة اللي فاتت واحنا عاوزين نروق على نفسنا شوية،
مافيهاش حاجة إن خدتلك يومين ولا ثلاثة أجازة، مش هايفرق يعني

وهنت نبرته وهو يكافح للرد عليه، استصعب تحريك أطرافه والقيام بأقل حركة فيهم،
تغلغل فيه إحساس الثقل والتعب، شعر بدقات قلبه تتلاطم في صدره، كز على
أسنانه بقوة ليتبع ذلك تشنجاً عنيقاً جعل جسده بالكامل ينتفض، فزع رفيقه من
هيئته وحاول تثبيته متسائلاً بهلع:

-"سامر"، في إيه؟ "سامر"!

لفظ الأخير أنفاسه لينقضي عمره جراً تناوله لجرعة منشطة امتزجت مع كم الكحوليات
التي ارتشفها مما سبب مضاعفات قوية له ولم يقوَ جسده على احتمالها فانهارت عضلة

القلب أولاً تبعثها خلايا المخ ليسكن بعدها تمامًا وسائل ما رغوي يخرج من فمه، فزع من حوله من بشاعة المنظر وهرولوا إلى خارج الغرفة قبل أن يُكتشف أمره ويخرج منه في السجن.

.....

تردد قبل أن يفعل ذلك، بل إنه تراجع لأكثر من مرة رافضًا أن يصدق أن تلك النكبة الموجعة قد تركت أثرها على "آسيا"، لكن حديث والده المؤكد جعله يتخبط بدرجة كبيرة، ضغط "معتصم" على رأسه بيديه وهو يزرع غرفته جيئة وذهابًا حتى تعب من الحركة، وقف أمام خزانة ثيابه محدثًا نفسه:

معدتش في حاجة نحكي فيها سوا!

ضرب بيده الضلفة ثم استدار ليجلس على فراشه، فرد ظهره عليه وأغمض عينيه مجبرًا عقله على عدم التفكير فيها لبعض الوقت، رن هاتفه بجواره فتجاهله في المرة الأولى، وحينما تكرر الأمر اعتدل في نومته ليتمكن من الرد على ابن عمه الذي بدا مصرًا على مهاجته، خرج صوته متحشرجًا وهو يسأله:

خير يا "نبيل"

رد عليه متسائلًا:

إنت عامل إيه

تهد بثقل قبل أن يجيبه:

عادي

سأله "نبيل" بحذر:

و"آسيا"؟

انزعج نسيبًا من اهتمامه بها فرد عليه بجدة:
-معرفة حاجة عنها، يا ريت تسألها بنفسك
علق عليه ابن عمه بضيق:

-لو كان ينفع كنت عملت ده، بس "آسيا" مابتقابلش حد من يوم ما طنط "نادية"
ماتت، ده غير إنها مراتك، يعني المفروض تكون جنبها
احتدت نبرته هاتقًا:

-إنت هاتعرفني أعمل ايه؟

رد عليه بحذر:

-أنا بأنصحك بس، عمو "وحيد" قلقان عليها زي ما قلقان عليك
زجره قائلاً:

-شكراً يا سيدي، في حاجة تانية؟

أجابه دون تردد:

-أيوه، "سامر"!

مجرد ذكر اسمه كان كفيلاً بإشعال غضبه، انفعل عليه متسائلاً بتشنج:

-ماله الكلب ده؟

صمت "نبيل" للحظة قبل أن يجيبه:

مات

ارتخت قسمات وجه "معتصم" المشدودة لتحل الصدمة على ملامحه قائلاً:

نعم، مات!

أضف موضحًا:

أيوه، الخبر منشور على المواقع كلها، ابقى اقراه و.....

أنهى معه "معتصم" المكالمة دون أي مقدمات ليبحث بنفسه عن صحة ذلك الخبر، اتسعت عيناه بصدمة واضحة حينما قرأ ذلك الخبر الصادم عن وفاة ابن رجل الأعمال "سامر عمران"، تابع تفاصيله عن كذب وهو يكاد لا يصدق نهايته المؤسفة، ترك الهاتف بجانبه لينظر أمامه بنظرات حادة يشوبها الغضب، كز على أسنانه هامسًا بحق:

ابن ال..... الموت رحمه مني!

رغمًا عنه وقعت عيناه على خبر قديم تحدث عن أحد عروض "آسيا" للأزياء وتآلقها فيه، حثه فضوله على قراءته، اشتدت تعابيره وتوترت وهو يقرأ عن تكريمها من قبل أحد بيوت الأزياء العالمية، التوى ثغره ببسمة متهمكة، فهو لم يرَ منها إلا الجانب السيء فقط، بدا في حيرة من أمره نحوها، اكتفى بما قرأه وألقى هاتفه بإهمال إلى جواره، ردد فجأة مع نفسه بنزق:

-لازم نتطلق!

وكأنه بذلك يقضي على أي فرصة للمسامحة معها، لكنه تذكر محايلة والده عليه للذهاب إليها ومواساتها، فتحير من جديد في التعامل معها، بالطبع ليس الوقت مناسبًا لذلك، سيتلقى اللوم من والده والتوبيخ اللاذع لعدم تقديره لمشاعرها الحزينة على والديها، رن هاتفه معلنًا عن وصول رسالة نصية، فتحتها "معتصم" ليقرأ ما جاء فيها من توصية من ابن عمه للسؤال عنها، هدر بغيظ:

-إنت عاوزني أقتلك ولا إيه! أنا مش ناقصك يا "نبيل"

استفزته تلك الرسالة وامتزجت مع حميته الذكورية بكون غيره يفعل ما لا يقدر عليه، اشتد صراعه مع نفسه وطفت بقوة مشاعره الكارهة لها على السطح، لكن تلك الرسالة عززت من حسم أمره بالذهاب إليها فوراً.

.....

لجأت لتناول المهدئات لتسكن أوجاعها التي لا تنتهي، لم تفرط "آسيا" في تناولها ومع ذلك كانت وسيلتها المتاحة لتمنح نفسها فسحة للسيطرة على مشاعرها المتألمة، فوجع الفراق لا تقوى على احتماله، ما ألمها بشدة هو عدم تنعمها بأحضان والدتها عندما سنحت لها الفرصة، تكبرت عليها وتكرت لذلك، ندمت بحرقة لأنها أضاعتها وركزت فقط على رغباتها الانتقامية، باتت أكثر تعاسة عن ذي قبل، صرخت قائلة بعصبية حينما سمعت الدقات الهادئة على باب غرفتها:

قولتلكم عاززة أفضل لوحدتي، ولو جعت هابقي أقول، سيوني بقي!

وكان الطارق لم يصغ إلى صياحها المنفعل فعاد ليدق الباب من جديد، هبت "آسيا" واقفة من على الفراش لتفتح الباب فتفاجأت به عند عتبه، رددت مصدومة:

إنت؟

حدق "معتصم" فيها بنظرات شبه مدهوشة، لم يتوقع أن يراها بتلك الحالة الحزينة، كانت عيناها متورمتان ومشبعتان بحمرة غنية بسبب كثرة البكاء، كان والده محققاً، فهي قد تغيرت كثيراً، أشفق عليها نوعاً ما، لم تكن مثلما ظن أنها متسلحة بقسوتها، متشفية في وفاة والدتها، بل كانت أقرب إلى شابة عادية تبكي بحزن شديد خسارة الأحبة، ظلت علامات الاندهاش مرسومة على ملامحه للحظات، فلم يطرأ بباله أن تحزن هكذا على رحيلها رغم شكوكه الداخلية بالكراهية المزروعة داخلها، زفر بعشق قبل أن يهتف قائلاً يهدوء ليقطع حاجز الصمت الذي نشأ بينهما:

عاوز أتكلم معاكم

رمقته بنظرة منكسرة وهي تمسح عبارتها المنهمة من طرفها لترد عليه متسائلة بصوتها
المنتحب:

هانقول إيه؟

رد عليها بجمود وهو يفرك مؤخرة عنك:

-يعني.. بابا طلب مني أطمئن عليك

حاولت أن تبتسم من بين عبارتها لكن لم يزلها هذا إلا قهراً وألمأ:

يا ريت تشكره على ذوقه

تخير في انتقاء ما هو مناسب للحديث معها، شعرت "آسيا" بأنه مجبر على ذلك، ولم
يبدل "معتصم" جهداً لإخفاء هذا، تساءلت بنبرة مهتزة:

-تلاقيك بتسأل نفسك أنا إيه اللي مقعدني هنا بعد ما ماما ماتت وخصوصاً إنك
هتطلقني؟

أشاح بوجهه للجانب فتأكدت من صدق حدسها نحو رغبته في الخلاص منها حتى وإن
أجل فعل هذا، استجمعت جأشها لتجيب على سؤالها:

عشان أحترق نفسي كل يوم بزيادة وأعرف إن ماليش قيمة ولا حد!

أدار رأسه في اتجاهه ليطالعهها بغموض، فأكلت بقوة خفيفة:

-أيوه، أنا واحدة عملت لنفسي سمعة زبالة من ولا حاجة

ارتسم على شفيتها بسمة منكسرة وهي تضيف موضحة:

وكل ده ليه عشان أكره الناس فيا، بس أنا عملت ده عشان أحمي نفسي من بابا وأصحابه

تجمدت نظراته عليها، ترسخ داخلها إحساسًا قويًا بالضعف والانعكاس، ومع ذلك عمدت للظهور بمظهر القوة، أومأت "آسيا" برأسها متابعة بمرارة:

- "شرف الدين" الأب المحترم، أو نقول الراجل اللي فتح بيته صالة قمار وحاجات ثانية لأصحابه وسهراتهم اللي مابتخلصش

أغمضت عينيها لتقاوم دمعاتها التي تقاتل للخروج من طرفيها وهي تسترسل قائلة:

صعب أوي على بنت صغيرة تحمي نفسها من الجو ده لوحدها

ذهل "معتصم" من مصارحتها الغريبة له بما مرت به في طفولتها، تخيلها فتاة مدللة عاشت برفاهية وترف، تربت على الحقد والكره لطمعها ورغبتها في استنزاف الأخير، شعر بالضيق من كلامها، لم تستطع رفع عينها لمواجهته، تابعت بمدلة:

مكانش ذنبي إن بابا مدمن للقمار وساييني وسط أصحابه ينهشوا جسمي بعينهم حاولت إظهار ثباتها لتقول:

كان لازم أحمي نفسي منهم حتى لو بالكذب، المهم أنا وبس!

نظر لها باندهاش متعجب، بدت غريبة كثيرًا عن تلك الشابة الجاحدة القاسية التي عرفها فيما مضى، طالعتها يامعان وقد تخبطت مشاعره نحوها وامترجت بأسفه على معاناتها، اختنق صدرها وغص بالبكاء حينما سألته:

- عارف ماما ماتت ليه في الوقت ده بالذات؟

وقبل أن يحرك شفثيه ليجيبها ردت قائلة بصوتها الباكي مستخدمة يدها في الإشارة إلى نفسها:

ماتت عشان توجعني وتخليني أندم إني فكرت أذيتها في يوم، هي أطيب إنسانة عرفتها،
حينتها ماتت عوضش، حضنها مالوش زي!

نظر إلى عينيها الباكيتين بآلم، توجع من حديثها، ومع ذلك لم تكف "آسيا" عن البوح
بما يملأ قلبها من أحزان، انسابت دمعاتها الساخنة من مقلتيها قائلة:

-زمانك بتسأل نفسك هو أنا ليه بأعيط عليها وأنا كنت جاية انتقم منها، بس صدقني
موتها كان صعب عليا أوي

مسحت بظهر كفها عبراتها لتضيف بشجن:

-إنت تستحقها أكثر مني، كان عندك حق تقول ده!

اعترض "معتصم" على جملتها الأخيرة التي حملت وجعًا شديدًا:

- "آسيا"، إتي

قاطعته مشيرة بيدها أمام وجهه:

-اطمن، أنا قولتلك كل حاجة، ومعدتش عندي اللي أخبيه أو أخسره، يعني أنا
وجودي زي قلته، طلقني وانهي آخر حاجة تربطني بالبيت ده!

وجدت صعوبة في الحديث ورغم ذلك أضافت وهي تهز كتفها في انكسار:

-وهاعمل اللي طلبته مني زمان، هاختفي!

ضغط على شفتيه مانعًا نفسه من الحديث، فهي لم تعد مصدرًا للتهديد، تأمل في صمت
تحطم صخرة قسوتها، لين قلبها، وفيض مشاعرها الأنثوية الحقيقية النابع منها، أيمن

للموت أن يفعل ذلك بنا؟ أطرقت رأسها مضيضة بقهر:

من الأول أنا كنت زي الغربية وسطكم، بأدور على انتقامي منها ومادتهاش فرصة بجد
عشان أشوف ازاي هي بتحبني زي ما حبيتك إنت، ورغم إني كنت بأصدها هي
مياستش مني وفضلت تحبني زي ما أنا "آسيا" بنتها مش حد ثاني
ببطء حذر رفعت رأسها للأعلى لتنظر إليه في ندم، ثم اعتذرت منه قائلة:

أنا أسفة، جيت ومعايا الموت ليها هي مع أني استاهل ده مش هيا!

صدم من اعتذارها المباغت الذي أذهله وضاعف من حيرته، أتلك هي "آسيا"؟ أم
انعكاس عنها؟ دفنت وجهها بين كفيها لتقول بانهمزام:

حقيقي أنا بقيت لوحدي، خسرت أمي، ومكانش عندي أب يحميني بجد، ودلوقتي
مافيش حد جمبي، وصعب ألاقي اللي!

أجهشت ببكاء أكبر وارتفع صوت أنينها الممتزج بنحيبها، تأثر "معتصم" بدرجة كبيرة
لرؤيتها على تلك الحالة، أدمعت حدقتاه من كلماتها، تنفس بعمق ليضبط انفعالاته التي
بلغت أوجها قبل أن ينهار باكياً هو الآخر، عاد ليحدق فيها وهو يصارع مشاعره
المرتبكة، ف "آسيا" الآن في أضعف حالاتها، بحاجة لمن يهون عليها الأمر، لمن يضمها
إلى أحضانه، لمن يخبرها بأن الأمور ستكون على ما يرام، قرر حسم أمره والتخلي
عن صدره ليقرب منها هامساً لها:

ششش، متكلميش

ردت عليه دون أن ترفع وجهها:

معتشش عاوزه حاجة من حد، يا ريتني أموت أنا كمان!

انخرطت في نوبة بكاء أخري فاقدة قدرتها على إتمام جملتها حتى النهاية، شعرت "آسيا"
بلمس ذراعيه على كتفيها، وقبل أن تعترض عليه وتتملص منه كان "معتصم" الأسبق
في جذبها إلى صدره ليضمها بقوة محتوياً إياها وتاركاً لها العنان لتبكي بين أحضانه، تفاجأ

باستسلامها، وبثقل رأسها على صدره، أحس بدقات قلبها تضرب بين ضلوعه، بأنفاسها الساخنة تحرقه، همس لها معاتباً بعد أن تعالت شهقاتها المؤلمة:

إنتي تعبتينا كلنا يا "آسيا"

شدد من ضمه لها لتشعر باحتوائه للآلام التي أزهدت روحها، ربت "معتصم" على ظهرها بحنان افتقدته كثيراً، ورغم كرهه لاستغلال ظروفها وتلمسه لها بهذه الطريقة، بل وبقائها في أحضانه، إلا أنه شعر بضرورة فعله لذلك، الكل لاحظ حاجتها إليه إلا هو، منعه صلابة رأسه وتحجر تفكيره من رؤيتها على حقيقتها، هدأ من روعها وسار وهو يحاوطها نحو فراشها، أجلسها عليه طالباً منها:

ارتاحي وماتفكريش في حاجة

اندهش أكثر من امثالها له دون جدال، خارت مقاومتها إن لم تكن انعدمت، تمددت "آسيا" على فراشها واحتضنت وسادتها بقوة، وجدها "معتصم" تغمض عينيها وكأنها تهرب مما تعانیه بالنوم، سحب الغطاء عليها ليغطي جسدها، تلمس وجنتها ليمسح بقايا عبراتها، ثم اعتدل في وقفته ملقياً عليها نظرة طويلة، راقبها في صمت حتى غلبها النعاس، التفت برأسه نحو الكومود ليجد التفسير المنطقي لذلك الهدوء الغامض، أحنى جزعه ليمسك بإحدى العبوات الدوائية، قربها من عينيه ليفحصها باهتمام، عرف فخواها وفهم سبب سكون "آسيا"، نعم كانت تحت تأثير ما تتجرعه من مهدئات، زفر "معتصم" بصوت مسموع محدثاً نفسه:

عشان كده بتسمعي كلامي!

استنكر ضعفها المربك له، لوهلة وزع نظراته بين وجهها الذابل وتلك العبوات، انتابه هاجس ما أزعجه ووتر ملامحه، سريعاً قام بجمع العبوات الدوائية قبل أن تنهور في لحظة يأس محبط وتتجرع الأقراص كلها مفضلة خيار الانتحار بعد أن تحدثت عنه

لأكثر من مرة خلال مصارحتها التي تفطر القلوب، كذلك تجارها السابقة أشارت بقوة إلى ميلها لهذا الاختيار المهلك، خشي "معتصم" من إقدامها على ذلك في غفلة من الجميع، رمقها بنظرة أخرى مختلفة عن ذي قبل ثم انصرف من غرفتها مغلقاً الباب خلفه بهدوء وهو بالكاد يحاول السيطرة على أفكاره المضطربة التي جعلته يتردد من جديد بشأن حسم علاقته معها !!

.....

الفصل الثالث والأربعون (الجزء الأول)

نفت دخان سيجارته التي لازمته مؤخرًا وهو يصغي إلى الخادمة التي كانت تطمئنه على زوجته، فمذ أن رآها "معتصم" على تلك الحالة المنكسرة وقد اضطربت أفكاره السوداوية عنها، اكتشف الجانب الآخر الخفي من شخصيتها الحقيقية في لحظة مصارحتها الصادقة، شعر بغصة في حلقه وهو يتذكر سردها عن معاناتها مع والدها الذي لم يكن نعم الأب لها، بل ربما يكون السبب الرئيسي فيما أسماه انحرافها، اعتدل في جلسته ليتمكن من إطفاء بقايا السيجارة في المنفضة الموضوعة أمامه ثم أمرها قائلاً:

خدي بالك منها ولو في جديد كلميني

ردت عليه بانصياع:

حاضر يا "معتصم" بيه

أنهى معها المكالمة ليزفر بصوت مسموع موسداً ساعديه خلف رأسه، شعر بالانزعاج لكونه قد أهمل عن عمد في السؤال عنها أو حتى الاهتمام بها في تلك الظروف الحرجة، انساق خلف شكوكه وهواجسه فأنحصرت فكرته عنها، وتناسى الأسباب التي ربما دفعتها إلى ذلك، أعماه غضبه وضلله عن رؤية الصواب، كما شعر بتأنيب الضمير لكونه تأخر كثيراً عن مواساتها، فإن خسر هو من ربه خلال سنوات عمره، فقد خسرت أيضاً والدتها التي لم تنعم بحنانها من الأساس، بل لم تر عاطفتها الفياضة وتحظى بتربية سوية ترعاها فيها مثله، أخرج زفيراً مطولاً من صدره محاولاً التفكير في أمرها بعقلانية، فقد وصل الوضع بينهما للمحك، والقادم سيحتاج إلى قرارات مصيرية، انتفض في جلسته المسترخية على صوت فتح باب مكتبه، تفاجأ بوجود والده به، وقف متسائلاً بتوترٍ شبه ملحوظ:

بابا! في حاجة حصلت؟ "آسيا" كويسة؟

ورغم استغراب "وحيد" من تلهفه للسؤال عنها إلا إنه استراح لكونها باتت الشخص الأول الذي طرأ على باله حينما استشعر الخطر نحوها، رد عليه بهدوء وهو مثبت لنظراته الجادة عليه:

حلو إنك بتسأل عليها

ثم جلس في مواجهة ابنه ليتابع بابتسامة صغيرة:

-كنت فقدت الأمل إنك تعمل كده

توترت تعابير "معتصم" معللاً سبب اهتمامه بها:

هي الأيام دي مش في حالتها و....

قاطعه "وحيد" بنبرته الهادئة:

-إنت مش محتاج تبرر، من حقك تهتم بمراتك والطبيعي إنك تقف معاها في الوقت ده

تنحني ابنه متسائلاً بترددٍ ليجنب إثارة تلك الجزئية التي على ما يبدو كانت تربكه:
-أجيبك إيه تشربه يا بابا؟

رد عليه نافيًا:

-أنا مش عاوز حاجة، أنا جاي النهاردة عشان أتكلم معاك لوحدها
اشتدت قسامته قائلًا وقد انتبه له كليًا:

-تفضل

سأله والده متفرسًا في نظراته وإيماءاته:

-إنت ناوي على إيه؟

أجابه بتساؤل حائر:

-في إيه؟

تهد معلقًا يتمهل:

مع "آسيا"، في الفترة الجاية

ظهرت حيرته أكثر مع سؤاله الذي احتجزه في خانة اليك، زفر قائلًا باقتضاب:

لسه مش عارف

استخدم "وحيد" سبابته في الإشارة ليحذره بجدية تامة:

-بلاش تظلمها معاك يا "معتصم"، هي مش مستحيلة، كفاية أوي اللي شافته واللي عاشته، لو مش عاوز تكمل معاها طلقها، و.....

وكان في كلمة الانفصال دقات لناقوس الخطر، هرع مقاطعًا بتخوف وقد استشعر تسارع دقات قلبه:

أطلقها؟!!!!

استغرب والده من ردة فعله وتابع موضحةً:

-أيوه، أومال هتفضل تعاملها بالشكل ده؟ على الأقل ماتكونش إنت والزمن عليها، سيبها تعيش حياتها بعيد عن الضغوط والمشاكل

صمت ليشرد في حديثه الذي لم يكن مازحًا على الإطلاق، أزجه أن يفتح والده في هذا الأمر، تبدلت تعابيره للضييق ونظراته للامتعاض، استأنف "وحيد" حديثه قائلاً:

-أنا ومامتك الله يرحمها فاهمين إنك ماحبتهاش، وإنك كنت مجبر على ده، فمافيش داعي تمثل إنك عاوزها و.....

قاطعته للمرة الثانية متحجبًا:

مش كده يا بابا، أنا بس محتاج وقت عشان أفكر وأظبط أموري قبل ما أفاتحها راقبه والده باهتمام فقد بدا اعتذاره واهيًّا، وما أكد له ذلك هو نبرته المرتبكة حينما أكمل:

-يعني اللي أقصده إني مكوتنش واخد بالي من حاجات تخصصها، ده غير إنه هايبقى صعب أطلقها في الوقت ده، ما إنت بنفسك شايف وضعها يا بابا

أخفى "وحيد" ابتسامته تلوح على ثغره كتعبير عن رضائه بمحاولته لتأجيل ذلك الأمر، رد بهدوء وهو يحافظ على ثبات تعابير وجهه:

-كويس إنك مهتم بده

جاهد ابنه ليخفي ذلك الاضطراب الذي اعتراه أمامه، شعر بأبعائه تتقلص لمجرد التفكير فيها بشكل مختلف، حاول الالتئام عن الحديث عنها مدعيًا اهتمامه بالتطورات التي شهدها عمله مؤخرًا، أصغى إليه والده باهتمام مكثفًا بما حققه اليوم من تقدم شبه ملحوظ في تعزيز مشاعر ابنه نحو "آسيا".

.....

انشغل "معتصم" لبعض الوقت في توضيح مستجدات العمل لأبيه لكن أزعجته تلك الضوضاء الموجودة بالخارج، لحظات وارتفع الضجيج من جديد لينتبه الاثنان إلى هذه الجلبة الغامضة بالخارج، بدا الأمر أشبه بوجود مشادة كلامية مع أحدهم والسكرتيرة، وقبل أن يشرع "معتصم" في السؤال عن أسبابها تفاجأ باقتحام "شرف الدين" لغرفة مكتبه بوقاحة منقطعة النظير، وقفت السكرتيرة خلفه تعنفه بلباقة:

لو سمحت يا فندم مايصحش كده، المفروض تستأذن الأول، المكتب هنا ليه ...
بترت عبارتها مجبرة حينما هدر "معتصم" بعبوس شديد مستنكرًا وقاحته:

إنت إزاي تدخل عليا المكتب بالشكل ده؟

رد عليه "شرف الدين" ببرود يستثير الأعصاب:

مكائش صعب أوصلك، مفكر هاسيب بنتي ليك؟

استشاط غضبًا من ادعائه لاهتمامه المفاجئ بها، فصاح معترضًا بشراسة:

دلوقتي بتقول عليها بنتك؟

أشار "وحيد" بيده للسكرتيرة لتتصرف، فلا يجوز أن يتحدث ثلاثتهم عن شئونهم الخاصة أمامها، وباحترافية شديدة تفهمت الأخيرة أمره غير المنطوق وخرجت من غرفة

المكتب مغلقة الباب خلفها، تحرك "شرف الدين" للأمام موزعًا نظراته بين "معتصم"
ووالده ثم استطرد قائلاً بسماجة مزعجة:

-كنت حاسس إن وجود "نادية" معاها هياثر عليها ويلعب في دماغها
أظهر ضيقه من ذلك بصراحة وهو يكمل:

-أل وأنا اللي بقالي سنين بكرهها فيها عشان تفضل تحت طوعي وتسمع كلامي، تجيب
أما تمسح كل ده بكام يوم قعدتهم معاها

غلت الدماء في عروق "معتصم" من فظاظته المهيجة للأعصاب، وقبل أن يرد كان
والده الأسبق في الهجوم عليه، حيث وبخه صارخًا به:

-أنا ماشوقتش في حياتي أب زيك

بدا "شرف الدين" في حالة برود واضحة، لم يظهر تأثره بازدياء الآخرين له بسبب
تصرفاته، رسم على فمه تلك الابتسامة السخيفة الباردة قبل أن يعلق ببساطة:

-أنا ماليش في الدور ده، "آسيا" بالنسبالي كتر غالي من وهي صغيرة، ظبطتني في
مصالح كثير، فصعب أستغنى عنها دلوقتي!

كز "وحيد" على أسنانه هاتفاً بغيظ:

-إنت

قاطعته "شرف الدين" مبدئياً سخطه من تدخله فيما لا يعنيه:

-وبعدين إنت مالك، بنتي وأنا حر معاها، بتكلم ليه؟

ثم أرجع رأسه للخلف ليضيف بتهم قاصداً السخرية منه:

-أهلاً، مخدمش بالي منك يا "وحيد" بيه

حاول "معتصم" الحفاظ على هدوئه قدر المستطاع ليسبر أغوار تلك الشخصية الحقودة الواقعة أمامه، تفهم الآن بوضوح سبب عدائية "آسيا" للجميع ورغبتها في الانتقام من والدتها لكونها اعتقدت أنها تخلت عنها وتركتها لشخص دنيء مثله لا يكثر إلا لأمره فقط حتى لو على حساب الأقرب إليه، وبوجود أب مثله لا يكثر مطلقاً إلا بمصلحته كان عليها أن تتسلح بما يحميها وإن كلفها ذلك حياتها، استفزته جملته الأخيرة حيناً قال بوقاحة:

-البقاء لله في المرحومة، مع إنها ماتستهلش، بس يالا

خرج عن شعوره ليسبه علناً:

-أخرس يا كلب

اشتدت ملامح وجه "شرف الدين" من إهانة "معتصم" له، تمسك بعقلانيته قائلاً:
-من غير قلة أدب، ولا طولة لسان، أنا جاي النهاردة عندك وفي مكتب المهمة محددة،
عاوز "آسيا"

تحرك "معتصم" من خلف مكتبه ليقف في مواجهته، ثم رد عليه بنبرة صارمة وقد تحولت عيناه لجذوتين من النيران:

-وفكرك أنا هاسيديالك؟

أردف قائلاً عن ثقة تامة:

-كده كده هاخدها منك وهترجلي، فبلاش تتحمأ أوي، وشماعة وجود أمها معاها
راحت خلاص، فخلينا نتفاهم بالنوق أحسن

انقض عليه "معتصم" ممسكاً به من تلايبه، هزه بقوة صارخاً فيه:

-مش هايحصل

انتزع "شرف الدين" قبضتيه من على ياقته ليرد مؤكداً:
بالراحة على نفسك شوية، بلاش نرغي في كلام لا هيودي ولا هايحيب، أنا راجل
عملي ومقدر بنتي أوي
هتف "وحيد" من خلف ابنه مبرراً سبب إصراره على استعادة "آسيا" من جديد:
أه طبعا، لازم ماتضيعش وقتك، ماهي اللي بتدفعك ديون القمار، واحد زيك
ميعرفش قيمة ولاده!!

آمال الأخير رأسه للجانب لينظر إليه بتأفف قبل أن يعلق عليه:
والله دي مسائل عائلية تخصنا، محدش طلب رأيك فيها
اغتاظ "وحيد" من أسلوبه اللفظ فرد بجني:

يا ججودك يا أخي

هدر به "معتصم" وقد بلغ ذروة غضبه:

مش هايحصل، "آسيا" هتفضل معايا

نظر له شزراً قبل أن يسأله:

ليه يعني؟

أجابه "معتصم" بغموض دون أن يرف له جفن:

الكلام ده لما تكون "آسيا" حرة نفسها

قطب "شرف الدين" جبينه متسائلاً بحيرة:

مش فاهم قصدك

أجابه "معتصم" بشبح ابتسامة مغتررة لاحت على ثغره وكأنه متلذذ بقول تلك الجملة
تحديدًا:

- "آسيا" تبقى مراتي

نزلت عليه المفاجأة كالصاعقة فشل تفكيره لثوانٍ قبل أن يعاود سؤاله بضيق كبير:
نعم، وده حصل امتي؟

ربت "معتصم" على كتفه بقوة قاصدًا إيلامه وهو يجيبه بتهمك:

من زمان، واضح كده إن معلوماتك ناقصة

استنكر ذلك معتقدًا أنها كذبة حقيرة منه لتضليله فصاح بعصبية:

-الكلام ده مش حقيقي

التوى فمه بابتسامة أكثر اتساعًا ليؤكد له عن ثقة:

-والله تقدر تسأل وتتأكد بنفسك، بس "آسيا" هتفضل معايا

شعر "وحيد" بالفخر من ابنه الذي دافع عنها لأول مرة باستماتة ليخرج عن طور
الكره المقيت، دعمه في موقفه مرددًا:

-أيوه، هي دلوقتي ليها عيلة واقفة في ظهرها تحميها، وانت لسه مجربتنيش يا "شرف
الدين"

زجره الأخير بتشنج بعد أن أدرك فشل مسعاه في استعادتها:

-اسكت إنت يا جوز الست

أشعلت إهائته الوقعة لأبيه غضب "معتصم" فأطبق على عنقه يهدده بقوة:

-احترم نفسك وإلا قسمًا بالله ما تهلحق تروح بيتك، وبمكلمة واحدة مني لأصغر ظابط
في الداخلية هابلغ عنك وتقضي اللي باقي من حياتك تتعفن في السجن
بينما هدر به "وحيد" مكملًا:

-أنا بأحذرك تنسى إن ليك بنت اسمها "آسيا"، وإياك تقرب منها وإلا هاتشوف مني
الوش الثاني

دفعه "معتصم" بعنف للخلف ليرتد الأخير بقوة حتى كاد أن يتعثر لولا أن تمالك نفسه
في اللحظة الأخيرة، اقترب منه "وحيد" ليقول بعدوانية صريحة:

-"آسيا" ما بقتش لوحدها، احنا كلنا معاها، وأنا بنفسي هاقفلك يا "شرف الدين"
تقدم عليه ابنه مظهرًا عدائية أكثر في نظراته وتعايره الحادة، بدا أكثر صلابة وثقة عما
مضى وهو يضيف بلهجة شديدة:

-مش لوحذك يا بابا !!

.....

الفصل الثالث والأربعون (الجزء الثاني)

احتقن وجهه وتخبطت أفكاره من ذلك الدعم غير المتوقع من "وحيد" وابنه لمنعه من
استعادة ابنته، خرج "شرف الدين" من مكتب "معتصم" متوعدًا الاثنين باسترجاعها
عما قريب، لن يكف عن المحاولة، سيكون كالشوكة في ظهرهما، بدت ملامح وجه
"وحيد" مزعوجة على الأخير من خسته ودناءته، ألقي بثقل جسده على المقعد الجلدي
ليقول بتبرم شديد:

-بني آدم مستفز، معندوش ذرة أخلاق ولا تقدير لمشاعر الناس

تحرك "معتصم" بهدوء نحو مقعده بالرغم من تلك النظرات الشرسة الواضحة في وجهه، ربما هي مرته الثانية التي يلتقي فيها مع والد "آسيا"، لكنه بات متأكدًا من حاجتها الملحة للدفاع عن نفسها، فوجوده والعدم سواء، وحمًا إن نشأت في ذلك المستنقع المليء بالقاذورات لا بد أن تتأثر تربيتها بما فيه من موبقات مخجلة، عاد لينتبه لصوت والده المعلق:

- "نادية" كان عندها حق تدور عليها عشان تاخدها منه، واحد زي ده يؤتمن لإزاي على بنته؟ أنا صحيح ما قبلتوش قبل كده بس فعلاً الكلام غير الواقع، ده أسوأ منه بكثير، ربنا يكون في عون "آسيا" إنها استحملته كل الفترة اللي فاتت!

حملق فيه بنظرات مطولة حملت في طياتها الندم، فهو من تسرع بالحكم سلفًا على "آسيا" موهماً نفسه بأنها أيقونة الشر، ولم يخطر بباله أن تكون تصرفاتها نتاج ضغوطات أب كهذا، انتشله "وحيد" مجددًا من شروده ليحذره بجدية:

خذ بالك يا "معتصم" من "آسيا"، دلوقتي هي محتاجنا جميعًا أكثر من أي وقت رد عليه بهدوء:

ربنا يسهل

أكد عليه بنفس الصوت الجاد:

هيسهل وكل حاجة، بس إنت دورك مهم في حياتها

حك مقدمة رأسه مخرجًا تهيدة عميقة من صدره قبل أن يردف قائلاً:

حاضر

هب والده واقفًا ليسأله باهتمام:

هتفضل في المكتب ولا طالع برا

أجابه بتعبٍ انعكس على نبرته:

-يعني ورايا شوية ورق بأخلصهم، و"نبيل" في الموقع يشوف العمال وطلباتهم، إنت راجع البيت؟

هز رأسه بالنفي قائلاً:

-لأ مش دلوقتي، محتاج أعمل كام مشوار ضروري قبل ما أروح

أشار له بيده متسائلاً:

-تمام، تحب أوصلك يا بابا للمكان اللي إنت عاوزه و...؟

اعترض عليه هاتفاً:

-لأ خليك في شغلك، وبلاش تتأخر برا على "آسيا"، احنا مش ضامين النبي آدم

ده يعمل إيه في غيابنا

كان محققاً في ذلك، فربما يستغل فرصة ابتعادهما ليقتحم المنزل عنوة وربما يجبر "آسيا"

على الذهاب معه، خاصة أنها في حالة نفسية سيئة، أوماً برأسه قائلاً:

حاضر، وعمومًا أنا ماكد على الأمن مايدخلش الراجل ده

-تمام

ودعه والده قبل أن يتجه إلى خارج غرفته عاقداً النية على وضع بعض الأمور في نصابها

الصحيح، في حين انشغل "معتصم" بالتفكير في "آسيا" ولكن بصورة أخرى مختلفة

كلياً عما اعتاد الاعتقاد فيها.

.....

قررت تمضية نهارها معها لتخفف من وطأة انغزالها عنم حولها، طرقت "أية" باب غرفة "آسيا" بهدوء مستأذنة إياها بالدخول قبل أن تطل برأسها عليها، احتفظت بابتسامتها المشرقة وهي تستطرد هاتفة:

عاملة إيه يا "آسيا"؟

نظرت لها الأخيرة من طرف عينها المتورمة من نوبات البكاء المتعاقبة ثم همست بصوتٍ خفيض مقتضب:

عادي

جلست "أية" إلى جوارها على الفراش، وبدون تردد مدت يدها لتمسك بكفها المسنود بجوارها لتضغط عليه برفق وهي تقول بلطف:

ماتشيليش هم أي حاجة، أنا معاكي وجاهزة أخرجك وأفسحك عشان تطلعي برا المود ده

سحبت "آسيا" يدها من أسفل أصابعها لتعتذر بعبوس:

ميرسي، بس أنا مش عاوزة أعمل حاجة

سألتها بجدية:

ليه بس؟ أنطي "نادية" الله يرحمها مكاتنش هتحب تشوفك كده

أغمضت "آسيا" عينيها تاركة لعبراتها الحزينة العنان لتهمر من جديد في صمت، اختنق صوتها نسيبًا وهي تصر على رفضها قائلة:

معلش سينبي على راحتي

ضغطت "أية" على شفيتها مراقبة إياها في صمت لبعض الوقت، هي أظهرت فشلها في الترويح عنها لكن أضاء عقلها بذلك الخبر الذي ظنت أنه سيشكل فارقًا معها، هتفت مرددة بحمايس وقد توهجت نظراتها:

-أنا عندي ليكي خبر معرفش إن كان هيفرحك ولا لا، بس اعرفي إن ده انتقام ربنا فعلاً من كل ظالم مفتري

بدت غير مهتمة بما تقول، تحمست "أية" لتكمل حديثها بتشفيف:
مش الجبان "سامر" مات!

تيقظت حواس "آسيا" وانتهت كلياً لجلتها الأخيرة، بدت كمن أفاق من سبات عميق لتتبدل تعبيراتها إلى الاحتقان والكراهية، التفتت نحوها كالمسوعة، ثم رددت بنبرة شبه مصدومة وقد اتسعت حدقتهاها:

-مات؟!!

أومأت برأسها مؤكدة عن فرحة لم تخفها:

-أيوه، ربنا خلصنا من شره، ده ذنب كل حد أذاه و....

قاطعتها "آسيا" بصراخ مفاجئ وقد هبت واقفة من جلستها لتتحول إلى شخص آخر مختلف عن تلك المنكسرة قبل ثوانٍ تعد على أصابع اليد:

-إزاي يموت قبل ما أخذ حقي منه؟

توجست "أية" خيفة من ذلك التبدل المريب في حالتها، وقفت تطالعها بنظرات قلقة قبل أن تتوسلها برجاء:

-إهدي يا "آسيا"

ندمت في نفسها لكونها قد أفصحت عن تلك المعلومة التي ظنت أنها ستثلج صدرها،
لم تعرف أن نتائجها ستأتي بالعكس معها، تضاعف غضب "آسيا" وهي تهدر بانفعالٍ
مشتعلٍ:

-الكلام ده كذب، أنا لازم أموته، مش هاسييه

اعترضت "أية" طريقها لتمنعها من الخروج راجية إياها بخوفٍ:

يا "آسيا" استني

دفعتها الأخيرة بقوة متعصبة لتتجه إلى الدرج وهي تقريبًا في وضع لا يصعب السيطرة
عليه، حاولت "أية" اللحاق بها مرددة مع نفسها بتوترٍ كبير:

يا ربي هاتصرف إزاي دلوقتي!

.....

في بادرة هامة منه، عمد "وحيد" إلى زيارة أحد رفاقه المقربين من ذوي السلطة
القانونية ليكون له الناصح قبل المنفذ لطلبه الجاد، رحب به اللواء "موافي" في مكتبه
بعد أن علم بتواجده بالخارج ليقول بوجْدٍ شديد:

يا أهلاً وسهلاً بيك يا "وحيد"، شرفني هنا في مكنتي

صاحفه "وحيد" قائلاً بابتسامة مجاملة:

-الله يكرمك يا سيادة اللوا

عاتبه رفيقه بضيقٍ مصطنع:

هو من امتي في بينا ألقاب؟ احنا أكثر من الأصحاب، مش كده ولا إيه؟

هز "وحيد" رأسه بالإيجاب مؤكداً:

طبعًا

سأله "موافي" بحذرٍ وهو يتفرد ردة فعله:

إنّ عاملٍ إيه بعد المرحومة؟

تنفس صديقه بعمق قبل أن يحرر ذلك الزفير الخائق من صدره ليرد بحزنٍ ملموس:

الحمد لله

تابع "موافي" قائلاً بنبرةٍ مواسية:

أنا عارف إنها قطعت بيك، بس البركة في "معتصم" يعوض غيابها

أوما برأسه معلقًا:

أيوه، المهم عشان ماضيعش وقتك، كنت عاوزك في خدمة؟

بدا الأخير مرحبًا على الأخير وهو يرد دون تردد:

اتفضل، أنا تحت أمرك

تشجع ليضيف بغموض مريب:

والد مرات ابني

رفع "موافي" حاجبه للأعلى متسائلًا باستغرابٍ:

إيه ده هو "معتصم" اتجوز؟

أجابه "وحيد" بهدوءٍ:

عملنا كتب كتاب، كانت حاجة على الضيق كده، يعني وقتها كانت ظروف تعب

"نادية" فمعزمناش حد تقريبًا

فرك رفيقه طرف ذقنه متفهّمًا طبيعة تلك الزبيجة ولم يعلق عليها كثيرًا، سأله باهتمام أكبر وهو مسلط أنظاره عليه:

ها ماله أبوها ده؟

رد عليه "وحيد" بامتعايض:

-الراجل ده غير بنته خالص، عاوز يخرب حياتها ويضيعها والبنت ماتستهلش ده

تعجب "موافي" مما سمعه فسأله باندهاش:

هو مكانش موافق ولا إيه؟

أجابه بحيطّة:

-يعني في ظروف كده، بس أنا مش قادر أوصفك مدى الحقد والغل اللي جواه،

وهو مش سايبها في حالها، وطبعًا لأنه باباها فهي مش قادرة تعمله حاجة

ضاقت عيني "موافي" وهو يسأل بجدية:

طب قولي أنا أقدر أخدمك إزاي؟

أشار له "وحيد" بيده قائلاً:

-اللي أعرفه إنه مدمن قمار، ومش بعيد يكون منظم لحفلات من النوع ده

أرجع صديقه ظهره للخلف ليستند باسترخاء على مقعده، التوى ثغره للجانب مشكلاً

ابتسامة نصر صغيرة قبل أن يرد:

قولتلي بقي

تابع "وحيد" طلبه هاتفًا:

-كل اللي طالبه منك إنك تعمل تحريات عنه وتتأكد إن

قاطعه "موافي" قائلاً عن ثقة جادة:

-ماتقلش أنا هاتصرف في الموضوع ده بمعرفتي، سييلي بس بياناته وملكش دعوة

ارتخت تعابير وجه "وحيد" مردداً بامتنان:

مش عارف أقولك إيه على الخدمة دي

رد عليه صديقه بعتاب رقيق:

هو أنا عملت حاجة لسه، وبعدين ده شغلنا يعني مش حاجة جديدة

دي ورقة فيها كل اللي هتحتاجه

-تمام

نهض "وحيد" من مكانه ليصافحه من جديد وهو يشكره:

-كتر خيرك يا "موافي"، إنت فعلاً ريجتني من هم كبير

وقف رفيقه هو الآخر ليصافحه مردداً بضيق طفيف:

-إنت هتمشي ولا إيه؟ خليك قاعد شوية و...

قاطعه متعللاً:

-أنا عارف إن مسؤولياتك كتير، خليها وقت تاني نتقابل في النادي براحتنا

-مافيش مشكلة، وماتشلس هم أنا هاتصرف وأبلغك بالجديد

-متشكر أوي

قالها "وحيد" وهو يشدد من مصافحته قبل أن يستأذن بالانصراف ليجري بعدها

"موافي" عدة اتصالات من داخل مكتبه ليتأكد من تلك المعلومة التي وردت إليه

بشأن "شرف الدين".

.....
على الجانب الآخر، حاولت "أية" إيقاف "آسيا" واعتراض طريقها قبل أن تقدم على فعلة طائشة أو تنصرف بروعة وهي بمفردها معها لن تتمكن من ردعها بسهولة، خاصة أنها في أوج نوبة حادة من غضبها، توسلتها بخوف وهي تهزول خلفها على الدرج:

يا "آسيا" إتي هاتعملي إيه بس؟ أنا بجد غطانة إني قولتلك!

لم تصغ لها الأخيرة، كانت تحت تأثير حنقها الشديد من ذلك الشخص الذي أساء لسمعتها كثيراً وحاول الاعتداء عليها لأكثر من مرة ورغم هذا نجا من ذلك بسهولة، ودت لو استطاعت الاقتصاص منه قبل أن يهلك، رفض عقلها تصديق ذلك وتمسكت بكونها كذبة ادعتها "أية" لتثنيها عن رغبتها الانتقامية منه، ركضت "آسيا" نحو المطبخ الموجود بالطابق السفلي باحثة عن سكين لتسلح به، فزعت "أية" من رؤية تلك الأداة الحادة في يدها، وتراجعت بجزر للخلف مشيرة لها بكفيها في رعب واضح عليها:

سببها يا "آسيا"، إتي ... ناوية .. على إيه؟!

صرخت بها بعصبية:

-بعدي من قدامي، أنا مش مصدقة كلامك، إتي بتقولي كده عشان ماقتلهوش!
ارتاعت الخادمة من حالتها المنذرة بكارثة وشيكة، ابتعدت هي الأخرى عنها رافضة حتى التدخل في الأمر كي لا تتعرض للأذى فانسحبت بعيداً عنها، حاولت "أية" إقناعها بالإصغاء لصوت العقل فرجتها من جديد:

-والله اللي بتعمله ده مالوش لازمة، هو مات من فترة، يعني بالعقل كده في حد هيموت كده وكده؟

لم تنتبه "آسيا" لصوت فتح باب المنزل، حيث عاد "معتصم" من الخارج ليتأهب كلياً مع رؤية المشهد المتأزم أمامه، تبادل نظرات قلقة مدعورة مع "آية" وهو يتساءل بعدم فهم:

هو في إيه؟

هدرت به "آسيا" بانفعال:

-بعد عن طريقي، أنا هاموته

اعتقد في نفسه أن والدها قد أتى إليها ليهدها فأرادت ردهه بهوجائية متهورة، اقترب منها طالباً بهدوءٍ عقلاي وهو يشير لها بيده:

-متخافيش، مش هايقدر يعملك حاجة، أنا هامنعه و....

قاطعته بصراخٍ أشد حدية:

مش هاسيه قبل ما أقتله

تدخلت "آية" موضحة بعد أن لاحظت سوء الفهم عند ابن عمها:

دي بتكلم عن "سامر" يا "معتصم"

ردد مدهوشاً:

نعم، الكلب ده مش مات؟

هزت رأسها بإيماءة صريحة:

-أيوه، بس هي مش عاوزة تصدق، وزى ما إنت شايف حالتها

سحب "معتصم" نفساً عميقاً لفظه بعد ثانية دفعة واحدة ليقول بتمهلٍ وهو مركز أنظاره على "آسيا":

-أنا معاك، اللي إتني عاوزاه هنعمله، ماشي؟

تفهم سريعًا حالة اللاوعي المسيطرة عليها، لن يقدم على شيء يدفعها للتهور، سيتريث حتى يسيطر على الأمور، راقبته "آسيا" بنظراتها النارية وهي تلوح بالسكين في الهواء، غمز "معتصم" لـ "أية" بطرف عينه لتتراجع إلى الخلف حتى يتمكن هو من التصرف معها بطريقته، حاول استدراجها متسائلًا بحنكة:

-إتني عارفة مكانه؟

قطبت جبينها مبدية حيرة واضحة عليها، ثم هتفت بنزق:

-أيد الكلب ده في الفندق بتاعه

حرك رأسه بإيماءة صغيرة وهو يدنو بخطوات متمهلة مدروسة كي لا يفسد خطته في الاقتراب منها:

-تمام

ثم سألها محاولاً تشتيت انتباهها:

-بس هاتدخلي إزاي وإتني ماسكة السكينة دي في إيدك؟ الأمن هيقفك!

لحظة التفت فيها عن التحديق فيه لتخفض نظراتها متأملة السكين الممسكة به بيدها وكأنها تفكر في حل لتلك المشكلة التي ستواجهها ليستغل "معتصم" تلك اللحظة ويندفع نحوها قابضًا على رسغها بيدٍ، وباليد الأخرى انتزعه منها بشراسة ثم ألقاه بعيدًا، صرخت "آسيا" باستنكار من إفساده لخطتها المجنونة، ضربته بقوة متعصبة في صدره بيدها المتحررة، لم يكثر بضرباتٍ وعمد إلى محاوطتها بذراعيه ليحتوي هياجها المنفعل، انتفضت بشراسة لتتخلص من حصاره لها، رفض "معتصم" تركها وشد من إطباق قبضتيه عليها هامسًا لها بهدوء:

-اهدي .. ما فيش حاجة

ردت بحنقٍ غاضب:

-سيني أموته

رد عليها مصححًا لتستوعب الأمر:

هو مات يا "آسيا"، لازم تصدقي ده!

غص صدرها بالبكاء وهي تعلق بمرارة:

-مخدتش حقي منه، ظلمني وضيعني، لازم أنتقم منه!

تهتد "معتصم" بضيق وهو يمسخ على ظهرها بحنو، وضع يده على رأسها ليحبرها على إسنادها على كتفه، بكت "آسيا" بألم وارتفعت شهقاتها الموحجة، تأنب ضميره مع استشعاره لإحساسها بالظلم من قسوة أحكام الآخرين عليها، وبالطبع كان هو من أوائل الظالمين لها، ندم على تسرعه متابعا همسه بنبرة ذات مغزى لتحس بقربه منها:

-ششششش، اهدي، أنا معاك!

ضمها أكثر إليه لتخبو ثورتها مع ذلك الشعور الغريب بالاحتواء والأمان الذي تسلل إليها، رفع "معتصم" وجهه للأعلى ليشير بعينه في صمت إلى "آية" لتصرف، فلا حاجة لوجودها الآن في المنزل، انصاعت الأخيرة له وانسحبت في هدوء، ظلت "آسيا" في أحضان "معتصم" لبعض الوقت حتى سكنت تمامًا، سحبها معه دون أن يرخي ذراعيه عنها لتسير معه نحو الصالة الخارجية، لم يرغب في تركها بمفردها، أراد لأول مرة أن يبقى معها لأطول فترة ممكنة، وفي تهور غير مسبوق منه جلس "معتصم" على الأريكة وأجلسها على حجره وبين أحضانها، بدا كمن يهدد طفل صغير ليدفعها إلى الاستكانة والاسترخاء، أحس بوجود مشاعر ما نحوها غير الكراهية والانتقام

للتعزز بداخله رغبة أشد عمقًا في عدم التفريط بها معلنًا بذلك عن إشارة صريحة لوجود
تطور مثير في علاقته معها !!

.....

الفصل الرابع والأربعون

لم يحرك ساكنًا في جلسته غير الاعتيادية على الأريكة لتبقى في أحضانه هادئة
مستكينة، بدا كالصنم متخذًا حذره لتبقى قدر الإمكان مستسلمة معه، أشار
"معتصم" بيده للخادمة التي كادت تقترب منها للتوقف عن التقدم وتستدير عائدة

أدراجها من حيث أتت، تنهد بتمهل ثم أسبل عينيه ليحدق في وجه "آسيا"، راقبها باهتمام نابذاً خلف ظهره بقايا كراهيته لها، وبجذرٍ شديد أزاح تلك الخصلات التي غطت جبينها وحجبت الرؤية عنه ليتأملها عن كثب، أمعن النظر في تفاصيلها الناعمة، كانت حقًا جميلة للغاية، طالت نظراته المتعمقة نحوها، أحس بدقات قلبه تضطرب وبشيء ما بداخلة يتحرك ويحثه على التودد إليها والاقتراب أكثر منها.

للحظة غمره شعورًا غريبًا بمعاودة تقبيلها مثلما فعل ليلة عقد قرانها، قاوم تلك الفكرة الجائحة ومع هذا رضخ سريعًا أمام إلحاح خلاياه المتشوقة لها، لم يتردد كثيرًا، أحنى رأسه عليها ليتلمس شفيتها بحرص وروية، نقلته قبلتها الناعمة إلى مكان آخر متناسيًا فيه كل شيء، شعر بتململها في أحضانه فتوقف عن تقبيلها وتراجع برأسه بعيدًا عنها مدعيًا النوم، أفاقت "آسيا" من غفلتها القصيرة على تلك القشعريرة التي تسربت إليها عبر شفيتها من ذلك الملمس الحذر عليهما فنيهت مراكز الإدراك لديها، فتحت عينيها ببطء لتجد نفسها في ذلك الوضع المريب، انتفضت متسائلة بتوتر:

-إنت بتعمل إيه؟

لكزته بقسوة في صدره وهي تلقي نظرة عابرة على ثيابها لتتأكد من بقائهم عليها، تنفست الصعداء لعدم حدوث ما تخاف التفكير فيه، ادعى "معتصم" استيقاظه من سباته محققًا فيها بنصف عين، أجابها بصوتٍ شبه ناعس:

-كنت نائم

أكمل تمثيلته مضيئًا بتساؤل:

-في حاجة؟

حاولت النهوض من على قدميه متسائلة بانزعاج:

-وأنا إيه اللي جانبي عندك؟ وإنت كنت بتعمل إيه و...

أخفى عن عمد تقبيله لها كي لا تقيم الدنيا وتقعدها، تشبث بها أكثر لتعجز عن التخلص منه، ثم أجاها بابتسامة عابثة:

-كنتي تعبانة

تجهمت تعابيرها وقد بدت غير مقتنعة بمبرره الضعيف، أزاحت قبضتيه عنها مستخدمة قوتها لتتهض وهي تعلق بضيق:

-أنا دلوقتي كويسة

حافظ على ابتسامته الهادئة قائلاً باقتضاب:

-تمام

تحاشت النظر إليه وهندمت من ثيابها، شعرت بوجود خطب ما وبأنظاره تخترقها من الخلف، تجاهلت ما تشعر به لتكتفي بالإرهاق الذي نال من أعصابها وأضناها، وقف "معتصم" على قدميه ليسألها باهتمام:

-أهم حاجة أعصابك راق؟

التفتت نحوه نصف التفاتة برأسها لتجيبه بتنهيدة متعبة:

-عادي، مش هاتفرق كثير

دنا منها لتتقلص المسافات هاتقاً بتردد طفيف:

-"آسيا"، أنا كنت

لم تمهله الفرصة لإكمال جملته، قاطعته بجديّة مفرطة:

-أنا طالعة فوق

اعترض طريقها ممسكاً بها من ذراعها ليستوقفها وهو يقول لها بنبرة أقرب للرجاء:

-استني يا "آسيا"

نظرت إلى يده القابضة على ذراعها بانزعاج كبير رغم نعومة نبرته، أرخى أصابعه عنها فسحبت يدها للخلف متسائلة:

-عاوز إيه؟

ركز بصره عليها مكملاً بهدوء يناقض شخصيته المناكفة معها:

-إيه رأيك لو خرجنا نتعشى برا؟ يعني نغير المود شوية بدل الأعدة هنا في البيت، ها قولتي إيه؟

تطلعت إليه بغرابة وقد انزوى ما بين حاجبيها، رددت بنبرة مصدومة:

-نتعشى سوا؟ أنا وإنت!

أوما برأسه مؤكداً:

-أيوه، إيه رأيك؟

توتر من رفضها فتابع بوجه شبه مكفهر:

لو مش حابة خلاص، ده مجرد اقتراح

ظلت تعابير الاندهاش مرسومة على ملامح "آسيا"، تحولت تعابيرها للجدية موضحاً بتريث آملاً في نفسه ألا ترفض طلبه:

أنا عارف إننا مرينا الفترة اللي فاتت بضغوط كثير، وأعصابنا تعبت وخصوصاً لما ماما ماتت، هي نفسها مكاتش هتحب تشوفنا كده، فكرت إننا ممكن نخرج شوية، ونشوف مناظر تانية، لو مش عاوزة مافيش مشكلة بالنسبالي

صمت لتفكر في عرضه الذي أثار الريبة في نفسها، راقبها "معتصم" يامعان متوقعاً رفضها بين لحظة وأخري، توتر مع سكونها ولكن ارتخت تعابيرها حينما ردت هامسة:

أوكي

كانت "آسيا" بحاجة للترويح عن نفسها، يكفيها ما عانته من انخراطها في دوامة أحزانها لتظل أسيرة الآمها النفسية، هي بحاجة لفسحة من كل شيء، أولته ظهرها وانصرفت دون أن تعلق بالمزيد، لم يتبعها إلا بنظراته، ثم ردد بين جنبات نفسه بجدية:

-أنا محتاجين فرصة نعرف فيها بعض صح، من غير المشاكل اللي بينا، كفاية اللي حصل زمان!

أحس بتأنيب الضمير لكونه قد أصدر حكمه المسبق على "آسيا" منذ أول لحظة تعارف صادمة بينهما دون أن يمهل حتى نفسه الفرصة ليكتشف أسباب إقدامها على ذلك، كان حكمه نافذاً غير قابل للرجعة حتى اتضح له كل شيء فضعف من إحساسه بالندم، ما بدا له مزجاً أنه عاملها بخشونة جافة مستخدماً أسلوباً بربرياً همجياً لم يعهده في تعامله مع الجنس اللطيف، عقد العزم في قرارة نفسه على تعويضها عما لاقته على يديه، ستصير كالمدلات حتى تنسى تلك الذكريات المحزنة.

.....

أغلقت باب غرفتها خلفها لتسير الهوينى في اتجاه فراشها، جلست "آسيا" عليه غير مستوعبة ما حدثها فيه "معتصم" قبل لحظات، بدت مرتبكة، متخبطة، حائرة في تفكيرها، فهو يدعوها هكذا ببساطة كإنسانٍ متحضر لتناول الطعام معه وكأنه متلهف للحديث معها بعد جولات الاقتتال بينهما، ما زاد من استغرابها هو قبولها لدعوته، بررت ذلك لنفسها بكونها قد سئمت الجدال والمشاحنة فيما لا يفيد، فلم يعد لديها ما تحارب من أجل استعادته أو حتى ما تخشى خسارته، همست لنفسها بيأس:

هيحصلي إيه أكثر من اللي شوفته

دست أصابعها في خصلات شعرها وهي تميل بجسدها للأمام لتستند بمرفقها على فخذيها، أغمضت عينيها متذكرة تلك الرعشة التي اعترتها فجأة، فتحت جفنيها متوهمة أنه ربما يكون قد قبلها خلسة، تحسست شفثتها عفويًا، ثم نقضت تلك الفكرة غير المنطقية عن عقلها قائلة:

-لأ طبعًا، دي أوهام

أجبرت عقلها على إنكار ما أحست به، فهو لا يطيقها أو حتى يبادلها الحب الشغوف ليفعل هذا، أعادت ظهرها للخلف لتمدد على الفراش مستسلمة لأفكارها اليائسة التي أغرقتها من جديد في ذكرياتها المحزنة.

.....

عاد من الخارج متجهًا إلى غرفة "آسيا" ليطمئن على أحوالها بعد أن أخبرته ابنة أخيه عن النوبة العصبية التي انتابتها فور أن علمت بخبر وفاة "سامر"، طرق "وحيد" الباب فلم يجد منها استجابة، أدار المقبض بجذري وأطل برأسه للداخل، وجد الغرفة خالية منها، انقبض قلبه ثم ولج باحثًا عنها، وقبل أن يصيح عاليًا سمع صوت انهمار المياه من داخل الحمام، تنفس بعمق ليستعيد هدوئه ثم انسحب بتريث مغلقًا الباب ورائه، هرع إلى غرفة ابنه ليستفسر منه عما حدث لها أثناء انشغاله بالخارج، سأله بتلهف وقد تعقدت تعبيراته:

- "آسيا" عاملة إيه دلوقتي؟ اوعى تكون عملت في نفسها حاجة؟

توقف "معتصم" عن إكمال ارتداء قميصه الكحلي ليلتفت نحو والده، أجابه ببرود وقد كانت تعابير هادئة على غير العادة:

-كويسة يا بابا ماتقلقش عليها

اغتاظ "وحيد" من هدوئه فصاح به بضيق:

-وانت عرفت منين؟ كنت قاعد معاها ولا ...
قاطعها مؤكداً بابتسامه شبه مغتره:
-حاجه زي كده، انا اتعاملت معاها بأسلوبي
زجره والده بجدية بعد أن قست نظراته نحوه:
- "معتصم" مش وقت أغاز ولا كلام فاضي، إنت عارف إن "آسيا" بتمر بظروف
صعب، مش معقول تضايقها بطريقتك دي و...
رد عليه مقاطعاً إياه من جديد وهو يضع يديه على كتفيه:
-بالعكس يا بابا، أنا عازمها على العشا برا
رفع "وحيد" حاجبه للأعلى متسائلاً بعدم تصديق:
عشا؟!
هز رأسه بالإيجاب ليؤكد له ما سمعه:
أيوه
أشار له والده بسبابته في عدم اقتناع:
إنت وهي؟
نظر "معتصم" لأبيه بغرابة مستنكراً أسلوبه في الاستهتار بدعوته قائلاً بامتعاض:
هو ليه الكل مش مصدق إني عازمها على الأكل؟
فرك "وحيد" ذقنه معللاً:
معاك إنت صعب

رد عليه "معتصم" بتذمر:

-والله ما هاقتلها، ده أكل في مطعم وسط الناس، حاجة البشر الطبيعيين بيعملوها
دائماً

ابتسم له والده مردداً بمزاح:

حطب كويس، الواحد كان نسي ده بصراحة، الحمد لله إنك رجعت لطبيعتك

لم يعلق عليه "معتصم" وتابع ارتداء رابطة عنقه ثم شرع في تمشيط خصلات شعره،
جلس والده على مقربه منه يوصيه بجدية:

-أنا خايف عليها زي ما بأخاف عليك، ومش حابب إنها تحس إنها مالهاش لازمة
وسطنا بعد موت المرحومة، وخصوصاً إن دي وصيتها ليا قبل ما تموت

أدار ابنه جسده نحوه ليقف في مواجهته، ثبت نظراته عليه قائلاً عن ثقة:

-اطمن يا بابا، أنا وعدتك إني هاتغير، وده فعلاً اللي بأعمله معاها، وأديني بأحاول
أصلح اللي فات

ضغط "وحيد" على شفثيه متمتماً:

-أما أشوف، وبالنسبة لموضوع باباها، أنا هاتصرف فيه

سأله باهتمام:

هاتعمل إيه؟

رد بغموض أكبر:

-بعدين هاحكيك

ثم هب واقفاً على قدميه ليشدد عليه قائلاً:

المهم متتأخروش برا

رد معترضًا بمزاح:

حاضر، بس أنا جوزها، مش ماشي معاها

ابتسم والده مداعبًا بلطف:

إنت تطول تجوز واحدة زيها

اتسعت ابتسامته "معتصم" قائلاً بانصياع:

ماشاء الله، بتحاميلها أكثر مني، ماشي يا "وحيد" بيه، إنت بس تؤمر.

.....

انتهت بصعوبة من انتقاء الثوب الملائم لترتيديه في ذلك العشاء مفضلة أن يكون لونه أسودًا، تأملت "آسيا" انعكاس صورتها في المرآة بنظرات مطولة، كان جسدها أكثر نحافة عما مضى، عدلت من ضبطية الأكمام لتخفي آثار الندبات من على رسغها، جذبت أطراف الثوب للأسفل لتغطي ما بعد ركبتيها، اعتدلت في وقفها لتحملق في وجهها الذي فقد إشراقه المبهرة، حمدت الله أنها لا تزال محتفظة باللون الطبيعي لحدقتها، رفعت يديها للأعلى لتعقد شعرها كعكة، ثم استخدمت مساحيق التجميل لتمنح بشرتها نضارة زائفة، سحبت شهيقًا عميقًا ثم لفظته ببطء لتتجه بعد ذلك إلى الخارج، شهقت عفويًا حينما رأت "معتصم" ينتظرها في الرواق واضعًا يديه في جيبي بنطاله، عبست متسائلة:

إنت واقف هنا ليه؟

أجابها ببساطة دون تكلف وهو يجوب بعينه على تفاصيلها المشوقة:

مستنيكي

ردت عليه بارتباك وهي ترمش بعينيها:
كان ممكن تستنى تحت، مش لازم هنا!
سألها مبتسماً وهو يدنو منها:

هتفرق معاكي؟

أغمضت عينيها للحظة لتتجنب نظراته المحدقة بها، لم ترغب في التعليق عليه، ثم إذ
بها تشعر بأنفاسه قريبة من بشرتها، فتحت جفنيها على الفور لتجد وجهه على مسافة
تكاد تكون معدومة منها، توترت من اقترابه غير المتوقع وهي تردد:

إنت ...

وبلطف غير مسبوق منه تناول يدها بكفه ليرفعه إلى فمه، منحها قبلة رقيقة عليه
لتنفج شفاتها وتتجمد الكلمات على طرف لسانها، تعلقت عيناها اللامعتان بنظراته
العميقة، أخفض "معتصم" يدها لتتأبط ذراعه مكملاً بابتسامته الساحرة:

مش يالا بينا!

ارتجفت من معاملته الناعمة معها، جاهدت لتخفي اضطرابها من تودده الذي أخافها،
شعرت بعدم الارتياح من عدم تفسيرها لتصرفاته الغامضة، سارت معه نحو الدرج
وهي تنظر له بعينين متعجبتين، لم تنتبه لخطواتها الهابطة على الدرج فزلت قدمها
وفقدت اتزانها، تلقاها "معتصم" بذراعيه جاعلاً إياها تلتصق بجسده، حاوطها بإحكام
متأملاً وهج نظراتها عن قرب، اختفت المعالم المحيطة بهما ليغدو الاثنان في عالم منفصل،
نهج صدرها بتوترٍ مريب من قربه الخطير، دقت النظر في بسمته الصغيرة وعينيه
المشعيتين بتوقٍ كبير، ولأول مرة تشتعل بشرة وجهها بحمرة نخلة، التوى فمه للجانب
هامساً لها بعدوبة:

خدي بالك يا "آسيا"

استندت بكفيها على صدره لتجبر نفسها على الابتعاد عنه، حررها من حصار ذراعيه
فاعتدلت في وقتها، أكمل سيرها قائلة بتلعثم:

-أنا هانزل لوحدي

استشعر بقوة ارتباكها منه فعزز ذلك من إحساسه الغريب نحوها، أسرع "آسيا"
في خطواتها حتى وصلت إلى الطابق السفلي، تبعها "معتصم" بخطواتٍ أقل سرعة
منها حتى خرج الاثنان من المنزل.

.....

لحظات وكانت "آسيا" تقف أمام مدخل البناية منتظرة إياه ليحضر السيارة لكليهما،
تلفتت حولها بفتور ثم ما لبث أن تحول ذلك إلى استغراب كبير، خاصة حينما ترجل
"معتصم" من السيارة ليفتح لها الباب الأمامي لتركب بجواره، نظرت له باندهاش وهي
تسأله:

-ده بجد؟

تقوست شفتاه عن بسمة واثقة وهو يرد:

-أكيد

ثم أمسك بيدها ليعاونها على الدخول، رفعت حاجبها قليلاً مبدية تعجبها منه، مال
عليها وهي جالسة لتتوهج بشرتها بحمرة أحبها، كانت الأجواء مريكة بالنسبة لها، تأملها
قائلاً بخفوت:

-على فكرة ده أسلوبى الطبيعي، بس مكانش في فرصة إنك تشوفيه

ازدردت ريقها لتقول له باضطراب بذلت مجهودًا لإخفائه:

-مافيش داعي

اعتدل في وقفته مغلقًا الباب ثم دار حول السيارة ليركب بجوارها، التفت نحوها مانحًا إياها نظرة خشيت التصديق بأنها رومانسية، تجنبته محذقة في معالم الطريق بشرود وقد بدأ في القيادة، استطرد "معتصم" حديثه من جديد كاسرًا حاجز الصمت ليقول بغرور وغطرسة:

لو سألتني عني هتتاكدي من ده، مافيش بنت إلا وتتمنى أتكلم معها
داعبت طرف أذنها مرددة باستنكارٍ:

أشك إنك بتعامل البنات بأسلوب يجيبهم فيك
أجابها وهو يستدير برأسه نحوها موزعًا نظراته بينها وبين الطريق:
اللي بأهتم بيها بتحس إنها ملكة، بس حظك معايا كان وحش
ردت عليه ساخرة وهي تنظر له بضيق:

واضح إنهم كتار

صحح لها بهدوء:

كانوا يا "آسيا"، دلوقتي مافيش ولا واحدة تهمني!
مطت فمها هاتفية باختصار:

أحسن

أبرز ابتسامة متسلية وهو يضيف:

بس إتي غير البنات اللي عرفتهم

ردت بتهمك:

أكيد أنا كرهتك في الصنف كله

كركر ضاحكًا من طرفتها قبل أن يعلق عليها:
حاجة زي كده، ليكي السبق الصراحة في ده
تصنعت الابتسام وهي ترد:

-كويس

تهد مضيئًا بنبرة أقرب للهمس:

بس إتي بالنسبالي مختلفة، قوية، جميلة، وليكي تأثيرك عليا!
أحست من طريقته في الحديث محاولة صريحة للتغزل بها، أشارت له بعينها تأمره:
طب يا ريت تركز في الطريق
غمز لها متسائلًا بمكر:
خايفة عليا أعمل حادثة؟

ارتبكت من سؤاله ونظراته، استعادت ثباتها لترد بجمود:

-إنت حر في نفسك، بس أنا لأ

مد يده في جراحة منه ليلمس جانب عنقها بأطراق أناملها، اقشعرت من لمسته المباغتة
وانتفضت في جلستها تحدجه بنظرات قوية، أعاد يده للمقود مظهرًا تلك الابتسامة
الغريبة على وجهه، ثم حلق فيها مؤكدًا:

-متخافيش طول ما إتي معايا

حدقت فيه باستغراب، أيعقل أن يكون ذلك "معتصم" المزج دومًا لها بكلماته وأفعاله
الحادة؟ قرأ نظراتها المرتابة منه مبادلاً إياها ابتسامات ساحرة ونظرات دافئة، عادت
"آسيا" لتأمل الطريق بشرود وهي تفكر مليًا في ذلك التغيير الجذري في معاملته معها

مستشعرة بجدسها الأثوي وجود خطب ما يخفيه عنها حتى وإن ناقض ذلك مشاعرها
المتخبطة نحوه.

.....

فتح باب المطعم لها كرجل مهذب يعامل امرأته باحترام ووقار أمام الغرباء، تقدمت
"آسيا" في خطواتها ملقية نظرة خاطفة على المكان الذي بدت أجوائه الرومانسية
أسرة للعقول، شعرت بذراع "معتصم" تلتف حول خصرها وهو يقودها نحو الطاولة
المنزوية التي حجزها مسبقًا في أحد أركان المطعم لينعزل الاثنان عن الصخب المحيط
بهما، انزعجت من لباقة الزائدة معها معتقدة أنه يتصنع الاحترام ليثير غيرة النساء
الموجودات بالمكان، أسرعت نسبيًا في خطواتها لتتجنب التصاقه المتعمد بها، همس لها
بجدية:

ثواني يا "آسيا"

توقفت عن السير لتدير رأسها في اتجاهه، سألته بوجه شبه عابس:

في إيه؟

لم يجيبها بل سبقها في خطواته ليحرك المقعد لها كقاعدة ذوقية متبعة في الأماكن العامة،
أبدت إعجابها بتصرفه ثم ردت بصوتٍ خفيض:

ميرسي يا جينتلان!

همس مازحًا:

طول عمري كده يا "آسيا"

وقف خلفها واضعًا راحتيه على كتفيها، فركها برفق وهو يتابع همسه:

بكرة لما تعرفيني صح هتتاكدي من ده

تلبك بدنها من احتكاكه المباشر بها، أغمضت جفنيها مقاومة بشراسة ذلك الإحساس
الموتر لحواسها والمحفز لمشاعرها الأنثوية، تهتت بعمق حينما تراجع عنها لتعيد السيطرة
على نفسها، جلس "معتصم" على المقعد المقابل لها ليشير بيده للنادل الذي أحضر
قائمتي للطعام، سألتها بوجه مبتسم:

تحبي تاكلي إيه؟

هزت كتفيها قائلة بفتور:

أي حاجة

رد عليها:

طيب أنا هاطلبك على ذوقي، اتفقنا؟

لم تكن مشتتة لطعام بعينه فلم تهتم كثيراً بعرضه، اكتفت بالإيماء له فانتقى لها ما قد
تستحسن مذاقه، جابت "آسيا" بنظراته المكان لتتجاسى نظرات "معتصم" المتأمل
لها، كان الوضع غريباً عليها، أزعمها بقدر كبير، حاولت على قدر المستطاع أن تلتهمي
بأي شيء متجنبة افتعال المشكلات من لا شيء، لكنها سريعاً ضجرت من استمراره
في التطلع لها بنظرات المتيمين عشقاً، لذا نهرت به ضيق:

-ممكن تبطل طريقتك دي معايا؟

فهم حديثها بسبب رفته الزائدة في تعامله معها، زفر متسائلاً:

ليه؟

ضاقت نظراتها نحوه ثم أجابته بعصبية طفيفة:

مش مريحاني وخلاص، كأني في فيلم بايخ

اشتدت ملامح وجهه وهو يحتج معترضاً:

أنا مش بأمثل على فكرة، بأتعامل معاكي بطبيعتي اللي بجد، أتمنى تصدقي ده!
استندت بطرف ذقنها على مرفقها بتعالٍ قبل أن ترد:
يا ريت ترجع لـ "معتصم" القديم، على الأقل أنا قادرة أفهم بيفكر في إيه وعاوز إيه
مني

احتدت نظراته محتجًا بهدوء:

بس أنا مش عاوز أرجعله، أنا حابب تشوفيني وتعرفيني على حقيقتي يا "آسيا"
توقف الاثنان عن الجدال الطفيف حينما أتى النادل ومعه أطباق الطعام الشهية، رصها
بتأنٍ مانحًا كليهما الفرصة لالتقاط الأنفاس قبل معاودة التشاحن، أشار لها "معتصم"
بيده قائلاً:

-تفضلي، ويا رب يعجبك لما تدوقيه

أخفضت نظراتها متأملة صحنها وهي ترد بعدم مبالاة:

عادي، أهوو أكل والسلام

استاء من رفضها الجدي الواضح لمحاولاته للتجاوب معه وإذابة الحواجز الموضوعية بينهما،
ادعى استمتاعه بتناول الطعام رغم فقدته للشهية، ما قلص معدته حقًا هو الصوت
المتجهم الذي اقتحم خصوصيتهما قائلاً بتهكم:

ممكنش صعب أوصلك يا "آسيا"

رفعت الأخيرة عينيها المصدومتين لتحقق في وجه أبيها الممتع، علق الطعام بجوفها
فأصيبت بسعالٍ مفاجئ من وجوده غير المتوقع، هب "معتصم" واقفًا لينظر له شزرًا
قبل أن يسأله بجدّة:

إنت بتعمل إيه هنا؟

رقمه بنظرة احتقارية متعالية قائلاً له:

-أنا بأتمكلم مع بنتي مش معاك إنت

رد عليه بشراسةٍ وقد برزت عروقه المهتاجة:

-و"آسيا" تبقى مراتي، وأنا مش هاسمحك تقرب منها!

تحده قائلاً:

هانشوف

ارتشفت "آسيا" القليل من الماء لتهدأ من نوبة السعال التي أصابتها، فمجيء والدها كان مصحوباً بذكريات مكدره لها، مسحت بمنشفة الطعام فمها ثم حدقت مرة أخرى في وجهه القائم لتسأله بجمود رغم ثورة الغضب التي اندلعت بداخلها:

عاوز إيه؟

أجابها بصيغة شبه أمره:

هتيجي معايا دلوقتي ومن غير أي نقاش

تجاهلته قائلة بنبرة باردة وكأن وجوده لا يعنيتها:

-لا، مش هايحصل!

احتقنت نظرات "شرف الدين" وتحولت حدقتاه لكتلتين من اللهب لوقاحتها معه وإحراجها له بتلك الطريقة الفظة، هدر بها بتشنج:

إنتي بتقولي إيه؟

ردت عليه بغطرسةٍ مكملة تناول طعامها لتزيد من غضبه:

-اللي سمعته

بلغ أوج حنقه منها في أقل من ثانية، اقترب منها ممسكاً بكأس الماء الموضوع أمامها ثم قذف ما فيه في وجهها لتشهق مصدومة من فعلته، ثم صاح بها بغلظة:

-ماتنسيش نفسك وأنا بأكلمك!

اندفعت دماء "آسيا" الثائرة لتغزي بشرتها فضاعفت من حرمتها، رمقته بنظرات مغلولة وقبل أن تنطق لترد اعتبارها كان "معتصم" قابضاً على عنقه، تفاجأ "شرف الدين" به منقضاً عليه وقبل أن يقاومه طُرح أرضاً ليئن بألم كبير، فقد "معتصم" القدرة على التحكم في أعصابه المستثارة من تطاول ذلك الشخص البغيض المدعي للأبوة عليها ليخرج كلياً عن شعوره وعقلانيته، جثا فوقه يهدده بعدائية بائنة في نبرته ونظراته إليه:

-إياك تقرب منها! مش هاسمحك !!

.....

الفصل الخامس والأربعون (الأخير - الجزء الأول)

اندفعت واقفة من مقعدها لتراقب المشهد بتوترٍ بعد أن فسدت الأجواء الرومانسية في المطعم الراقى ليعود كل شيء إلى ما اعتادت عليه من عنف ونزاعٍ لا ينتهي مسببة فضيحة لها ولمن حولها، تحركت "آسيا" بتعجل لتقف خلف "معتصم"، انحنت عليه لتجذبه من ذراعيه بكل ما أوتيت من قوة بعيداً عن والدها وهي تصيح به:

-بعد عنه، سييه يمشي

رمقه "شرف الدين" بنظرة متهمكة قاصداً إيصاله لأقصى درجات الانفعال متسائلاً باستفزاز:

-هاتسمع كلامها؟

ثم هز رأسه بقوة متحديًا بسماجة:

-اضرب ووريني هاتعمل إيه

ردت عليه "آسيا" برجاء عليها تستعطفه وقد تضاعف خوفها من حالة الهرج التي سادت في المكان:

-بلاش يا "معتصم"، سييك منه!

ورغم احتقانه الداخلي إلا أن توصلات "آسيا" من خلفه جعلته متصلبًا في مكانه وكاظمًا بصعوبة ردة فعله الهوجائية تجاهه، تراجع عنه "معتصم" هادرًا به بنبرة شرسة دون أن يرف له جفن:

-مش هاسمحك تخربلها حياتها، سامعني!

تشبثت "آسيا" بذراعه دافعة إياه للخلف وهي تهمس له بصوتٍ أقرب للبكاء:

عشان خاطري، كفاية كده!

التوى ثغر "شرف الدين" بابتسامته اللئيمة التي تثير نزعة الغضب في أي شخص عقلائي، اعتدل من رقدته الإجبارية قائلاً بنبرة ذات مغزى:

-برافو عليك يا "آسيا"، المرادي وقعتي واقفة!

تأكدت من كلماته المهلكة أنه يريد تدمير حياتها مهما حاولت الخلاص مما أثير حول سمعتها في السابق، لن يتركها لشأنها، سيظل كالشوكة في ظهرها ينغص عليها صفو حياتها، أجفل بدنًا ونظرت إلى "معتصم" بتوجيس، الآن ستعذب شياطين رأسه بعقله ويتجسد له من جديد طيفها السيء، ارتخت قبضتها عن ذراعه مترجعة للخلف وهي متوقعة الأسوأ، انحبست دمعاتها في حدقتها ولمعتا بشدة وهي تصرخ بعصبية في وجهه:

-كفاية بقي، حياتي ضاعت بسببك

مد "معتصم" يده ليمسك بها فتشنجت صارخة به:

-متلمسنيش، مش عاوزة حد يقرب مني، سبوني في حالي!

هرولت هاربة من المكان وهي تبكي بحرقة مريرة على فساد كل لحظة سلام هادئة
تقاتل للاحتفاظ بها، غلت الدماء في شرايين "معتصم" وهو يشعر بالألم الذي يعترها
حاليًا، كان متيقنًا أنها تصارع أزمة نفسية جديدة بسبب ظهور والدها، دس سريعًا يده
في جيبه ليخرج ثمن الطعام ثم ألقاه على الطاولة، التفت نحو "شرف الدين" يتوعده:

-حسابك قرب، و"آسيا" هتفضل معايا مهما قولت!

ثم اندفع في إثرها ليلحق بها، تبتعها أنظار "شرف الدين" الغاضبة، لمم شتات نفسه
لينهض على قدميه، جلس على نفس طاولة الطعام التي جلس عليها الاثنان مشيرًا
بيده للنادل:

-المنيو لو سمحت

مرر أنظاره على رواد المطعم المحققين به باستنكار ليلق بنبرة عالية ووجهه يعلوه
ابتسامة سخيفة باردة:

-مشاكل عائلية، ماتخدوش في بالك

حافظ على جمود تعابيره ليثير حفيظة من حوله أكثر، وضع ساقه فوق الأخرى ثم
أشعل سيجارة أخرجها من علبة السجائر الموضوعة في جيب سترته، نفث دخانها في
الهواء مرددًا لنفسه بثقة تامة:

-ملكيش إلا أنا يا "آسيا"، إنتي نسخة مني، لازم تصدقي ده!

.....

مسحت بيدها دمعاتها الساخنة التي انهمرت بغزارة على وجنتيها، تلاحقت أنفاسها المختنقة مع تأوهات الموجهة وهي تبحث بغير هدى عن طريق للهروب، ففي الوقت الذي تأمل فيه أن تنعم بحياة هادئة يظهر والدها ليمحو ببراعة محاولاتها لهذا، للحظة فقدت "آسيا" تركيزها وتوقفت في مكانها لتستعيد سيطرتها على نفسها، تنفست بعمق وقد شعرت بضعفها ووحدتها، انتبهت لصوت "معتصم" الأتي من خلفها المنادي باسمها:

- "آسيا"!

التفتت عفويًا لتجده مسرعًا في خطواته نحوها، همت بالركض لكنه وصل إليها، أمسك بها من ذراعها ليوقفها ثم جذبها إليه متسائلًا بتلهف:

-تهري مني ليه؟

دفعته بقبضتها بقوة في صدره صائحة بنبرتها الباكية:

-بعد عني!

رفض التخلي عنها وتشبث أكثر بها، ضيق نظراته ليتأمل حالتها الفوضوية وهو يكاد يحترق لعجزه عن إيقاف إيلام الآخرين لها، همس لها برجاء:

- "آسيا"، بصيلي

لم ترغب في مطالعة عينيه ليرى ذلك الانكسار جليًا فيهما، احتضن "معتصم" وجهها براحتيه مجبرًا إياها على النظر في حدقتيه، كز على أسنانه مؤكدًا بوعده قاطع:

-أنا مش هاسيبك

رفضت تصديق ما يقوله وصرخت معترضة:

ليه؟ ها رد عليا؟

بكت أكثر وهي تجيب عنه:

قولتلك أنا منفعكش، أنا غلطة في حياتك، ليه مش عاوز تفهم ده؟ سييني بقى!
شدد من تمسكه بها وضغط بأصابعه على وجهها لتشعر بقوة لمساته عليها وليعزز ما
يقول، همس مرددًا بتبرم:

فكرك أنا مصدق اللي باباكي قاله جوا؟ البني آدم ده كداب ومايتعشرش، ده غير إنه
....

قاطعته وهي تزيح يديه بعيدًا عنها:

مش عاوزة أسمع حاجة

أشارت له بكفها متابعة بعصبية:

-كفاية مبررات، أنا تعبت من كل حاجة، ارحموني وسيبوني أعيش حياتي بعيد عنكم
أولته ظهرها لترض لكنه استوقفها مجددًا باعتراض طريقها بجسده، نظر لها قائلاً
ياصرار:

-لأ يا "آسيا"، إنتي مكانك معايا

ثم أمسك بها من راسها متعمدًا إحكام قبضته عليها لتعجز عن الإفلات منه، أمرها
بجدية:

تعالى

شحنت ما تبقى من قواها لتتخلص من أصابعه الغليظة صائحة بانفعال:

سييني!

اتجه بها نحو السيارة رافضًا تركها وهو يرد بخشونة ظهرت في لهجته:

هنتكلم في البيت ونتفاهم هناك!

أجبرها على السير معه نحو سيارته المصفوفة بجوار المطعم، أجلسها فيها عنوة مثبطًا أي محاولة منها للمناص منه، التف حول السيارة ليجلس خلف عجلة القيادة، وليتأكد من عدم إقدامها على فعل متهور أثناء تحركه بها أغلق القفل الإلكتروني لجميع الأبواب فباتت حبيسته مؤقتًا.

.....

لم يعد بها مباشرة إلى المنزل، بل ظل يجوب الطرقات لساعات بالسيارة ملتزمًا الصمت وتاركًا لها الحرية لتبكي حتى ضعفت قواها واستسلمت للنوم لتهرب لبعض الوقت مما تعانیه، أوقف "معتصم" السيارة في منطقة هادئة شبه نائية مرخيًا رابطة عنقه عن باقته وفتاحًا لأول أضرار قميصه، ثم بجذرٍ شديد مال نحو "آسيا" ليحرك مقعدها للخلف لتغفو بأريحية، أحزنه رؤية عبوسها جليًا على ملامحها المستكينه قسرًا، وبعناية واضحة مسح بقايا عبراتها من على بشرتها ليحس بتلك الرجفة الخفيفة التي اعترتها، تراجع قبل أن تفيق ونظر لها بترقبٍ، تنفس بارتياح لكونها لا تزال مستغرقة في غفلتها، هز ساقه بعصبية راغبًا بشراسة في العودة للمطعم وتلقين من يحمل لقب والدها خطأ درسًا قاسيًا، كور أصابعه بقوة وظل يزفر ببطء ليتحكم في أعصابه المتحفزة، استدار نحوها كالملسوع حينما هلوست بهميس:

-ابعدوا عني، كفاية!

هاجت دماؤه من جديد، ثم كز على أسنانه معنقًا نفسه بغلظة:

-أنا زبي زيه يا "آسيا"، مارحمتكيش!

أدرك أيضًا أنه أحد أطراف معاناتها، فإن كان والدها له السبق في هذا، فبالطبع أكمل هو عمله بالضغط المستمر عليها ليخرج أسوأ ما فيها، ولن تصدق بسهولة أنه ليس كما

ادعى معها الفظ البربري، أرجع رأسه للخلف ضارباً بها مؤخرة مقعده لعدة مرات وهو يردد بندم:

غبي، مفرقتش عنه في حاجة!

سمع تلك الآنة الخافتة منها فالتفت نحوها يتأملها باهتمام شديد، وبدون أي حذرٍ مد يده ليمسح على بشرتها برفقٍ قائلاً لها:

-أنا أسف!

أعاد تشغيل المحرك لينطلق بالسيارة عائداً بها إلى المنزل.

.....

ليلة مشحونة بدأت بتطلعات لساعات رومانسية حاملة وانتهت بصورة مأساوية مخربة لأي ذكرى طيبة، أفاقت "آسيا" من نومتها المزعجة لتجد نفسها لا تزال في السيارة، نظرت بعينين متورمتين إلى "معتصم" الذي أوشك على الوصول إلى طريق المنزل، سألته بصوتها المبحوح وهي تحديق باستغراب في الشفق الذي اعتلى السماء:

-إنت مرجعني هنا ليه؟

أجابها دون أن ينظر نحوها:

ده بيتك

ردت نافية:

-لا، أنا ماليش مكان هنا

أحست بوجود فارق زمني بين توقيت ذهابها للمطعم وعودتها للمنزل، سألته بارتياح:

هي الساعة كام دلوقتي؟

نفخ قائلاً بثقلٍ:

-النهار قرب يطلع

سألته بانزعاج واضح:

-هو احنا كل ده كنا برا؟

أجابها باقتضاب:

-أيوه

خشيت أن يكون قد ارتكب حماقة ما أثناء غفوتها فرددت بتوجيس:

-إنت عملت إيه؟ رجعت المطعم ثاني و....

قاطعها بصوت متصلب وهو ينظر تلك المرة إليها:

-متخافيش، أنا مقربتش منه مع إنه يستاهل ال....

بتر عبارته كي لا يثير حنقها وهو بالكاد يحاول إعادتها لهدوئها الطبيعي، ابتلع ريقه ليتابع

بجدري:

-إنتي كنتي محتاجة تترتاحي وأنا كنت مخنوق فضلت ألف بالعربية شوية، ودلوقتي

احنا راجعين البيت

كانت "آسيا" مرهقة للغاية، يكاد الصداع يفتك ببقايا خلاياها المتبقية، بدت غير

قادرة على الجدال والاعتراض، أسندت رأسها على المقعد لتريح عقلها مؤقتاً من

التفكير، أغضت عينها الملتببتين لبرهة، كانت بحاجة لأحضان والدتها وكلماتها المطمئنة

التي تبث لها الأمان، افتقدتها في تلك اللحظة كثيراً، غرقت في تفكيرها عنها ولم تشعر

بـ "معصم" وهو يوقف السيارة وكأنها سرحت تلقائياً في ملكوت يجمعها بها، استغرب

من صمتها، لم يزعجها وتركها على حالتها تلك لدقائق، اعتقد أنها ذهبت في سبات جديد

فترجل من السيارة ليتجه إليها، فتح الباب الملاصق بها ثم انحنى ليحملها بين ذراعيه،
في تلك اللحظة فتحت "آسيا" عينيها مدهوشة من فعلته، تدمرت عليه قائلة بضيق
وهي تركل بساقها الهواء:

سيني يا "معتصم"!

رفض تركها قائلاً بجمود جاد:

إنتي تعبانة، مش هاتقدي تمشي

ثم أغلق بيده الباب ليكمل سيره نحو المدخل، زوت ما بين حاجبيها بقوة وهي ترد
بامتعاض متجهم:

أنا

رمقها "معتصم" بنظرة صارمة قبل أن يقاطعها بلهجته الجادة رغم خفوت نبرته:

ششششش، بطلي تقاوميني، احنا خلاص وصلنا بيتنا!

حدقت أمامها لتتأكد مما قاله، وبغفوية غير معتادة منها أسندت رأسها على كتفه لتتخلى
عن جدالها العقيم معه، فمهما أبدت من تدمر ومشاكسة محتجة لن يصغ لها، وهي بالفعل
مرهقة وبجاجة ماسة للراحة والنوم، شعر "معتصم" بأنفاسها المنتظمة والساخنة تضرب
عنقه وتلهب خلاياه، بل إنها أشعلت الرغبة في التودد لها بحميمية، أسبل عينيه ليتأملها
بشغف لم يقاومه، تمنى فقط لو تشعر بما يختلجه الآن من مشاعر حقيقية أنكرها في
البداية، دق قلبه بقوة مع زيادة حماسه، ترك مشاعره الذكورية تتدفق في جسده
لتغذي كل ذرة فيه بتوقه المتحمس لها.

كانت كالمطبعة لأوامره وهي شبه غافلة في أحضانه، مستسلمة لما قد يفعله بها،
استحوذ على تفكيره أفكارًا حاملة ودًا باشتياقٍ لو شاركته إياها وجدانيًا وحسيًا، سحب
"معتصم" شهيقًا عميقًا حبسه لثوانٍ معدودة في صدره ليخمد به تلك الثورة المندلعة

بداخله قبل أن يجرره بحرارة، أحنى رأسه طابعًا قبلة سريعة على رأس "آسيا" ثم خرج من المصعد متجهًا إلى باب المنزل واضعًا المفتاح في قفله، ولج إلى الداخل مغلقًا الباب بهدوءٍ حذر، صعد بعدها الدرج ليصل الطابق العلوي، وأكمل سيره حتى وصل بها إلى غرفتها، تردد في الدخول، وإذ به يقرر الإقدام على فكرة متهوره، لما لا يجعلها تعايش تجربة رومانسية تنسيها ما فات؟!؛

.....

الفصل الخامس والأربعون (الأخير - الجزء الثاني)

تجمد في مكانه ليفكر برويةٍ وعمق فيما اتوى على فعله، وبخطا ثابتة وحذرة غير "معتصم" وجهته ليسير في اتجاه غرفته، ولج إلى الداخل ثم برفق شديد مدد "آسيا" على فراشه، عاد إلى الباب ليوصده بالمفتاح والتفت ليرمقها بنظرات مطولة، خلع سترته وأسندها بإهمال على المقعد، ثم انتزع رابطة عنقه وحل أزرار قميصه بالكامل، زفر بصوت مسموع ليهدئ من الحماس المشتعل بداخله، اقترب منها ثم جلس على طرف الفراش ممرًا أنظاره بتمعنٍ شديد على تفاصيل وجهها، رفع يده ليتلمس جبينها برفق ناعم، همس لها بصوتٍ عذبٍ اخترقها:

- "آسيا"!

تنهت لصوته ففتحت عينيها على الفور لتجده يطالعها من ذلك القرب المريب، زحفت بعيدًا عن حصاره المريب وهي تردد بتوتر:

إنت!

ألقت نظرة خاطفة على تفاصيل المكان من حولها لتتأكد أنها ليست بغرفتها، زاد اضطرابها دقات وجهها وارتسم على ملامحها شبه المذعورة علامات القلق، سألته بنبرة مهتزة:

أنا إيه اللي جاني هنا؟

أشار لها بيده محاولاً تهدئتها قبل أن تثير جلبه من لا شيء:

- "آسيا"، اسمعيني لو سمحتي

تحفزت حواسها لما سيحدث لاحقاً، استشعرت نية مبيتة لفعل ما تخشى التفكير في إمكانية حدوثه، رمقته بنظرات قلقة وهي تسأله:

عاوز تقول إيه؟

دنا منها بجذرٍ، فهبت واقفة من على الفراش لتترك مسافة آمنة بينهما، توقف عن التقدم لبيت لها إحساس الثقة، منحها نظرات دافئة مليئة بالشغف ثم تابع موضحاً بخفوت:

متخافيش مني يا "آسيا"، أنا غير أي حد

رفعت سبابتها نحو باب غرفته تأمره رغم ارتجاف صوتها:

عاوزة أطلع من هنا

هز رأسه بالنفي وهو يرد عليها بهدوء:

مش هاينفع

شعرت بجفاف كبير يحتاج حلقتها، فنظرات "معتصم" الغريبة نحوها تؤكد لها عزمه على تصعيد الأمور في علاقتهما، خفق قلبها بقوة حينما تابع:

أنا عاوز أقرب أكثر منك، تعرفيني بجد وتفهميني
ردت محتجة بجمود زائف عليها تنجح في التخلص منه:

وده ماينفعش إلا في أوضتك؟

التوى ثغره قائلاً بابتسامة صغيرة:

-أنا متجوزين يا "آسيا"، طبيعي يبقى في أمور ومشاعر خاصة بينا

زاد يقينها بأنه سيتودد إليها بصورة حميمة، فمذ ومتى وتلك المعاملة الرقيقة الراقية منه
معها؟ حاولت المناص منه لتقول باعتراض واضح:

بس بالشكل ده

حسنت أمرها بالرحيل فوراً من غرفته، فبقائها يعني استدراجها لما تخشاه، تحفرت
واندفعت في اتجاه الباب بأقصى سرعتها، توقفت كلياً فجأة حينما سد عليها "معتصم"
الطريق بذراعيه، أجبرها بذلك على التراجع خطوتين للخلف بعيداً عنه، عبس وجهه
وهو يتوسلها بحذر:

- "آسيا"، استني من فضلك

صاحت فيه بنبرة أقرب للصراخ:

عاوزة أطلع من هنا

أشار لها بكفيه يرجوها بعقلانية:

- اسمعيني بس للآخر

نظرت له بعينين حادتين فأكمل يتمهل:

-أنا والله غير الشخص اللي اتعاملتي معاه خالص، أنا شخصية مختلفة

ردت بنفاد صبر:

أوكي، ماشي طلغني من هنا!

تقدم نحوها فتراجعت لا إرادياً للخلف، ابتسم مضيئاً بتهنيدة فهمتها على الفور:

مش قبل ما تعرفي باللي حاسه ناحيتك!

ارتفع حاجباها للأعلى في اندهاش كبير، ردت بعدم تصديق:

نعم

زفر بعمق قبل أن يستأنف حديثه المتيقن:

-مهما حاولت أنكر ده في الأول بس فعلاً جوايا ليكي

قاطعته بجدة رافضة منحه أي فرصة للتعبير عن مشاعر لن تصدقها حالياً:

- "معتصم" لو سمحت

أزعجه رفضها السماح له بالتقرب منها واسترقاق قلبها عله يتمكن من استمالة عقلها وإزالة تلك الغشاوة التي تعوق كلاهما عن رؤية مشاعرهما الحقيقية، اقترب منها هامساً باسمها:

- "آسيا"

ظلت تتراجع للخلف حتى اصطدم جسدها بخزانة الثياب، باتت محاصرة منه، تقوست

شفتاه بابتسامة ساحرة، رفع يده ليتلمس وجنتها بجنو وهو يسألها:

-بتبعدي ليه مني وأنا عاوز أقرب منك؟

توترت نظراتها وتحرك بؤبؤاها بعصبية ملحوظة، رجته بأنفاس متهدجة:

-سييني أمشي من هنا

رد نافياً بكلمة واحدة:

صعب!

اتسعت حدقتها الفيروزياتان أكثر، تورد وجهها بدموية مغرية ومحبة إليه، اقتشع بدنها من لمسة يده الأخرى على جانب عنقها، أغمضت "آسيا" عينيها مقاومة ذلك الإحساس المغربي الذي عصف بأوصالها وهو يفرك بشرتها بركة مؤججة للمشاعر، ارتجفت خلاياها من لمساته، مال عليها "معتصم" برأسه ليطلع قبلة حسية عميقة على شفيتها أراد أن يعزز بها توقه لها، استمر في محاوطة وجهها بأصابعه مدعماً قبلته بالمزيد من المشاعر الأكثر عمقاً ليدفعها للاندماج معه وجدائياً، تراجع عنها هامساً لها بتنهيده حارة ألهمت وجهها المشتعل مسبقاً:

-شكلي وقعت في حبك يا "آسيا" وأنا مش دريان!

ورغم التخبط الهائل في أحاسيسها إلا أن كلماته كانت محسوسة بشكل غامض ومثير، تابع همسه العاشق مردداً:

خلينا نعيش اللحظة دي وننسى كل اللي فات

تلاحقت دقات قلبها مع همساته الملامسة لأوتارها، داعب طرف أذنها بأنفاسه مؤكداً لها:

-إنتي مراتي ومشاعري من حقك زي ما مشاعرك من حقي أنا وبس!

انحنى عليها مجدداً لينحها قبلة أخرى أذابت ما بينهما من حواجز وهمية ومهدت الطريق لأمر أشد تأثيراً، أدركت "آسيا" عند تلك النقطة أنه لا بديل عن الاستسلام له، فرما تلك هي طريقته للتأكد من عفتها حتى لو ادعى حبه لها، فقط تمتاز بكونها صورة إنسانية راقية بعيدة عن الحيوانية الغرائزية التي قرأتها في أعين من التقت بهم من أشباه الرجال، فإن اعترضت عليه وقاومته سيعاملها بخشونة وقسوة وفي الأخير سينال غرضه منها وستعاني من ذكرياتها، إذا لتجعلها لحظة مميزة ومختلفة، لتمنحه ما يطمح إليه لتكون

آخر ذكرى تجمعها سوياً، بادلته بعد حسم مصيرها معه مشاعرها الحسية، فتضاعفت
رغبته فيها مع تجاوزها المثير الذي شوقه للمزيد، وحدث ما تمناه.

.....

جاهز؟

تساءل "شرف الدين" بتلك الكلمة المقتضبة موجهاً حديثه إلى غريمه الجالس في
مواجهته وهو ينظر بجلسةٍ إلى أوراقه الراجعة، بدا الأخير مزعوجاً من خسارته
المتلاحقة خلال ليلته المشؤومة، وضع ما تبقى معه من نقود في المنتصف ليرد بتأفف:

-أيوه

ثم أظهر أوراقه متوقفاً أن يقف القدر في صفه ويربح، خابت توقعاته مع إبراز "شرف
الدين" لأوراقه الراجعة ليحقق فوزاً كبيراً عليه، فرد ذراعيه ليضم النقود إليه لكن تجمد
في مكانه مصدوماً حينما سمع الصوت الأمر بغلاظة:

-ولا حركة!

ثبت أنظاره على الرجل المهيب الذي اقتحم المكان برجاله من ذوي الوجوه الصارمة،
خمن سريعاً أنها مدهامة من قبل السلطات الأمنية على ذلك المكان السري الذي يمارس
فيه رواده لعبة القمار، ادعى تماسكه متسائلاً ببلاهة:

-إنتو مين؟

أجابه الضابط بابتسامة منتصرة:

-بوليس يا حضرت، وطبعاً مش محتاج أقولك احنا هنا ليه

ثم أدار رأسه للجانب ليأمر رجاله بصرامة:

هاتوهم وحرزوا الحاجات دي كلها!

هاج "شرف الدين" لتبخّر حلم الفوز في ثانية، هدر محتجًا على إلقاء القبض عليه،
قاوم رجال الشرطة صارخًا بتشنج:

-سيبوني، أنا هوديكم في داهية، إنتو مش عارفين مين ورايا
نظر له الضابط شزرا وهو يعلق عليه باستهزاء:

-ابقى عرفنا في القسم، يالا على البوكس

ساقه رجال الشرطة إلى خارج المكان متلبسًا بالجرم المنشود لتنتهي فعليًا بالنسبة له
حياة الترف والرفاهية.

.....

انقضى ما يزيد عن ساعتين منذ لحظة تلاحم جسديهما معًا لكنها ظلت متيقظة الحواس
واعية لكل شيء، فكرت مليًا في تبعات علاقتهما، وتخيلت الكثير من النهايات المأساوية
لزيجتهما، حركت "آسيا" رأسها للجانب لتنظر إلى "معتمص" الذي غرق في سبات
عميق، عاتبت نفسها بقسوة لضعفها، لخذلانها، لاستسلامها، ولرضوخها بسهولة لفيض
المشاعر الناعمة التي نقلتها لعالم وردي سكنت فيه آلامها وجعلتها تحلق عاليًا متناسية
كل ما مرت به في حياتها الماضية، أوهمت نفسها بأنها قد عايشت حلمًا جميلًا ستفوق
منه على حقيقة مريرة حينما منحته في تمناه ورجب فيه بدون عناء، لحظة واحدة أشعرتها
بالخوف من مستقبلها معه، حتمًا سيطفو ماضيها على السطح ليخلق المشاكل بينهما،
قررت دون تفكير هجر "معتمص" والاختفاء من حياته قبل أن يذيقها ما لن تتحمله
متسلحًا برغباته الانتقامية التي لن تخمد بين ليلة وضحاها، ستحيا بعيدًا عنه وبمساعدة
نفسها فقط، ستتلاشى من حياته نهائيًا، تحركت بجذير شديد من على الفراش كي لا
توقظه، ثم تسللت على أطراف أصابعها لتخرج من غرفته.

عادت "آسيا" إلى غرفتها مهرولة، وبدون أي تأخير جمعت ما استطاعت أن تطله
يدها من متعلقات تخصها في حقيبة صغيرة، التقطت الصورة الفوتوغرافية التي جمعها
بوالدتها الراحلة نظرت لها بحزن، مسحت عليها بيدها قائلة بندم:

مش هاينفع أكل معاه، هو محبنيش من الأول!

دستها على عجلة وسط ثيابها، قررت أن تترك هاتفها على الكومود، ليست بحاجة
إليه، سترحل بلا عودة وبدون أن يقتني أحدهم أثرها، وتأن حريص خرجت من
الغرفة، أضاء عقلها بفكرة جهنمية، ستجبر "معتصم" على تذكر نبذها له دومًا، لذا
دونت على ورقة صغيرة جملة حملت الكثير (طلقني، أنا بأكرهك)، أسندت حقيبتها
بجوار باب غرفته وتسلمت إلى الداخل لتضع الورقة على الوسادة بجواره، تخشب
جسدها مع تلك الغممة البهمة التي صدرت منه، خشيت أن يكتشف أمرها ويفسد
مخططها، حبست أنفاسها بترقب، وما إن تأكدت من استغراقه في النوم حتى عادت
من حيث أتت لتهرول على الدرج ومنه إلى الطابق السفلي ثم إلى خارج المنزل، كان
الوقت مبكرًا فخدمها ذلك الهدوء السائد في المنطقة إلى حد ما، سارت بخطوات أقرب
للركض متجهة للطريق الرئيسي لتستقل سيارة أجرة، أمرت السائق بصوتها اللاهث:
اطلع على موقف الباصات!

.....

تنعم بمشاعر مشوقة مليئة بالآنات والأهات المستمتعة وهو يقدم باستفاضة حبه
الجارف لها، تملل "معتصم" في الفراش مستعيدًا في عقله لحظاته الخاصة مع "آسيا"،
وما زاده سعادة هو تأكده من نقائها فانهارت شكوكه وتبددت كليًا، شعر بالرضا
والانتشاء الممتع مع اختباره لمشاعرها الأثوية التي قدمتها له بكرم كبير، تشاءب وهو
يتقلب على جانبه آملاً أن يكون وجهها الساحر هو أول ما يراه في نهاره، فتحت عينيه

ليتفاجأ بخلو الفراش منها، تحسس مكانها فوجده باردًا، انتفض من نومه متلففًا حوله بقلق، هتف مناديًا بصوته الناعس:

- "آسيا"!

تنحنج بخشونة قبل أن يزيح الغطاء عنه ليتجه إلى الحمام، اعتقد أنها بداخله فدق الباب متابعًا ندائه عليها:

- "آسيا"، إمتي جوا؟

لم يحصل على جواب يشبع فضوله فاستأذن قائلاً:

أنا هادخل لو مردتيش عليا

وبدون تردد أدار المقبض لينفتح الباب فظهر المكان خاليًا منها، انقبض قلبه بخوفٍ وأسرع بارتداء قميصه التحتي، تجمدت نظراته على تلك الورقة الملقاة بجوار الفراش، انحنى ليلتقطها ثم قرأ ما فيها لتتحول تعابيره للتجهم الشديد، خرج "معتصم" من غرفته متجهًا إلى غرفتها صائحًا بنبرة عالية:

- "آسيا"

اقتحم غرفتها فوجدها شاغرة، استشاطت نظراته من فعلتها غير المبررة، طوى الورقة

بعصية ثم مشى مهرولاً نحو الدرج وهو يتساءل بحنق:

ليه كده يا "آسيا"؟ بتبوظي حياتنا قبل ما تبدأ ليه؟

خرج والده من غرفته على صوته المرتفع متسائلًا:

في إيه "معتصم"

التفت نحوه ليجيبه وشرارات الغضب تطير من عينيه:

- "آسيا" سابت البيت يا بابا

احتل الاندهاش قسامته فردد مصدومًا:

-بتقول إيه؟ وإزاي ده حصل؟ وعشان إيه؟!!!

أجابه من بين أسنانه المضغوطة:

-معرفة حاجة!

اقترب منه "وحيد" بخطاه المتعجلة يسأله بعبوس يعلو وجهه:

-اوعى تكون ضايقتها بأسلوبك؟ مش أنا موصيك عليها

هدر منفعلًا:

-أنا معملتهاش حاجة، بالعكس احنا كنا مبسوتين أوي امبارح حتى بعد ما باباها

قاطعها أباه متسائلًا باستغراب:

-قصدك "شرف الدين"؟ إنتو شوفتوه فين؟

توهجت نظرات "معتصم" بغضب مفهوم، تتم بغيظ:

-أكيد الجبان ده كلمها وهددها وهي خافت منه، أنا مش هاسيبه لو عملها حاجة

-أمسك به "وحيد" من كتفيه ليهزه وهو يسأله بجيرة انعكست في نظراته المتوترة نحوه:

-فهمني يا "معتصم" إيه اللي حصل؟

أجابه بغموض:

-نوصل بس لـ "آسيا" وهاحكيك كل حاجة

أرعى والده قبضتيه عنه ليتابع بجدية:

-أنا هاكلم اللوا "موافي" جايز يقدر يفيدني بحاجة عن أبوها ويمكن نوصلها عن طريقه

أوما برأسه موافقًا:

-تمام، وأنا هاغير هدومي وأروح شقتها القديمة، احتمال تكون رجعت هناك

رد عليه والده بقلق كبير:

-ماشي، وخليك على اتصال معايا وبلغني بأي جديد يا "معتصم"

حاضر

قالها ابنه وهو يعاود أدراجه إلى غرفته ليبدل ثيابه ويبدأ رحلة البحث عن حبيبته الهاربة "آسيا".

.....

مرت ليالٍ عليه وقد خاب مسعاه في العثور عليها في كل الأماكن التي من المحتمل أن تلجأ إليها، أهمل متابعة عمله وانشغل بها هي فقط، عاد "معتصم" خائب الرجاء وخالي الوفاض إلى منزله متحسرًا مهمومًا، ألقى بجسده المتعب من المجهود الزائد على الأريكة وهو يعتصر عقله محاولاً الوصول إلى شيء ما قد يمكنه من إيجادها، كز على أسنانه مغمغماً بضيق حائق:

-روحتي بس فين؟

سأله "وحيد" الذي اقترب منه ليتفقدته:

-برضوه ملقتهاش؟

خرج صوته متشنجًا وهو يجيبه:

-زي ما تكون فص ملح وداب

أرجع رأسه للخلف متسائلًا بغضبٍ لم يخمد للحظة:

-اللي هاييجني هي عملت كده ليه؟ اقسم بالله أنا عملتها كويس جدًا، كنت مستعد
أخليها تعيش ملكة معايا

جلس والده بجواره ماسحًا على كتفه بجنو أبوي، تهدد معلقًا:

-جائز محتاجة فترة تعيد حساباتها فيها

نظر له بغل وهو يرد:

هي لعبتها صح وانتقمت مني

اعترض والده على ظنونه السيئة قائلاً بصوته المتصلب:

-هترجع لشكوكك دي تاني؟ ما هو ممكن ده اللي خلاها تبعد عنك!

برر له اعتقاده قائلاً:

حطب تفسر لي يايه اللي عملته يا بابا؟ أنا واحد صحيت من النوم لاقيت مراتي سياله

ورقة مكتوب فيها طلقني وهربانة من البيت

كان إلى حد ما محققًا في هاجسه ورغم ذلك علل "وحيد" تصرفها موضحًا:

-مممكن تكون أعدة مع واحدة من أصحابها

هز رأسه بالنفي قائلاً:

-معتقدش، ماشوفتلهاش واحدة خالص

أضاف والده باهتمام جاد:

حطب مسألتهش "أية"؟ هي كانت قريبة منها الفترة اللي فاتت، احتمال تكون قالتلها

على مكانها أو ...

قاطعته "معتصم" بيأس:

برضوه متعرفش عنها حاجة

ربت والده على كتفه ليهون عليه قليلاً، ثم علق بهدوء:

إن شاء الله هنوصلها، متقلقش

استنكر حدوث ذلك متسائلاً:

إزاي؟

تابع "وحيد" حديثه:

-اللو "موافي" كلمني وقالي إنها مخرجتش برا مصر، ودي حاجة كويسة أوي، يعني هي
لسه هنا!

دفن "معتصم" رأسه بين راحتيه لثوانٍ قبل أن يبعدهما ليزفر قائلاً بإحباطٍ جلي:

أنا عامل زي اللي بيدور على إبرة وسط كوم قش!

.....

ناولتها كوب النسكافيه الساخن لتحطسيه بعد أن اعتدل في جلستها على الفراش،
ابتسمت "آسيا" لرفيقتها "جميلة" بامتنان كبير لحسن ضيافتها لها، فقد استقبلتها
الأخيرة في منزلها حديث الطراز بتلك المدينة السياحية المواجهة لشواطئ البحر الأحمر
لتمكث معها بعد أن فرت من "معتصم"، أشفقت عليها صديقتها معتقدة -مثلما أخبرتها-
بأن زوجها قد عاملها بقسوة وعنف قبل أن يطرد من منزله لتقاسي بمفردها في الطرقات
محتفظة لنفسها بهويته الشخصية، رفعت "آسيا" عينيها الذابلتين نحوها قائلة:

تعبتك معايا

ردت بعبوس زائف:

هو أنا عملت حاجة، المهم إتني بقيتي كويسة دلوقتي؟

هزت "آسيا" رأسها بالإيجاب لترد بحرج:
-الحمد لله، معلى هتقل علىكى كمان كام يوم لحد ما أظبط أموري و...
انزجت "جميلة" مما قالته ووبختها قائلة بركة:
-ماقوليش كده، والله أزل منك
ثم رسمت بسمه ناعمة على شفيتها لتضيف بحماس:
ده أنا مصدقت ألاقى حد أعرفه يقعد معايا هنا فى المنفى ده
مالت "جميلة" على "آسيا" لتضمها بذراعيها من كتفها، شعرت الأخيرة بالاحتواء من
ضمها الصغيرة، أضافت رفيقتها بامتنان واضح:
-وبعدين أنا مش ناسية اللي عملتية معايا لما كنا فى "دي"

تذكرت "آسيا" لجوء صديقتها إليها لتطلب منها مساعدتها لإبعاد ذلك البغيض الذي
حاول الاعتداء عليها أثناء مشاركتها فى إحدى عروض الأزياء، لم يتركها ذلك الدنيء
وشأنها، بل لحق بها إلى غرفة تبادل الثياب، وحينما حاولت اتهامه بالتحرش بها، اتهمها
بسرقته، أنقذها فقط التسجيل المصور الذي التقطته له وهو فى حالة شبه مغيبة
لتنقلب الطاولة على رأسه، وتنتهى الأمور لصالح "جميلة" وحينما قررت العودة إلى
وطنها لتستقل بعملٍ بعيد عن ذلك الوسط الذي لا يلائمها، عادت "آسيا" من
شرودها السريع لترت على يد رفيقتها مرودة بابتسامة مجاملة:

حبيبتي، تسلميلي، احنا مش بس أصحاب لأ اخوات من زمان أوي

تحولت تعابير وجه "جميلة" للجدية لتعلق بتبرم وهي تسلط أنظارها عليها:

-بس كان المفروض تبغى البوليس يا "آسيا" عن الهمجي ده، إزاي تسيبه يضربك
ويرميكي فى الشارع من غير ما يتحاسب على وحشيتة؟

ارتبكت "آسيا" لوهلة من جملتها المبالغتة تلك، فإن صارتها بالحقيقة لربما رفضت حينئذ مساعدتها، لذا كان عليها الادعاء بكونها ضحية اضطهاد لتتمكن من مساعدتها دون تردد، همست قائلة بصوت شبه مهتز:

أنا مش عاوزة مشاكل مع حد، كفاية اللي شوفته وافقتها الرأي هامسة بأسف:

أه يا حبيبتى، ما أنا كنت متابعة أخبارك، بجد أنا مش مصدقة الناس اللي بتنشر أخبار كذب عن غيرهم

تهدت "آسيا" بزفير حزين مستعيدة مشاهدًا مجمعة مما لاقته في الأشهر الماضية، لاحظت "جميلة" شرودها العابس فندمت على زلة لسانها، عضت على شفتها السفلى بجرح ثم حاولت مواساتها قائلة:

كله بيعدي ويتنسى

ردت عليها بتنهيذة موجوعة:

أيوه

أما تفوقى بقى نفكر سوا هنعمل إيه

حاضر

تابعت بحماس ظاهر:

أنا عندي أفكار كثير حلوة ممكن تفيدك، المكان هنا تحفة بصراحة مع إنه بعيد وموسمي، زي ما إتني فاهمة مش بيتزحم إلا في الأجازات ومواسم الصيف والأعياد، بس مع الوقت هتتعودي عليه، ده غير إن الناس طيبين أوي ومحترمين

حملت "آسيا" فيها معلقة بفتور:

-وأنا مش عاوزة إلاكده، مكان محدش يعرفني فيه
حركت "جميلة" رأسها بإيماءات رقيقة وهي تكمل:

-أوكي نتكلم في التفاصيل بعدين

أمسكت بها "آسيا" من رسغها لتضغط برفق عليها وهي تقول بنبرة شبه مختنقة وقد
لمعت عيناها بعبرات خفيفة:

-شكراً يا "جميلة" على وقفك دي، إنتي اسم على مسمى فعلاً

زمت صديقتها شفيتها لتقول بحزنٍ مصطنع:

-بليز، بلاش كده، هتخليني أعيط وأنا دمعتي قريبة!

احتضنت الاثنتان بعضهما البعض لبعض الوقت كتعبير عن تقديرهما لتلك الصداقة
العميقة التي نشأت بينهما في الماضي واستمرت حتى الآن رغم الانقطاع الكبير في
تواصلهما معاً، ومع ذلك التزمت "جميلة" بالحفاظ على الوفاء بوعداها برد الجميل حينما
يحين الوقت لهذا !!

.....

الفصل الخامس والأربعون (الأخير - الجزء الثالث)

مضى ما يقرب من شهرين منذ انتقالها للعيش في تلك المدينة السياحية المطلة على البحر الأحمر، اختلفت حياتها كليًا عما عاشته من قبل رغم الذكريات التي ظلت ملازمة لها، تحولت "آسيا" إلى شابة أخرى بسيطة المظهر ترتدي العباءات المزركشة التي تماثل ثياب أهل النوبة وتضع ما يشبه غطاء الرأس على خصلاتها، ومع ذلك ظلت محتفظة بجمالها الطبيعي، تأقلمت من جديد على وحدتها وكم أحزانها في صدرها، وأخفت عن رفيقتها أغلب ما يخص حياتها، لم تعطها إلا القليل من المعلومات الغامضة التي لا تفيد بشيء لتضمن عدم وصول "معتصم" إليها إن لعب القدر دوره وعرف طريقها.

كذلك أشرفت بنفسها على العمال المكلفين بتجهيز بازارها الصغير في منطقة المزارات، فضلت أن تُنشأ مشروعًا خاصًا بها تعرض فيه على الزائرين الحلي والإكسسوارات يدوية الصنع بحكم خبرتها في مجال الأزياء والموضة، وساعدتها رفيقتها في ذلك بتأجيرها لأحد المحال التي تمتلكها، ورغم التعب الذي ظهر عليها مؤخرًا إلا أنها لم تتعاس عن متابعة التجهيزات النهائية من أجل افتتاحه، أحضرت لها "جميلة" الطعام الجاهز لتتناوله معها، هتفت عاليًا ومشيرة لها بيدها:

تعالى يا "آسيا"، الأوردر وصل

بدت الأخيرة فاقدة للشهية إلى حد ما، أزجت أنفها رائحته القوية، رفعت كفها هامسة
باعتراض:

ماليش نفس

أصرت على إطعامها قائلة:

يا بنتي إتني واقفة على رجلكي من الصبح مع العمال، مش معقول هاسيك كده لحد
ما تقعي من طولك؟

هزت رأسها بالنفي وقد بدا عليها التأفف والنفور:

مش قادرة صدقيني، بطني تعبانة، وجسمي همدان

توجست "جميلة" خيفة من إصابتها بفيروس ما فهتفت بقلبي:

ماتسكتيش على نفسك، احنا بالليل نروح لدكتور يطمنا، ويديك دوا مناسب

لم تجد بداً من الاعتراض فهي بحاجة إلى ما يعيد لها صحتها الواهنة، ردت بخفوت:

اوكي

.....

لم يتوقف عن التطلع إلى صورها التي ملأت ذاكرة هاتفه المحمول ليؤكد "معتصم"
لنفسه أن وجودها معه لم يكن وهماً أبداً، اختفت "آسيا" من الساحة الفنية ولم يعد
هناك ما قد ينشر عنها في أي من المواقع الإخبارية بالرغم من بحثه اليومي عما يخصها،
إذ ربما تكون وسيلته الوحيدة للحصول على طرف خيط يمكنه من الوصول إليها، وج
"نبيل" إلى داخل مكتبه ليسأله:

هاتروح الموقع ولا أطلع بدالك؟

نظر له بعينين لم تتذوقا طعم النوم منذ فترة طويلة، نفخ قائلاً:

-اطلع إنت يا "نبيل"، أنا مش فاضي
دقت ابن عمه النظر في وجهه الواجم ليقول بضيق:
يا "معتصم" اللي بتعمله في نفسك ده حرام، عمو "وحيد" اشتكالي من تصرفاتك
و...

قاطعته بعصبية كبيرة:

-ملكش فيه، أكيد أنا مش بأهزر لما أدور على مراتي
رد عليه بهدوء ليمتص غضبته الواضحة:

-حقك، بس لازم تعرف إنها لما اختارت تبعد كان بسبب أسلوبك العنيف معها، يعني
إنت ليك اليد في هروبها
صرخ به محتجًا:

-إنت جاي تحاسبني دلوقتي؟

صحح له موضحًا بنبرته العقلانية:

-أنا بأفكرك إني حذرتك وقتها، وإنت مسمعتش كلامي

كان "معتصم" على وشك فقدان أعصابه والتلفظ بما لا يليق، أثر كظم غضبه في نفسه
ليقول بصوتٍ محتقن على الأخير:

-اطلع دلوقتي يا "نبيل"، أنا مش هاستحمل أتناقش معاك، لأن ممكن نخسر بعض
فيها

كان تحذيره شديد اللهجة، ومع ذلك لم ينزعج ابن عمه منه، بدا متفهّمًا للغاية للحالة
النفسية التي يمر بها، تهدي قائلاً:

ماشى، أنا هاخلى الشغل بدالك، سلام!

تركه بمفرده فى مكتبه ليحدق "معتصم" من جديد فى شاشة هاتفه محرّكاً الصور الفوتوغرافية بتوتر متعصب ظاهر فى حركة إصبعه، نعم لقد أمعنت فى هجرها وبعدها حتى ظن أنها وارت الثرى مع والدتها الراحلة تاركة له ذكرى لحظات رومانسية حميمة اعتصرت قلبه وألمته بابتعادها، انكوى بغيابها المريب، واحترق ببقايا أثرها، ألقى هاتفه بعصبية على سطح مكتبه متوعداً إياها:

لو طال الزمن يا "آسيا"، وعرفتي تهري مني، هايجي يوم وأوصلك!

مش معقول

انفجرت شفتها بتلك الجملة المدهوشة بعد أن صارحها الطبيب بخبر حملها والذي هبط على رأسها كالصاعقة، نظرت له "آسيا" بعدم تصديق، بدا على تعبيراتها الجزع ثم حدقت فى وجه "جميلة" بنفس الدهول المصدوم، ابتلعت ريقها لتضيف باستنكار كبير:

استحالة ده يحصل يا دكتور

سألها الطبيب متعجباً من ردة فعلها المستغربة:

ليه يا مدام؟ ده أمر طبيعى

اشتعل وجهها بحمرة شبه غاضبه وهى تجيبه برفض قوى:

إنت مش فاهم، أنا ماخلفش، أكيد فى غلط فى الموضوع

نظر لها بغرابة معلقاً عليها:

مين قالك كده؟ أنا متأكد من اللي بأقوله، وحضرتك لما تعملي التحاليل ونشوف

بالسونار صور الجنين هتتاكدي

ظلت على حالة الاستنكار للحظات مرددة بين جنبات نفسها بصدمة:
طب إزاي؟

حدقت "آسيا" في الطبيب من جديد لتقول له بجدية شديدة:
-بص يا دكتور أنا عملت حادثة من كام شهر، وعرفت بعدها إني مش ممكن أخلف
لأن عندي مشاكل في الرحم و...
قاطعها مشيراً بإصبعه:

يا مدام اللي ظاهر قدامي عكس اللي اتقالك، وارد إن الحادثة دي يكون من أثرها
منع الإنجاب، بس محدش يقدر يقف قدام إرادة ربنا
مالت عليها "جميلة" لتسألها بهمس:
هتعملي إيه يا "آسيا"؟

بدت كمن أصيب بشلل مؤقت في تفكيره، ردت بجدة طفيفة وقد توترت نظراتها:
-أنا مش عارفة أفكر دلوقتي

دون الطبيب بعض الملاحظات في الورقة الطبية الموضوعة أمامه وهو يضيف بنبرته
الرسمية:

-أنا هاحولك لدكتور نسا متخصص تتابعي معاه حالتك وإن شاء الله يكمل الحمل على
خير، ومبروك يا مدام

تجاهلته "آسيا" كلياً، كانت غير واعية لما قاله، تناولت "جميلة" من الوصفة الطبية
لترد بجرح:

-حم الله يبارك فيك يا دكتور، ميرسي على تعبك

عاونت رفيقتها على النهوض وتأبّطت في ذراعها لتخرج معها من غرفة الكشف، شردت "آسيا" متسائلة مع نفسها بجيرة:

طب إزاي يحصل من ليلة واحدة قضيناها سوا؟ و"معتصم" قالي إني ش هاخلف مها عملت، أنا مش فاهمة حاجة!

نظرت لها "جميلة" باستغراب وهي تسألها:

إنتي بتكلمي نفسك يا "آسيا"؟

لم تعلق عليها وظلت منخرطة في همهمات الشاردة، أردفت صديقتها قائلة:

أحنا لما نروح للدكتور اللي قالنا عليه احيكه كل حاجة وأكد هيفيدك!

وافقتها "آسيا" الرأي، فمشورة المتخصصين ستذيل ذلك الغموض الذي أربك كافة مخططاتها بل وأحدث اضطرابًا في القادم من حياتها.

اتضح لها الرؤية كاملة بعد زيارتها للطبيب النسائي المتخصص الذي أكد لها وجود تمزق في جدار الرحم جراء الحادث الذي تعرضت له، ورغم هذه الإصابة إلا أنها لم تمنع حدوث الحمل، بقيت "آسيا" على وضعيتها المصدومة لبرهة، ترك الخبر وقعه عليها، رافقتها "جميلة" في مشوارها ولم تتركها بمفردها، ظلت ملازمة لها حتى عادت كليتها إلى المنزل، أعدت لها حساءً ساخنًا فتناولته على استحياء ثم غفت الأخيرة في الفراش بعد إرهاق عقلها في التفكير، أو هكذا ظنت رفيقتها فتركها منسحبة من الغرفة بهدوء تاركة الإضاءة الخافتة مُنارةً بها، فتحت "آسيا" عينيها لتتنظر في الفراغ أمامها بنظرات غامضة، أمن الممكن أن تحظى بطفلٍ بعد خسارتها لكل من حولها؟ رفعت حدقتها لتتحقق في صورة والدتها بجزن، رددت بانكسار:

أنا هابقي زيك ... ماما!

كانت الصدمة أكبر من قدرتها على التصديق أو الاستيعاب، لاح بصيص جديد من الأمل بالنسبة لها، فهي لم تعد وحيدة، هناك قطعة صغيرة منها تنمو بداخل أحشائها، وعمًا قريب ستكون واقعًا ملموسًا، ابتسمت لنفسها بسعادة رغم انسياب دموعها الفرحة، أخفضت يدها لتلمس بطنها من أسفل الغطاء مستشعرة تلك النبضات الخفاقة في رحمها، همست لنفسها متعهدة بقوة نبعت فيها:

-إنت بتاعي لوحدي، عمري ما هفرط فيك!

.....

مسحت بالمنشفة القطنية التراب العالق بالأنتيكات والتحف التي ضمتها إلى البازار الخاص بإكسسوارتها لتغدو نظيفة وجديدة، ألقَت عليها "آسيا" نظرة متفحصة متجاهلة ملاحقة "جميلة" لها والتي لم تتوقف عن تعقبها على أمل أن تنجح في إقناعها بإعادة لم الشمل مع زوجها من أجل الرضيع القادم، ملت من ثرثرتها التي لا تنتهي فاستدارت نحوها لتنهزها بنفاذ صبر:

-مش هارجعله، هو صفحة واتقفلت من حياتي

حزنت من إصرارها على عدم إخباره، حاولت إثنائها عن رأيها لترجوها:

-بس ده حرام، مش جايز لما يعرف ي.....

قاطعتها بجدة وقد التهبت نظراتها:

- "جميلة" الموضوع ده يخصني لوحدي، أنا أكثر واحدة عارفة مصلحتي فين!

ابتلعت ريقها موضحة غرضها:

-أنا مقصدش، أنا نفسي البيبي لما يتولد يلاقي مامته مع باباه

رمقتها "آسيا" بنظرة نارية حارقة متوقعة ردة فعله إن علم بذلك، سينكر الأمر كليًا وربما يتهمها في شرفها ويسيء إليها لتتهار من جديد مع احتمالية كبرى لخسارة جنينها قبل أن تكتب له الحياة، تحول وجهها للقساوة وهي تصيح بصوتٍ شبه متشنجٍ مستحضره صورته القاسية في مخيلتها:

عشان تبقي عارفة "معتصم" عمره ما هيعترف بالبيبي ده ولا هيصدق إنه باباه كانت المرة الأولى التي تصرح فيها باسمه لها، لطلما رفضت الإفصاح عن أي شيء متعلق به، لذا تساءلت "جميلة" باندهاش بائن عليها:

هو طليقتك اسمه "معتصم"؟

ندمت "آسيا" لخطئها العفوي فأولتها ظهرها قائلة بوجوم:

-ممكن نقفل على السيرة دي

لم تضغط عليها رفيقتها كي لا ترهق أعصابها المتعبة، ستكتفي اليوم بنقاشها معها، ردت بابتسامة صغيرة ومتكلفة:

أوكي، براحتك

تركتها بمفردها في بازارها لتتوقف "آسيا" عن استكمال عملها، تهدل كتفها للأسفل باستياء كبير، عادت الهوم لتجثم على صدرها بقوة، بدت كالمغلوب على أمره، وضعت يدها على بطنها هامسة لجنينها:

-لازم أحميك منه، مش هاستحمل أخسرك، إنت الحاجة الوحيدة اللي فضلاي في الدنيا!

.....

رتب له المحامي زيارة استثنائية لـ "شرف الدين" في محبسه، خاصة بعد أن تملكه اليأس من فشله في الوصول إليها، لم يترك "معتصم" بابًا إلا وطرقه طامعًا في معرفة أي معلومة قد تفيده عنها، وتبقى له رؤية ذلك المقيت، فرك والدها طرف ذقنه مطالعًا وجهه بازدياء قبل أن ينطق ساخرًا:

-وأنا لو أعرف مكانها تفتكر هاقولك؟

لم يتحمل "معتصم" سخافات المستفزة، استنزفت قدرته على تجاهل تهكمات الآخرين من كثرة البحث والمجهود الضائع، هدر بها بانفعال:

-إنت معندكش ضمير، حس بغيرك يا أخي، هي مش بنتك برضوه

أوما برأسه قائلًا بابتسامه مأكرة أظهرت اصفرار أسنانه:

-أيوه، "آسيا" بنت أبوها

ثم أحنى نفسه للأمام ليبدو صوته قويًا واضحًا رغم خوفه:

-بتعرف تضرب الضربة اللي توجع صح حتى لو ماموتتش اللي قدامها

ثم غمز له كتعبير عن تشفيه فيه، هب "معتصم" واقفًا ليحده بنظراته المستشافة، أشار لها قائلًا بتعنيف:

-تصدق أنا غلطان إني جيت أسأل واحد زيك عنها

تراجع "شرف الدين" بظهره للخلف مكتفًا ساعديه أمام صدره، رمقه بنظرة باردة قبل أن يرد مبتسمًا:

-وأنا مبسوط إني شايفك كده عاجز مش عارف تعمل حاجة

ضاقت عينيه المشتعلتين نحوه قائلًا بغيظٍ وهو يتعد عنه:

-إنت ماتستهلش إن الواحد حتى يحرق دمه بسببك

خطا بتعجل خارج المكان المخصص لزيارة السجناء معاتباً نفسه على لجوئه إليه، فلم ينل من لقائه إلا المزيد من الحنق والغضب.

.....

الأصعب من ألم الفراق هو ألم الانتظار المرعب، لم تظن "آسيا" أن لياليها الطويلة ستتحول إلى شريط من الذكريات الحزينة التي تتجرعها قبل أن تنام، حتى لحظاتها الحميمة المعدودة باتت كالشوكة التي تذكرها بضعفها واستسلامها، ابتلت وسادتها بدمعاتها الآسفة على حالها، وبالرغم من رغبتها الشديدة في إنجاب تلك الرضيعة التي عرفت جنسها إلا أنها كانت تخشى عليها من متاعب الحياة وقسوتها، أنهكت نفسها في العمل بالبازار لتلهي عقلها عن التفكير في "معتمص" الذي أصبح ضيف أحلامها يومياً لينغص عليها نومها.

مازال صدى صوته المعنف لها يتردد في أذنيها، وشراسته الواضحة معها تتجسد مع خوضها لكوابيسها المزعجة، أصبحت شبه خائفة من الالتقاء به ولو حتى مصادفة، وخاصة إن علم بوجود بحملها، حتماً سيعبث شيطان رأسه به ويلقي عليها التهم جزافاً وربما في لحظة طيش منه يجرمها من رضيعتها، بكت بتوترٍ غير مدركة للماء المنساب من بين ساقها ولا منتبهة للآلام التي أخذت تضرب ظهرها بين فنية وأخرى، شهقت "جميلة" عفويًا حينما رأت البقعة المبتلة أسفل قدميها، هتفت بهلع:

- "آسيا"، إتني بتولدي ولا إيه

تنبهت لجلتها الأخيرة فأخفضت نظراتها لتحقق في المياه السائلة، انتابها نوبة من القلق المرتعد وهي ترد:

-الظاهر كده، الحقيني يا "جميلة"!

أسرعت رفيقتها بإسنادها من خصرها وسارت بها يتمهلي إلى خارج البازار لتجلسها في
سيارتها قبل أن تهرع بها إلى المشفى القريب، فقد حان موعد ولادة الرضيعة.

.....
حمدلله على السلامة!

قالتها المريضة بابتسامة بشوشة وهي تضع الرضيعة -حديثة الولادة- على صدر والدتها،
تلقتها "آسيا" ببسمة سعيدة لكنها باكية، خفق قلبها بقوة حينما شعرت بها بين أحضانها،
انهمرت عبارتها بغزارة على وجنتها وهي تتأمل وجهها الملائكي، رفعت عينها الباكيتان
لتنظر إلى "جميلة" وهي تهمس لها بنحيب:

-بنتي!

ردت عليها بحماس:

ماشاء الله، جميلة أوي، ربنا يباركك فيها

داعبت "آسيا" أناملها الصغيرة بحذرٍ شديد، كانت تخشى أن تؤذيها بلمساتها الحنون،
ثم مالت عليها لتطعم قبلة رقيقة مطولة على جبين الرضيعة، تهتدت بعمق وهي تضمها
برفق إليها هامسة لها بجنون:

-إنتي أعلى ما في حياتي

سألتها "جميلة" باهتمام دون أن تخفي ابتسامتها الصافية:

-هاتسميها إيه؟

رفعت "آسيا" عينها لتلقي عليها نظرة عابرة قبل أن تعاود التحديق في وجه صغيرتها،
شعرت بأن أنهارًا من الحنان العذب قد فاض في قلبها لمجرد وجودها بين ذراعيها،
أجابتها دون تردد وهي مستمرة في التطلع إلى رضيعتها:

- "نادية" !!!

.....

الفصل الخامس والأربعون (الأخير – الجزء الرابع)

أفسدت ليليه باختفائها الذي أحرق روحه وزاد من عذاب ضميره، لم يترك بقعة يمكن أن تتواجد بها إلا وذهب للبحث عنها فيها، ظن من تابعه من على بعد أنه حريص بما يختص بأمور الموضة، لكن القريب منه مُدرك لسبب متابعته الزائدة بتلك الأخبار عله يجد بين العارضات ضالته المنشودة، ورغم مرور الأشهر إلا أن "معتصم" ظل محافظًا على جدية بحثه عن "آسيا"، لام نفسه مئات المرات لتفريطه بها، هي فقط نفذت ببساطة ما طلبه منها مرارًا وتكرارًا لينكوي بعذاب هجرها له، حذق من جديد في صورتها الموجودة بهاتفه متسائلًا بحرقّة ومرارة:

ليه يا "آسيا"؟ للدرجادي كرهتيني؟

انخبست الدمعات المغلولة في عينيه تأثرًا بما اقترفه في حقها من تحميلها ما لا تطيق في أصعب ظروفها ليحني الآن ثمرة كراهيته السابقة لها، تنفس بعمق ليمنع نفسه من البكاء، أعاد وضع الهاتف في جيبه ليحذق من جديد بشرود في الفراغ مستعيدًا تلك الذكرى الحميمة التي منحتمها سكينه مؤقتة، ولكن ما لبثت أن تحولت إلى ذكريات شك وصدام وعنف وبغض لا حدود له ليتضاعف عذاب ضميره، خشي أن يخسر ما تبقى له من أمل لملاقاتها، فقد اختارت الهجر والرحيل وبرعت لأقصى درجة فيه.

.....

نقلتها الرضيعة بحضورها الملائكي إلى عالم آخر مليء بالسعادة والتطلعات لغدٍ مشرق
تشاركان فيه حياتهما سوياً، تناست "آسيا" أحزانها وعكفت على رعاية طفلتها موفرة
لها كل ما تحتاجه، شعرت بأن وجودها في ذلك التوقيت تحديداً هو نعمة من الله
لتستطيع المضي قدماً، تغلبت على خوفها من المجهول وخبث أحزانها مع براءة الصغيرة
التي استحوزت على كامل تفكيرها، فأولتها اهتمامها بالكامل بجانب متابعة عملها،
تحمست كونها امتلكت لون عينيها وبشرتها البضة، حتى خصلاتها الصغيرة المتناثرة
كانت سوداء داكنة مثلها، بدت الرضيعة "نادية" نسخة مصغرة منها.

شاطرتها رفيقتها المقربة "جميلة" في تربيتها واعتبرت نفسها في منزلة الخالة وإن لم يكن
يجمعهما رابط الدم، التفتت "آسيا" نحوها حاملة الرضيعة من خصرها لتقول لها بلهجة
شبه صارمة:

ده دورك تغيريلها البامبرز

عبست قائلة بتذمر:

-اشمعي لازم تحطيني في الحاجات دي؟ على فكرة أنا بتاعة الفرشة

هزت رأسها بالنفي وهي تأمرها:

-تعلمي يا خالتو، يالا استلمي

تناولت "جميلة" الرضيعة منها لتنظر لها بنظراتٍ حزينة، وما لبث أن تحول حزنها
الزائف إلى نظرات فرحة، داعبت طرف أنفها بإصبعها هامسة لها:

عشان خاطرک يا "نادو" بس!

غمزت لها "آسيا" معلقة:

-مين أدک يا "نادو"، الدلع كله من "جميلة" هانم!

طبعا، هي سكرتنا!

راقبتها وهي تبدل حفاضها بأخر نظيف، تعلقت عينيها بحركاتها العفوية الملهمة للقلوب، عادت الابتسامة لتطفو على صفحة وجهها وهي تتخيلها تكبر رويدًا رويدًا أمام ناظرها، حتمًا ستستمتع بكل لحظة تمضيها معها، اتسعت بسمتها لتتحول إلى ضحكة مرحة بعد أن غابت عنها لأشهر كثيرة، شغلت بالها بأدق التفاصيل فتناست تدريجيًا مخاوفها، كما دفنت في أعماقها ذكرى ما عاشته ذات يوم من ليلة حاملة مع العاشق البربري "معتصم".

.....

بعد مضي ما يقرب من أربع سنوات،

لم يتخيل مرور سنواته العجاف في ذلك البلد الغريب عنه ليعود أخيرًا إلى موطنه ولو في عطلة قصيرة، تحمس "مصطفى" كثيرًا لقضاء وقت فراغه متنقلًا بين المحافظات المختلفة لينعش ذاكرته بما افتقده خلال بعثته الخارجية، كان الترشيح الأول له هو الذهاب إلى ذلك البلد السياحي الشهير، بالطبع شاهد معاملة الممیزة في الكتيب الصغير فتشجع أكثر لرؤيته على الطبيعة، كما حمسه كثيرًا للمكوث هناك لبضعة أيام رغبته في التمتع بأموج البحر والشمس الساطعة التي اشتاق إليها، مر بالمزار السياحي ملقيًا نظرات شمولية على المحال والبازارات به، فكر في أن يبتاع هدايا مميزة لأصدقائه القدامى ليهديا لهم حينما يلتقي بهم، لوح لأحد رفاقه في الرحلة القصيرة قائلاً له:

أنا هاروح أشوف حاجة هناك، نتقابل في الكافية كمان ساعة

رد عليه رفيقه مبتسمًا:

أوكي، على تليفونات، سلام!

واصل "مصطفى" سيره بين حشود الزائرين المتوافدين متأملاً المعروضات باهتمام، لمح من على بعد امرأة تشبه تلك الشابة الجامحة التي التقاها قبل سنوات في منزلها وفي المشفى الذي عمل به، لم ينس ملامحها، فوضعها كان مختلفاً للغاية ويمس واحداً من أعز أصدقائه، قطب جبينه مردداً لنفسه باندهاش:

هي دي "آسيا"؟ شبهها خالص

وليقضي على بذور شكه اقترب أكثر منها ليعن النظر فيها عن قرب، التوى ثغره بابتسامة صغيرة هاتفاً بنبرة عالية ليلفت انتباهها:

- "آسيا"

التفتت الأخيرة نحو صاحب الصوت الذكري الذي ناداها، رأت شخصاً ملامحه تبدو مألوفة إلى حد ما رغم عدم تذكرها لهويته، وقف قبالتها متسائلاً بحماس وقد تدفقت الدموية إلى وجهه:

-إتي "آسيا" صح؟ مش فكراني

ردت عليه بحيرة واضحة في نظراتها إليه:

-بصراحة مش أوي

مد يده لمصافحتها مقدماً نفسه:

-أنا الدكتور "مصطفى" اللي كنت متابع حالتك من كام سنة، وقت ما عملتي حادثة في

تذكرت على الفور هويته، انتابها حالة من القلق المرتعد، واختفت تلك النضارة المشرقة من على بشرتها، تحرك بؤبؤاها بعصبية طفيفة معتقدة أنه قد جاء بصحبة "معتصم"، صافحته بيد مرتعشة، وبلا وعي سأله بتوتر:

-إنت جاي هنا لوحدك؟

أجابها مبتسماً:

-لأ مع أصحابي من البعثة، من أصلي سافرت برا وفضلت هناك كام سنة ولسه راجع من كام يوم، بس قولت أغير جو.

تنفست الصعداء لكونه قد أتى بمفرده بدون ذاك الذي تخشاه، حاولت أن تحافظ على هدوء تعبيراتها أمامه كي لا تثير ريبتة، ابتسمت له رغم كون بسمتها شبه باهتة ومضطربة، تفرست في وجهه لتتأكد من عدم شكه في أمرها، تابع سؤاله عنها قائلاً:

-إنتي أخبارك إيه؟ وتعملي إيه هنا؟

أجابته بتمهل:

-يعني .. ماشية

شكت في كونه على غير علم بتطورات العلاقة الشائكة بينها وبين "معتصم"، معلوماته بدت محدودة للغاية، انتشلها من تفكيرها الشارد سؤاله الفضولي وهو يلقي نظرة عابرة على الإكسسوارات المميزة الموضوعة عند مدخل البازار الخاص بها:

ده المحل بتاعك؟

اضطربت من إخباره بالحقيقة فادعت كذباً:

-لأ

ثم تابعت موضحة بارتباك:

-آ.. البازار ده بتاع صاحبتني، وأنا بأعدي عليها كل فترة نقعد مع بعض

أوما برأسه متفهماً وهو يقول:

-تمام، وأنا مش هاعطلك، بس مبسوط إني شوفتك، رجعتيني لكام سنة ورا ردت برقة:

-وأنا برضوه يا دكتور "مصطفى"، وميرسي على اللي عملته معايا زمان علق عليها مجاملاً:

-يا فندم ده واجبي، وفرصة سعيدة، عن إذنك حافظت على ابتسامتها الصغيرة مودعة إياه:

-ميرسي، باي باي

تابعته بعينها القلقتين حتى اختفى من أمام ناظرها، أحست بقلها يتقاذف بين ضلوعها من التوتر المرتعد، فقد أنعش حضوره ذكرتها بما توهمت أنها تناسته واقترح عقلها ذكريات مزجة اختلطت بلحظات مميزة، ضمت يدها إلى صدرها مستشعرة النهمان الذي أصاب صدرها، اضطربت أكثر مع رؤيتها لصغيرتها وهي تركض ببراءة نحوها، تلفتت حولها بهلع لتتأكد من عدم عودة "مصطفى"، حمدت الله في نفسها أنه لم يكن موجوداً ليراها وإلا لوضعت في مأزق حقيقي، ولاحقها بأسئلته الفضولية فكشف أمرها على الفور، تعلق "نادية" بثوب والدتها تجذبها منه مرددة بعفوية:

-مامي

انحنت "آسيا" لتحملها بين ذراعيها، ضمتها إليها بقوة وكأنها تخشى ضياعها، تعجبت "جميلة" من العبوس الظاهر على وجهها، ومن حالة الارتباك المسيطرة عليها، لذا سألتها باهتمام:

-في إيه مالك يا "آسيا"؟

ردت بغموض وهي تحديق نحوها بجدقتين متوترتين:

-ولا حاجة

زوت "جميلة" ما بين حاجبها متابعة تساؤلاتها الفضولية:

بس وشك لونه مخطوف؟ حد ضايك أو..؟

قاطعتها بجمود:

عادي، تلاقيه إرهاق من الشغل والجو

ثم صمت للحظة لتفكر مليا في أمر ما قبل أن تصرح علنا:

-بأقولك يا "جميلة" أنا هاخذ أجازة كام يوم كده أرتاح فيهم في البيت

أثار قرارها الغريب والمفاجئ الريبة في نفسها فردت متسائلة:

ليه في حاجة؟

هزت رأسها بالنفي معللة:

-لا، بس حابة أقضي وقت مع "نادو"

رسمت "جميلة" ابتسامة ناعمة لطيفة على وجهها الضاحك لتقول لها:

أوكي يا حبيبي، اللي يريحك!

بادلتها "آسيا" ابتسامة متكلفة ثم أحنت رأسها على ابنتها لتنهال عليها بقبلة عميقة مطولة، أغمضت عينها للحظة لتستعيد ثباتها، بدا ذلك الخيار الأسلم حاليا للاختفاء ولو مؤقتا من أنظار "مصطفى" فينسى أمرها، أو هكذا اعتقدت في نفسها.

.....

انتهت عطلة القصيرة فعاد إلى القاهرة ليلتقي مع رفاقه القدامى، بالطبع كان مقدرا لـ "مصطفى" الالتقاء بأعز أصدقائه "معتصم" بعد أن انقطع عن التواصل معه لفترة

طويلة، فرح الأخير كثيراً برؤيته، واتفق على مقابلته في النادي لقضاء بعض الوقت سوياً، وفي الميعاد المتفق عليه كان رفيقه ينتظره على أحر من الجمر، استقبل "مصطفى" صديقه بابتسامة حارة قائلاً له:

-واحشني يا "معتصم"

رد عليه الأخير بوجه كبير وهو يحتضنه:

-وانت أكثر، عامل إيه؟ ووصلت لفين كده في دراستك؟

أجابه بابتسامته العريضة التي تم عن الرضا:

-الحمد لله كله تمام

جلس الاثنان على المقاعد الخاصة بهما ليشرح بعدها "مصطفى" في سؤاله باهتمام وهو يدقق النظر في ملامح وجهه التي تبدلت للخشونة ولذقنه التي نبتت وبات يهذبها بعناية:

بس إنت شكلك اتغير، ده من إيه بقي؟

أجابه "معتصم" بزفير مرهق:

-الحياة ومشاكلها مش سايبه حد في حاله

واقفه الرأي مردداً:

على رأيك، المهم إنت عامل إيه في شغلك؟

أوما برأسه قائلاً:

بخير

رن هاتف "معتصم" المسنود على الطاولة فالتقطه بيده ثم رفع سبابته معذراً:

أنا أسف يا "مصطفى"، مضطر أرد على المكالمة دي
تفهم عذره قائلاً:

خذ راحتك يا "معتصم"

وضع الأخير الهاتف على أذنه ليجيب برسمة جادة وقد قست تعبيراته المرتخية:

-الوو، أيوه، ها إيه الأخبار معاك؟

صمت للحظات ليصغي للطرف الآخر قبل أن يتابع بنفس الجدية الصارمة:

-تمام، قوله أنا هاتكلم مع المقاتل وأتصرف بنفسي معاه، ماهي مش ناقصة خراب،
خلاص، سلام!

حك "مصطفى" طرف ذقنه قائلاً بهدوء:

-واضح إنك مشغول!

رد عليه "معتصم" بامتعاض:

محدث بيريح حد أبداً، لو مكوتنش أقف على دماغهم مافيش حاجة بتخلص
على رأيك

لم ينتبه كلاهما لـ "أية" التي انتهت لتوها من تدريب الأسكواش الخاص بها، تفاجأت
بوجود ابن عمها في النادي بعد فترة انقطاع طويلة، اقتربت أكثر منه للتأكد من صحة
ما رآته عيناها، تهللت أساريرها صائحة بجماس:

- "معتصم" ازيك، بقالي كتير مشوفتكش في النادي!

رد ببرود وهو ينظر لها بطرف عينه:

أهلاً يا "أية"، أخبارك؟

ابتسمت قائلة:

أنا تمام

لم يكن ليأتي ببال "مصطفى" مطلقاً أن يلتقي بها ولو مصادفة حتى في أحلامه، خفق قلبه طرباً لمجرد التطلع إلى وجهها المشرق، خطفته بنظراتها وإيماءاتها العفوية، مثلت له العالم وما فيه، عاد من شرود حينما سمع "معتصم" يقول بجديّة:

سلمي على الدكتور "مصطفى"، فأكراه؟

تخرجت "أية" كثيراً لعدم انتباهها لوجوده، فهي على معرفة ودودة به، تورد وجهها بحمرة طفيفة حينما التقت عيناها بعينه اللامعتين، تنحنت قائلة بركة:

د. "مصطفى"، ازي حضرتك؟

ألقي نظرة سريعة متفحصة لأصابعها ليتأكد من خلوها من خاتم الخطبة قبل أن يرد بتلعثم واضح عليه:

آ.. الحمدلله، إتي عاملة إيه يا آنسة "أية"؟ ولا إتي اتجوزتي ولا ...

قاطعته مرددة بضحكة صغيرة:

-لا جواز إيه؟ أنا خلاص توبت من المواضيع دي

بينما علق "معتصم" بتجهم:

هو الجواز بيحيب إيه غير المهم والنكد

استغرب "مصطفى" من جملته الأخيرة، فلم يكن رفيقه بتلك الكآبة أبداً، ربما لابتعاده عنه لفترة طويلة فبات لا يعرف عنه إلا القليل المقتضب، عاد ليحدق من جديد في وجه "أية" حينما أردفت قائلة:

هستأذنكم بس أغير هدومي وأرجع تاني، مش هتأخر

رد مجاملاً وقد اتسعت بسمته حتى برزت نواجذه:

على أقل من مهلك

لم يكثر "معتصم" بردة فعل صديقه المبالغ فيها مع ابنة عمه أو حتى قد لاحظ اهتمامه الزائد بها، فقد كان مشغولاً بمتابعة أخبار أعماله، أخرجته من التحديق في هاتفه سؤال "مصطفى" المهم:

فرصة حلوة إني شوفتك، وشوية كده وهاقابل "نبيل"، أكيد إنت فخته معاك، صح؟

أجابه يارهاق وهو يحرك عنقه للجانبين:

ماهو مين هايشيل الشغل غيرنا

هز رأسه متفهماً:

ربنا يعينكم، شغل الإنشاءات مش سهل!

تابع "معتصم" تحديقه في شاشة هاتفه المحمول معتذراً بجدية:

معلش هارد على الايميل ده

لم ييال "مصطفى" بعزوفه عن الحديث الودود معه قائلاً باقتضاب:

براحتك

اندمج "معتصم" لدقائق في هاتفه حتى انتهى من أعماله العالقة، ثم أسند هاتفه بإهمال

على الطاولة ليمر أنظاره بشرود على الجالسين من حولهما، استطرد "مصطفى" حديثه

من جديد قائلاً بعد أن ارتشف القليل من مشروبه البارد:

مش هاتصدق أنا قابلت مين في أجازتي

سأله "معتصم" بعدم أكثرات وهو ينظر له بعينين فارغتين:

حد من أصحابنا القدام؟

هز رأسه بالنفي قبل أن ينطق ببساطة:

-لأ، خالص، دي "آسيا"، عارفها بنت طنط "نادية"

وكان كلماته الأخيرة وقود اندلاع الحرب حيث تبدلت تعابير وجه "معتصم" واشتدت على الأخير، اشتعلت نظراته وتوهجت حدقاته بطريقة مريبة، التفت نحوه كالمسلوع المسوس مرددًا بصدمة حائقة:

-بتقول مين؟

قطب "مصطفى" جبينه متعجبًا من التحول الخيف في ملامحه، ردد بتوتر:

- "آسيا"

لم يصدق الأخير أذنيه، فبكل بساطة يعلن له عن رؤيته لمن فقد الأمل في إيجادها بعد سنواتٍ بائسة وكان وجودها والعدم سواء، صرخ بلا وعي وقد اكتسى وجهه بحمرة مخيفة:

-انطق يا "مصطفى" إنت شوقتها فين بالظبط؟

توجس رفيقه خيفة من أسلوبه العدائي، ازدرد ريقه متمنًا:

حاضر

قاطع الأجواء المشحونة حضور "أية" التي تساءلت بنعومة مدللة:

-تأخرت عليكم؟

تحركت أنظار "مصطفى" نحوها ليشرد في قسامتها الأسرة التي أنعشت روحه بحبٍ ظن أنه دفن ووارى الثرى، هدر به "معتصم" بهياج ليجبره على النظر نحوه:

-ركز معايا هنا، هاتلي عنوانها بالظبط

استشعر رفيقه وجود خطب ما بسبب طريقته الهوجائية في الحصول على معلومات كاملة عنها، رد عليه بجذري وهو يطمع أن يهدأ من انفعاله غير المفهوم بالنسبة له:

-ما أنا مش متأكد إنت كانت عايشة هناك ولا لأ، أنا شوفتها صدفه

تساءلت "أية" بفضول حائر بعد أن عجزت عن تفسير سبب عصبية ابن عمها:

-إنتو بتحكوا عن مين؟

التفت الأخير نحوها ينهرها:

-ولا كلمة دلوقتي

خافت "أية" من طريقته الحادة معها وحدثت في "مصطفى" بحيرة، أشار لها الأخير بعينه كي لا تتجادل معه حاليًا، فهمت نظراته وصممت، لحظة دون فيها "معتصم" العنوان ليقوم بعدها بجمع متعلقاته الخاصة ثم هرول مبتعدًا عن المكان، همت ابنة عمه باللاحق به متسائلة:

- "معتصم" إنت ماشي ولا إيه؟

لم تتمكن من ملاحقة خطواته المتعجلة فتوقفت عن السير لتستدير نحو "مصطفى" الذي تبعها متسائلة بقلق مزعوج:

-هو ماله؟

أجابها موضحًا:

-انقلب أول ما قولتله إني شوفت "آسيا"

انفرجت شفاتها عن اندهاش كبير بعد أن شهقت عفويًا لتضيف متسائلة:

إنت لاقيتها؟

حملق فيها بتعجبٍ شديد، لم يختلف حالها عن صديقه كثيرًا، غمغم مستفهمًا:

هو في إيه؟ الكل مستغرب من ده!

ردت عليه بقليل من الغموض المثير:

أصل حصل حوارات جامدة مع "آسيا" و"معتصم"

ضاقت نظراته قائلاً:

للدرجادي فاتني حاجات كثير!!

هزت كتفها في حيرة فلم تعرف بماذا تجيبه، في حين تابع "مصطفى" معلقًا:

الحقيقة أنا كنت مقصر مع "معتصم"، يعني كل كام شهر لما أتصل وساعات هو

مايردش، بس كنت عاذره عشان الشغل

هزت رأسها بإيماءة متفهمة، انتابته حالة من القلق معتقدًا أنها ربما تكون متحرجة من

وجوده معها، فسألها بحدريّ أملًا في نفسه أن تكون شكوكه واهية:

أنا خايف أكون معطلك عن حاجة يا آنسة "أية"

ابتسمت قائلة:

أنا مش ورايا حاجة مهمة، كده كده أنا بأقضي معظم وقتي هنا

عادت البسمة لتشرق على وجهه من جديد، أردف قائلاً بجهاش:

حلو، يبقى ده من حظي عشان أقعد معاك، قصدي أفهم اللي حصل لـ "معتصم"،

هو برضوه صاحبي ويهمني أمره

توردت بشرتها من جديد من اهتمامه الملحوظ بها رغم تلاعبه بالكلمات لينكر ذلك، ردت عليه باقتضاب دون أن تخفي ابتسامتها الصغيرة:

أُكيد

أشار لها بيده ليتحرك الاثنان في اتجاه الطاولة، سحب لها المقعد لتجلس عليه فشكرته على ذوقه، ثم جلس قبالتها كي يتمتع بعينه بحضورها، علق مادحًا إياها في صورة غزل متوارٍ:

بس إتي لسه زي ما إتي متغيرتيش، حلوة ورقيقة

أحست "أية" بتلك السخونة التي انبعثت من وجنتيها من تأثير كلماته لترد بنجلى:

ميرسي أوي

أسبل عينيه نحوها مضيئًا بتأكيد:

دي حقيقة فعلاً، إتي إنسانة رقيقة جدًا

رمشت بعينيها باستحياء من تغزله الحذر بها، لو قيل له قبل ساعات أنه سيلتقي مجددًا بحب عمره لما صدق ذلك، ولكنه الآن يعايش من جديد حالة من العشق الملهب للقلوب، خفف من وطأة الأمر على "أية" حينما لاحظ ارتباكها الذي انعكس عليه أيضًا بالإيجاب المتحمس ليميل نحوها متسائلًا:

تحيي تشريي إيه؟

أجابته دون أن تنظر نحوه:

أي حاجة

ثرثر معها في أحاديث عامة ليحافظ على وجودها معه أطول فترة ممكنة، ثم تشجع أكثر ليطلب منها بجرأة:

-ولو ما فيهاش إزعاج ممكن أخذ رقم تليفونك، مش حاجة والله بس ممكن أستشيرك في اللي يخص "معتصم"، صعب الواحد يتفاهم معاه في حالته دي

لم تعرف ما الذي انتابها هي الأخرى لتشعر بتلك السعادة الخفية ولا الحماس المثير في خلاياها بعد أن استرسلت في الحديث معه، لكنه منحها شيئاً افتقدته مؤخرًا، اهتمام أحدهم بها دون زيف أو تجميل، لم تتردد في الاستجابة لطلبه وردت مبتسمة:

أوكي، ما فيش مشكلة

اختلج صدره المزيد من المشاعر الدافئة لموافقها البسيطة، فذلك سيعطيه الفرصة للتقرب أكثر إليها وتعويض ما فاته كي لا يخسرها مجددًا، بادلها ابتسامة عذبة قائلاً لها بامتنان:

شكراً أوي لذوقك يا آنسة "أية"!

.....

قطع الطريق أشواطاً ليصل إلى وجهته المنشودة وهو متحضر بالكامل لرؤية من لقنته الدرس جيداً، امتلاً رأسه بالكثير من الأفكار المشحونة، لم يعرف تحديداً ما الذي سيفعله معها فور أن يراها، لكن لن يتركها تتسرب من بين أصابعه وتهرب، صف "معتصم" سيارته بعيداً عن منطقة الزحام ليترجل على قدميه سائراً بين زوار منطقة المزارات، حدق في لافتات البازارات المختلفة باحثاً عن ضالته المنشودة حتى وجد المكان المقصود، دق قلبه بعنف واشتدت قسامته بقسوة، أكمل سيره إلى أن وُلج إلى داخل البازار، كان المكان خالياً من الزوار، زَم أنفه بقوة رائحتها التي عرفها جيداً، كان الهواء معبقاً برائحة عطرها الذي لم تغيره، تأكد أنه لم يضل طريقه، تصلبت عروقه مع لمح لمرأة تنحني للأسفل لترص بعض الأشياء، اقترب أكثر منها لينطق بكلمة واحدة وبصوت رخيم حمل في طياته الكثير من اللوم والعتاب والحنق والغيط:

- "آسيا"

تخشبت الأخيرة في مكانها فور أن سمعت نبرته تخترق مسامعها، هوى قلبها في قدميها رافضة تصديق أنه بالفعل هو، استدارت ببطء للخلف لتقع عينها على وجه المتعصب ونظراته العدائية الشرسة، تجمدت الكلمات على طرف لسانها فعجزت عن البوح بكلمة واحدة، ارتعشت نظراتها، وارتجف جسدها بالكامل، لم تتحمل صدمة رؤيته فنخلت عن وعيها بإرادتها لتسقط فاقدة للوعي، وقبل أن ترتطم "آسيا" بالأرضية كانت ذراعي "معتصم" الأسرع في بلوغها، حاوطها بذراعه من خصرها ليسندها وقربها إليه أكثر، تأمل كل تفصيلة في وجهها الذي افتقد التطلع إليه بنظرات مزجت بين الاشتياق والغضب، اللوعة والاحتقان، تلمس بيده بشرتها ليشعر بتلك الرجفة الخفيفة التي اعترتها وهي في إغمائها المؤقتة.

انحنى قليلاً ليتمكن من رفعها بين ذراعيه ثم تلفت حوله باحثاً عن مقعد ما ليضعها عليه، وقعت نظراته على الأريكة المنزوية في جانب البازار حيث من المفترض أن يكون ذلك مكتبها، اتجه إلى هناك ثم بجذري واضح أسندها عليها، جثا قبالتها ليعن النظر فيها عن قرب، كم افتقدها كثيراً وتعذب لبعدها، وامتلاً قلبه بالغضب لهجرها له دون أي مقدمات، ومع ذلك مجرد العثور عليها أعاد له الشغف القديم بقوة، تنفس بعمق كي يضبط انفعالاته الثائرة بداخله، نهض من جلسته ليعتدل في وقفته مديراً رأسه للجانب، سحب أحد المقاعد الجلدية ووضعها في مواجهة الأريكة الممددة عليها مترقباً بصبر كبير إفاقتها، لن يبذل مجهوداً في إفاقتها، سيجلس في صمت يشاهدها ممتعاً عيناه بالنظر إليها مطولاً عله يشبع حاجته لها.

.....

تأوهت وهي تحرك رأسها ببطء للجانبين مستعيدة وعيها، تخيلت "آسيا" أنها عايشة أحد كوابيسها المزعجة والذي سينتهي فور أن تفيق من سباتها، ارتسمت علامات الهلع

على وجهها حينما تجسد الوهم حقيقة أمام ناظرها، انقضى عصر الأعلام وباتت في مواجهة واقعها الذي ترقبته، شهقت بخوفٍ وقد رأت نظرات "معتصم" الحادة نحوها، هبت ناهضة من رقدتها لتصاب بدوار طفيف من الحركة المفاجئة، سألته بنبرة مهتزة وقد تركز بصرها عليه:

-إنت عرفت مكاني منين؟

نظر لها ملياً قبل أن يعلق بنبرة حملت العتاب الشديد:

-ياه يا "آسيا" للرجادي كنتي قاسية معايا؟

وقفت على قدميها لترد مدافعة بقوة:

-بلاش تحاسبني، أنا عملت الصح

نهض ليواجهها متسائلاً بجدّة وقد برزت عروقه المحترقة في جانب عنقه:

-أنهو صح اللي تسيبي فيه جوزك وترمي له ورقة تقويله فيها طلقني؟!!

استجمعت جأشها لترد بعدم خوفٍ:

-جوازنا كان غلطة من الأول

صاح متسائلاً باستنكارٍ:

-ومين أقنعك بده؟

ردت دون تردد وهي محدقه فيه بنظرات نارية:

-إنت يا "معتصم"

نظر لها في صمت ليسبر أغوار عقلها المشبع بأفكاره الكارهة له فتابعت هجومها عليه:

-تصرفاتك معايا، كرهك ليا، حبك إنك ترد انتقامي بانتقامك مني، أوعى تنكر إنك
كنت تتمنى أخفني من حياتك؟ وانت طلبت ده بنفسك!

رمقها بنظراته الحادة دون أن يرف له جنس مُعْتَبًا:

-مأنكرتش، بس أنا اتغيرت

نظرت له باستخفاف قبل أن ترد متهمكة:

-بين يوم وليلة؟ عاوز تقنعني إن في شخص بيتحول ١٨٠ درجة في لحظة؟ ده اسمه
غباء أو استعباط

كانت إلى حد ما محقة في تلك الجزئية، فليس من السهل أن تصدق كونه شخصًا عاديًا
يمتاز بمعاملته الراقية للجنس اللطيف بعد العدائية المتبادلة بينهما على مرأى ومسمع من
الجميع، حاول إقناعها بالعكس فعاتبها على هروبها قائلاً:

-إنتي اللي حرمتينا من سعادة كان ممكن

قاطعته بجدّة وهي تشير بيدها:

-بلاش تعيش الوهم

اعترف لها بسوء تصرفاته معللاً:

-ماشى أنا غلطت، ومكوتنش مدي نفسي فرصة أعرفك أو حتى أفهمك، بس على
الأقل حاولت أعمل الصح، وإنتي ماصدقتي تهربي حتى بعد ما قربنا من بعض و....

عادت لتقاطعها دون منحه الفرصة لتبرير موقفه المتغير معها هاتفة:

-صدقتي مكوناش هنعرف نكمل مع بعض، أنا عملت اللي كنت هاتعمله بعد كده!

قبض على ذراعها يهزها منها بعصبية وهو يصيح بها بنفاد صبر:

إتي غطانة

نفضت يديه عنها قائلة بإصرار عنيد:

إنت اللي رافض تقنع

نظر لها بجمود مؤكداً لها بقوة وهو يركز على أسنانه:

- "آسيا"، أنا مش هاسيبك، حطي ده في دماغك

حدجته بنظرة مستهترة معلقة بثقة:

مش هايحصل يا "معتصم"

توقف قلبها عن النبض للحظة حينما سمعت صوت صغيرتها ينادي من الخارج:

ماي

شحب لون وجهها بدرجة ملحوظة ونظرت بارتياب إلى "معتصم" الذي شك في تحولها السريع من الثقة والشجاعة إلى الخوف والاضطراب، تجمدت في مكانها خائفة مما سيحدث لاحقاً، خاصة إن اكتشف أمر إنجابها لطفلة منه، ولجت "جميلة" إلى داخل البازار ملقية نظرة خاطفة على ذلك الغريب الواقف في مواجهتها وهي تحمل الصغيرة على ذراعها متسائلة بفضول:

إتي عندك ضيوف يا "آسيا"؟

رمقتها بنظرة متسعة في رعب وهي تهمس لها بصوت مرتجف:

- "جميلة"

بالطبع التقطت أذني رفيقتها اسم الضيف بسبب صوت "آسيا" المرتفع، تساءلت ببلاهة وهي تجوب بنظراتها على هيئته:

هو ده "معتصم" .. طليقتك؟

صح لها خطتها قائلاً بغيظ:

-لأ جوزها يا مدام

نظرت له "جميلة" بخرجت ثم عادت لتحدق في وجه "آسيا" الشاحب المدعور،
انقبض قلبها بخوف شديد مع ترديد الصغيرة "نادية":

-مامي، مامي!

تحولت أنظار "معتصم" لتلك الطفلة التي حملت الكثير من الملامح المشابهة لـ "آسيا"،
تساءل بحدة وقد زادت شكوكه بدرجة كبيرة:

-دي مين؟

ردت "آسيا" بنبرة مهتزة أمره صديقتها:

-خدي "نادية" يا "جميلة" وامشوا دلوقتي من هنا

هتف معترضًا بغلظة:

-محدث هايمشي، مين دي يا "آسيا"؟

استبسلت رغم خوفها لترد بتحد:

-مايخصكش

عبست "جميلة" بوجهها مبدية استيائها من تأزم الأمور بين "آسيا" وزوجها، وما
ضاعف من ضيقها جهل الأخير بوجود طفلة صغيرة أتت من صلبه، رددت عفويًا:

-حرام بجد ميعرفش إنها بنته

زجرتها "آسيا" هادرة بعصبية مستنكرة زلة لسانها التي ستفتح عليها أبوابًا من الجحيم:

- "جميلة"

توقف قلبه عن النبض للحظة ليستوعب حقيقة الأمر، هو لديه ابنة صغيرة لا يعلم بوجودها، ووالدتها قد حرمتها من أبسط حقوقه في معرفة ذلك، صرخ بهياج:
معناه إيه الكلام ده؟

توسلت "آسيا" لرفيقتها لتأخذ ابنتها من البازار قبل أن تخرج الأمور عن السيطرة
قائلة:

-ارجوكي امشوا من هنا

هدر "معتصم" أمراً بصوتٍ جهوري غاضب:

قولت محدش هيتنقل من هنا قبل ما أفهم بالضبط اللي حصل من ورا ضهري
استشعرت "آسيا" تهديداً حقيقياً منه، تشجعت لتقول دون أن تظهر خوفها:
-أيوه دي "نادية" بنتك، بس ملكش دعوة بيها و....

مجرد تأكيدها لحقيقة وجودها أثار فيه الحنق المضاعف، انفعل عليها بتشنج:

-كمان خلفتي من ورايا، يا قسوة قلبك، قدرتي عملي ده فيا؟!!!!

اضطرت "جميلة" أن تتراجع بالصغيرة للخلف حتى لا تشاهد ذلك الشجار الدائر بين
والديها فيؤثر على نفسيتهما بالسلب، في حين دافعت "آسيا" عن تصرفها مبررة:
-ومستعدة أعمل أي حاجة عشان أحمي بنتي من أي حد يأذيها، حتى لو كان منك
إنت!

نظر لها باندهاش غير مصدق أنها بالفعل تعامله كما لو كان غريمها الشرس، بل إنها
رسخت في ذهنها تلك الفكرة كي تقضي على أي فرصة لهما معاً، حدجها بنظراته النارية
متسائلاً بهياج:

-إيه التفكير ده؟ إزاي يجي في بالك عملي كده؟

ردت عليه بصراخٍ محتد:

-اطلع من حياتي يا "معتصم"، احنا مش لبعض، إفهم بقى!

منحها نظرة قوية معلقًا عليها بلهجة غير قابلة للتفاوض:

-لأ يا "آسيا"، أنا مش هاسيبك لو اتطربقت السما على الأرض، وهترجعيلي إتني
وبنتي، وهنتحاسب على ده!

تحدثه قائلة:

مش هايحصل، ولو مطلقتنيش بالنوق، هاخلعك في المحكمة

استفزته جملتها الأخيرة ومع ذلك حافظ "معتصم" على انضباط أفعاله أمام تصرفاتها
المحفزة للاشتباك ليرد بصلافة:

هانشوف!

ألقي عليها نظرة متوعدة قبل أن يلتفت ليحرق في وجه ابنته الصغيرة متممًا بكلمات
متبرمة، خرج من البازار متوعدًا إياها باسترداد كل ما يخصه دون تفريط في أدنى
حقوقه معها، انهارت "آسيا" على الأريكة دافنة وجهها بين راحتها وهي تشعر بذهاب
ما فعلته سدى، فكل شيء قد ضاع في لحظة، وما خططت له قد فسد بظهور
"معتصم" من جديد في حياتها، تأكدت الآن أن رؤية "مصطفى" لها مصادفة جرت
عليها المشاكل !!

.....

الفصل الخامس والأربعون (الأخير – الخاتمة)

احترقت أعصابه وتلفت خلاياه العقلانية بعد أن علم مصادفة بوجود صغيرة من صلبه أتت إلى الدنيا دون أن يعرف عنها شيئاً، أو حتى يختبر معها مشاعر الأبوة منذ لحظة ميلادها، حُرْم "معتصم" من كل شيء يخصها، من تلمسها، شم رائحتها الزكية، من ضمها إليه، ومن هدهدتها بين ذراعيه لتغفو، ومن رؤيتها تكبر أمام عينيه وذلك بسبب أفكار "آسيا" السوداوية عنه، وبخ نفسه بقسوة لعدم امتلاكه للشجاعة الكافية لأخذ ابنته قسراً ليحتضنها ويغدق عليها من عطفه الأبوي الذي افتقدته بابتعاده الإجباري عنها، شلت المفاجأة الصادمة تفكيره وحجبت عقله عن التصرف بمنطقية مع من تحمل لقبه، توقف خارج البازار ملتفتاً للخلف ومتردداً فيما سيفعل، فإن اقتحم المكان من جديد لنسبت مشادة أخرى حامية، وإن انسحب الآن لن يتحمل عذاب ضميره لعدم احتوائه لصغيرته، حسم أمره بالعودة إلى "آسيا" واستقبال ابنته في أحضانه حتى لو عنى ذلك اندلاع الحرب من جديد.

اقتحم البازار الخاص بها ليجدها تضم طفلتها، سيطر على غضبه هاتفاً بصوتٍ جهوري:

- "آسيا"

ارتعدت لرؤيته من جديد وناولت صغيرتها لرفيقتها "جميلة" الواقعة بجوارها ثم تقدمت عدة خطوات للأمام لتحول بينه وبين "نادية"، سألته بحدة وقد توهجت عيناها الفيرويتان:

- رجعت ليه؟

نظر لها بعينين مشتعلتين من فعلتها الحمقاء التي كلفتهما الكثير ثم أجابها بجمودٍ مقلق:

- أشوف بنتي، ولا ده كمان مش من حقي

ردت عليه بنبرة أقرب للصراخ رافضة طلبه:

- لأ مش من حقتك، دي تخصني أنا ويس

راقبت الصغيرة اشتباك الاثنين بخوف جلي في نظراتها نحوها، أدمعت عيناها تأثراً بالصراخ المرعب، وتعلقت أكثر بـ "جميلة" وكأنها تحتمي بها من الخطر المجهول، اهتاج "معتمص" من جملة "آسيا" الأخيرة التي ألهمت نيرانه المتأججة بداخله ليرد بحنق مضاعف:

- فرقتي ليه عن "شرف الدين" باباكي اللي حرمك من مامتك؟

وكان في كلماته العفوية التي عبرت عما يدور في عقله الناقوس الذي أوقف فيها ما حدث معها في سنوات عمرها الصغيرة، مر في عقلها شريط ذكرياتها مع والدها الجاحد الذي ملأ قلبها بالقسوة والجفاء، هدرت مستنكرة بشراسة وهي تلوح بيدها في الهواء:

- أنا مش زيه

نظر لها بغیظ قبل أن يؤكد لها بشاعة فعلتها:

- إنتي بنته، وعملي بالظبط زي ما عمل فيكي زمان

انفعلت من إصراره على لومها صارخة:

-ماتقارنیش بيه

انخفضت نبرته نوعًا ما لتحمل العتاب وهو يسألها:

هان عليكى بنتي تتربى بعيد عني؟

ألمتها كلماته الموجعة التي كانت محقة دون ريب، لم تتحمل المزيد من ضغطه عليها فأولته
ظهرها صائحة:

-كفاية

تابعت "جميلة" تأزم الموقف واشتعاله بقلق كبير، تدخلت قبل أن تخرج الأمور عن
السيطرة لتقول بنبرة عقلانية:

-ماتضغطش عليها يا أستاذ "معتصم"، هي كان عندها أسبابها الخاصة
رد عليها مستنكرة تهميشه:

-وفين حقي لما ما أعرفش إن عندي بنت؟

حاولت إقناعه بالتريث وتهدئة الأوضاع قائلة:

-تتكلم في ده بعدين، بس مش وقت خناق ولا عتاب قصاد "نادية"

ثم أشارت له بعينها ليحرق في وجه الطفلة المذعور، تمالك "معتصم" نفسه كي لا
يصعد الوضع أكثر من هذا، دنا من صغيرته مسلطًا أنظاره الدافئة عليها، ابتسم لها
قائلاً بود:

-متخافيش يا حبييتي، أنا مش هاعملك حاجة، أنا بابي

أخفت الصغيرة "نادية" وجهها في رقبة "جميلة" متجنبنة التحديق فيه، استاء "معتصم" للغاية من خوفها منه ومن نظرات الارتعاد الواضحة عليها، مد يده ماسحًا على ظهرها برفق حنون متابعًا بخفوت:

-أنا رجعت يا حبيبي ومش هاسيبك، باي مستعد يعمل أي حاجة في الدنيا كلها
عشان تكوني مبسوطة

ثم رفع أنظاره لـ "جميلة" لتقرأ في عينيه رغبة صريحة في حمل طفلته، بدت مترددة في تنفيذ أمره الصامت خشية من ردة فعل "آسيا" التي كانت تغلي في مكانها، حسمت أمرها بإعطائها له، فمن حقه ضم طفلته والشعور بقطعة منه بين أحضانه، ناولتها له رغم تشبث الصغيرة بها، حملها منها "معتصم" وربت عليها بلطف متجاهلاً ركلاتها وأنيبها الباكي، تغلغل فيه شعورًا عظيمًا بالسعادة لمجرد احتضانها، ضبط انفعالاته التي اهتمت بسبب حرمانه من حقه في التمتع بها، وتسلم بالهدوء الشديد، قبل أعلى رأسها وشد من ضمه لها هامسًا:

-أنا مش هاعملك حاجة يا حبيبي، باي بيحبك!

منحها قبلة أخرى أبوية آملًا أن ينظر إلى وجهها، رمقته الصغيرة بعينين باكيتين وهي تنتحب بخوف مبرر منه، تلقتها "جميلة" بيديها لتضمها إليها، رمق "معتصم" ابنته بنظرات متلهفة لها، طامعة في عدم تركها أبدًا، شعر بيدٍ تدفعه بغلظة فاستدار برأسه للجانب ليجد "آسيا" تأمره بصراخ:

-أمشي من هنا، برا

رد عليها بوعيد وهو ينتزع قبضتها ليعتصرها بأصابعه قائلاً لها:

-أنا راجع ثاني يا "آسيا"، ومش هاسيبكم، إتي مراتي وهي بنتي، حطي ده في دماغك!

تأوهت من الألم فأرخی قبضته عنها ثم حدق في طفلته ليقول لها:

حبيبتي أنا أسف، كنت بعيد عنك الفترة اللي فاتت دي، بس هاعوضك إن شاء
الله

تلمس شعرها بجذير والتفت نحو زوجته ليلقي عليها نظرة غاضبة مليئة بالإصرار العنيد
قبل أن يخرج من البازار، شعرت "آسيا" بالتخبط والحنق، لم تكن تتمنى حدوث تلك
المواجهة قبل أن تستعد لها، ورغم هذا راودها إحساسًا غريبًا بالارتياح لكونه لم يشكك
في بنوة الطفلة أو حتى يثير ذلك الأمر، تأملت "جميلة" حالتها مرددة بجذير:

إن شاء الله النفوس تهدي وتتصافوا

جمدت "آسيا" نظراتها الحادة عليها، أشارت لها قائلة بصوتها المتحشرح:
هاتي "نادية"

ناولتها إياها دون تفكير لتضم الأخيرة طفلتها إلى حضنها بقوة رافضة تركها، انهالت عليها
بعشرات القبلات وهي تحاول طمأنتها هاتفة:

بس يا "نادو"، ما فيش حاجة حصلت

طوقت الطفلة عنقها بذراعيها وأسندت رأسها على كتفها شاعرة بالأمان معها، للحظة
فكرت "جميلة" في إصلاح ذات البين بين الزوجين المتخاصمين، خاصة بعد تأكدها
من عدم تطليق "معتمص" لها، أسرعت خلفه لتلحق به آملة في نفسها أنها ستفعل
الصواب.

تسيب اللي في إيدك وتجيلى على طول

قالها "معتمص" بصيغة شبه أمرة لابن عمه الذي تفاجأ بعثوره على زوجته الهاربة،
مكث الأخير في فندق قريب من منطقة المازارت تاركًا ما خلفه من أعمال ليتفرغ لتلك

التطورات الهامة، فلو كان كالماضي يعاملها بعصبية وهمجية لأطبق فوراً على عنقها
وعنفها بشراسة لفرارها وتعذيبها له قبل أن يجدها ويكتشف وجود طفلة تحمل لقبه،
عاد ليأمر "نبيل" بخشونة:

-متأخرش لأنني مش هاصبر كثير

رد عليه ابن عمه برجاء:

حاضر، بس إنت اهدى، وكل حاجة هتتحل

بدا غير مقتنع بجملته ومع ذلك رد باقتضاب عابس:

-أما أشوف، سلام!

أغلق هاتفه ليتجه إلى النافذة، أزاح الستائر ليتأمل حركة السير وهو ينفث غضباً
من تعابيره، كز على أسنانه محدثاً نفسه:

-بقي كده يا "آسيا"؟ انتقمتي مني صح!

.....

أتى إليه على عجالة مؤجلاً كل أعماله ليعاونه في مسألة استعادة زوجة ابن عمه بعد
اكتشاف الأخير لمكان اختبائها، سرد "معتصم" على "نبيل" تفاصيل ما حدث لتبدو
الصورة واضحة بالكامل له، رفع حاجبه للأعلى مردداً باندهاش:

لحد دلوقتي أنا مش مصدق اللي إنت بتقوله ده!

حدجه "معتصم" بنظرات مغلولة قبل أن يعلق بغیظ:

-أومال أنا اعمل إيه؟

تنفس بعمق ليهدأ من صدره الثائر ثم أضاف بحنق:

- "آسيا" قدرت ببساطة تخبي البنت عني لسنين، وأنا ولا على بالها، مفرقتش معاها
للحظة

رد عليه معللاً تفكيرها الخاطئ:

- بص هي معذورة برضوه، من اللي شافته منك!

احتقت نظراته صائحاً بتشجج:

- وأنا عملت فيها إيه يخليها تحرمني من بنتي؟!

أجابه بنظرات جادة:

- شكك نسيت، ده كفاية مرض الشك اللي كان عندك!

صرخ فيه بعصبية:

- إنت بتدورلها على مبررات و خلاص

أردف قائلاً بنبرة عقلية وبنبات كي يحجم ثورة ابن عمه قبل أن تطغى عليه وتعميه من
رؤية الأمور من منظورها الحقيقي:

- لا، بس عاوزك تعذرها لما تتصرف كده معاك أو مع غيرك، اللي شافته مش قليل
ولا هين، وأظن إنت شوفت باباها كان عامل إزاي، فطبيعي إنها تخاف وتهرب وتخبي
عليك إنها مخلقة أصلاً

صمت "معتصم" ليفكر ملياً وبروية فيما قاله، في حين أكمل "نبيل" قائلاً:

- حل الموضوع ده يكون بالعقل والحنية، طالما إنت متمسك بيها وعاوز تكمل معاها،
ده غير إنك لازم تبص لمصلحة بنتك وتحطها في اعتبارك!
كور "معتصم" أصابع يده ليضغط عليها بغیظ وهو يقول:

-أنا هاموت ياخي من الحكاية دي، بنتي ومتعرفنيش وكان خايفة مني بسبب أمها
حاول تهدئته معلقًا:

-كل ده مقدور عليه، بس نصيحتي ليك حل مشاكلك مع "آسيا" بالتفاهم والأسلوب
الودي، العداوة والعنف مش هائجيوا نتيجة، وأديك شوفت حصل إيه، ولو مش
عاوز المشاكل تتكرر تاني ولا "آسيا" تهرب منك خليها تعرفك على حقيقتك، تشوف
الجانب الطيب الحين اللي فيك، وساعتها هاتكسبها

أثرت كلماته العقلانية فيه بدرجة ما وأثبطت حالة الغضب التي اعترته ليضع نصب
عينيه الخيارات الأفضل لم شمل أسرته من جديد، فما جناه من التهور والتصرف ببربرية
همجية هو الجفاء والهروب والمقاطعة، زفر مرددًا:

-ربنا يسهل

أراد "نبيل" أن يصرف انتباهه عن رغباته الانتقامية التي تبحث عن جذوة للاشتعال
من جديد مضيئًا بابتسامته شبه ساخرة:

-في حاجة تانية كنت عاوز أقولك عليها، هي صحيح مش وقتها بس لازم تعرف
رد ابن عمه متسائلًا بوجه ممتعض:

-في مصيبة تانية؟

اتسعت ابتسامته قليلاً وهو يرد نافيًا:

-لا، خبر كويس

-خير؟

أجابه باقتضاب:

- "مصطفى"!

سأله بجدية وقد انعقد ما بين حاجبيه:

ماله؟

فرك "نبيل" طرف ذقنه متابعا:

عاوز يخطب "أية" بنت عمنا

التوى ثغر "معتصم" للجانب مردداً بنبرة شبه مزدريّة:

نعم، "أية"؟!

استأنف "نبيل" معلقاً:

هو فاتحني في الموضوع ده، الظاهر إنه معجب بيها ومن زمان بس مكانش قايل،
وطبعاً مش هنلاقي أحسن منه ليها، صاحبنا وبنثق فيه ده غير أخلاقه و...

لم يصدق "معتصم" أذنيه، ففي خضم ما يمر به من مشكلات تحتاج لمجهود مكثف
للوصول إلى حلول مرضية يحدثه ابن عمه عن زواج "أية" من صديقها المقرب وكأنه
يعيش فترة سلام لا ينقصها إلا تلك الأخبار، رد باستنكار عابس:

مش وقته الموضوع ده يا "نبيل"، خلاص مش قادر يصبر أما أتنبيل أخلص البلاوي
اللي عندي

رد مازحاً:

-الراجل نفسه يفرح

اعترض بتذمر:

-بس مش وقته

واقفه "نبيل" الرأي قائلاً بابتسامة هادئة:

-تمام، أنا معاك، بس بأديك فكرة، وهو فاهم الظروف كويس
نظر له بضيق من عينيه المحتمنتين ليرد بتهمك ساخط:
-ماهو باين عليه!

.....

قررت ألا تترك الأمور معلقة، هي عايشت أحوال رفيقتها ومدركة لأبعد الحدود رغبتها
في الاستقرار والتنعم بأجواء أسرية دافئة مليئة بالعطف والحب لتعوضها عما قاسته،
لكن خوفها من المجهول دفعها للهروب ولا ارتكاب أخطاء كبيرة في حقها وحق صغيرتها،
لذا عقدت "جميلة" النية على إعادة روابط الود بين الزوجين المتشاحنين وإزالة الحواجز
الجليدية بينهما ليحيا كلاهما في أحضان الآخر، وقبل رحيل "معتصم" من البازار
طلبت رقم هاتفه لتتواصل معه خلسة بعيداً عن "آسيا" من أجلها، اتفقت على مقابلته
في أحد المطاعم لتتفاهم ودياً على الطريقة التي يمكن أن تساعد في التودد إليها،
استطردت "جميلة" حديثها قائلة بارتباك طفيف:

هي طبعا غريبة إني أطلب أقابلك وأتكلم معاك، بس لو أنا مش متأكدة من إن
"آسيا" بتحبك مكوتش عملت ده

رد عليها بتبرم وقد بدا غير مقتنع بما تقوله:

-وهي بقي اللي بعثاكي

نظرت له بقوة قبل أن تتحجج باعتراض:

-لأ طبعا، دي لو عرفت ممكن تقاطعني فيها!

أضاف بازدراء:

-يا مدام

قاطعته بسمة رقيقة:

-اسمي "جميلة"

بدا فظًا وهو يتجاهل جملتها ليسألها مستفهمًا:

-إنتي تقبلي باللي عملته؟

أجابته بالنفي:

-لأ طبعًا

ثم تابعت مضيفة بنبرة هادئة:

-وعشان كده أنا جاية أفهم منك إيه اللي حصل بالضبط، جايز أقدر أساعدك

تهدت "جميلة" بعمق مراقبة بتفرس ردة فعله، بدا وجهه غير مقروء رغم احتداد نظراته، عضت على شفتها السفلى مكلمة:

-أنا صعبان عليا "آسيا" و"نادية"، مش حابة يكون ده وضعهم، الاتنين محتاجينك معاهم حتى لو كانت "آسيا" معاندة ورافضة ده

صمت مليًا مما أوجسها خيفة من رده القادم، لكنه بدد شكوكها الواهية قائلاً بجدية:

-ماشى، وأنا معاكى!

.....

اختلست النظرات نحو "آسيا" الجالسة في الشرفة بشرود لتعاود الحديث في هاتفها بصوت خفيض وهي تتسلل إلى المطبخ، فقد أعدت "جميلة" خطة بسيطة مع "معتصم" هدفها وضع مخدر في مشروبها لتغفو فيتمكن الأخير من اصطحابها بهدوء وإعادتها إلى منزله بالقاهرة دون أي مقاومة وبصحبتها ابنتها، سألها مؤكدًا عليها بجدية:

-إتي متأكدة إنها مش هاتشك؟

أجابته بهمس:

-لأ طبعا، بس خليك قريب من البيت وأنا هاكلمك

هوى قلبها في قدميها حينما التفتت "جميلة" لتجد "آسيا" واقفة عند عتبة المطبخ،
للحظة توهمت أنها كشفت أمرها، تجمدت ملامحها وحدقت فيها برعب، سألتها رفيقتها
بفتور وهي تفرك مقدمة رأسها:

-بتكلمي مع مين يا "جميلة"؟

ابتلعت ريقها في حلقتها الجاف ثم أجابتها بتلعثم طفيف:

-لأ ده واحد من الموظفين بأخلص شغلي معاه

أومات برأسها قائلة:

-أوكي

ولجت "آسيا" إلى داخل المطبخ ثم سحبت المقعد لتجلس مستندة بمرفقيها على الطاولة
التي تنتصفه، وضعت "جميلة" يدها على كتفها متسائلة باهتمام:

-شكلك لسه مضايق؟

أجابتها "آسيا" بنبرة مهمومة:

-مش عارفة أعمل إيه

حاولت طمأنتها فردت مبتسمة:

-متقلقيش، كل حاجة هتتحل

تابعت "آسيا" قائلة بتوترٍ لم تخفه:

خليفة من "معتصم"، مش هاسيب "نادية"، وهياخد الموضوع عند فيا وأنا مش
هاستحمل حد ياخدها مني

ردت عليها بحذر:

-بس هو باباها

صاحت بعصبية بائنة:

-أنا اللي تعبت فيها

أوضحت لها خطئها قائلة:

-ماهو إتي من الأول معرفتيهوش عنها

استنكرت "آسيا" دفاعها عنه فوبختها متسائلة:

-إتي معايا ولا معاه؟

مدت "جميلة" يدها لتمسح على وجنتها برفق ثم أجابتها بتريث:

حبيبتي أنا عاوزة مصلحتك، وحابة تكوني مبسوطة وسعيدة في حياتك

أخرجت "آسيا" تهيدة مليئة بالضيق من صدرها معلقة عليها:

-ماظنش هاشوف راحة تاني

ثم ساد صمت متوتر بين الاثنتين للحظات قطعته "جميلة" بسؤالها:

-باقولك إيه، أعملك نسكافيه معايا يروق دماغك

كانت "آسيا" بحاجة لما يخمد توتراتها وقلقلها المستمر، ردت بإيماءة خفيفة:

أوكي

شرعت رفيقتها في تنفيذ خطتها بحرص شديد متأكدة من وضع الأقراص المخدرة في المشروب الساخن، قلبته جيدًا بعد أن أضافت ملعقة زائدة من السكر كي لا تشعر بالمذاق الغريب فيه، ناولتها الكوب وهو تجاهد للحفاظ على هدوء تعبيرات وجهها، جلست إلى جوارها وراقبتها بعينين حادتين كالصقر وقد بدأت في ارتشاف القليل منه، نفخت "آسيا" قائلة بحيرة:

-بأفكر ماوديش "نادو" ال nursery (حضانة) اليومين الجايين، خايقة "معتصم" يكون يراقبنا ويعرف مكانها ويخطفها ردت مستنكرة سوء تفكيرها:

-مش ممكن يعمل كده، ده بروضه باباها

لوت شفيتها مرددة بوجه متجهم:

-أنا مش ضمناه

لم تعقب عليها فقد كانت عيناها تتابعان بترقب ارتشافها للمشروب، رويدًا رويدًا بدأت "آسيا" تشعر بذلك الثقل الذي اجتاح رأسها، نهضت من جلستها قائلة بتعجب:

-مش قادرة، دماغي وجعاني، أنا محتاجة أنام

ردت "جميلة" بجمود:

-وماله يا حبيبتى!

راقبتها وهي تسير بهمل شديد نحو غرفتها لتتبعها بحذرٍ حتى تأكدت من سقوطها على الفراش واستسلامها لتأثير المخدر، عاودت الاتصال بـ "معتصم" هامسة له بجدية رغم اضطراب نبرتها:

-تعالى بسرعة، هي خلاص نامت

وقفت قبالة صديقتها، تلمست كفها برفق ثم همست لها بندم:
-سامحيني يا "آسيا"، بس أنا عارفة إنك هتشكريني على ده بعدين

.....

سهلت له رفيقتها الطريق ليتمكن من التسلل إلى المنزل، ولج "معتصم" إلى داخل غرفة "آسيا" ليجدها غافية، رمقها بنظرة مطولة تحمل الكثير، قاوم إحساسه الغاضب ليضع مصلحتها ومصلحة صغيرته في قائمة أولوياته، لن يدع الشك يفتك باستقرار حياته ولا بالقسوة لتفسد ما يحاول بنائه، يكفيه مرارة البعد والهجر التي عانى منها لأشهر طويلة حتى نسي مذاق كل شيء، انحنى عليها ليحملها بين ذراعيه، في حين تولى "نبيل" حمل الصغيرة وحقيبة بها القليل من متعلقات الاثنتين مما استطاعت "جميلة" جمعها في ذلك الوقت القصير، اتجه "معتصم" بزوجته النائمة إجبارياً نحو سيارته المصفوفة بجوار المنزل، أجلسها على المقعد الأمامي وأحكم ربط حزام الأمان، بينما جلس "نبيل" بالخلف واضعاً الصغيرة على حجره، وفي أقل من دقائق كانت السيارة في طريقها للعودة إلى القاهرة.

خافت "نادية" من الوجوه الغريبة المتطلعة إليها خاصة حينما رأت سكون والدتها المزعج، رددت ببراءة وهي تشير بيدها الضئيلة نحوها:

-مامي

مسد "نبيل" على رأسها قائلاً بلطف محاولاً إزالة الرهبة الطبيعية منها:

-حبيبتى متخافيش مامي نايمة شوية، ها قوليلي إنتي اسمك إيه؟

أجابته بصورة عفوية:

- "نادية"

كان متعجبًا وفي نفس الوقت معجبًا بتسميتها على اسم جدتها الراحلة، فقد دل ذلك على مسامحة "آسيا" لوالدتها ورغبتها في تخليد ذكراها، همس لها مبتسمًا:

-اسمك جميل أوي

ثم تأمل وجهها وملاحظها الطفولية التي قاربت بدرجة كبيرة لملامح والدتها، ردد بصوت خفيض:

سبحان الله، فولة واتقسمت نصين

حذق "معتصم" في المرأة الأمامية متأملًا وجه ابنته، بالفعل كانت مشابهة لـ "آسيا" كثيرًا، حملت سماتها الجسمانية فبدت نسخة مصغرة عنها، انتبه لسؤال "نبيل" الفضولي: فين بابا بقى؟

ردت الصغيرة ببراءة وهي ترفع سبابتها للأعلى: فوق!

قطب جبينه متسائلًا باستغراب:

فوق فين؟

أجابته دون تردد:

مع عصفور

انتاب "نبيل" الحيرة من ردها الغريب، فسألها مستفهمًا:

-بيعمل إيه معاه؟

ردت بنفس البراءة المحببة:

-يطير فوق

حلق "نبيل" في ابن عمه يسأله بمزاح:

-إنت طلعت مع العصافير امتي يا "معتصم"

تجاهل الأخير الرد عليه مبدئياً انزعاجه من مزاحه السخيف، شعر بيده تمتد لتتلمس ظهره بخشونة، احتدت قسماث وجه "معتصم" متسائلاً بضيق:

-إنت بتعمل إيه؟

أجابه بمرح:

-بشوف طلعلك ريش ولا لسه

نهره بتويخ شديد وقد قست نظراته:

-بلاش استرخام

علقت الصغيرة ببراءة وهي تنظر بعبوس لوالدها:

-عمو زعلان

صاح باستنكار شديد بعد أن فاض به الكيل من جهل ابنته له:

-مين ده اللي عمو؟ أنا بابا يا "نادية"، بابا! قولها كثير عشان تحفظها

كركر "نبيل" ضاحكاً من الموقف برمته، فعلى قدر كونه مخيباً للآمال إلا أنه كان عفويًا

ومرحًا، كز "معتصم" على أسنانه متمماً مع نفسه بغيط:

-استغفر الله العظيم، بقيت عمو، عملتي الواجب معايا يا "آسيا" وزيادة!

.....

شعرت بصداق ثقيل يعصف بخلايا عقلها المتعبة وقد بدأت في استعادة وعيها، تلملت

"آسيا" على الفراش محرّكة رأسها للجانب، فتحت عينيها ببطء لتجد ذلك الطيف

المشوش محققًا بها، رمشت بعينها لعدة مرات لتعتاد على الإضاءة، اتضح لها ملامح ذلك الوجه جيدًا، كان "معتصم" يطالعها بنظرات غامضة، هبت منتفضة من نومتها لتلقي نظرة خاطفة على الغرفة، قفز قلبها رعبًا بين ضلوعها بعد أن تأكد لها وجودها بغرفته، سألته بخوفٍ وهي تتراجع للخلف على الفراش:

-أنا إيه اللي جاني هنا؟

أجابها بهدوء مريب:

-أنا يا "آسيا"

صرخت فيه بجدّة وهي تهض على قدميها منزوية بعيدًا عنه:

-إنت عملت فيا إيه؟

رد بنفس الهدوء المللك للأبدان وهو يدنو منها:

-رجعتك بيتك

هدرت بتشنج:

-ده مش بيتي

هز رأسه بالنفي مصححًا:

-لأ يا "آسيا"، المرادي مش هتهربي مني!

أقبل عليها قاصدًا الإمساك بها، صرخت فيه بجنون:

-أبعد عني

لم يجد "معتصم" صعوبة في الوصول إليها، أحاطها بذراعيه مجبراً إياها على البقاء تحت
حصاره وفي أحضانه، جاهدت لتملص منه وتتخلص من قبضتيه المحكمتين عليها لكنها
فشلت، نظرت له شزراً هادرة فيه:

-سيني

شدد من ضمه لها قائلاً:

لأ-

انتبهت لعدم وجود صغيرتها معها فسألته بخوف:

-بنتي فين؟

ثبت نظراته عليها ممتعاً عيناه بقربها الذي افتقده، غلب الشوق غضبه، وهزم الحب
مشاعره الانتقامية منها، أرخى ذراعه عنها ليتمكن من تلمس بشرتها، ارتجفت من
لمساته الحنون وأغمضت جفניה متجنباً نظراته التي ضيقت عليها الخناق، عادت لتسأله
بصوتها المنفعل رغم تلك الهزة الخفيفة البائنة فيه:

أنا عاوزة بنتي، هي فين؟

أجابها بابتسامة صغيرة:

-متخافيش مع جدها "وحيد"

أدركت أنه يحاول اتباع طريقته المأكرة في إضعافها، فلجأت إلى جفائها الجامد لتحمي
نفسها من تأثيره، رمقته بنظرة حادة صارخة فيه:

أنت عاوز إيه يا "معتصم"؟

على عكسها كان هادئاً لأبعد الحدود، متمسكاً لدرجة تثير الريبة والشكوك، بادلها
بنظرات عميقة قائلاً لها:

-عاوزك يا "آسيا"

توترت من جملته التي أوحى بالكثير، ومع ذلك استنكرت استمالة لها مرددة:

-بأمانة إيه؟ إنت عمرك ما حبيتني!

هز رأسه بالنفي موضحًا:

-غلطانة، جايز أسلوبك كان غلط معاك من الأول وإنتي عارفة ده ليه، بس إيتي مادتنيش فرصة أصلح غلطي وتعرفي

قاطعته بجدّة:

-مش مصداك، إنت بتكرهني و...

ركز أنظاره عليها هامسًا لها دون أي مقدمات:

-بأحبك

ورغم المفعول السحري لتلك الكلمة العجيبة إلا أنها قاومت تأثيرها الذي أجفل بدنها وأنعش مشاعرها المرهقة، نهج صدرها قائلة بارتباك:

-مش عاوزة أسمع حاجة

تابع همسه المحفز لها:

- "آسيا"، أنا كنت بأموت في بعادك، إيتي معرفتنيش أنا كنت بأعمل إيه عشان أوصل لأي حاجة توصلني ليكي

حدقت فيه بجدقتها المتوترتين وقد بدأت مقاومتها تخبو، مسح بنعومة أشد تأثيرًا على وجنتها ليكمل بعتابٍ لطيف:

ليه عاوزة تحرمينا من إننا نعيش حياتنا؟

أجابته بصوتٍ شبه مرتجف:

إنت من الأول حكمت على جوازنا بالفشل، ماتجيش دلوقتي وتقول العكس
حاوط عنقها بكف يده فاقشعر جسدها بالكامل من لمسائه الخبيرة عليها، شعر بتلك
الرجفة التي انتابتها، ثم مال على أذنها هامسًا لها بصوته العذب قاصدًا أن تحس بأنفاسه
الساخنة والناطقة بمشاعره لها:

-كنت غلطان، مريض بالشك وغضبي عميني، ليه ماننساش اللي فات ونبدأ من أول
وجديد؟

ردت بصوتها المرتبك وهي تتحاشى اقترابه الذي أوشك على إذابة ما تبقى من مقاومتها:
-عاوزني أمسح كل حاجة كده بأستيكة؟

رد عليها بنفس الهمس الملبك:

-ادينا فرصة تقرب من بعض من أول وجديد ونعرف بعض صح، من غير انتقام ولا
كره ولا عداوة

أشعلت أنفاسه الحارة بشرتها فتلون وجهها بجمرة قوية، قبل وجتها بشفتيه متابعًا حديثه
بصوته الخفيض:

-لا إتي هاتجبي تعيش بنتنا نفس تجربتك مع باباكي، ولا أنا عاوزها تتربي بعيد عن
حضني، من حقها إنها تكبر وسطنا وتدوق حنان باباها وحبه، وتشبع من وجود
مامتها معاها

أغمضت عينيها بقوة وهي تقا تل ذلك الصراع الدائر بداخلها، ارتجفت من إحساسها
بقرب تلمس شفتيه لشفتيها، ألهبتها أنفاسه وهو يضيف:

-حنا الاتنين عاوزين فرصة ثانية لينا

تأكدت أنها باتت قاب قوسين أو أدنى من الاستسلام لذلك الإحساس المغربي الذي
تسرب تحت جلدها وأعاد إليها ما افتقدته من مشاعر عايشتها مرة واحدة، ابتلعت
ريقها مرددة بارتباك:

-عاززة أشوف بنتي

رد عليها بخفوت:

-مش قبل ما توعديني إنك مش هاتبري مني يا "آسيا"

تفاجأت به يقبلها من شفثيه متعمداً تعميق قبلته الحسية لتشعر بما يعصف به من
مشاعره، تراجع عنها ليتأمل وجهها الذي أشرق مع جزء مما أرادها أن تتذكره، اعتذر
لها هامساً:

-أنا أسف على كل حاجة

فتحت عينيها لتنظر له بجمود، مال "معتصم" عليها ليقبلها بقوة من جديد مؤكداً على
عمق مشاعره، ابتعد يتمهل عنها ليهمس بأنفاسه المتهدجة:

-بأحبك

اختل كل شيء واختلط بأحاسيسها وعادت لتلحق في حلمها الوردى الذي افتقدته
وظنت أنه حلماً صعب المنال، ردت عليه بصعوبة:

-إنت ...

وضع إصبعه على فمه مقاطعاً إياها بصوته الخفيض ونظراته المشتعلة بالرغبة والحب:

-ششششش، مش وقت كلام

.....

ابتسمت لها الحياة من جديد وحلقت في فضاء العاشقين متناسية تلك الأوجاع التي أرهقت كاهليها، انغمست "آسيا" في ملذات الحب وأذاقها "معتصم" مشاعره المتيمة التي أشعرتها بالذنب لهجرها له دون أن تفكير عقلائي، كانت بحاجة لاحتواء خوفها، لإكسابها الثقة في الآخرين، للشعور بالأمان، للتنعم بالجو الأسري الدافئ المستقر، كم افتقدت تلك الأمور كثيرًا والتي عايشتها في لحظات مميزة للغاية أشعرتها برغبتها الشديدة لعدم التخلي عنها من جديد، احتضن زوجها وجهها براحتيه قائلاً لها بصوته العذب المثير:

-وحشتيني

ردت بابتسامة أشرفت وجهها:

-وانت كمان

-أنا مكوتنش متخيل إني هاتعلق بيكي كده

ابتسمت هامسة:

-ولا أنا كنت أصدق ده

سحبها من يدها ليقول لها:

طيب تعالي سلمي على بابا

أومأت برأسها موافقة وسارت معه إلى خارج الغرفة، انتهت لصوت الضحكات الطفولية التي ملأت أركان المكان، سارت بتلهف نحو مصدرها لتجد ابنتها تلهو ببراءة مع جدها "وحيد"، تأملتها للحظات في صمت عاجزة عن إيجاد التفسير والمبرر الذي يقنعه بسبب تصرفها الأرعن ويحسن من صورتها أمامه، خاصة بعد الذي قدمه لأجلها، فهو لا يستحق ذلك، رفع الأخير عينيه نحوها مرحبًا بها بوجهه:

حمدلله على السلامة يا "آسيا"

نجلت منه فأطرقت رأسها قائلة بجرح كبير:

-أزي حضرتك؟

أمرها "وحيد" بهدوء:

-بصيلي يا "آسيا"

نظرت له بتوترٍ فتابع قائلاً بجدية:

-أحنا مش هنتعاب، لأن الكل غلطان، بس أتمنى إنك تكوني فهمتي إن "معتصم"

لسه متمسك بيكي بعد اللي حصل

تحركت رأسها عفويًا نحو زوجها الذي كان في حالة انتشاء واضحة بسبب مدح والده

له، عززت كلماته الطيب الموقف وخففت من وطأة العتاب القاسي، تهللت أسارير

"معتصم" صائحًا بسمه متسعة:

-أخيرًا، الله يكرمك قول كمان كلمتين حلوين في حقي

ركضت الصغيرة "نادية" نحو والدتها هانفة:

مامي!

انحنى "آسيا" نحوها لتحملها بين ذراعيها، ضمها إلى صدرها وهي تدور بها بسعادة،

ثم توقفت عن الدوران لتقبلها بعطف أمومي كبير من وجنتيها:

- "نادو"

علق "وحيد" على اسمها قائلاً بنبرة شبه متأثرة وقد ترقرت عبرة حزينة في عينه:

إتي مش متخيلة إحساسي عامل إزاي واتي مسمياها "نادية"، خلتيني أتعلق بيها
أوي

نظرت له "آسيا" بأسف حزين، فاسم صغيرتها يعد تخليدًا لذكرى والدتها الراحلة،
تهدت بعمق ثم التفتت نحو "معتصم" الذي لف ذراعه حول كتفها ليقربها إليه، ابتسم
مضيفًا:

ولسه يا بابا لما تقعد معانا وتعرف جدها أكثر

ثم سلط أنظاره على صغيرته قائلاً:

هاتي "نادو" أشيلها شوية

ناولتها إياه دون جدال ليشعر "معتصم" بأنه امتلك الدنيا وما فيها وهو يضم صغيرته
إليه، مال برأسه للجانب ليطلع قبلة أبوية على وجهها، لكن بادرت الصغيرة "نادية"
بخدشه بعنف وكأنها تتقاتل معه، أمسك بقبضتها الصغيرة متعجبًا من ردة فعلها:

آي، طب ليه كده بس؟

تشكل على ثغر "آسيا" ابتسامة عابثة معلقة عليه:

مابتحبش حد ييوسها

ضيق نظراته معترضًا:

بس أنا باباها

هزت كتفها قائلة بدلال واثق:

مش مبرر يا "معتصم" بيه

هز رأسه بالإيجاب مرددًا بعبوس زائف:

عندك حق

ثم وزع نظراته بين الاثنتين راسماً على وجهه ابتسامة بشوشة، تمنى في نفسه أن تسود السعادة جدران ذلك المنزل الذي افتقد تلك الأجواء الدافئة، فعلاقته لم تكن بالسهلة المفهومة، هي كانت المعنى الحرفي للتعقيد والتشابك، فلو تسرع في قراره وانفصل عنها مثلما رغبت لما كسب ثقتها بسرعة حينما تأكدت من تمسكه بها رغم هجرها له لفترة طويلة باحثاً عنها في كل حذب و صوب، والأهم من ذلك نبذه للعنف والعدائية مستعيضاً عنه بالود وإظهار الحب الشغوف، تشكلت علامات الرضا على وجه "معتصم"، فقد حان الوقت لنسيان الماضي بما فيه، عادت الصغيرة "نادية" لخدشه وهي تضحك بعبثٍ، تهدي قائلاً باستياء:

تاني؟ شكلك هاتتعيني زي مامتك!

ورغم توقعه لحدوث المصادمات لاحقاً مع "آسيا" على أبسط الأمور لكونها تناقضه في كل شيء، لكنه كان على استعداد كبير لخوض ذلك بأريحية والتمتع معها بنقاشاتها الهادئة والمحترمة، بل وربما ستحوي في بعض الأحيان لمحات بربرية تذكرها بقوته معها وتحذره في نفس الآن من شرستها العنيدة التي يمكن أن تودي به للهلاك !

(تمت)

الأعمال السابقة للكاتبة منال سالم :

الأعمال الالكترونية:

- دعني أحطم غرورك
- رهان ربحه الأسد
- الفريسة والصيد - الجزء الأول
- خطأ لا يمكن إصلاحه (رفقاً بالقوارير)
- فريسة غلبت الصيد - الجزء الثاني
- فراشة أعلى الفرقاطة - الجزء الأول
- دميمة لعنها الحب (نوفيلاً قصيرة)
- كتاب الحب (وفيلاً قصيرة)
- سيدرا (نوفيلاً)
- وجه لا يصدأ أبداً (نوفيلاً قصيرة)
- اليوميات الرمضانية (نعمل إيه في أماني، حتى مطلع الفجر، في بيتنا بطة، خير يعودك شر يرجعك)
- أربعة شكلوا حياتها (رواية شرقية)
- شهد الأفاعي (رواية شرقية)
- كبرياء رجل شرقي (نوفيلاً قصيرة)
- راسين في الحلال
- ذئاب لا تعرف الحب (الجزء الأول)
- ذئاب لا تغفر (الجزء الثاني)

- وانحنت لأجلها الذئب (الجزء الثالث)
- فتاة الكومبو (نوفيلاً قصيرة)
- ميري يتحدى ملكي (يوميات رمضانة مشتركة مع ياسمين عادل)
- وبقي منها حطام أنثى (عمل روائي مشترك مع ياسمين عادل)
- دواعي أمنية .. مشددة
- الدكان
- ذو الوشم (قصة قصيرة)
- أطيف عابثة (قصة قصيرة)
- قبضة من أثرها (قصة قصيرة)
- المكتوب الأخير (قصة قصيرة)
- وسقطت ورقة التوت (قصة قصيرة)
- وليس لي غيرها حبيبة (قيد الكتابة)
- ديلارا (قصة قصيرة)
- هي والربان (الجزء الثاني من فراشة أعلى الفرقاطة)

الروايات الورقية:

- كلارا (عمل مشترك مع حنين الحسيني) عن دار إبداع
- ذئب لا تعرف الحب (الجزء الأول) عن دار إبداع
- ذئب لا تغفر (الجزء الثاني) عن دار إبداع

- وانحنت لأجلها الذئب (الجزء الثالث) عن دارر إبداع
- للحب شعائر خاصة (معرض القاهرة الدولي للكتاب ٢٠١٩) عن دار إبداع